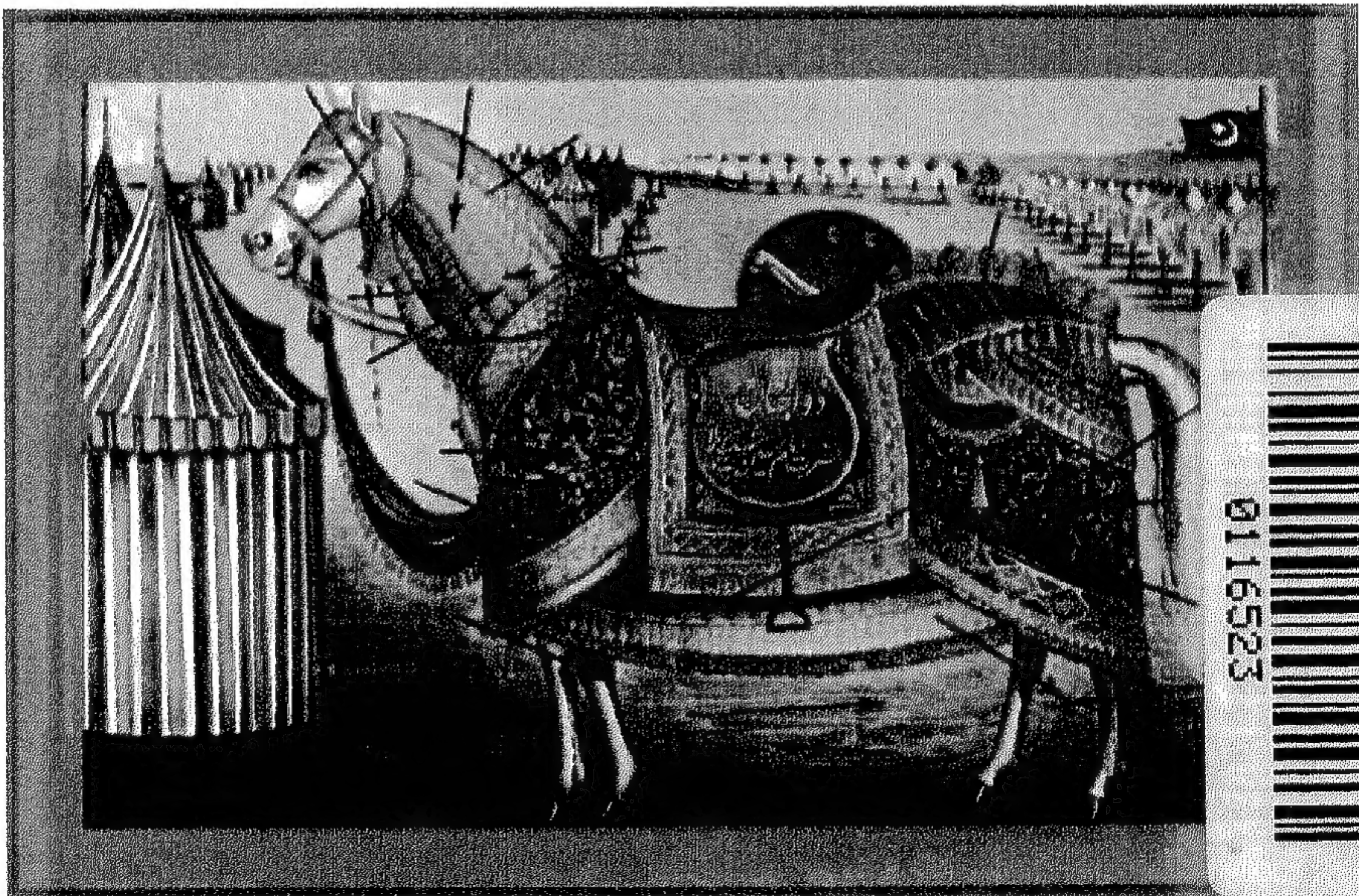


الشيخ عبد الله العلايلي

# تاريخ الحسين

نقد و تحليل



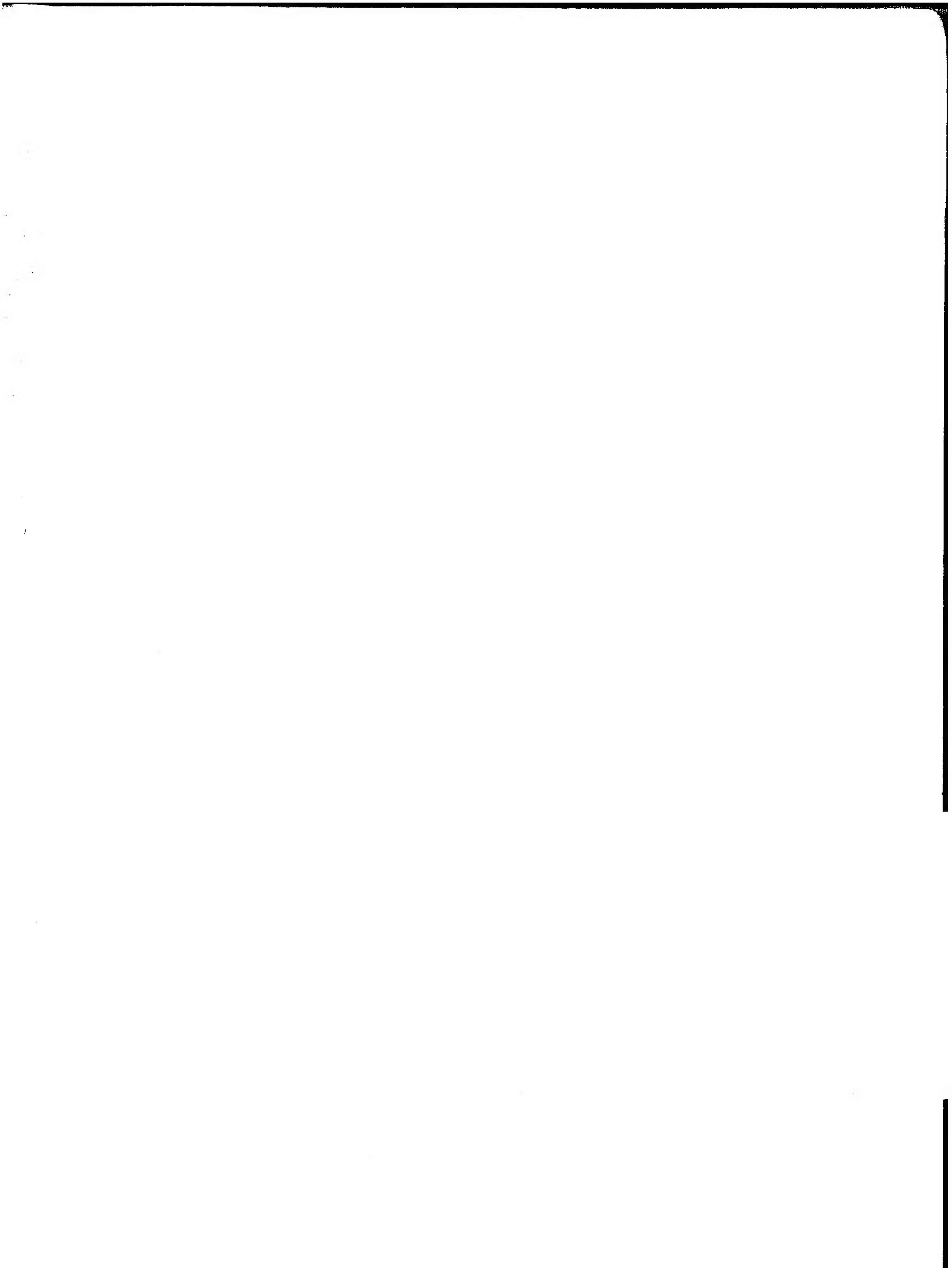
Bibliotheca Alexandrina

0116523



دار الجدي







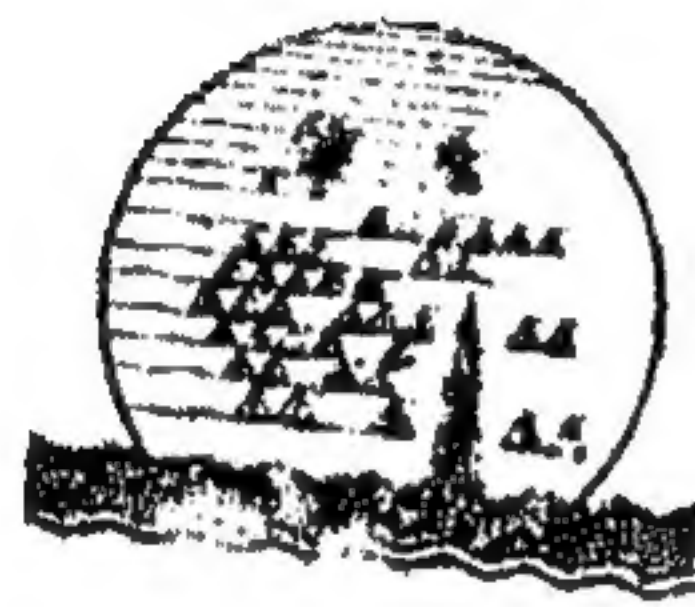
الشيخ عبدالله العلايلي

18529

# تاريخ الحسين

## نقد و تحليل

23764  
PJE  
C



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)  
*Bibliothèque Alexandrine*

الوقت المستغرق في القراءة
23764
ع.ك.ب.
٧١٢



© دار الجديد، ١٩٩٤.

تنفيذ وتوزيع شركة دار الجديد ش.م.م □ ص.ب: ٥٢٢٢/١١ بيروت - لبنان □ هاتف: ٢٤٣٧٥٢ □ نضد النصوص،  
سناء وحنان سلامي □ ضبطها على أصولها: محمود عساف □ انشاها كتاباً: علي حمدان □ ألف الخلاف: عمر  
حرقوص □ خط خطوطه: علي عاصي.

هذه الطبعة، المُنقّحة، هي الثانية من كتاب: تاريخ الحسين - نقد وتحليل، سبقتها طبعة أولى عُيّنت بإصدارها، سنة  
١٩٤١، مكتبة العرفان - بيروت.



## لفتة ذكري

بَعْدَ نِصْفِ قَرْنٍ وَنِيفٍ، مِنْذُ سَنَةِ ١٩٤١،  
أَعَاوِدُ تَقْدِيمَ هَذَا الْكِتَابِ فِي حُلَّةِ طَبْعَةٍ  
أُنِيقَةٍ قَشِيبَةٍ عَلَى مَا أَرَادَتْهَا دَارُ الْجَدِيدِ...  
كَمَا لَوْ كَانَ الْعَهْدُ بِهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، لَمْ أُغَيَّرْ  
فِيهِ وَمِنْهُ إِلَّا فِي الْقَدْرِ الْيَسِيرِ.

وَذَلِكَ لِأَنَّ الشَّخْصَ الَّذِي أَعَالَجَ هُوَ، فِي  
التَّارِيخِ كُلِّهِ، قُطْبُ قَضِيَّةِ الْحَقِّ... وَالْحَقِّ  
قَدْ يَتَكَيَّفُ شَاكِلَةً وَبَادِيَةً، وَلَكِنْ لَا  
يَخْتَلِفُ جَوْهَرًا وَمَاهِيَّةً.

فَأَنَا حِينَ رَصَدْتُ حَرَكَتَهُ لِيَوْمِهَا،  
كُنْتُ كَأَنِّي أَرُصُّهَا لِكُلِّ يَوْمٍ...



وَمِنْ مِخْرَابِ ذِكْرِ الْحُسَيْنِ (ع)، أَنَا  
أَقْدَمُ لِلنَّاسِ بَعْضَ ضِيَاءٍ، مُتَجَاوِزاً فِيهِ الْأَمَدَ  
إِلَى السَّرْمَدِ حَيْثُ يَغْتَنِقُ عِنْدَهُ الْأَزَلُ عَلَى  
الْأَبَدِ... فِي دَفْقِ شُعَاعٍ يَظَلُّ هُوَ إِيَّاهُ مَا  
اتَّصَلَتِ الْكَيُنُونَةُ بِالْحَيُنُونَةِ.

العلالي

١٠ محرم ١٤١٥

١٩ حزيران ١٩٩٤



## الفاتحة

---

الناس في الحياة أشباح مُبْهَمَةٌ تَخْتَلِطُ ثُمَّ تَتَكَسَّرُ فِي ظِلَامِ الْأَبَدِيَّةِ بِغَيْرِ ضَجِيجٍ، وَلَكِنَّ الْكَائِنَ الْعَظِيمَ وَخَدَهُ هُوَ الَّذِي يُقَدِّمُ التَّارِيخَ الْعَظِيمَ...

والتاريخُ قِطْعَةٌ مِنَ الزَّمَنِ لَيْسَ لَهَا حُدُودٌ وَرَاءَ الْكَائِنِ الَّذِي يُفْرَغُ عَلَيْهَا صُنُوفَ التَّهَاوِيلِ...

وَشَتَّانِ مَا بَيْنَ الْكَائِنِ الَّذِي يَجِيءُ شَيْئاً مِنْ مَعْنَى الْجِيلِ، وَالْآخِرِ الَّذِي يَجِيءُ الْجِيلُ شَيْئاً مِنْ مَعْنَاهُ...

وَأَيُّ تَارِيخٍ هُوَ أَجْدَرُ مِنْ تَارِيخِكَ، أبا عَبْدِ اللَّهِ، بَانَ يَحْمِلُ شَارَةَ الْعِظَمِ وَالْخُلُودِ...

•

نَوَاةٌ انْفَضَلَتْ مِنْ صَمِيمِ الْمُعْجِزَةِ، لِتَجِيءَ مُعْجِزَةً أُخْرَى فِي صَمِيمِهَا... وَلَيْسَتْ الشَّجَرَةُ الزَّاهِيَّةُ، بِمَا فِيهَا مِنْ مَجَالِي الْفَنِّ، إِلَّا نَوَاةٌ خَرَجَتْ بِقُوَّتِهَا، أَوْ قُوَّةِ اسْتَكْنَتْ فِي سِرِّ النَّوَاةِ... وَالنُّبُوَّةُ مُعْجِزَةٌ تُعَدُّ الْإِنْسَانِيَّةَ لِشَيْءٍ جَدِيدٍ، وَالْإِنْسَانُ الْأَشْمَى هُوَ الْمَعْجِزَةُ فِي الشَّيْءِ الْجَدِيدِ نَفْسِهِ...



فالنبي (ص) أَعَدَّ البَشَرَ للإنسانية المَهْدَبية فتمَّتْ بذلك مُعْجَزَتُهُ، وأَنْتِ، أبا  
عَبْدَ اللَّهِ، أَعْدَدْتَ نَفْسَكَ لِتَحِلَّ في مَكَانِ الإِعْجَازِ مِنَ الإنسانية الجديدة فتمَّتْ  
بذلك مُعْجَزَتُكَ...

•  
آلهة الأساطير تَحْتَاجُ إلى نَبِيٍّ يَمْحُوها، حَتَّى يَرُدَّها إلى خَيَالِ طَائِشٍ في  
خُدُودِ الخُرَافَةِ...

والإنسان المُسْتَأَلُّ يَحْتَاجُ إلى مُضْلِحٍ يَمْحُوهُ، حَتَّى يَرُدَّهُ إلى طَبِيعَتِهِ في  
خُدُودِ الحَقِيقَةِ...

فالجَدُّ النَّبِيُّ مَحَا آلهة الأساطير، والسَّبْطُ المُضْلِحُ مَحَا الآلهة مِنَ النَّاسِ...  
وكذلك حَالِ الحُسَيْنِ (ع) بِكفاحِهِ دُونَ أَنْ يَسْتَعْبِدَ الإنسان الإنسان<sup>(١)</sup>...

•  
الحياة حَرَكَةٌ دائِمةٌ، والمَوْتُ سَكُونٌ دائِمٌ، وَلَكِنَّهُ بِالنُّسْبَةِ إلى العَظِيمِ  
يُغْطِي مَعْنَى آخَرَ. فَإِنَّ مَوْتَ العَظِيمِ لَيْسَ سَكُوناً هَامِداً، بَلْ هُوَ خُرُوجُ الحَرَكَةِ  
عَنْ مَرْكَزِهَا لِتَنْتَشِرَ في أَحْيَاءٍ كَثِيرِينَ<sup>(٢)</sup>...

فَفِي رُوحِ كُلِّ مُضْلِحٍ بَدَوَاتٌ مِنْ رُوحِكَ، وَفِي ضَمِيرِ كُلِّ مُجَاهِدٍ قَبَسٌ مِنْ  
ضِيَائِكَ...

---

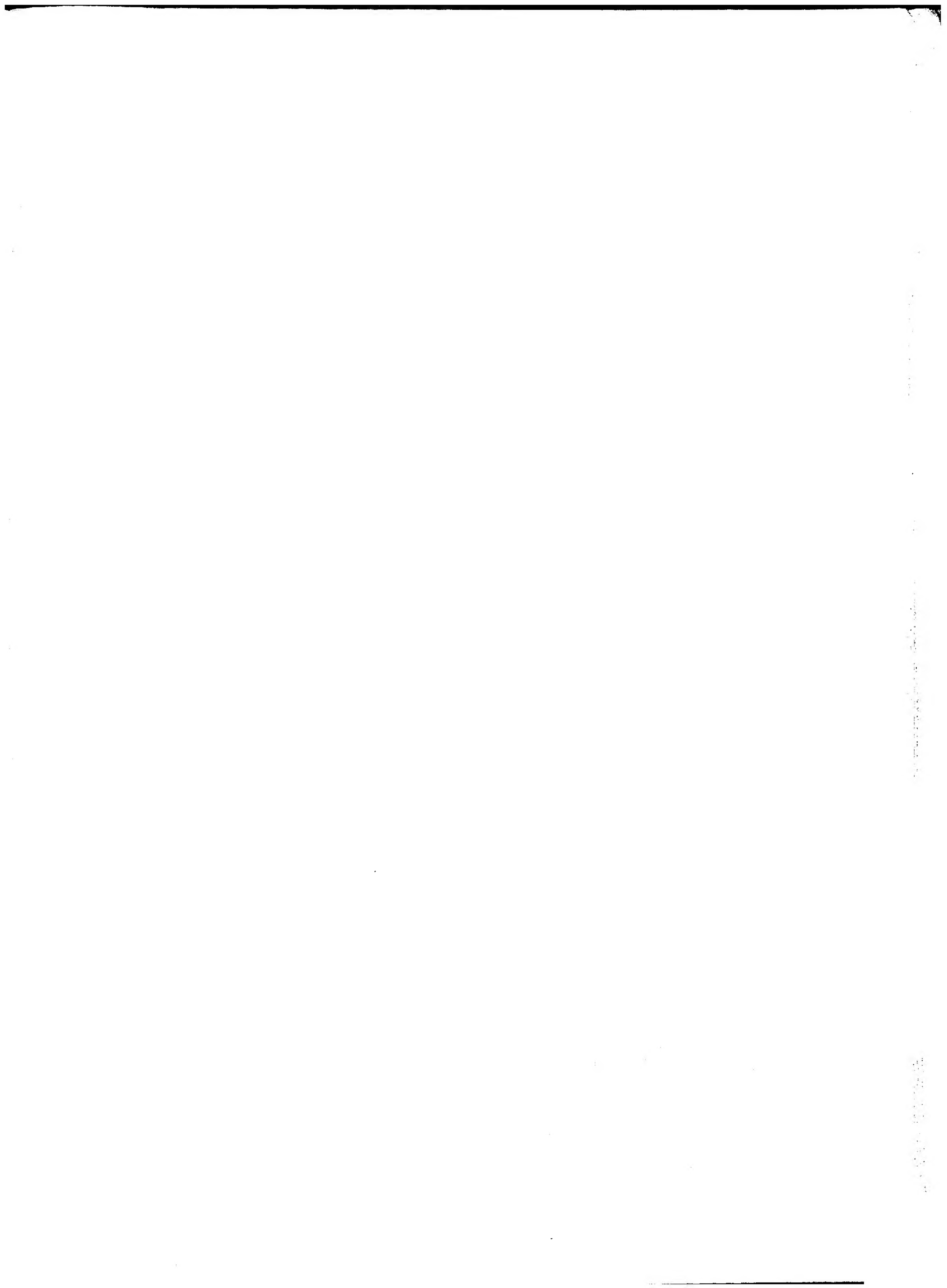
(١) إِنَّ حَرَكَةَ الحُسَيْنِ غُبُورٌ عَنْ وَلايَةِ مُسْتَقْطَبٍ، أَي مَرْكَزٍ اسْتَقْطَابٍ لِتَكُونُ رَأْيَ عَامٍّ جَدِيدٍ.

(٢) الحياة حَرَكَةٌ حَوْلَ مَرْكَزٍ هُوَ الشَّخْصُ الحَيُّ، فَإِذَا مَاتَ خَرَجَتْ حَيَاتُهُ عَنْ مَرْكَزِهِ الشَّخْصِيِّ لِتَشِيعَ فِي الْآخَرِينَ.



# مدخل تاريخي لعصر الراشدين ومخاض الثورة







أُظُنِّي صادقاً أو غير بعيدٍ مِنَ الصُّدْقِ، حينَما أقولُ وأُطْلِقُ القَوْلَ، بأنَّ جُمُهرَ المؤرِّخينَ المُحدثينَ في العَرَبِيَّةِ لَمْ تُوفَّقْ إلى إقامةِ التاريخِ العَرَبِيِّ على سُنَّةٍ مَنْطِيقِيَّةٍ وقَاعِدَةٍ نَقْدِيَّةٍ، تَحْتَفِلُ بِتَبْيَانِ الدَّوافِعِ والعَوامِلِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُهَيِّئَ ظُرُوفَ التاريخِ المُخْتَلِفَةِ، وتُحدِّدَ لَهُ الاتِّجاهاتِ، وتُفَرِّضَ عَلَيْهِ الحَرَكَةَ حينَ يَجِبُ أَنْ يَتَحَرَّكَ، والشُّكُونِ حينَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْكُنَ. هذهِ الدَّوافِعُ الَّتِي نَصِلُ بِهَا إلى تَمَامِ الغَرَضِ العِلْمِيِّ إذا ما أُعْطِينَاها كَلِمَةً «الْحَيَوِيَّةُ التَّارِيخِيَّةُ».

وهذهِ الحَيَوِيَّةُ كما ندعوها، أو فِلَسَفَةُ التاريخِ كما يدعوها الآخرونَ، ضَرُورِيَّةٌ<sup>(١)</sup> لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُشَخِّصَ عَصراً أو جِلاً، وَيُعَبِّرَ عَمَّا مَرَّ بِهِ وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ. وإنَّما كانت حَرِيَّةً بِالتَّمثِيلِ

---

(١) أُعْلِنَ هذهِ الضَّرورةُ اللُّوردَ أَكْتِنَ في محاضَرَتِهِ الَّتِي أَلْفَاها سنة ١٨٩٥ حينَ قال: «إِنَّ اخْتِصاصَنَا يَتَنَاولُ ما هو أَبْعَدُ مَدَى من شُؤونِ السِّيَاسَةِ، إِنَّ مِنْ واجِبِنَا أَنْ نُحِيطَ بِحَرَكَاتِ الأفكارِ الَّتِي هي عِلَّةُ الحَوَادِثِ العامَّةِ لا نَتِيجَتُها، وأنْ نَجْعَلَهَا نُصَبَ أَغْيُنِنَا دائِماً. وكذلك أَعْلَنَ دولنجرُ الأَلمانِيِّ حينَ أَكَّدَ ما لِلَّذِينَ مِنْ قُوَّةٍ مُؤَثِّرَةٍ في التاريخِ، وأَعْلَنَتْ مَدْرَسَةُ كارل ماركسِ الاشتِراكيَّةُ التَّصَوُّرَ الاقتصاديَّ أو المادِّيَّ للتاريخِ، وأَعْلَنَتْ مَدْرَسَةُ كارل لمبرختِ الأَلمانِيِّ سُلْطَانَ العَقْلِ الباطِنِ وما لِلطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ والجَماعاتِ المُنظَّمَةِ مِنَ الدَّوافِعِ الغَرِيزِيَّةِ. وجاءَ فِلَسَفَةُ المؤرِّخينَ في العَصْرِ الحاضِرِ وأَعْلَنُوا بأنَّ عاملاً واحداً لا يَسْتَقِلُّ بِتَفْسيرِ ما لِلْمَجْتَمَعِ الإِنسانِيِّ مِنْ ظواهرٍ مُتَعَدِّدةٍ، وأنَّ لِكُلِّ مِنَ الحَلَقِ والبيئَةِ نَصيباً مِنْ ذَلِكَ التَّفْسيرِ خَاصَّاً بِهِ، وأنَّ كُلاًّ مِنَ الجَبَرِ والاختِيارِ لَيْسَ بِمُعْطِينا، بِمُفَرِّدِهِ، الحَقُّ مِنْ حَيْثُ يَبانُ مَضَدُّرُ أَعْمالِ الإِنسانِ، وأنَّ الأفكارَ والدَّوافِعَ الغَرِيزِيَّةَ والروحَ والجِسْمَ، كُلُّ أُولَئِكَ حَقائِقُ نَهايِيَّةٌ لا يَتَأَتَّى التَّعبِيرُ عَنْ بَعْضِها بِنَفْسِ الأَلْفاظِ الَّتِي يُعَبَّرُ بِها عَنْ البَعْضِ الأَخرِ. راجع ص ١٤٠ و ١٤١ مِنْ كِتاب: عِلْمُ التاريخِ، للأُسْتاذ هِرْنشو، تَرْجَمَةُ الدُّكْتُور عبد الحميد العَبَّادِي.



من حيث إنها تقودنا إلى أن نُعايش ذلك الجيل من الناس، ونُمْتَزج بِهِمْ ونُنْقِذَ إلى خَلجاتِ  
ضمايرِهِمْ كما لو كانوا يعيشونَ بَيْننا اليَوْمَ.

وَمِنْ ثَمَّ تَنكشِفُ لنا جَوَانِبُ من ذلكَ المُحيطِ، كانتَ خَفِيَّةً وأدقَّ من أن يُخَصِّصَها  
أولئك الإخبارِيُّونَ البُسْطَاءُ، الَّذِينَ دَرَجْنَا على أَخْذِ التاريخِ عنهم حتَّى اعْتَمَدْنَاهُمْ اعْتِماداً  
تَعَبُديّاً. أنا لا أقولُ بأنَّ على المؤرِّخ أن يَطْرَحَ ما نَقَلَ إلينا هؤلاء، ويُوْزِخي لِنَفْسِهِ العِنانَ في أن  
يَرْجِلَ التاريخَ بعدَ ذلكَ آرْتِجالاً. وإنَّما أريدُ أن أُقَرِّرَ شَيْئاً آخَرَ له أَهْمِيَّةٌ<sup>(٢)</sup> وقيمةٌ في مَتْنِ  
التاريخِ، وله، إلى جانبِ هذا، خَطَرٌ في النَّاحِيَةِ الدَّرَاسِيَّةِ من حيثِ الاطمِئنانِ إلى ما يَفْرَضُ  
ويَقْضَى به هذا الأسلوبُ، حينَ نَكُونُ قَدِ اجْتَهَدْنَا بِقَدْرِ ما في تَصْحيحِ الوَسائِلِ والوَسائِلِ<sup>(٣)</sup>.  
وهذا، الَّذي أَتَوَّه به وأَرْفَعُ من شأنِهِ، هو الارتدادُ بنا إلى السَّنَدِ مرَّةً أُخْرَى، كما كانَ يَفْعَلُ  
المُحَدِّثُونَ<sup>(٤)</sup> القُدَماءُ في نَقْلِ السَّنَةِ، وإن كانَ أَدْرَكَهم بعضُ التَّلْفِيقي في أواخرِ عَهْدِهِمْ،  
حتَّى لِيَخَيَّلُ لِلنَّاقِدِ بأنَّه لم تَكُنْ<sup>(٥)</sup> لَهُمْ مَقاييسُ ثابتةٌ للصَّحَّةِ والضعفِ. وبذلكَ يَكُونُ جَدِيراً

---

(٢) و(٣) يَذْهَبُ بعضُ اللُّغَوِيِّينَ إلى تَخْطِيقَةِ هاتينِ الكَلِمَتَيْنِ بالنَّظَرِ إلى العُرفِ اللُّغَوِيِّ، ونَحْنُ لا نَرى ما يَمَعاً من اسْتِعْمالِهما ذَهاباً مع  
رَأْيِ جَمْهَرَةٍ من اللُّغَوِيِّينَ بأنَّ الحَطَّاءَ المشهورَ إذا كانَ خاضِعاً لِلْقِياسِ اللُّغَوِيِّ خَيْرٌ من الصُّوابِ المشهورِ، فلا مانِعَ من اسْتِعْمالِهِ.  
(٤) إِنَّمَا مِلْتُ بِالْكَلَامِ نَحْوِ السَّنَةِ لِأَنَّ قَواعِدَ المُحَدِّثِينَ اعْتَمَدَها المؤرِّخُونَ في نَقْلِ الأخبارِ، وإنَّ لم يَتَلَفَعُوا مَبْلَغَ المُحَدِّثِينَ في دِقَّةِ  
تَطْبِيقِها.

(٥) راجعُ كُتُبِ المَوْضوعاتِ، كَمُؤَلِّفاتِ آيِنِ حُجَرِ، وآيِنِ الدِّيْبِيعِ والتَّيْوِطِيِّ، والقارِيِّ، والشَّعْرانِيِّ، والعَجَلُونِيِّ، وهؤلاءِ ذَهَبُوا  
مَذْهَبَ اللُّغَوِيِّينَ في التَّحْقِيلِ والمُدَاوَرَةِ حتَّى يُصَحِّحَ هؤلاءِ العَلَطَ وأولئكَ الحَدِيثَ، أو على الأقلَّ يَسْتَلْوَنَهُ من دائِرَةِ الرُّضْعِ. وهذه الحُكْمُ  
عَرِثٌ مُتَأَخَّرِي المُحَدِّثِينَ كما عَرِثَ مُتَأَخَّرِي اللُّغَوِيِّينَ، بَيْنَما إذا ارْتَقَيْنَا بالنَّظَرِ قَلِيلاً نَجِدُ كِتَابَ: المَوْضوعاتِ لآيِنِ الجوزِيِّ الَّذي لا  
تُخَفِّضُهُ حُرْمَةُ كِتَابٍ أو اشتهارُ حَدِيثٍ مِنْ تَخْرِيجِهِ على أَصُولِهِ الدَّقِيقَةِ والطَّغْنِ عَلَيْهِ، وَنَجِدُ كِتَابَ: المَسْتَدْرَكِ لِلْحَاكِمِ الَّذي يَتَسَاهَلُ  
بِإِفْرَاطٍ، وَنَحْنُ لا نَنْظُرُ به كما ظَنَّ الحَاظِظُ الذَّهَبِيُّ من أَنَّ العَقْلَةَ أَذْرَكَتْهُ، وَإِنَّمَا نَرى أَنَّهُ، وآيِنُ الجوزِيُّ، رَعِيما مَدْرَسَتَيْنِ في السَّنَةِ لهما  
تَعَالِيَهُما وَأَصُولُهُما في الصَّحَّةِ والضعفِ، وَكانَتْ مِيزَةُ مَدْرَسَةِ آيِنِ الجوزِيِّ التَّشَدُّدُ، وَمِيزَةُ مَدْرَسَةِ الْحَاكِمِ التَّسَاهُلُ؛ وَلَكِنْ المَدْرَسَةُ  
الثَّانِيَةُ ائْتَصَرَتْ في النُّهايةِ وَعَمَّتْ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ الاِخْتِلَاطُ الَّذي نَشْهَدُ أَثَرَهُ في كُتُبِ المَوْضوعاتِ. وَعَلَيْنَا أَنْ نَتَلَمَّذَ لآيِنِ الجوزِيِّ  
وَنُخَيِّي مَعَالِمَ مَدْرَسَتِهِ الَّتِي عَفَتْ رُسُومُها، وَكأَنَّمَا كَبَّرَ على مُتَأَخَّرِي المُحَدِّثِينَ أَنْ يُسْقِطُوا ثَرَوَةً كَبِيرَةً من السَّنَةِ بِاعْتِمَادِ أَصُولِ آيِنِ



بنا أن نُغزِبلَ السُّنَّةَ وَفُقَ موازيننا الجديدة، وأنْ نَعُودَ إلى دَرْسِ شَخْصِيَّاتِ الرُّوَاةِ مَرَّةً أُخْرَى، على مُقْتَضَى مَعَارِفِنا النَّقْدِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، البَعِيدَةِ عَنِ الْمُبَالَغَةِ وَالتَّعْمِيمِ اللَّذَيْنِ نَقَعُ عَلَيْهِمَا فِي إِيرَاسَاتِ الْأَقْدَمِينَ. وَأَنَا لَا أَرْعُمُ هِنَا بَأَنَّ الْأَوَّلِينَ لَمْ يَكُونُوا مُوَفِّقِينَ، وَأَيْضاً لَسْتُ أَقْصِدُ تَجْرِيدَهُمَ عَنِ نَزْعَةِ التَّحَرِّي، وَإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ بَأَنَّهُمْ وَفَّقُوا إِلَى حَدِّ مَا، وَحَقَّقُوا شَيْئاً مِّنَ التَّحْقِيقِ، وَهَذِهِ سُنَّةُ التَّسْلُسِلِ الْعَقْلِيِّ الدَّائِمَةِ، فَهِيَ تُعْطِي الْمُتَأَخَّرَ لِتَأْخُذَ مِنْهُ فَلَا تَنْفَصِمُ الْحَلَقَاتُ.

لَمْ يَكُنْ فِي مُسْتَطَاعِ الْأَوَائِلِ، أَوْ آيَّةِ جَمَاعَةٍ أُخْرَى، أَنْ يَقُولُوا كُلُّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ فِي وَشِعْمِهِمْ أَنْ يَنْتَهَوْا بِدِرَاسَةٍ فَتَنْتَهِيَ أَيْضاً فِي آعْتِبَارِ النَّاسِ. فَعَلَيْنَا أَنْ نَصِلَ مَا آنَقَطَعَ مِنْ جُهِودِ الْقَدَمَاءِ بِمُؤْتَمَرَاتِ<sup>(٦)</sup> لِلْسُّنَّةِ وَالتَّارِيخِ تَأْخُذُ عَلَى عَاتِقِهَا الْقِيَامَ بِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْأَهْدَافِ، حَتَّى تَضَعَ تَحْتَ الْأَيْدِي خُلَاصَاتٍ مُّوثِقَةً بِهَا ثِقَةٌ تَتَنَاسَبُ مَعَ مَا نَجْتَهِدُ أَنْ نُفْضِيَ إِلَيْهِ مِنْ دِرَاسَاتٍ. وَيَجِبُ بِذَلِكَ هَذَا الْجُهِودُ لَشَيْءٍ آخَرَ وَهُوَ تَخْلِيصُ مَوْسُوعَاتِ الْقَدَمَاءِ مِنَ التَّشْوِيشِ الْقَاطِعِ الْوَاقِعِ، فَهُمْ لَا يَكَادُونَ يَتَفَقَّهُونَ عَلَى قَدْرِ مَا فِي الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ.

وَبِمَا أَنَّهُ قَدْ آجْتَمَعَ لَدَيْنَا مِنَ الْمَوَازِينِ وَالْمَعَايِيرِ مَا هُوَ أَدَقُّ<sup>(٧)</sup> مِنْ مَوَازِينِ وَمَعَايِيرِ الْقَدَمَاءِ، سَنَكُونُ أَكْثَرَ تَحْقِيقاً وَأَوْثَقَ نَتَائِجَ. فَنَحْنُ لَا نَدْرُسُ الرُّوَاةَ مِنْ وَجْهِ مَا عُرِفَ عَنْهُمْ

الْجُوزِيِّ، لَوْجَرِهَا حَيْثُ وُلِدَتْ.

(٦) إِنَّ الْأَزْهَرَ الْيَوْمَ، أَيَّ يَوْمٍ نَشَرِ الْكِتَابَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَذَلِكَ سَنَةَ ١٩٤١، هُوَ أَكْبَرُ مَوْسُوسَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ، وَمِيزَانِيَّةٌ لَيْسَتْ بِالشَّيْءِ الْبَسِيرِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ بِبَذَلِ هَذِهِ الْجُهِودِ فِي الْفِقْهِ وَالسُّنَّةِ وَالتَّفْسِيرِ، ثُمَّ فِي مُخْتَلِفِ الدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَامَّةِ. وَبِذَلِكَ يُغْلِظُ الْأَزْهَرُ عَنْ وُجُودِهِ وَيُحَقِّقُ الْغَايَةَ مِنْهُ، بَلَّةَ مَا يُهَيِّئُ مِنْ فُرْصَةٍ لِلِاسْتِيفَادَةِ مِنْ مَعْلُومَاتِ رِجَالِ الدِّينِ فِي شَتَّى الْأَطْوَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ. إِنَّ الْأَزْهَرَ لَيْسَ بِخَلِيقٍ أَنْ يَغْتَمِدَ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَاتِ عَلَى الْغُرَبَاءِ عَنْهُ، إِنَّهُ جَدِيدٌ أَنْ يُغْطِئَهَا. إِنَّ عَلَى الْأَزْهَرِ أَنْ يَغْقِدَ الْمُؤْتَمَرَاتِ فِي حُدُودِ آخْتِصَاصِهِ، وَيُخَفِّلَ لِلْمُنَظَّرَاتِ فِي مَبَازِيبِ مَعَارِفِهِ لِيَكُونَ مَثَابَةً، وَمِنْطَلَقَ تَيَّارَاتِ فِكْرِيَّةٍ مُّوَجَّهَةٍ وَمُطَوَّرَةٍ فِي كُلِّ حَقْوِلِهِ.

(٧) أَخْرَجَ الدَّكْتُورُ أَسَدُ رَسْتَمِ، فِي هَذَا الْعَهْدِ، كِتَاباً رَمَى فِيهِ إِلَى وَضْعِ قَوَاعِدَ لِدَرْسِ التَّارِيخِ أَسْمَاءَ مُصْطَلَحِ التَّارِيخِ، وَهُوَ كِتَابٌ جَيِّدٌ تَغْلَقُ فِيهِ بِقَوَاعِدِ الْمُحَدَّثِينَ الْقَدَمَاءِ وَاعْتِمَادَهَا اعْتِمَاداً مُفْرِطاً، وَلَسْنَا نَقْبِذُ هَذِهِ الْمَلَاخِظَةَ مِنْ حَيْثُ إِنَّا لَا نُؤْمِنُ بِهَا، بَلْ مِنْ حَيْثُ إِنَّمَا تَفْتَقِرُ إِلَى اسْتِكْمَالٍ يُوْفِي بِهَا إِلَى اقْتِعَادِ الدَّرَجَاتِ الْعُلْيَا بِمَا فِيهَا مِنْ تَحَرٍّ وَدَقَّةٍ لَا تَعْرِفُ نَظِيراً.



وَأَشْهَرُ فَقَطْ، بَلْ نَعُودُ إِلَى دَرْسِ بَيِّنَتِهِمْ وَمُجْتَمَعِهِمْ وَمَنْزِلَتِهِمْ فِيهِ، وَمِقْدَارِ اتِّصَالِ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ بِمَا يَزُورُونَ مِنَ الْأَخْبَارِ.

وَشَيْءٌ آخَرُ أَيْضاً وَهُوَ تَحْقِيقُ النَّصِّ، فَإِنَّهُ ثَبَتَ لِي أَمْرُ الْمَخِ إِلَيْهِ قُدَمَاءُ الْمُحَدِّثِينَ إِمَّا حَاضِرًا، وَهُوَ مَا أَسَمَيْتُهُ بِالتَّذْلِيلِ الْخَفِيِّ وَأَنْبَهَيْتُهُ إِلَيْهِ مَا جَاءَ فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ مُسْنَدِ عُمَرَ، لِلْحَافِظِ أَبِي شَيْبَةَ، فَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ زَيْدٍ قَالَ: «سَمِعْتُ حَدِيثَ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ بَيْنَنَا مُرَاجَعَةً، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْهَالِ: مُرَاجَعَةٌ تَذَاكَرَ بَيْنَهُمْ، يَذْكُرُ هَذَا يَضْفُ الْحَدِيثَ وَهَذَا يَضْفُهُ. يَسْمَعُونَ مِنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ فَيَحْفَظُ بَعْضُهُمْ يَضْفُ وَبَعْضُهُمْ ثُلَاثًا فَيَتَذَاكَرُونَهَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَكْتُبُونَهَا»<sup>(٨)</sup>.

وهذه العبارة تَضَعُ بَيْنَ أَيْدِينَا شَيْئاً يَبْعَثُنَا عَلَى الشَّكِّ فِي النَّصِّ، وَيَحْمِلُنَا عَلَى زِيَادَةِ التَّحْقِيقِ مِنْ أَنَّ مَا يُغْزَى لِقَائِلٍ هُوَ مَا قَالَ بَعِينُهُ.

المدخل إلى التاريخ في رأيي<sup>(٩)</sup>: حِينَما تَجْتَمِعُ لَنَا النُّصُوصُ الْوَثِيقَةُ تَكُونُ قَدْ اجْتَمَعَتْ لَدَيْنَا مَوَادُّ الْبِنَاءِ وَأَيْضاً الرُّسُومُ التَّخْطِيطِيَّةُ لِلتَّصْمِيمِ، وَمِنْ بَعْدِ هَذَا نَطْمِئِنُّ إِلَى أَنَّ نُقَدِّمَ بِنَاءً تَارِيخِيّاً صَحِيحاً عَنِ الْجِيلِ الَّذِي نَجْمَعُ أَسْبَابَنَا عَلَى دَرْسِهِ. وَأَنَا أُرِيدُ فِي التَّارِيخِ شَيْئاً كَالَّذِي وَرَدَ عَلَى لِسَانِ الْمَرْحُومِ شوقي وَضُفّاً شِعْرياً:

أَفْضَى إِلَى خَتَمِ الزَّمَانِ فَفَضُّهُ وَحَبَا إِلَى التَّارِيخِ فِي مِخْرَابِهِ

(٨) هُوَ جُزْءٌ صَغِيرٌ مِنَ الْمُسْنَدِ الْمُعَلَّلِ يَوْجَدُ فِي مَكْتَبَةِ الدَّكْتُورِ الْفَاضِلِ سَامِي الْحَدَّادِ، الَّتِي تَجْمَعُ شَيْئاً كَثِيراً مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ الْقَادِرَةِ، وَيَقْلِبُ عَلَى ظَنِّي، أَنَّهُ الْجُزْءُ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ الْحَافِظُ الدَّقِيقِي فِي مِصْرَ، وَحَدَّثَنَا عَنْهُ فِي تَذَكُّرَةِ الْحَفَاطِ، وَقَدْ تَلَطَّفَ فَأَهْدَانِي نُسخَةً مَصَوَّرَةً عَنْهُ، جِزَاءً مَا بَدَّلْتُ فِي تَحْقِيقِهِ.

(٩) لَا يُؤْخَذُ عَلَيْنَا بِأَنَّا نُفَيْضُ بِنُوشَعَاتٍ تَارِيخِيَّةٍ تَتَّصِلُ بِمَنْ يَكْتُبُ فِي دَرْسِ التَّارِيخِ، لَا بِمَنْ يَكْتُبُ فِي مَوْضُوعٍ مِنَ التَّارِيخِ، لِأَنَّهَا تَوْشَعَاتٌ أَجْرِبَتْ عَلَيْهَا مَوْضُوعِي الْخَاصِّ، وَاعْتَمَدْتُهَا. وَلَا بُدَّ لِمَنْ يَتَّقَبُّ نَتَائِجِي أَنْ يَقِفَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَأْدِيَتْ بِوَاسِطَتِهَا وَتَهْدِيَتْ عَلَى ضَوْئِهَا، كَمَا صَنَعَ الْمُؤَرِّخُ الْإِنْجِلِيزِيُّ هِنري بِكَلٍ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ: تَارِيخُ الْحَضَارَةِ فِي إِنْجِلْتَرَا، فَقَدْ خَصَّصَهَا بِدَرْسِ التَّارِيخِ مِنَ الْوُجْهَةِ الَّتِي تَرَاهَا.



وطوى القرون القهقري حتى أتى فرعون بين طعامه وشرابه

أو شيئاً كالذي طالعنا به المأسوف عليه جان دبس النابغ اللبناني، حين صنع على ضوء بحوث المخططين والمنقبين الألمان في أطلال هياكل بعلبك، نموذجاً مشيداً لتلك الهياكل أيام كانت تفيض بالحياة والأحياء، وقد انتهت به محاولته إلى أن يبعثها كما لو كان دونها ستاراً فأزاحه.

هذا عمل في جانب من التاريخ نريد مثله في جوانبه الأخرى. وأنا لا أشك مع ذلك في أن الدرس الاستنتاجي قد يخضع أحياناً للخاطر الوثاب، ويكون قوياً يُعلّل الحادث أو المجرى الواقعي تغليلاً صحيحاً لا يتسق العرض إلا به، ولا يستقيم إلا عليه. وهذا شيء لا نمتنع عن الأخذ بمثله في التاريخ ما دُمنّا نُقدّمه على أنه آجتهاد فقط، وليس تاريخاً. ولا يُشتبه في أن بينهما فرقاً جوهرياً يبيح للناقد أن يفسر ويُعلّل ويُقارن ويُواخي ويُطابق بين حوادث التاريخ، على الشكل الذي يترأى له أنه حق صحيح. وإنما نلج بتقرير هذا الفرق قصد أن يتضح لأولئك الأنثوسيين<sup>(١٠)</sup> الذين لم يتصلوا بالثقافة إلا من وجه عام، ولم يُغنوا بتصنيفها وتنسيقها على طريق علمي، فهم لذلك يُجيزون الخلط بين العلوم والأدبيات خلطاً شنيعاً.

فالمؤرخ القدير يستطيع أن ينفذ إلى غيابات الماضي البعيد بجناح من النصوص، وحاسة الإلهام أو حاسة<sup>(١١)</sup> الاتجاه كما يدعونها أحياناً، وهذه الحاسة لا بُدَّ من توافرها عند المؤرخ لكي يستقيم له إزاحة النقاب عن وجه التاريخ كما لو نُقل إلينا الماضي السحيق، أو نقلنا إليه<sup>(١٢)</sup>.

(١٠) نسبة إلى الأنثوسية، وهي التبتة أول ما تكتشف عنها الأرض.

(١١) هي حاسة سادسة زعموها في الطير كالحمام وحيوانات أخرى.

(١٢) وللإيضاح يشروني أن أضرب مثلاً لهذا التبتين، ما سبق لتوماس هنري بكل أن صرته ليدقة التحقيق على هذا النحو، حين قرّر أنه



وَنَعْنِي بِحَاسَّةِ الْإِلْهَامِ الْقُدْرَةَ الْفَنِّيَّةَ الَّتِي يَدْخُلُ، فِي جُمْلَةِ عُنَاصِرِهَا، سُرْعَةُ الْإِنْتِقَالِ  
الذِّهْنِيِّ مَعَ دِقَّةِ الْمُلَاحَظَةِ. وَهَذِهِ الْقُدْرَةُ الْفَنِّيَّةُ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ مِنَ الرُّوَائِي قَاصًّا خَلَّاقًا أَوْ  
إِبْدَاعِيًّا، وَمِنَ الْإِنْخِبَارِيِّ مُؤَرِّخًا فَاطِرًا أَوْ آبِتْدَاعِيًّا.

**الحاضر أداة لتفسير الماضي:** وفي رأيي أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْمُؤَرِّخِ وَالرُّوَائِيِّ مِنْ بَعْضِ  
الْجَوَانِبِ الَّتِي تَدْخُلُ فِي الْبِنَاءِ الْخَاصِّ بِكُلِّ مِنْهُمَا، كَعَرَضِ نَفْسِيَّةِ الْجَمَاعَاتِ، وَالْمُؤَثِّرَاتِ  
الَّتِي تُحَرِّكُهَا، وَتَشْخِصِ الْمُسَيِّرَاتِ الرَّئِيسِيَّةِ بِالنَّظَرِ إِلَى الطَّبِيعَةِ وَالْوِرَاثَةِ وَالْبِيئَةِ. هَذِهِ الْأُمُورُ  
الَّتِي يُفْتَرَضُ أَشْتِرَاكُهَا عِلْمِيًّا، وَبِالاعْتِمَادِ عَلَى قَانُونِ<sup>(١٣)</sup> التَّطَوُّرِ الْعَامِّ فِي الْاجْتِمَاعِ وَالْمَثَلِ

لَوْ رَعِمَ مُؤَرِّخٌ بِأَنَّهُ بَلَاطٌ لُوكْرِيشَا بُورْجِيَا، كَانَ يَشْتَعِسُّ فِي الْخَرَائِدِ أَنْ يَكُنَّ ضَايِرَاتِ رُشَحِ الْأَزْدَافِ، لَطَرَحَ زَعْمُهُ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ، لِأَنَّ  
الْجِنْسَ الْجَمَالِيَّ آنَذَاكَ كَانَ يَمِيلُ إِلَى اللَّفَاءِ، وَلِذَا شَاعَ فِي بَابَةِ طَرَايزِ الْأَزْيَاءِ لُبْسُ مَا يُسَمَّى فِي الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ: الْعُظَامَةُ، وَفِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ  
Bustle، أَيْ الْكَفَلُ الْمُشْتَعَارُ.

(١٣) قَالَ الْأُسْتَاذُ هَرْنَشُو: «وَعَلَى الرُّغْمِ مِمَّا كَانَ بَيْنَ مُؤَرِّخِي الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ خِلَافٍ فِي تَصَوُّرِ التَّارِيخِ، فَإِنَّهُمْ، كَأَفْئَةٍ، وَجَدُوا  
فِي الْمَبْدَأِ الْعَظِيمِ، مَبْدَأَ النُّشُوءِ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ عَالَمِ الْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ، مَا وَحَّدَ أَعْمَالَهُمْ وَبَثَّ فِيهَا الْحَيَاةَ...» إِلَى أَنْ قَالَ «كَانَ مَبْدَأُ  
التَّطَوُّرِ عِنْدَ هَيْغلٍ يَفْتَاخُ التَّارِيخَ الْعَالَمِيَّ، إِذْ رَأَى عَمَلِيَّةَ التَّمَوُّدِ فِي الْجِنْسِ الْإِنْسَانِيِّ سِيَاسِيًّا إِنَّمَا هِيَ، بِأَسْرِهَا، تَحْقِيقُ تَدْرِيجِيٍّ لِمَعْنَى الْحُرِّيَّةِ.  
وَالْحَقُّ أَنَّ التَّصَوُّرَ النُّشُوءِيَّ لِلتَّارِيخِ أَصْبَحَ مِنْ خِصَائِصِ الْمَدْرَسَةِ الْإِبْتِدَاعِيَّةِ فِي مَجْمُوعِهَا، وَقَدْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يُدَلِّلُوا بِوَاسِطَتِهِ عَلَى أَنَّ مِنَ  
الْعَبَثِ أَنْ يُقَالَ مَعَ التَّعَقُّلِيِّينَ إِنَّ الْفَتْرَةَ بَيْنَ قُسْطَنْطِينٍ وَكُولْمَبٍ مَجْرَدُ هَوَاةٍ فَاصِلَةٍ بَيْنَ عَصْرِيٍّ آسْتِنَارِيٍّ يَزْجَعَانِ إِلَى أَصْلٍ وَاجِدٍ. وَإِنَّ  
الْوَاجِبَ أَنْ نَلْحَظَ وَرَاءَ مَظَاهِيرِ الْأَشْيَاءِ غَرَضًا وَاجِدًا ثَابِتًا يَحْمِلُ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالظُّهُورِ بِنَفْسِهِ يَطْبُءُ، فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ وَفِي كُلِّ عَصْرٍ آخَرَ...  
إِلَى أَنْ قَالَ: «وَلَمَّا كَانَ يُصَاحِبُ جَمِيعَ الْعَمَلِيَّاتِ الَّتِي يُحْكِمُ تَتَبُّعُ نُشُوءِهَا، قَانُونٌ ثَابِتٌ بِمَعْنَى أَطْرَادِ تَتَابُعِ الْعِلَالِ وَالْمَعْلُولَاتِ، فَقَدْ ظَهَرَ  
أَنَّ فِي رُشَحِ النَّاسِ، بِقَدْرِ كَافٍ مِنَ الْمَهَارَةِ، أَنْ يَصِلُوا إِلَى هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْقَوَانِينِ فِي كُلِّ مِيدَانٍ مِنْ مِيَادِينِ الْبَحْثِ، وَذَلِكَ مَا أَجْمَلَهُ  
جُونُ سْتِيوراتُ مِيلَ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ جَمِيعَ الظُّوَاهِرِ، عَلَى الْإِطْلَاقِ، تُحْكَمُهَا قَوَانِينُ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّخَلُّفِ وَلَا تُغْتَرِضُهَا إِرَادَةُ مَا، طَبِيعِيَّةٌ كَانَتْ أَوْ  
فُوقَ الطَّبِيعَةِ». وَعَلَى هَذَا الرَّأْيِ يَحْتَمِلُ مِيلَ غَرَضُهُ الْأَسَاسِيَّ فِي الْحَيَاةِ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْقَوَانِينِ الثَّابِتَةِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا نُشُوءُ الْإِنْسَانِ أَخْلَاقِيًّا  
وَاجْتِمَاعِيًّا، فَكَانَ غَرَضُهُ مِنْ كِتَابِ: الْمَنْطِقِ، بَيَانُ الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى لِبَحْثِ عُلُومِ الْإِنْسَانِ، كَمَا أَنَّ تَحْوِيلَهُ إِلَى الْاِقْتِسَادِ السِّيَاسِيِّ يَزْجَعُ إِلَى  
أَعْتِقَادِهِ بِأَنَّ فِي الْعِلْمِ بِأَحْوَالِ الْإِنْسَانِ، مِنْ حَيْثُ هُوَ مُنْتِجٌ لِلثَّرْوَةِ وَمُسْتَهْلِكٌ وَمُبَادِلٌ لَهَا، قَوَانِينٌ مِنَ التَّنَوُّعِ الْإِيجَابِيِّ الصَّحِيحِ لَا يُتَعَدَّرُ  
الْوُصُولُ إِلَيْهَا، بِمِثَالِ ذَلِكَ قَانُونُ تَنَاقُصِ الْغَلَّةِ وَقَانُونُ السَّكَّانِ لِمَالْتُوسَ، وَقَانُونُ الْأَجُورِ لِرِيكَاردو. وَكَانَ مِيلَ يَقْفُو أَثَرَ أُسْتَاذِهِ الْفَرَنْسِيَّ  
أَوْغِسْتِ كُنْتِ الَّذِي نَصَبَ نَفْسَهُ لِلْوُصُولِ إِلَى الْقَوَانِينِ الَّتِي تُفَسِّرُ غَرَابَةَ أَطْوَارِ الْإِنْسَانِ فِي حَالِ التَّفَرُّدِ وَالْاجْتِمَاعِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُؤَرِّخًا



الأخلاقي وما إليهما، يُمكننا أن نجعل جيلنا بما يَمُورُ فيه نُقْطَةً مَرَكِزِيَّةً، ثُمَّ نَشْرَحُ<sup>(١٤)</sup> كُلَّ جيلٍ تاريخيٍّ على ضَوْئِهِ غيرَ مُغْفِلِينَ حِسَابَ نِسْبَةِ البُعْدِ عَنْهُ أَوِ القُرْبِ مِنْهُ.

وهذه النُسْبَةُ ذاتُ تأثيرٍ في إبداءِ الصُّورَةِ للعُصورِ على وَجْهِ الخُلُكَةِ أَوِ الإِسْفَارِ. والذي يَبْعَثُنَا على الطَّمَأْنِينَةِ إلى نَتَائِجِ مِثْلِ هذا النُّظَرِ، دِقَّةُ مَوَازِينِ التُّطَوُّرِ النَّفْسِيَّةِ والعَقْلِيَّةِ والاجْتِمَاعِيَّةِ والأَدَبِيَّةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا، حَتَّى كَادَتْ تَتِمَائِلُ إِلَى أَنْ تَكُونَ مِنْ أَشْيَاءِ العُلُومِ.

وَيَحْسُنُ بِنَا أَنْ نُغْنِيَ بِفَهْمِ وَجْهَةِ هذا النُّظَرِ، لِأَنَّهُ بِمِثَابَةِ وَضْعِ قَاعِدَةٍ ثَابِتَةٍ للتَّارِيخِ، وَنَسْتُخْدِمُ فِي شَرْحِهَا أَسْلُوبَ المُنَاطَرَةِ وَالتَّمَثِيلِ.

جيلنا الحَالِيُّ لَهُ وَضْعٌ أَجْتِمَاعِيٌّ خَاصٌّ، وَمِثْلُ أَخْلَاقِيٍّ كَذَلِكَ، وَسُنَّةٌ أَدَبِيَّةٌ بَعِيْنِهَا، وَطَرِيقَةٌ طَبِيعِيَّةٌ ذَاتُ مُمَيِّزَاتٍ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، بِجَوْهَرِهَا وَبِمَا تَنْحَلُّ إِلَيْهِ مِنَ البَسَائِطِ، تُشَبِّهُ أَمْثَالَهَا الَّتِي كَانَتْ تَتَّصِلُ بِحَيَاةِ الجِيلِ التَّاسِعِ عَشَرَ وَالثَّامِنِ عَشَرَ وَهَكَذَا. فَالْمُفَارَقَاتُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ثَابِتَةٌ، مِنْ حَيْثُ التَّرْكِيبُ، ثَبُوتُ الاِشْتِرَاكِ مِنْ حَيْثُ التَّحْلِيلُ، وَهَذِهِ الْمُفَارَقَةُ إِمَّا بِالْإِتْقَانِ قُدِّمًا أَوِ بِالْإِنْجِرَافِ أَوِ الْإِنْزِلَاقِ الَّذِي هُوَ نَتِيجَةُ عَوَامِلَ طَبِيعِيَّةٍ جُزْئِيَّةٍ أَوْ ثَوْرَاتٍ.

وَإِذَا ثَبَّتَ لَدَيْنَا مِنَ الْقَضَايَا الْمُبْتَرَهَنِ عَلَيْهَا فِي الْعُلُومِ الْبَيُولُوجِيَّةِ أَنَّ الْمُسَيِّرَاتِ الرَّئِيسِيَّةِ

---

يَسْتَقْرِئُ الحَوَادِثَ، بَلْ فَيَلْسُوفُ يَمِيزُ الْأُمُورَ بِأَشْبَاهِهَا، ثُمَّ ظَهَرَ توماس هنري بكلِّ قَصْدٍ أَنْ يُثْبِتَ عَلَى مُقْتَضَى أَصُولِ قَنْ الإِحْصَاءِ عِلْمًا وَضْعِيًّا لِلْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ فِي مَقْدَمَةِ كِتَابِهِ: تَارِيخُ الْحَضَارَةِ فِي إِنْجِلْتَرَا. رَاجِعْ كِتَابَ: عِلْمُ التَّارِيخِ، ص ١٤٢ وَ ١٤٥، تَرْجُمَةُ الْعَبَادِي، طَبْعَةُ لَجْنَةِ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْجُمَةِ وَالنَّشْرِ.

(١٤) يَزِجُّ الْفَضْلُ فِي كَشْفِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، مِنْ وَجْهَةِ أَدَبِيَّةٍ مُخَصَّصَةٍ إِلَى الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ شَكْسْبِير. فَقَدْ أَتْبَعَ فِي كِتَابَةِ دَرَامَاتِهِ الْكُبْرَى طَرِيقَةً تُشَخِّصُ وَتُفَسِّرُ الْمَاضِي بِالْحَاضِرِ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ لَنَا صُورَةً مِنْ صُورِ الْعَصْرِ الرُّومَانِيِّ مِثْلًا يَجْمَعُ مِنْ بِلُوطَرُخَسِ وَغَيْرِهِ الْحَقَائِقَ الْهَامَّةَ، وَمِنْهُمْ يَسْتَوْعِبُ شَكْلَ الْحُكُومَةِ وَمَقَامَ الدِّينِ وَدَرَجَةَ تَوْزِيعِ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَةِ فِي بِنَاءِ الْهَيْئَةِ الْجَامِعِيَّةِ، وَبِذَلِكَ يُخْرِجُ تَصْمِيمُهُ الْأَوَّلِيَّ الَّذِي يُشِيعُ فِيهِ الْحَيَاةَ وَالتَّشَاطُّ عَلَى ضَوْءِ طَبِيعَةِ الْعَصْرِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ، مِمَّا يُلَاحِظُهُ مِنْ تَأْثِيرِ النُّظْمِ وَالْعَبَادِيءِ الْجَامِعِيَّةِ مِنْ وَجْهِ عَامٍّ فِي عُقُولِ النَّاسِ، مَعَ إِحْلَالِ الْفُرُوقِ الْجِيلِيَّةِ بَيْنَ أَسَالِيبِ الْحَيَاتِيِّنَ فِي الصُّورِ السِّيَاسِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ. وَبِذَلِكَ أَذْرَكَ مِنَ التَّارِيخِ مَا لَمْ يُذَكِّرْهُ غَيْرُهُ، وَأَصْطَنَعَهَا طَرِيقَةً فِي بِنَاءِ الرُّوَايَةِ نَزَى لِزَامِ اتِّخَاذِهَا فِي بِنَاءِ التَّارِيخِ وَعَرَضَهُ.



للإنسان واحدة، أو بعبارة أصح، تكون دائماً نسبة اشتراكها أكبر من نسبة اختلافها، ضرورة امتناع الطفرة في التطور كما يقول داروين، جاز للمؤرخ أن يدرس أجياله الماضية على ضوء الجيل الذي يعيش فيه، وأن يؤصل بعض الحوادث ويتسقاها مستلهماً محيطه وعصره ونفسية الجموع الذين يشاركونه الحياة، وأن يصحح<sup>(١٥)</sup> الروايات عن الماضي على أساس النسبة التي يقضي بها الحاضر. فبين المؤرخ والروائي علاقة قوية في هذا الجانب، حتى أبلغ فأقول بأن من واجب المؤرخ، إذا شاء التوفيق، أن يكون روائياً قبل أن يكون مؤرخاً.

وعلى هذا القانون يمكننا أن نجعل لكل عصر بشري دائرة خاصة، نضع فيها جيله نقطة مركزية ثم ننتقل إلى الأجيال السالفة بنسبة قريبا حتى ننتهي إلى أبعدها، وكلما زدنا الدائرة تخصيصاً زدنا تحقيقاً بلا ريب. ونعني بهذا وضع ميزان بين أيدي المؤرخين حينما يفرغون للتفصيل والتحليل في صدق الأجيال التي يدرسونها، وهذا القانون النقدي يتم بالاعتماد على تحرير الموازين النفسية والاجتماعية والأخلاقية، وفرضها فرضاً تطورياً.

مثاله: «الفضيلة في المرأة»<sup>(١٦)</sup> تعتبر هدفاً أخلاقياً في القرن التاسع عشر كما هو في القرن العشرين، ولكنها تعني في العصر الأول غير ما تعنيه في العصر الثاني، فكان من جملة مظاهرها في الشرق الأوسط الحجاب والخدر ومجانبة الاختلاط، ولم تزل الفضيلة هدفاً

(١٥) ترى التاريخ حين نحدثنا عن محاكم التفتيش مثلاً ينسب إليها من الفظائع والأهوال ما لا تصدق إلا عن الإنسان القديم الذي كان أقل تطوراً في غرائزه كالإنسان الأشوري والبابلي والمصري، فالنظرية التي نقرها تقضي بالتحفظ حيالها، وتحكم بأنها مبالغ فيها تزيد بيفد بها عن الصديق بأن تصدق عن الإنسان المتطور المصقول الغريزة، وعليه فهذه الأخبار أفرط فيها المؤرخون من ذوي الأغراض، والروائيون الذين عمدوا إلى محاربة الأوضاع والإهابة بالناس إلى التحرر والثورة.

(١٦) ساقى العلامة الباليتولوجي ماتيو في مقاله: «أساس الحضارة المقبلة»، أمثلة عديدة من هذا القبيل، مثل نظرية الجريمة والعقاب وتطورها في آراء المؤرخين، وصفة الشجاعة وضبط النفس، وأنهى إلى هذه النتيجة القائلة: «هنا نستطيع أن نغتر، سواء في مظاهر التفكير أم في مظاهر العمل، على دلائل من الارتقاء بالغة الأثر، وعلى تهذيب بطيء التقدم غير منصوص الخلقات ولا مقطوع التسلسل». راجع كتاب: معضلات المدنية الحديثة للأستاذ إسماعيل مظهر، ص ٧٦، طبعة دار المصور ١٩٢٨.



في جيلنا الحاضر، ولكنها لم تعد تُعترف بأن هذه الأشياء داخلية في معناها. فالذي تغير ليس هو الفضيلة من حيث كونها هدفاً أو مُسيراً، وإنما تغير الشكل العرفي فقط.

**القالب العددي في التاريخ:** نحن إذا نستطيع أن ندعي بأن المُسير في جوهره لم يتغير، وإنما تغيرت مُلابساته وأشكاله، وينبغي أن نُحدد مقدار هذه النسبة على سُنة عددية، لأن التطور يحتفظ بنسبته على الدوام، كما أن المُقايضة الرياضية أدق سبيلاً.

ومن ثم نستطيع، بعد جمع عدة أمثلة من كل الشعب المذكورة، أن نقول على وجه قريب من القطع بأن النسبة العددية بين كل قرن والذي قبله خمسة في المائة<sup>(١٧)</sup> مثلاً، فإذا درسنا الجيل الخامس عشر الميلادي، نقول بأنه يتفق مع جيلنا في مُسيراته ودوافعه على وجه عام من حيث جوهرها، ويختلف بنسبة خمسة وعشرين في المائة من حيث تشكلاتها. وهذا الفرض العددي يظهر أكثر صدقاً في ظاهرة التاريخ الطبيعية منه في ظاهرة التاريخ الصناعية؛ ونعني بالظاهرة الطبيعية للتاريخ، حالات الشؤ والتكامل في الاستعدادات والقابليات والأمزجة وما يتبعها؛ وبالظاهرة الصناعية للتاريخ، درجات التقدم في العمران والنظم والأوضاع المدنية. وإنما كان الفرض العددي المذكور أكثر صدقاً في الأولى من حيث إنها عمل طبيعي، والطبيعة تميل إلى النظام والاحتفاظ بالنسبة دائماً، بينما الثانية عمل إنساني محض، ولذا أسميناها صناعية، وهي عرضة للتقدم السريع والانتكاس. وأما الأولى فلا يغتورها هذا الضرب من الانتكاس والردّة إلى الوراء إلا في القليل النادر.

وسنرى بعد، أننا فرّقنا بين التطور ذي الظاهرة الطبيعية والارتقاء ذي الظاهرة الصناعية، وحكمنا بأن الانحراف يُصيب الارتقاء فقط. وعليه فإن للتاريخ مظهرين: أحدهما طبيعي

---

(١٧) يجب ملاحظة أن الواحد في العصور تختلف نسبته تركيباً وبساطة. فالواحد بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين يختلف عن الواحد فيما بين القرن الثامن عشر والتاسع عشر، فإنه في الأول أكثر تركيباً، ولكنه وحدة على أي حال.



والآخر صناعي، وهما خاضعان لنسبة رياضية ثابتة، غير أن خضوع الأول أكثر ظهوراً، فإن الميزان<sup>(١٨)</sup> العقلي وخلق الأمة، وهما من النوع الأول، كلاهما يحتاجان إلى زمن طويل، بينما شكليّة الاجتماع وشكليّة الأوضاع، وهما من النوع الثاني، يتّمان بطريق إرادي صوف أي صناعي. ولذلك يعرض لأصناف النوع الثاني الارتقاء والإشفاق، في حين أن صفات الأمة النفسية سائرة في طريق تقدّمها على نسبة ثابتة.

فالميزان التاريخي الذي نرغب أن نقيس به أجيال التاريخ لتكون نتائجنّا الدراسية أكثر دقة وأقلّ اختلاطاً واختلافاً، إنما يتّيم لنا تقديمه والعمل به بعد التحقيق من صلاحية الموازين الأخلاقية والاجتماعية والنفسية وقيمتها، لأن التاريخ يشملها جميعاً ويعتمد عليها. ونرى لأنفسنا الحق بأن نرغم هذا الاشتراك الجوهرى في الميسرات من حيث بطء التطور العضوي والغريزي<sup>(١٩)</sup> بطأ يشبه الشكون. وإذا توافر لدينا هذا الميزان التاريخي، تأتى لنا فهم مدى تطور هذه الدوافع للأجيال المستقبلة أيضاً، كما تأتى لنا فهمها في جانب الماضي.

وإذا وصلت النسبة في موازنة العصور الماضية إلى الصفر، فمعنى هذا أننا وصلنا إلى تطور في الغريزة وتحوّل في جوهر المسير كمّاً وكيفاً. فنسبة الخمسة تحت الصفر من الميزان التاريخي المئوي، تعني أن الميسر الخاص بالقرن العشرين يختلف جوهرياً عن الميسر في الجيل الذي هذه نسبته. فالنسبة المئوية الواحدة لا يكون فيها إلا تطور للميسر

(١٨) راجع كتاب: سر تطور الأمم لغوستاف لوبون، ترجمة فتحي باشا زغلول، ص ١٦ - ٣٩. ويحسن مراجعة فصول هذا الكتاب الأولى، لأنه يوضح شيئاً كثيراً من مقاصد هذا التصدير.

(١٩) ذكر بعض علماء النفس أن رغبة الافتراض في الإنسان لا تزال متأصلة فيه، بيد أنها تهدّبت شكلاً فقط، حين شدّت على نفسها أزدية من الأنافة ومعاطف من الرخوف... فإنسان اليوم المتحضّر يعمد إلى نحر الحيوان وأنصاجه على ألوان وصور، سلقاً وشياً وشاورما إلى أشكال كثيرة، ولكنّه في الواقع، صيئ حاليه يوم كان وحشياً، يلهيه نيماً غير نصيح... فالمثليهم في الحالين هو المثليهم، غير أن الأول كان البشري الوحش والثاني البشري الأنيق أبّن الحضارة.



في الكيف، وأما التطور للمسير في الكم فإنما يظهر بين النسبة المئوية والتي فوقها أو تحتها.  
ومن وجهة شرجية أوضح:

نُسمي الترقّي العضوي أو الغريزي تطوراً.

ونُسمي الترقّي في الصفات الأدبية وما يتبعها ارتقاءً.

ونُسمي الانحراف الذي هو نتيجة حوادث طبيعية أو ثورات، انحرافاً في الارتقاء أو انزلاقاً.

فإذا بلغت بنا النسبة في الموازنة إلى الصفر، فقد بلغنا إلى تطور في جوهر المسير، وإذا سرنا بالنسبة إلى فوق، قلنا إن العصر بلغ درجة ارتقائية؛ فإذا صادفتنا حالة اضطراب لها صفة الفوضى في تاريخ الأمة حكمنا بأنها أصيبت بانحراف في الارتقاء، وهذا الانحراف يكون ردة تفهقرية في حساب النسبة التاريخية. وعليه فالتطور تغير في جوهر المسير، والارتقاء تغير في شكله على نسبة عددية استغلالية، وهي لا تختلف أو تتخلف ما لم تصادف انحرافاً في الارتقاء ذا صفة بعينها، قوة وضعفاً.

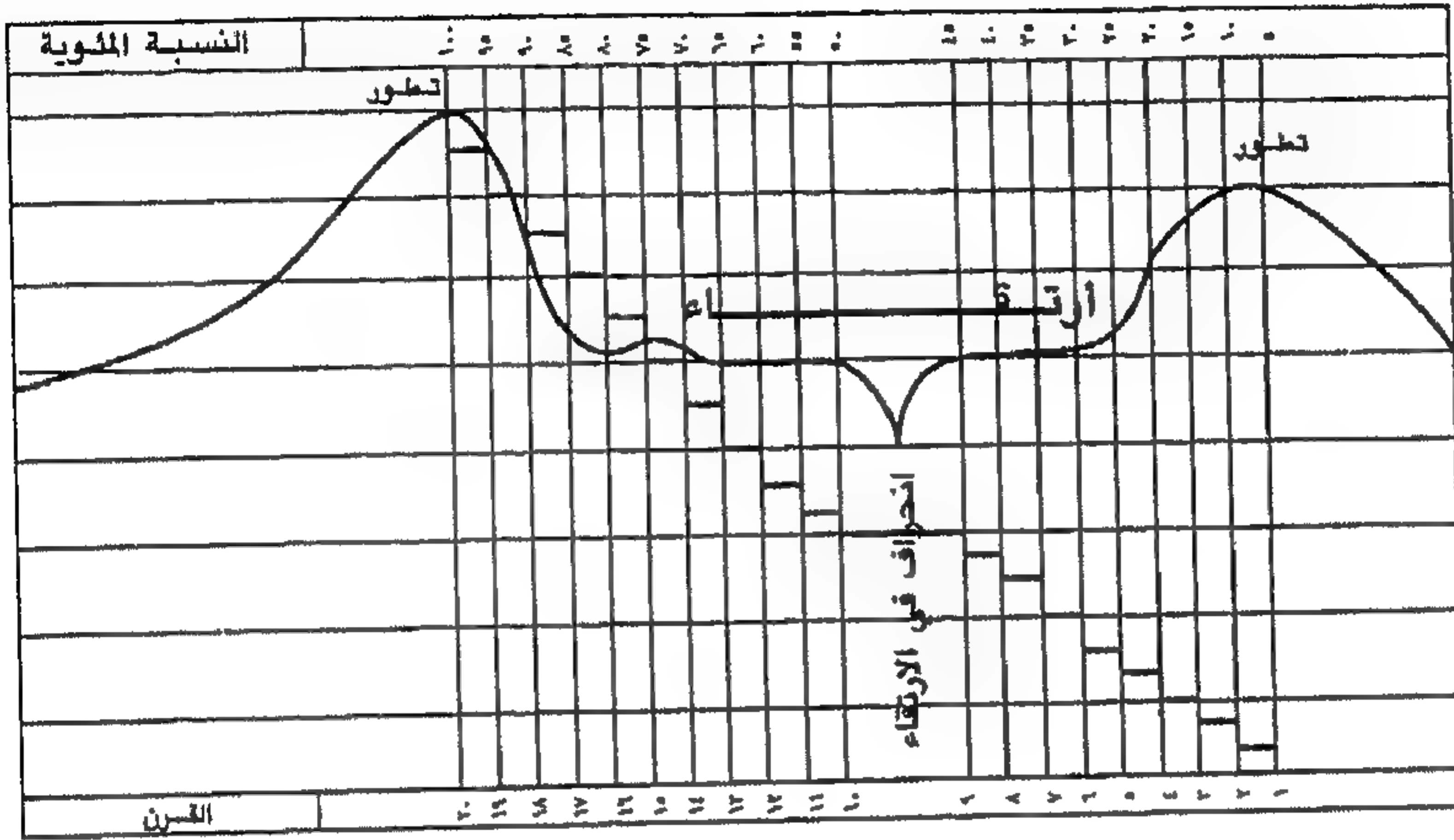
وهذا القانون المئوي<sup>(٢٠)</sup> يطبق في البيولوجيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الأخلاق، وعلم القانون، والفن، وكل ما يتصل بالشؤون العضوي، كما يطبق في التاريخ، فله صفة عامة ثابتة.

---

(٢٠) هذا الميزان القياسي يصل ما بين التطور والارتقاء ويجعل الثاني خاضعاً للأول خضوعاً طبعياً، وهو يُفسر التاريخ تفسيراً جديداً ويُعطيه تعريفاً أكثر دقة واستقامة. والملاحظ في هذا الميزان التاريخي أنه يجعل التاريخ وليد التطور الذي يتصل بالفرائز، والارتقاء الذي يتصل بالصفات الأدبية. وإن أول من نتج إلى فرض التطور المثيق في التاريخ الفيلسوف الإيطالي فيكو، فقد اغتبر في كتابه: أصول علم جديد، التاريخ فرعاً من علم واسع يشمل المجتمع الإنساني، ونظر إلى كل عصر من عصوره على أن له مكاناً خاصاً من نظام تطوري بحت.



ولا يخفى أنَّ النسبة العددية التي قَدَرناها بخمسة، ليست على وجه تحقيقي وإنما هو تمثيل فقط قصد توضيح الفكرة.



وتفسيره: كلُّ جيلٍ يرتقي عن سابقه ارتقاءً طبيعياً بما توافر له من أدوات جديدةٍ يُعالج بها الصُّعُودَ الشاقَّ بنسبةٍ عدديةٍ مفروضة. فإذا سائرنا الرِّسَمَ البيانيَّ المُتَخَيَّلَ وَجَدْنَا القَرْنَ العِشْرِينَ يَقُومُ على القِيَمَةِ التي يَنْتَهِي عندها الارتقاء ذو النسبة المئوية الخاصة، ثُمَّ نُنْخِذُ مَعَهُ، وَالْجِنَّ سَرَادِيبَ المَاضِي جِلاً بَعْدَ جِيلٍ، في جَوْ يَتَزَايَدُ قَتَامَةً كُلَّمَا زِدْنَا إِغْلَالاً.

والمُلاحَظَةُ أنَّ في ذِكَايَتِهِ تَدْرُجاً مَحْفُوظَ النسبة على وجهٍ طبيعيٍّ حتَّى نَصِلَ إلى القرنِ الرَّابِعِ عَشَرَ الَّذِي نَفَرِضُ أنَّ حَرَكََةَ أَنْبَعَاثٍ قَامَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القرنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، فَإِنَّهَا تُدْخِلُ على حَرَكََةِ الأُمَّةِ إِسْرَاعاً لَا شَكَّ فِيهِ، ثُمَّ نَسِيرُ حتَّى نَصِلَ إلى القرنِ العَاشِرِ الَّذِي نَفَرِضُ أنَّ نَكْبَةَ طَبِيعِيَّةٍ كَطُوفَانٍ، أَوْ نَكْبَةَ أَجْتِمَاعِيَّةٍ كَرِدَّةٍ أَنْحِلَالِيَّةٍ<sup>(٢١)</sup> وَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القرنِ

(٢١) وهي التي لا تقوم على أفكارٍ بينها ولا تتحرك لهدفٍ محدّدٍ معيّن، وأما الثورة التي تُحَرِّكُهَا أَفْكَارٌ مُرَكَّزَةٌ وَيَدْفَعُهَا التُّضَجُّ فَبِهَا عَامِلُ ارْتِقَاءٍ قَدْ تَزِيدُ فِي سَيْرِ الأُمَّةِ، وَقَدْ لَا يُؤْخَرُهَا لِأَنَّ مَا سَبَّهَ مِنَ الأَضْرَارِ يُعَدِّلُ مَا قَدْ أَذْكَاهُ.



التاسع، فإنها تدخل بالأمة في مثل الأخدود العميق، ولكنها تعاود الصعود وتسير في خط الطول الذي رسمته لنفسها. وهكذا يُسلمنا الجيل الثامن إلى ما وراءه حتى نقف على رأس القمة الأخرى التي ابتدأ منها الارتقاء النسبي، ودَرَجَتُها في الميزان أو سلم الارتقاء صِفراً. ومعناه أن الجيل الذي بدأ الانحدار منها تَغَيَّرَ في مُسَيَّرَاتِهِ الغريزية والأدبية تَغَيُّراً جَوْهَرِيّاً بالنسبة إلى الأجيال التي تقع في الجانب الآخر من القمة.

والذي تجب ملاحظته أن جميع التغيرات الاجتماعية والنفسية والأخلاقية (أي الصفات الأدبية) ناتجة عن تَغَيُّرٍ غريزي<sup>(٢٢)</sup> وعضوي<sup>(٢٣)</sup> دقيق. كما أن التَغَيُّرَ العضوي من بعض جوانبه يَنفَعِلُ بالارتقاء العام في خاصيات النفس والاجتماع والأخلاق، فإن مما لا ريب فيه أن شكل الغذاء ولون العيش، من حيث الطراوة والغضارة، والطابع النفسي ذو الشكل الخاص، لِكُلِّها تأثير في البناء فيزيولوجياً. فالتَغَيُّرُ العضوي إذا يَنفَعِلُ من بعض جوانبه بالارتقاء في الشعب المذكورة بالنظر إلى الماضي، وَيَفْعَلُ فيها تَغْييراً بالنظر إلى المُسْتَقْبَل.

وإنما قلنا من بعض جوانبه لأن التَغَيُّرَ العضوي في الحقيقة خاضع لعوامل طبيعية داخلية متأثرة بعوامل خارجية، كالضعف والقوة في ألوان الطيف الشمسي، والثقلبات الجوية المُعْتَبَرَة كعوامل جيولوجية، وهي تختلف في مراحل زمنية طويلة. ومما تجب ملاحظته أيضاً أن التطور يَمَسُّ الأفراد، والارتقاء يَمَسُّ الجماعات، والأول بطيء جداً بينما الثاني سريع نوعاً ما، والنسبة المئوية الكاملة للارتقاء تُعَدُّ وَحْدَةً بسيطة من النسبة المئوية للتطور.

وإذا كان قَرُننا الحاضر يَقَعُ حقيقة على رأس القمة، فإن الميزان يَقْضِي بأنه سَيَشْمَلُهُ تَغَيُّرٌ غريزي طفيف، يَنْتُجُ عنه تَغَيُّرٌ في جَوْهَرِ المُسَيَّرَاتِ العامة للجيل الحادي والعشرين، يحملنا على التفاؤل بأن الجيل المقبل سيكون أكثر استعداداً للمثل.

(٢٢) و(٢٣) قَرَّرَ نَحْواً من هذا، العلامة مانو البالتولوجي الأمريكي في بحث له عن أساس الحضارة المقبلة، هل سيكون رُؤْيَا

أدبياً أو نُشوءاً عضوياً. راجع كتاب: مُغْضِلَاتِ المَدِينَةِ الحديثة، مصدر سابق، ص ١٧٦ - ١٨٢.



وَلَنَسْأَلُ طَائِفَةً مِنْ الْأَمْثَلِ لِلتَّوْضِيحِ: الْحَقُّدُ وَالضَّغِينَةُ وَالْتَنَافُسُ عَوَامِلُ تُسَيِّرُنَا كَمَا كَانَتْ تُسَيِّرُ الْقَدَمَاءَ الَّذِينَ يَقَعُونَ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ لِقِيَمَةِ الصُّفْرِ، فَأَلْمَانِيَا يَدْفَعُهَا التَّنَافُسُ لِحَرْبِ إِنْجِلْتِرَا، كَمَا دَفَعَ الْيُونَانُ لِحَرْبِ الْفُرْسِ، وَالْحَقُّدُ التَّارِيخِي يَدْفَعُهَا لِحَرْبِ فَرَنْسَا كَمَا دَفَعَ الرُّومَانُ لِحَرْبِ قَرْطَاجَتَّةَ، وَلَكِنْ لَنْ يَفْعَلَ الْأَلْمَانُ تَحْتَ إِمْلَاءِ هَذَيْنِ الشُّعُورَيْنِ مَا فَعَلَهُ الْيُونَانُ وَالرُّومَانُ. وَلَا نَتَصَوَّرُ أَيَّ رَجُلٍ أَلْمَانِيٍّ حَقُودٍ يَفْعَلُ مَا فَعَلَهُ نِيرونُ بِالْمَسِيحِيِّينَ حِينَ كَانَ يُشْعِلُ النَّارَ بِهِمْ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لِيُضَيِّعُوا لَهُ الطَّرِيقَ فِي شَوَارِعِ رُومَا.

وإنَّ الحُبَّ أَوْ الْفِتْنَةَ دَفَعَتْ نابوليونَ كَمَا دَفَعَتْ أنطونيو، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ آثَارٍ فِي الْحَرْبِ وَالسِّيَاسَةِ كَمَا كَانَ لَهُ فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى أَنَّ الْحُبَّ<sup>(٢٤)</sup> كَانَ

(٢٤) إِنَّ ضَعْفَ هَذَا الْاِتِّصَالِ هُوَ الَّذِي غَيَّرَ الْمَثَلَ الْأَعْلَى لِلْجَمَالِ الْمُنتَظِمِ عِنْدَ الْبَدَائِيَّةِ، وَالَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْبَدَائِيَّةِ بِالْحَقَاقَةِ وَالْمُسْتَعْنَةِ، وَهَكَذَا مِنْ كُلِّ مَا هُوَ أَدْعَى إِلَى إِثَارَةِ الْغَرِيزَةِ، وَبِأَنْبِهَامِ هَذَا الْاِتِّصَالِ الَّذِي هُوَ تَطَوُّرٌ غَرِيزِيٌّ تَغْيِيرُ الْمَثَلِ الْأَعْلَى لِلْجَمَالِ وَصَارَ أَقْرَبَ إِلَى السُّمُوِّ وَالتَّجَرُّدِ. وَفِي رَأْيِي أَنَّ هَذَا السُّمُوَّ فِي اِتِّصَالٍ مَا تَيْنَ الْإِحْسَاسِ وَالْغَرِيزَةِ سَيُفْضِي بِالْإِنْسَانِ إِلَى شُعُورِ اسْتِعْلَاءٍ وَسُّمُوٍّ فِي الْحُبِّ، هُوَ مَا كَانَ يُسَمِّيهِ الشُّعْرَاءُ بِالْحُبِّ الْغَذْرِيِّ، وَأَرَانِي قَلِيلَ الْإِيمَانِ فِي أَنَّ تَوَزُّعَ هَذَا الْحُبِّ قَدْ كَانَ عِنْدَ الْأَوَّلِينَ. وَأَنْتَظِرُ، إِذَا مَا سَيُطَوِّرُ هَذَا الْإِحْسَاسُ التَّجْرِيدِيَّ، أَنَّ نَفَقِدَ كُلَّ شُعُورٍ بِالْحُبِّ الرُّوَانِيِّ، وَأَنْ يَكُونَ حُبُّ الْإِنْسَانِ فِي مَسْتَقْبَلِ التَّارِيخِ مِنْ نَوْعِ الْإِعْجَابِ الْفَتِّيِّ فَقَطْ.

أَقْرَبُ أَنَّ التَّطَوُّرَ الْإِنْسَانِيَّ أَنْجَلَى عَنْ سَيِّطَرَةِ الْفِكْرِ وَاحْتِكَامِهِ، وَهَذِهِ السَّيِّطَرَةُ الْفِكْرِيَّةُ آخِذَةٌ بِالْمَدِّ، وَسَيَأْتِي الزَّمَنُ الَّذِي يُصْبِحُ فِيهِ الْإِنْسَانُ قَضِيئًا، وَأَعْنِي لَا غَرِيزِيًّا إِلَّا فِي شَكْلِ مُبْهَمٍ خَفِيِّ. فَالْاِتِّصَالُ الْكَائِنُ بَيْنَ الْإِحْسَاسِ وَالْغَرِيزَةِ أَيْضًا كَانَتْ، آخِذَةٌ بِالْإِنْبِهَامِ لِيَجْلُ مَحَلُّهُ التَّنَظُّرُ الْمُنَاطِقِيُّ أَوْ التَّعَقُّلُ بِعِبَارَةِ أَضْرَحَ؛ وَقَدْ كَانَ هَذَا الْاِتِّصَالُ الْغَرِيزِيَّ أَوْ الْإِلْقَاضِيَّ فِي الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ أَكْثَرَ ظُهُورًا وَبُرُوزًا، فَكَانَ يَحْكُمُ أَغْلَبَ تَصَرُّفَاتِهِ بِالْإِنْفِعَالِ الْإِرَادِيِّ، وَلِذَا، كَانَ مُحْكَمًا بِالْجُمُوحِ الْعَاطِفِيَّ فِي أَكْثَرِ مَلُوكِيَّاتِهِ.

وَهَذَا الْإِنْبِهَامُ بِحُكْمِ التَّطَوُّرِ مَسَّ كُلَّ الْغَرَائِزِ عَلَى نِسَبٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وَبِهِ يُعْلَلُ سِرُّ اخْتِلَافِ مَقَايِسِهِ عَلَى الْغُصُورِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَالْجَمَالِ، وَبِهِ وَخِذُهُ يُعْلَلُ سِرُّ الْحُبِّ وَالبُغْضِ التَّلَقَّائِيِّينِ أَوْ الْعُقُودِيِّينَ.

تَشَرَّتْ إِخْدَى الْمَجَلَّاتِ الْأَمِيرِكِيَّةِ سَنَةَ ١٩٣٨ كَمَا وَرَدَ فِي كِتَابِ: مَعْضَلَاتِ الْمَدَنِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، هَذَا السُّؤَالُ: مَاذَا يُعْجِبُكَ فِي الْمَرْأَةِ؟ فَوُرِدَ إِلَيْهَا أَلْفُ جَوَابٍ، كَانَ مِنْهَا خَمْسُمِائَةٍ تَجْعَلُ مُشْتَقَّ الْإِعْجَابِ فِي نِطَاقِ الْأَفْخَاذِ، وَمِائَةٌ فِي الْعَيْنَيْنِ، وَمِائَةٌ فِي الْجَاذِبِيَّةِ، وَأَرْبَعُونَ فِي الْأَنَاقَةِ... وَهَكَذَا ذَهَبَتْ الْمَجَلَّةُ يَوْمَئِذٍ تَعْلُلُ هَذَا الْاِخْتِلَافَ بِتَبَايُنِ الْأُذْوَاقِ الْفِطْرِيَّةِ، وَهَذَا التَّعْلِيلُ كَمَا تَرَى مِيتَافِيزِيْقِيَّ غَيْبِيَّ.



أكثر اتصالاً بإحساس الغريزة منه بالإحساس المُجرّد الذي يُنطَفِئُ بسرعة. فعموض الاتصال بين الإحساس والغريزة في بنائنا الحالي يجعله يتبخّر في زمن قصير. وهذا شأن العواطف جميعها، كلّما كانت عملاً غريزياً كانت أكثر عُنفاً وحِدّةً، وكلّما كانت عملاً شعورياً مُجرّداً خفّت غلواؤها.

وهذا ظاهرٌ في الحبّ البشريّ عند الحيوان، فإنه أكثر حِدّةً، ولكنّ لأنّه يفقد الذاكرة، أو تضعف فيه عن التسجيل والالتقاط، تتصرّم<sup>(٢٥)</sup> عاطفته وتتقضى. وإنّ اندفاع الحيوان

واختلاف الأجوبة المذكورة إنّما يُفسّر على ضوء النظرية التي نُعطيها، وذلك بملاحظة مدى التطوّر الواقع على أثر الإحساس بالغريزة ومدى سيطرته. فقد مرّ جيلٌ من أجيال البشرية لو وُجّه إلى أحيائه هذا السؤال لكان جواب الألف جميعاً جواب الخمسمائة، لأنّ مقياسهم إذ ذاك كان مُشتقاً من إملاء الغريزة المُسيطرّة وحدها. ولكنّ التطوّر الذي مرّ الغريزة بالإنسان والغور ودفع أثرها إلى الوراء، أوجد هذا التفاوت؛ وشأن الارتقاء في الأحياء يكون متفاوتاً بنسب ثابتة.

ومن هنا نجد مقياس الجمال عند من هم أقرب إلى البدائية يقوم على الامتلاء وكلّ ما هو أدعى إلى إثارة الغريزة... والأجوبة المذكورة على هذا السؤال تُثبت أنّ البشرية في مرحلة تطوّر لم تتهدّب فيها الغرائز إلّا بنسبة خمسين في المائة فقط؛ إلّا أنّها آخذة في الاندفاع العام نحو التّكامل، ويظهر هذا من وجود النسب الضعيفة كعشرة في المائة تجعل الأناقة هي مدار الإعجاب، وأخرى الجاذبية، وتُضيق مثل هذا الجواب هو جواب النسب الأكبر. ولا بُدّ من أن ينتهي الأمر في مستقبل الإنسان، بأنّ يُنظر إلى المرأة نظراً رياضياً كمجموعة نسب ذات دلالات، مثلما ننظر اليوم إلى الزهرة اليانعة وإلى الشروق.

(٢٥) ولست أعني التصرّم بكلّ المعنى، فلدى بعض الحيوان ما يُشبه أن يُسمى عقلاً باطنياً، وهو يتكوّن من توارّد صور الأشياء ثمّ أيهاها. وعندي أنّ العقل الباطن أشبهتُ تكوّناً من العقل الظاهر، وأنّ العقل الباطن هو الذي يُكوّن العقل الظاهر ويُشيعه وهو عامل الارتقاء في الحيوان مطلقاً. وكلّما ارتقى الإنسان ارتقى معه العقل الواعي وتبسط سلطانه، كما يقابلُه أنكماش وضمور في العقل اللاواعي. وزيادة سيطرة العقل الباطن عند الأولين تُفسّر كثرة الأحلام وصدقها، على ما جاء في التّوراة والقرآن، وأنّ الحبّ الحادّ والتعلّق بالأخلاق المثالية مُنفعة كلّها بقوة اللاوعي. وفي حالة ما إذا سيطر العقل الظاهر سيطرة مُطلقة يتغيّر أساس كلّ شيء. واعتماد مثل هذه النظريات يُفسّر غوامض التاريخ ويُفرضه فرضاً حقيقياً، فإنها تشرح لماذا كان باعث التاريخ في الماضي والحاضر الانسياق مع قوّة الشعور الذي هو طبيعة الجماعة كما يقول بنيامين كيد في كتابه: تاريخ التطور الاجتماعي، دون الانسياق مع قوّة العقل الذي هو طبيعة الفرد، ولماذا سيكوّن في المستقبل باعث التاريخ الانسياق مع قوّة العقل فقط، الذي هو طبيعة الفرد، وبذلك يتغيّر أسلوبه ووجهه، واعتمادها أيضاً يُصحّح نظرية سيغموند فرويد الذي بالغ في تقرير آثار غريزة الجنس.



في دور الشَّبَقِ وراء الأُنْثَى مِنْ شِدَّةِ الاتِّصَالِ بَيْنَ الإحْساسِ والغَرِيزَةِ اتِّصَالاً قَوِيّاً، وبالنَّسْبَةِ إلى خُضُوعِ هذا الإحْساسِ للتَّطَوُّرِ فهو يَنْبَغُهُمْ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ حَتَّى يُصْبِحَ تَجْريدِيّاً. ولا يَخْفَى أَنَّ الَّذِينَ يَبْدَأُونَ بِالانْحِدَارِ مِنَ الْقِيَمَةِ، يَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَى الَّذِينَ أَنْتَهَوْا بالصُّعُودِ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ، لِأَنَّ التَّطَوُّرَ لَمْ تَظْهَرْ آثارُهُ بَعْدُ بِوُضُوحٍ.

وأنا أَعْتَقِدُ أَنَّ هذا الشَّرْحَ لا يُوضِّحُ الفِكرَةَ الَّتِي أَشْتَهِي تَقْرِيرَها على وَجْهِ تَامٍ، وَلَكِنْ لا يَسْعُنِي الآنَ إِلَّا هذا المِقْدَارُ مِنْهُ، لِئَلَّا تَخْرُجَ بِنَا المُنَاسَبَةُ إِلَى غَيْرِ طَرِيقِ المَوْضُوعِ. وَلَكِنْ لا يَفُوتُنِي أَنَّ أَتَكَلَّمُ عَنِ النَّظَرِيَةِ الاتِّبَاعِيَّةِ الكِلَاسِيكِيَّةِ: التَّارِيخُ يُعِيدُ نَفْسَهُ، هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ الَّتِي تَوَسَّلَ بِهَا الْأَوَّلُونَ إِلَى فَهْمِ حَوَادِثِ المُسْتَقْبَلِ على ضَوْءِ المَاضِي، وَلَكِنْ عَلِمْنَا الجَدِيدَ المُسْتَنَدَ إِلَى الأَنْثُرُوبُولُوجِي والعُلُومِ الَّتِي تُحَالِفُهُ، أَظْهَرْنَا على أَنَّ الإِنْسَانِيَّةَ تَتَّبَعُ فِي بَقَائِهَا نَامُوساً تَطَوُّرِيّاً، وَأَنَّ الإِنْسَانَ فِي أَجْتِمَاعِهِ يَتَّبَعُ عَيْنَ النَامُوسِ الَّذِي يَتَّبَعُهُ فِي طَبِيعَتِهِ. وَهَذَا أَطَاخَ بِالنَّظَرِيَّةِ السَّابِقَةِ إِلَى مَهْوَى بَعِيدٍ، حَيْثُ تَعُودُ إِلَى مَكَانِهَا فِي خَيَالِ الإِنْسَانِ.

إِنَّ نَظَرِيَّةَ التَّطَوُّرِ فِي التَّارِيخِ تَجْعَلُهُ دَائِماً فِي تَغْيِيرٍ وَتَزَايُلٍ على أَسَاسٍ نِسْبِيٍّ ثَابِتٍ، وَبِذَلِكَ لا يُنْتَظَرُ أَنْ يُعِيدَ التَّارِيخُ نَفْسَهُ مَرَّةً أُخْرَى. وَأَمَّا التَّشَاكُلُ الَّذِي نَفَرَضُهُ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ حَيْثُ تَحْلِيلُ حَرَكَاتِ التَّارِيخِ فِي الحَاضِرِ وَسَابِقَاتِهَا إِلَى بَسَائِطِ كُلِّ مِنْهُمَا، وَهُوَ الَّذِي نَفِيدُهُ مِنَ المِيزَانِ التَّارِيخِيِّ الَّذِي نَزَمِي إِلَيْهِ. وَحَيْثُ كَانَتْ هَذِهِ الحَرَكَاتُ لا تَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى بِأَشْكَالِهَا بَلْ مُتَحَوِّلَةً على جَانِبٍ كَبِيرٍ، فَمِنَ الخَطَأِ اعْتِمَادُ مِثْلِ قَاعِدَةِ التَّارِيخِ المَذْكُورَةِ.

وَهَذَا الرُّسْمُ الافتِرَاضِيُّ يُظْهِرُ، بِبَعْضِ وُضُوحٍ، الغَرَضَ المَقْصُودَ فِي طَيَّاتِ الفِكرَةِ الجَدِيدَةِ، وَيُبَيِّنُ المَدَارِجَ الرُّتَبِيَّةَ الَّتِي تَتَرَكُّهَا العَوَامِلُ المُخْتَلِفَةُ المُتَنَازِعَةُ حِينَ تَرْتَقِي فَوْقَ هَامِ العُصُورِ. إِنْ جُمُوعَ الكَائِنِ البَشَرِيِّ بِمَنْزِلَةِ هَذِهِ العَوَامِلِ، كَالشُّخُوصِ الَّتِي تُحَرِّكُهَا الأَيْدِي الحَفِيَّةُ فِي لُغْبَةِ خَيَالِ الظِّلِّ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ، قَبْلَ مُزَايَلَةِ المَوْضُوعِ، أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الحَيِّ الحَرَكَةَ، وَلَنْ تَتَرَكَّ



الحركة الكائن حيث هو، فلا بد أن يسير، ولا بد أن يتقدم، فالكائن في كل جيل ينتظم خطواته إلى الأمام. ولا يُنكر مع ذلك أن خطواته قد تجيء في بعض الأحيان قصيرة جداً، تُشبه الوقوف لأسباب كالخمول العقلي والضغط<sup>(٢٦)</sup> الحكومي، وهذا يظهر جيداً في العلوم والآداب أزمان الجمود. فإن حركة التقدم الطبيعي حين لم تظهر في جواهرها ظهرت في خواشيتها، كالفسفة عند اليونان حينما وقفت في صميمها ظهرت آثار الحركة في الشرح والتفسير، وإن اعتمد الابتكار عند العرب في النقد الأدبي حينما وقفت، ظهرت آثار الحركة أيضاً في الصناعة اللفظية والزخرفة المجازية والمحسنات البديعية.

دواعي الإسراع: وينبغي أن لا تُسقط بعد ذلك حساب الارتقاء السريع بالدوافع المختلفة منها:

١- الامتزاج الأجنبي والتزواج الحضاري: كما إذا غلب شعب على شؤون شعب آخر، وكان للغالب أو للمغلوب<sup>(٢٧)</sup> صفة الأكمليّة. ومثل هذا الارتقاء يتيّم بين شعوب الجيل الواحد، ولكن في الجيل كله، فهو ذو نسبة واحدة ثابتة قلما يتعداها إذا لم تُصادفهُ عقبة طبيعية أو ثوزة، وإلا فهو يتخرف كثيراً أو قليلاً حسب درجة الضغط التي أدت به إلى هذا الانجراف.

٢- استعداد وقابلية العصر: فإن له دخلاً كبيراً في فهم مقدار الانجراف أو مقدار الارتقاء. ومثاله الزلزال الذي وقع في تركيا أخيراً، أي في سنة ١٩٤٠، وهدم مدناً وقرى، فإنه لو وقع في العصور الغابرة حين كان الاستعداد بطيئاً في استرداد العمران وما إليه، لاشتغرق زمناً طويلاً كي تستعيد الأمة خط سيرها من جديد مُتصلة بخطها الطولي الذي سبق ورسمته لنفسها، ولأعشى عاملاً أنجرافياً كبيراً، بينما هو اليوم، نظراً للإمكانات المتوافرة، لا يؤبّه له من وجهة نظر المؤرخ.

(٢٦) كالأشراكية الوطنية في ألمانيا، أو السلطة الزمنية لكنيسة روما في القرون الوسطى.

(٢٧) كالنكر مع العرب أو كالعرب مع الفرس والروم.



٣- تصحيح المنهج التربوي: الذي أراه بوضعه الشائع علّة من علل الإبطاء، لأنّه يزوّدنا بعقليّة تستمدّ حرّكتها الديناميّة من الماضي بحكم الطابع الذي يلابسها. وتصحّيحُه في رأيي بعمد الإيغال في التاريخيّة إلى درجّة أن تُضحّي، بكلّ أشياءها، ثرائاً صَنَميّاً أي وثناً مقدّساً، يُوقظ في أعماق النّفس شعور الحسّ بالعزويّة المُتفوّقة على ذات نفسيها، الضّائقة بكلّ ما عداها من أشياء وأحياء.

فالواجب يقضي بأن نُكفّكف من عبادة التاريخ ما وسّعنا، أي عبادة ما أليف أشلافنا ووحدوا فيه أنفُسهم، فعزّ عليهم أن يُباعدوا بينهم وبينه، فضمّوه إلى ذواتهم على نحو حميمي بل صميمي، أو بتعبير العرب القدامى: خيمي؛ قال شاعرهم:

وَمَنْ يَلْتَمِسْ خِيماً لَهُ غَيْرَ خِيَمِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيَمُهَا

وكُلّ ما نجد هنا وهناك من تناقضات، إنّما تزجّع بدون شعور إلى هذا التعلّق بالماضي، التعلّق بالتاريخ الذي لا يلبث أن يُضحّي ذاتك الثانية، أو بتعبير أدق: أن يُضحّي هو إيّاها... وكم كان العربي في إدراكه الفطريّ التلقائي، نبيّ الرؤية والرؤيا، صادق الحسّ والإدراك، حتّى ليُداخلك العجب حين تعلم أنّ العربيّة أطلّقت في أوليّتها كلمة التاريخ على الجد الأعلى والأب الأول، مُلتقى التّشعبات والتفرّعات، ضاقت أو اتّسعت، دنت أو نأّت.

وبالتّحليل لهذا الإدراك نقع على أنّ كلّ أخيلة التاريخ تنبعت من العزق، العزق الأعلى للأُشْرة التي آلت بدورها لتكون القبيلة والعشيرة ثمّ تُضحّي في ذروة تطوُّرها الأُمّة؛ على أنّ الأُمّة تزجّع إلى الأمّ التي هي بدورها، رَجَمَ وعزق وعُنْصُر.

فكلّ تعميق صَنَميّ للتاريخ باسم الثّراث هو بالتّالي تعميق وثنيّ لعبادة الأجداد، أي العُنْصُر، ثمّ لا شيء إلّا رابطة الدّم... مِنْ هُنا نَضَعُ اليَدَ بِشَكْلِ مَلْمُوسٍ عَلَى آفَةِ الآفَاتِ فِي التّعبّات العامّة للجَماعات حين تَنطَلِقُ من هذه المُنطَلقات العرقيّة، التي من شأنها أنّها ملأى بالسّخائم والأحقاد... وإذا كانت تكتنّز صديد هذه الضّغائن، فماذا تراها، تُفرز؟!



فِيَجِبُ الْعَمَلُ عَلَى كَفْكَفَةِ التَّارِيخِيَّةِ وَالتَّعَلُّقِ بِالثَّرَائِيَّةِ الَّتِي تُعْتَمَدُ فِي الْمَنَاهِجِ اعْتِمَاداً وَبِيلاً، يَجْعَلُكَ مِنْهُ فِي مَعْرِضِ أَوْثَانٍ. فَإِنَّ دَرْسَ التَّارِيخِ عَلَى سَتَى فُرُوعِهِ، وَتَلْوِينَ الدِّرَاسَاتِ الْآخَرَى بِلُونِهِ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ الْيَوْمَ فِي كُلِّ مَنَاهِجِ التَّرْبِيَةِ الَّتِي لَمْ تَتَجَرَّدْ مِنْ عُنْصُرِ الْمَاضِي، يُخَيِّي فِي نُفُوسِ أَبْنَاءِ الْجِيلِ صُوراً مِنْهُ، ثُمَّ تَخْتَلِطُ فِي عَقْلِهِ وَتَتَرَكِّزُ حَتَّى يَسْتَمِدَّ مِنْهَا وَخَذَهَا التَّفَكِيرَ مُسْتَقْبلاً. وَهَذَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ الْعَقْلَ دَائِماً رَهْنِ الْمَاضِي فِي حِينِ يَكُونُ الْآخَرَى وَالْأُولَى بِهِ حَاضِرَ الْإِهْتِمَامِ بِالْحَاضِرِ وَخَذَهُ، وَبِذَلِكَ لَا يَسْتَمِدُّ تَفَكِيرَهُ كَمَا هُوَ الْوَاجِبُ مِنْ حَاضِرِهِ الصُّرُوفِ، بَلْ يُفَكِّرُ فِي الْحَاضِرِ شَاخِصاً بَوَعِيهِ إِلَى الْمَاضِي فَلَا يَرَى حَاضِرَهُ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَرَاهُ.

وَالْخُطَّةُ الْمُتَّبَعَةُ إِذَا تَرَكَّزَتْ فِي عَقْلِ النَّاشِءِ بَطَّأَتْ عِنْدَهُ الْجَانِبَ الْأَخْلَاقِيَّ (Morale)<sup>(٢٨)</sup> وَالْأَدَبِيَّاتِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ جَانِبٍ آخَرَ، لِأَنَّ جُثُومَ أَشْبَاحِ الْمَاضِي وَشُخُوصِهِ فِي عَقْلِ كُلِّ مَنَّا يُرْغِمُهُ عَلَى التَّلَقُّفِ إِلَى الْوَرَاءِ، وَدَوَّماً إِلَى الْوَرَاءِ كَمَا لَوْ أَحْتَبَسَتْ وَغِيَّةُ عَدَسَةٍ

(٢٨) وشاهدُ هذا أَنَّ عُلَمَاءَ التَّرْبِيَةِ اتَّخَذُوا التَّارِيخَ وَسِيلَةً إِلَى غَايَةِ أَخْلَاقِيَّةٍ. وَمَنْ الْحَيَّرَ أَنْ أَنْقَلَ الْأُسْتَاذُ هِرْنشو فِي الْفَصْلِ الَّذِي خَصَّهُ بِالتَّارِيخِ، قَالَ: «إِنَّ الْفَائِدَةَ الْأَخْلَاقِيَّةَ هِيَ، بِالذِّقَّةِ، مَا يَجْعَلُ لِلتَّارِيخِ قِيَمَةً مِنْ حَيْثُ التَّرْبِيَةُ». يَقُولُ بُولَنْجِيروك: «قَدْ بَانَ لِي أَنَّ دِرَاسَةَ التَّارِيخِ دُونَ سِوَاهَا أَصْلَحُ الدِّرَاسَاتِ لِعَوِيدِ الْإِنْسَانِ الْفَضَائِلَ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ، وَيَسْتَعْدِمُونَهُ لِفَائِدَةٍ أُخْرَى وَهِيَ إِعْدَادُ الْفُرْدِ لِلْحَيَاةِ الْمَدْنِيَّةِ وَالْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ». رَاجِعْ ص ١٥٨ - ١٦٠. يَظْهَرُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْغَايَةَ مِنَ التَّارِيخِ هِيَ إِعْدَادُ الْفُرْدِ، وَهَذَا الْإِعْدَادُ لَنْ يَكُونَ بِالضَّرُورَةِ مُسْتَمْتِداً مِنَ الْحَاضِرِ وَلَا مُعَبِّراً عَنْهُ فِي شَيْءٍ، كَذَلِكَ مَا يُلْقَنُ التَّارِيخُ مِنَ الْمَثَلِ الْأَخْلَاقِيَّةِ. وَعَلَيْهِ فَإِنَّ تَلَقُّبَ التَّارِيخِ فِي دَوْرِ التَّكْوِينِ لِلنَّاشِئِ يُعْنِي إِقَامَةَ تَصْمِيمِ رَابِيعٍ فِي ذَهْنِهِ لَنْ يُزُولَ بِسَرْعَةٍ، فَوَجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نُكَوِّنَ النَّاشِئَ تَكْوِيناً يَسْتَمِدُّ مَعَهُ جَانِباً مِنْ مَثَلِهِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ مِنَ الْحَاضِرِ، بَلْ فِي حِظِّ أَكْبَرَ، وَبِذَلِكَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْعُهُ بِسَرْعَةٍ، نَاهِيكَ أَنَّهُ يَكُونُ صُورَةً صَادِقَةً عَنِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ اللَّذَيْنِ اشْتَمَلَا عَلَيْهِ. وَعِنْدِي أَنَّ مَهْمَةَ التَّارِيخِ التَّرْبَوِيَّةِ هِيَ تَأْلِيفُ الْأَفْرَادِ فِي جَمَاعَةٍ مُتَكَافِيَةٍ عَلَى مَعْنَى أَنْ يَكُونَ عَمَلُ الْأَفْرَادِ فِي الْكَائِنِ الْاجْتِمَاعِيِّ مِثْلَ عَمَلِ الْأَعْضَاءِ فِي الْكَائِنِ الْحَيِّ، لِكُلِّ مِنْهَا وَظِيفَةٌ خَاصَّةٌ تُكَافِئُ وَظِيفَةَ الْغُضُوِّ الْآخَرِ وَتُتِمُّهَا. فَإِنَّ أَيْةَ جَمَاعَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ لَا تَزُوقُ مُتَجَانِفَةً بِفَقْدِ التَّكَافُؤِ، فَيَجِبُ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُقِيمَ جَمَاعَةً صَحِيحَةً بِذَلِكَ الْجَهْدِ بِتَأْلِيفِ الْأَفْرَادِ صِبْغاً لِيَصِيرَ، بِحَيْثُ يُعْطَيَانِ صِفَةَ التَّكَافُؤِ ضَرُورَةً أَنَّ الْجَمَاعَةَ الْمُؤَلَّفَةَ مِنْ أَفْرَادٍ غَيْرِ مُتَكَافِيِينَ فِي وَظَائِفِهِمْ يَشْرَعُ أَنْجِلَالُهَا. وَكَذَلِكَ نَجِدُ فِي الْكَائِنِ الْحَيِّ، فَإِنَّ الْغُضُوَّ إِذَا لَمْ يَقُمْ بِوِظِيفَتِهِ مَسَارِقاً مَا هُوَ عَلَى شَاكِلَتِهِ يَضْمُرُ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ وَيَتَلَاشَى ثُمَّ لَا يَبْقَى إِلَّا زَائِدَةٌ أَثَرِيَّةٌ شَأْنُهَا فِي الْغُضُوبَاتِ إِذَا قَامَ



لاقطعة. وأنا هنا لست أعني أن لا تُدرّس التاريخ، بل أن نُقتلَعَ من نفوس النّشء فرضٌ مُثلهم فيما آنكشَف عنه الماضي دُونما مُلاءمة، وأن نُشيد بحاضريهم قبل كل شيء دُونما أمتحان يجعلُه مادّة للتّواصل فيتشتمِدون منه تفكيرهم بأطمئنان، وبعد هذا التّركيز يصيح أن يُدرّس التاريخ ليكون في النّاشيء شعوراً لا عقلاً. وإذا أرَدت مثلاً فخذ الأدب: إن دَرَسَه (٢٩) في نصوص وآثار القدماء قبل كل شيء يجعلهم في نظير النّاشيء مثلاً سامية لا محيد عن اقتفائها فيحذوهم أشدّ حذو، وإذا نَضَج أقام مدرسته على خيالهم، وإذا استلهم ظهرت له صُوَرهم قبل كل شيء مُحاولَة أن تتطّق له بما يقول.

فالإصلاح التربويّ يقضي بأن تُروّي هذا النّاشيء أطيب ما أنتج أعلام الحاضر في الدّرجة الأولى، وبذلك يتركز الحاضر في عقله كمصدرٍ تفكير وإلهام، وأيضاً لا تتجانب وتتناقض في نفسه المثل الأدبيّة لجيله، والمثل التي اصطنعها له منهجُ التربويّ. فإذا درس

برؤية غير متكافئة فإنه يورث الأعراض المرضية. وهذا التّأليف يأتي من جانب التاريخ بما يؤلّده من الشعور المشترك بين الأفراد. وأما الإغداد الذي يتّصل بأسباب التفكير والمثل فأتيكاس.

(٢٩) المعروف في طريقة درسيه أنا تُروّي النّاشيء نصوص جري والأخطل وبشار ومن إليهم. فإذا تركّزت طرائقهم في نفسه لم يجاوزها إلا في جهد شاق، كما أن نموّة الأدبي يكون غير طبيعي لأنه لم يبتدأ من حيث انتهى آخر أدب، بل يبتدئ من حيث أبتدأ، فقصاره إذا أن يجيء بمثل ما جاء به، أو أن يزيد عنه في مقدار قصير. وسببه أن تكوين الأدباء في كل جيل يتبع الطريقة عتيها، فالنصوص التي كوّنت أدب المتنبي هي التي كوّنت أدب شوقي، فلا بدع إذا وجدنا خطي التجديد قصيرة جداً. وهنا أقول شهادة حق أنه لولا الدوريات الشهرية والأسبوعية واليومية من مجلات وجرائد، لتخلّف النّشء في هذا الجانب عن ركب العصر، ولظلّ حبيس «قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل»، كما أدركه أبو نواس بالمعيرة نقاذة، والمعيرة زوادة:

قُلْ لِمَنْ ظَلُّ عَلَى دَارِ دَرَسٍ قَائِماً مَا ضَرُّ لَوْ كَانَ مَجْلَسٌ  
فالتصحيح الواجب يأتي وفق ما أشرنا.

وأرى في أيماننا من يُنلغ جيده ويضع رأسه لأخذ الدّرب الواجب في الدراسات الأدبية؛ ولكن لا تنس ولا يغيب عن خاطرك أنني كتبت ما كتبت في أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات، من هذا القرن... ودون تلك الحقبة، معجزة التّوراة التّفصيلية، التي جعلت وبصدق، ما بين الهنيئة والهنيئة كما بين جيل وجيل.



بعد ذلك الأدب وتاريخه أستطاع أن يُدرك قصوره أو تماثله، لأنه يدرسه بعقلية فيها بعض الغربة عنه، عدا عما يُورث المنهج المُتَّبَع من تذبذب في المُثُل عند الناس حين نرويه مثلاً أدبيةً لعصور مختلفة، إذا اختلطت أعطت مثلاً مشوشاً أو مشوهاً.

ولقد بالغ الباحثون بإضافة هذه الآثار إلى الوراثة وهو خطأ، لأن الوراثة تجد في المناهج<sup>(٣٠)</sup> المُتَّبَع ما يُساعدُها من حيث يتقَمَّص الماضي فيها على شكل بارز، وأنا أقرُّ هذا هنا كعلّة إبطاء في سير الجيل، من وجهة تاريخية خالصة.

### نظرية جديدة في تعليل التوسع (Expansion) ومنها:

١- غلبة مذهب مُتَطَرِّف وتطبيقه بالعنف كما لو قُدِّر للبشرية أن تُسيطر على النصف الثاني من هذا الجيل، فإنها تُمرُّ به مرّاً سريعاً. فمن أكبر واجبات المؤرخ إذاً، أن يتحقق جيداً من علاقة التاريخ بالأفكار العامة المسيطرة على الجماهير، فإن انتصار مدرسة بتعاليمها تُوجّه قضية التاريخ توجيهاً خاصاً يدفع بها إلى الأمام، أو يردّها إلى الوراء.

ولما نرى تشخيص مثل هذه العلاقة واجباً على المؤرخ لأن التاريخ في أكبر بواعثه وليد فكرة<sup>(٣١)</sup> الفيلسوف حين تصوّر جزءاً من تفكير الجماعة، أو الطاغية أو هما جميعاً.

(٣٠) وخطأ المنهج التربوي أكثر ما يظهر في درس القانون بحكم أنه يُستمد من قوانين قديمة تستند إلى العرف والعادة، ومن قضايا سابقة أُخذت فيها أحكام قضائية، رغم أن مفهوم العدالة والظلم والجريمة والعقاب، وما يتفرع عنها يتغيّر دائماً بتغير الصفات والملابس الأدبية العامة، وعليه فليس من الجائز أن تبقى التعميمات في القانون حافظة لشكليتها وروحها، كما لا يجوز أن تُجعل منابع التفريعات فيه مُتَحَدِّرة من الماضي الذي لا يُسانده الحاضر. وهذا تعليل بطيء تطوّر القانون بالخصوص، وتحوّل القانوني من أية محاولة تشريعية جديدة، لأن دراسته له على هذا الشكل أدخل في فطرته نوعاً من التمسك والحذر، رغم أن أحكامه تُبَعَّد كثيراً عن حاضر الناس.

(٣١) مثال الأول الماركسية، فقد كانت فكرة شخص، ولما بُنيت الجماعة كفكرة قائدة لجملة أفكارها بعثت قضية التاريخ على لونها الخاص. ومثال الثاني طغيان الأمم البدائية كعزو البربر لروما، وأجتياح التتر لآسيا، والفرق بين التوسع الذي يكون وليد التفاعل بين فكرتين وبين التوسع الذي يكون وليد فكرة الطاغية، أن الأول يحدث انقلاباً تاريخياً من حيث إنه عزو للأفكار أيضاً، بينما الثاني مدّ



وفي حالة ما إذا آتت حدث هاتان الفكرتان، يتغير وجه التاريخ ويتشكل الانقلاب. نأخذ مثلاً الاجتياح اليوناني<sup>(٣٢)</sup> في عهد الاسكندر، والاجتياح الفرنسي في عهد نابليون. فالجماعة ذات الفكرة الفلسفية فيهما حين سيطر عليها طاغية أو فاتح غير محدود الأطماع تحدث دائماً انقلاباً في التاريخ.

والاجتياح العربي<sup>(٣٣)</sup> شكل من هذا الاتحاد بين فكرتين: فكرة الإسلام الفلسفية، وفكرة الفاتح غير المحدود الأطماع، كعمر بن الخطاب مثلاً<sup>(٣٤)</sup>.

فنابوليون لو ظهر في غير ذلك العهد من تاريخ فرنسا الذي قام على فكرة فلسفية من العقل الجديد، لكان قصاراه أن يجيء قائداً من شاكلة هنيبل القرطاجي. والملاحظ في هذه الانقلابات أنها لا تتم إلا على أيدي الجماعة الذين تتذبذب في رؤوسهم الفكرة

---

فقط ثم ينجز بعد حين بدون أن يشرك طامعاً خاصاً، فالأول انقلاب والثاني انتشار.

(٣٢) الاجتياح اليوناني تم في حين، كانت فيه الفكرة الفلسفية للجمهور الإغريقي في شيء غير قليل من التسامي المنفعل بالنظريات المختلفة. فقد كانت الفلسفة في إبان استوائها واستهوائها، وتم من بنائيتها الشرف التي اشتأملت أن يقف فيها أرسطو مؤسلاً قواعد النظام الفكري البذع آنذاك.

(٣٣) إن الاجتياح العربي لا يمكن تقيله إلا بما قدّمنا، وذهاب مؤرخي العرب مذهب المستشرقين في تعليقه بيقظة القومية التي هي عندهم نظرية عائمة في كل توسع وانتشار، خطأ مزدوج، لأن الفكرة من أساسها خطأ وتطبيقها على التوسع العربي خطأ آخر. فإن الوثائق مجمعة على أن العرب لم يتقربوا إلى القومية إلا على شكل جزئي، وفي عهد الأمويين فقط، بمعنى أنها لم تكن قاعدة الدولة في أي دور من أدوار حكومتهم. وسببه أن التعليم الجديد الذي جاء به النبي (ص) كان بشرياً عاماً، نقلهم من القبيلة إلى الجامعة الكلية في إطار تصور متسام خاص أخذ شكلاً إنسانياً بدخول الأجناس والعناصر المختلفة فيها. وأغرق من كل هذه الآراء في السطحية رأي الدكتور غوستاف لوبون الذي صعدته كتاب: مقدمة الحضارات الأولى حيث علل الاجتياح الفرنسي بتأثير الأمان، وهو - كما ترى - وصفي مختص، والاجتياح العربي بتأثير المعتقد الجديد الذي اشتغل له النبي (ص) الحماس الزوحي من جذوة الطبيعة العربية، راجع ص ١٢٤.

(٣٤) سيأتي لنا في بحث النظام العام أن سياسة عمر كانت سياسة حرية خالصة قعد العرب للانتشار في مدى «ياي الله إلا أن ينم نوره» أي تحقيقاً لهذه الغاية.



الفلسفية في نوع من الامتحان العقلي بحكم الجدة، وليس على أيدي الذين يشتسلمون لفكرة فلسفية في نوع من الإيمان الوجداني العميق بحكم الوراثية والتلبد، لما يفقدونه من الحماس والثورة للمبدأ. فسبيل إحداث الانقلابات التاريخية، أن تفتن الناس بفكرة مغرية ومعتقد أيضاً، والتعقيد ضروري لأنه يحمل الجماعة على التفكير الطويل في نوع من التساؤل المستمر؛ وأما الفكرة الساذجة البسيطة فإنها تحدث من أول الأمر نوعاً من الاستسلام أو الهمود العقلي.

والنظرية الحديثة في التاريخ تُعَلِّل الانتشار أو التوسع (Expansion) بِقِطْعة القوميات، وبهذا فسروا توسع اليونان والرومان والعرب. وهو في نظري تعليل سطحي مغرق في السطحية، وإن كنت لا أنكر بأن قِطْعة القوميات باعث من بواعث التنافر الاجتماعي. ولكنه لا يبلغ بالتنافر حد الغاية الذي يُشكِّل الاحتياح. إن سير الاحتياح مُستَكِن في هذا التفاعل أو الاتحاد العقلي بين فكرتين.

٢- سيطرة العلم والاكتشافات في جيل ما فسيطرتُه مثلاً على الاجتماع والصناعة والحرب يجعل التطور سريعاً سرعة هائلة<sup>(٣٥)</sup>.

٣- التغيرات الجغرافية سواء كانت نتيجة لعوامل طبيعية أو إرادية، طموحية أو تصادفية، كالأسر النهرية وقناة السويس وقناة بنما والمسالك<sup>(٣٦)</sup> الجديدة التي كشفها فتوح جنكيزخان. فإن الثاني غيّر علاقات الشرق بالغرب من الوجهتين السياسية والحربية، ولا يزال باعثاً هاماً من بواعث التاريخ الحديث.

٤- أهلية شعب أكثر من سواه للتغير الموزون ويعنون بهذا استعداد الشعب وقابليته لإخراج صفتين متضادتين هما الثبات والتغير أو الثابت والمتحول في موازنة دقيقة. وبذلك يخضع نفسه لقوانين ثابتة، ويحصل تدرجاً على صفات جديدة، إذ تكون حركته

(٣٥) و(٣٦) راجع كتاب: علم التاريخ للأستاذ هرنشو، ص ٥٠.



أشبه بالموجة التي تُحْدِثُهَا الحِصَاةُ فِي الْمَاءِ، فَهِيَ تُفْضِي إِلَى حَرَكَاتٍ مُتَعَاكِبَةٍ أَوْسَعَ مِنْهَا، وَلَكِنْ فِي غَيْرِ خُرُوجٍ عَلَى النُّقْطَةِ الْأُولَى الْمَرْكَزِيَّةِ.

وَسَيُظْهَرُ لَكَ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ الطَّبِيعَةَ الْعَرَبِيَّةَ تَمِيلُ إِلَى الْمُحَافَظَةِ أَوْ الثَّبَاتِ، فَهِيَ غَيْرُ مَرْنَةٍ إِلَّا فِي حَدٍّ يَسِيرٍ فِي خَصَائِصِهَا الْأَدَبِيَّةِ. وَهَذَا مَا جَعَلَهَا تَتَفَاعَلُ بِخَصَائِصِهَا الرُّكِينَةِ مَعَ خَصَائِصِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى تَفَاعُلَ تَغْيِيرٍ، وَلَيْسَ تَفَاعُلَ اتِّحَادٍ. وَهَذَا أَيْضاً يُفَسِّرُ لَنَا السَّبَبَ فِي تَأْثِيرِ الْيَهُودِ بِالطَّبَاعِ الْعَرَبِيَّةِ وَخَصَائِصِ الْعَرَبِ الْأَدَبِيَّةِ حِينَ حَلُّوا عَلَيْهِمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، دُونَ أَنْ يُؤَثِّرُوا فِيهِمْ إِلَّا بِمِقْدَارٍ، كَمَا يُفَسِّرُ سِرَّ آتِلَاعِ الْعَرَبِ لَخَصَائِصِ أَيْ قَبِيلٍ نَزَلُوا عَلَيْهِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، وَفَرَضَ خَصَائِصَهُمْ وَحَدَّهَا. وَلِذَلِكَ أَعْتَقِدُ أَنَّ الْعَرَبَ لَوْ هَضَمُوا تَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ قَبْلَ مُحَاوَلَةِ التَّوَسُّعِ لَبُدِّلَ جُمُودُهُمْ بِمَرُونَةٍ غَيْرِ قَلِيلَةٍ، فَمَا لَاحَظَهُ آبُنُ خَلْدُونٍ عَلَى الْعَرَبِ فِي مَذَاهِبِ الْحُكْمِ وَالْدَّوْلَةِ آتٍ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ. وَالَّذِي يَنْقُضُ أَنْ يَكُونَ هَذَا طَبِيعَةً فِيهِمْ تَتَّصِلُ بِالْعُنْصُرِيَّةِ، اسْتِعْدَادُ الْعَرَبِ الْيَوْمَ لِلانْطِبَاعِ بِشَتَّى الْأَشْكَالِ، وَمَرُونَتُهُمُ الظَّاهِرَةُ. وَشَاهِدٌ آخَرُ وَقَعَ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ يُوضِّحُ مَا تُقَرَّرُ، فَقَدْ شَهِدْنَا حُكُومَةَ قَرِيشِ الْمَرْنَةِ فِي عَهْدِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِحُكْمِ رُقِيَّهَا الْقَدِيمِ، وَشَهِدْنَا حُكُومَةَ الْقَبَائِلِ فِي الْأَنْدَلُسِ الَّتِي قَدَّمَتْ مُلُوكَ الطَّوَائِفِ. فَإِنَّ الْأُولَى اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُقَدِّمَ لَنَا نَمُودَجاً صَالِحاً مِنْ وَجْهَةِ عِلْمِ السِّيَاسَةِ لِكَلِمَةِ دَوْلَةٍ، بَيْنَمَا الشَّكْلُ الَّذِي قَدَّمْتُهُ الْأُخْرَى أَقْرَبُ إِلَى اللَّوْنِ الْإِقْطَاعِيِّ. وَفِي نَظَرِي أَنَّ الثَّوْرَةَ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ التَّنَاحُرِ بَيْنَ الْخَصَائِصِ الْعَرَبِيَّةِ الثَّابِتَةِ وَالْخَصَائِصِ الْأُخْرَى الْمَرْنَةِ، وَقَدْ آتَتْهُتْ بِغَلَبَةِ الثَّانِيَةِ غَلَبَةً غَيْرَ حَاسِمَةٍ.

وَهَذِهِ الدَّوَاعِي لِكُلِّ مِنْهَا تَأْثِيرٌ فِي تَصْحِيحِ حِسَابِ النُّسْبَةِ وَتَعْدِيلِ الْمِيزَانِ التَّارِيخِيِّ عَلَى الْوَجْهِ الْمَقْصُودِ. وَالْمِيزَانُ التَّارِيخِيُّ بِحُكْمِ مُقَدِّمَاتِهِ الثَّابِتَةِ وَهِيَ:

١- خَضُوعُ<sup>(٣٧)</sup> الْاِزْتِقَاءِ الْعَامِّ لِلتَّطَوُّرِ الْعُضُويِّ وَالْغَرِيزِيِّ.

(٣٧) رَاجِعْ بُرْهَانَ هَامِلْتُونٍ عَلَى الْحَوَادِثِ الْإِرَادِيَّةِ الَّتِي لَا تَشْعُرُ بِهَا، الْمُقْتَبَسَ مِنْ أَفْكَارِ لَيْبْنِيزِ.



٢- إحتفاظ التطور مطلقاً بنسبته ضرورة أمتناع الطفرة.

٣- مشابهة حياة الكائن الاجتماعي لحياة الفرد على ما أثبتته هربرت سبنسر، وهذا يظهر شدة اتصال ما بين الفرد والجماعة، وتخضوعهما لقوانين واحدة.

نجد أنفسنا مطمئنين إليه نظرياً، وأما هو من الوجهة العملية فيحتاج إلى تقص وأستقراء وفرض للنسب العددية على شكل رياضي صحيح في كل الشعب العضوية وما يتصل بها.

فالتاريخ في عرفي هو حالة الانتقال من التجانس الاجتماعي إلى التنافر الاجتماعي الدوري، أو هو الشادي بين التطور والارتقاء، وذلك على النحو الذي أضطلحناه. فإننا خصصنا كلمة التطور بالتغاير العضوي أو الكمي وهو خاص بالأفراد، وكلمة الارتقاء بالتغاير في الصفات الأدبية، أو الكيفي وهو خاص بالجماعة. ولا شك في أن الحالات البدائية للإنسان كانت مجانساً اجتماعياً صرفاً، والارتقاء المتشعب الذي هو سنة لا معدل عنها، والذي هو منفعل بالبيئة الطبيعية، ثم بالمؤثرات النفسية التي تهيئها عوامل البيئة الطبيعية، ثم بالبيئة الاجتماعية التي تهيئها العوامل المشتركة من البيئة الطبيعية والمؤثرات النفسية، يسوق إلى التنافر الاجتماعي حتماً، وهذا الانتقال الدوري الدائم هو التاريخ؛ فحروب إسبرطة وأثينا انتقال من التجانس الاجتماعي إلى التنافر الاجتماعي، ومن قبلها حرب طروادة.

والباعث التاريخي، في نظري، هو سيطرة الإرادي<sup>(٣٨)</sup> على اللاإرادي في الفرد،

(٣٨) وعلة هذا ما تقدمنا به من سيطرة العقل الباطن على الإنسان كلما كان أقرب إلى الغريزية، بمقدار أعظم من سيطرة العقل الظاهر. وظاهرة هذا في الإنسان البدائي أنه يميل إلى الاندفاع والتحمس أكثر من ميله إلى المحاكمة العقلية، بينما الإنسان الأرقى يكون بالعكس تماماً، مثلاً إذا أهيئ الإنسان الأقل رقياً تحمس وأندفع آتدفاعاً لا إرادياً، بيد أن الإنسان الأرقى يميل بها أولاً إلى المحاكمة العقلية التي تخفف من غلواء الحماس والاندفاع. فما وقع في تفكير القدماء من أن الإنسان مسير لا مخير، حقيقي من حيث النتيجة، وإن كان خطأ من حيث التفسير. وعذر القدماء أنهم يغزون كل ما يخرج عن دائرة الإرادة إلى الغيب. وقوة هذه الظاهرة في الجماعة آتية من أنها تضم أفراداً ليسوا على درجة واحدة من التكافؤ الارتقائي، وأن الإنسان واصل لا محالة - إلى آخيكام غرايزه آخيكاماً



وسيطرة الفردية بالجماعية في المجموع، وطابع الجموع الشعور دون التعقل. ومن هذا يظهر ما في رأي بنيامين كيد من عدم الشمول حين ردّ بواعث التاريخ إلى الطبيعة في الجماعة التي لا تنفك تعمل على إخضاع قوة التعقل لقوة الشعور.

هذا حقيقي ولكن وراءه شيء آخر هو العامل في طبيعة الجماعة التي لا تفتأ تتحرك بقوة الشعور، وهو خضوع الفرد للإرادة بأكثر من الإرادة، ومظاهر هذا الخضوع تطبع الجماعة بالطابع المذكور وتميل بها إليه. وكلما كان الفرد أقرب إلى الغريزية كان أكثر خضوعاً للإرادة، ويمكننا أن نسمي طابع الجماعة هذا غريزة اجتماعية. وعليه فخضوع الفرد للإرادة صفة حيوية، وخضوع الجماعة لقوة الشعور صفة اجتماعية. وبهذا نستطيع أن نجعل بواعث الاضطرابات في التاريخ بتعبير دقيق وهو: ضعف السيطرة العقلية في كل من الفرد والجماعة، وإن كان ظهورها في الجماعة يترسم بشكل أوضح.

### مفهوم ثورة وفوضى

والشيء الذي لا أرى البحث في أضيق حدوده يتيّم بدونه هو بحث مفهومي كلمتي فوضى<sup>(٣٩)</sup> وثورة، وأثرهما في التاريخ. وهما عندي: الارتياح في المثل الأعلى في شكل ما يكون عملاً عنيفاً، والفرق بينهما أن الثورة تتجه وراء هدف معين وفكرة محدّدة، بينما الفوضى لا تتمثل فكرة معينة بل هي ارتياح فقط.

---

مطلقاً، وإخضاع مناطق اللاوعي إخضاعاً، في حدّ ما، أو كلياً بحكم الارتقاء، ومن ثمّ نطفر بالإنسان المنطقي أو الإنسان الإرادي، وبالتالي نطفر بالجماعة المتكافئة، وإن من الخطأ الكبير الذي وقع في وهم العلماء تقرير الفكرة القابلة بأنه كلما ارتقت الأمة عظمت الفروق بين أفرادها، فإن مقتضى نظرية التكامل إلى سيطرة العقل والإرادة التي نفّزها أن الأفراد ستفضي في النهاية إلى حالة من التجانس في الصفات العقلية وفي نظري أن العالم صائر إلى التجانسية في المميزات النفسية والأدبية والاجتماعية.

(٣٩) وكثيراً ما تتداخلان، فإن الثورة الفرنسية ثورة وفوضى، لأن الوضع الذي اشتقرت عليه لم يكن هدفاً لها منذ البدء بل أشلّت نفسها إلى الظروف التي لعبت بها زمناً غير قليل، ثم أقرتها على وضع نهائي بنفسه تقريباً، وكذلك الثورة على عثمان كانت ثورة وفوضى.



وَكُلَّمَا كَانَتِ الْأُمَّةُ أَكْثَرَ آرْتِيَاباً فِي الْمَثَلِ<sup>(٤٠)</sup> كَانَتْ أَحْيَا وَأَغْزَرَ إِنتَاجاً. وَهَذَا تَفْسِيرٌ نَدْخُلُ بِهِ عَلَى كُلِّ شُعْبِ الْمَعْرِفَةِ أَيْضاً، فَنَظَرِيَّةُ كوبرنيك فِي النُّظَامِ الشَّمْسِيِّ آرْتِيَابٌ فِي الْمَثَلِ الْفَلَكِيِّ، وَنَظَرِيَّةُ ديكارت آرْتِيَابٌ فِي الْمَثَلِ الْمَنْهَجِيِّ، وَنَظَرِيَّةُ سبينوزا آرْتِيَابٌ فِي الْمَثَلِ الْإِلَهِيِّ، وَنَظَرِيَّةُ الرومانيين آرْتِيَابٌ فِي الْمَثَلِ الْكِلَاسِيكِيِّ، وَكَذَلِكَ نَظَرِيَّاتُ داروين وَكَانْتِ وَمَارْكْس، وَهَذِهِ ثَوَرَاتٌ عِلْمِيَّةٌ وَأَدَبِيَّةٌ لِأَنَّهَا تُدَاوِرُ فِكْرَةً بَعِينَهَا فِي مُحَاوَلَةِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا. وَإِنَّ أَفْكَارَ أَبِي الْعَلَاءِ آرْتِيَابٌ فِي الْمَثَلِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَوْضَاعِ، وَأَفْكَارُ نيتشه آرْتِيَابٌ فِي النُّظَامِ الْعَامِّ، وَنَظَرِيَّةُ اللَّأَذْرِيَّةِ آرْتِيَابٌ فِي عُنَاصِرِ الْفِكْرِ الْمَنْطِقِيِّ، وَهَذِهِ فَوْضَى فِي الْفِكْرِ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَمَثُّ هَذَا مُعَيَّناً.

وَمِنْ وَجْهِ آخَرَ، الْفَوْضَى وَكَذَلِكَ الثَّوْرَةُ، حَرَكَةُ النَّهْضَةِ الْعَنِيفَةِ، فَهِيَ لِعُغْفِهَا مِنْ نَاحِيَةٍ، وَلِأَنَّهَا تَفَاعُلٌ تَصَاغِدِيٌّ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، تَعْمَلُ ضَجِيجاً وَتُحْدِثُ أَصْدَاءَ مُخْتَلِطَةً تُعَبِّرُ عَنْهَا مِنْ الْجِهَةِ الْوُضُفِيَّةِ بِالْفَوْضَى، وَإِلَّا فَهَذِهِ الْحَرَكَةُ فِي صَمِيمِهَا هِجْرَةٌ مِنْ أَدْنَى إِلَى أَعْلَى. فَالْفَوْضَى الْاجْتِمَاعِيَّةُ هِجْرَةٌ إِلَى وَضْعٍ أَنْهَضَ وَأَكْثَرَ ثَبَاتاً وَصَلَاحَةً فِي الْاجْتِمَاعِ، وَهِيَ كَلِمَةٌ لَا تُعْطِي مَعْنًى تَحْقِيقِيّاً وَإِنَّمَا تُعَبِّرُ عَنْ حَالَةٍ وَضُفِيَّةٍ خَالِصَةٍ ثَلَاثِشِ الظُّوَاهِرِ الْمُتَعَاكِسَةِ

(٤٠) وَشَاهِدُ هَذَا، الْإِغْرِيقِيُّونَ الْقَدَمَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يُصَحِّحُونَ عَلَى الدَّوَامِ مَثَلَهُمُ الْعِلْمِيَّةَ وَالْأَدَبِيَّةَ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَثَلٌ ثَابِتٌ، وَفَلَسَفَتُهُمْ تُعَبِّرُ عَنْ إِغْصَارِ عَقْلِيٍّ كَبِيرٍ. فَلَمَّا تَدَبَّرُوا بِالنُّضْرَانِيَّةِ وَتَرَكُزَتْ عَنْدهُمْ كَمَثَلٍ أَعْلَى فَوْقَ التَّقْدِ أَنْطَبَعُوا بِطَائِعِ الْاسْتِسْلَامِ الْعَقْلِيِّ، وَخَذُوا ذَلِكَ مِنْ نَشَاطِلِهِمُ الْفِكْرِيَّ وَفَقَدُوا الْقُدْرَةَ عَلَى الْإِنْتِاجِ الَّذِي تَعَبَّرُوا بِهِ فِي التَّارِيخِ، مُضَافاً إِلَى ذَلِكَ غَوَايِلُ السَّقُوطِ السِّيَاسِيِّ وَالْإِنْحِلَالِ الْاجْتِمَاعِيِّ. وَنَظَرِيَّتِي فِي الْأَدْيَانِ الْمُصَمَّتَةِ الَّتِي لَا تَتَجَاوَبُ بَرَيْنَ مَا يُتَوَقَّعُ عَلَيْهَا، أَنَّهَا تُطْبَعُ الْعَقْلِيَّةُ بِطَائِعِ الرُّضُوحِ بِمَا تُفَرِّضُ مِنْ مَثَلٍ خَاصَّةٍ مَغْمُورَةٍ بِغُنْصَرِ الْقَدَاسَةِ الَّذِي يَمْتَدُّ بِأَثَرِهِ عَلَى مَنَاحِي التَّفَكِيرِ الْعَامِّ فَيُنْشِئُهَا وَيُخْضِعُهَا، وَأَخْيَاناً يُشَلِّهَا. وَبِذَلِكَ تُفَقِّدُ الْعُقُولُ مِيزَةَ التَّقْدِ الَّذِي هُوَ الْعَايِلُ الْخَلَاقُ. وَهَذَا هُوَ التَّعْلِيلُ لِضُرُورَةِ الْإِنْتِاجِ عِنْدَ رِجَالِ الدِّينِ، وَالْمَنْتَجُ الْكَبِيرُ فِيهِمْ شَاكٌ أَوْ كَالشَّكِّ. وَلِذَلِكَ كَانَ أَفْضَلُ الْأَدْيَانِ الدِّينُ الَّذِي يَدْفَعُ مُعْتَبِقِهِ إِلَى الشَّكِّ قَبْلَ الْإِيمَانِ، وَإِلَى تَضَحِيحِ الْعَقَائِدِ الْأُصُولِيَّةِ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِمْتِحَانِ الْمَنْطِقِيِّ، كَالْإِسْلَامِ الَّذِي قَدَّمَ لِمَعْتَبِقِهِ قَانُونََ التَّخْلِيلِ أَوْ الْمِيزَانَ الْإِبْرَاهِيمِيَّ الْوَارِدَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ حِكَايَةً عَنْ إِبْرَاهِيمَ (ع) «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي» (الأنعام ٦: الآية ٧٦). رَاجِعْ: الْقِسْطَاسُ الْمُسْتَقِيمُ لِلغَزَالِيِّ.



للنهضة، وتحمل صورة من ظلالها وألوانها المختلطة آخيلاطاً تداوياً<sup>(٤١)</sup>. وهذا يظهر بوضوح خطأ الظن السائد بأن الثورة نتيجة فساد النظم، والواقع أنها نتيجة سُمو الكائن عن نُظمه في دائرة الفكر والحياة العامة، فهو لذلك يطلب مجتمعاً يتناسب مع عُرْفه الراهن الذي يُخامره في العتيد الحاضر أي يداخله للآن والإبان.

نجد بعد هذا التفسير الذي تقدّمنا به، حتى الفوضى، ولا يصرفك عن هذا النظر أنها مُفردة توحى بما يُشِين، لأنها على أي حال نفسياً واجتماعياً، تُعبّر عن رجّة عَنيفة تَمَسُّ الأفيدة والعقول فتنبعث فيها تيارات جديدة تختلف قوة وضعفاً، ولا تخلو ملبساتها عن تغيير في أزيكاز الآفاق العامة للأوضاع، أو تعديل في الشنن المفروضة. ولا شك في أن عملية البعث التي تستنّها ككل أزيات في مثل أعلى أتباعي مَعهود، ثم ما تُوالي به من شتى الألوان والتشكلات، تُعد<sup>(٤٢)</sup> الإنسان في خاصّياته النفسية، وفي حالات اجتماعه، لشيء جديد. والفوضى، بقطع النظر عن إحاثها، عامل حفر<sup>(٤٣)</sup> على الدوام حتى ولو تشكّلت بشكل العنف فإنها لا تفقد ميزتها الخاصة.

وعليه فالفوضى - وكذلك الثورة - ليست مظهراً تشاؤمياً، بل هي قوّة في حقل التاريخ، وحياة وإلحاح في طلب ما هو أكمل من الأوضاع السائدة.

هذا تفسير للفوضى والثورة، وإن يكن غريباً إلا أنه حقيقي، قصّدت به أن أصحّح ما قد يقع به المؤرّخون من تسارع إلى الحكم بالانحراف على أيّة بيئة علقت فيها الفوضى. وسنرى أن الثورة الفوضوية التي وقّعت في عهد عثمان وتواصل مدّها إلى عهد معاوية،

(٤١) من قول العرب «تدأبت الرياح» إذا هبّت من كلّ جانب.

(٤٢) والأمثلة على هذا كثيرة لا نقتصرُ لذكر شيء منها وأما نحيل القاريء إلى كتاب: مقدمة الحضارات الأولى لغوستاف

لوبون، ص ص ١١٧ - ١٢٠.

(٤٣) من يُنكر أن الفلسفة اللاأدرية هي التي قدّمت فلسفة سُقراط.



كانت لخير الحكومة العربية كوضع بقطع النظر عن وقع عليه بلواها، حين بنتها بناء أقوى في الإدارة والسياسة، وأوجدت معارضة متطرفة فعالة انتظمت في الخوارج والشيعة، ومعارضة معتدلة انتظمت في رجال الإصلاح أمثال سعيد بن جبير وأبن أبي ليلى في انتفاضة آبن الأشعث، التي عرفت عند بعض المؤرخين بثورة الفقهاء.

والتاريخ في غير توسعة آخذ بتحقيق الصفة العلمية له وعمّا قريب أيضاً، وإن كان لا يزال في الاعتبار المدرسي قوفاً من الآداب.

والآن نلخص المراحل الهامة التي يجب أن يقطعها المؤرخ ليشتقي له تقديم دراسة ذات شأن إلى حد ما. ومراحل<sup>(٤٤)</sup> البحث التاريخي الكامل أربع:

الأولى: مرحلة التجميع، وهي تعني جمع أكثر ما يمكن من الوثائق والمصادر الأخرى كشكل العدد والخصون وطريقة قطع الأحجار في البناء والصور والنقوش، ولم تنزل الوثائق هي المصدر المهم للمؤرخ، حتى قال شارل سنيوبوس: لا تاريخ بغير وثائق.

الثانية: مرحلة النقد، وهي تعني فحص عبارات الوثائق، وتدقيق الأصول الأخرى، ومناقشة استعمال الألفاظ من حيث دلالتها الزمنية التي هي دأب التغير. فالكلمة الواحدة تستعمل في جيل بمعنى يخالف معناها في الجيل الآخر، ككلمة «برهة» في الكتب الأقدم بمعنى الحين الطويل من الزمن، وفي الكتب الأحدث بمعنى اللحظة الزمنية الخاطفة وهذا يحتاج إلى معاناة كبرى وجهد متشعب الأطراف. ودائماً تكون أقدم الوثائق أجدر بالاعتماد، وهي تبعث على الشك في الزيادات التي تحتفظ بها الوثائق المتأخرة ولكن لا تنفيها، لاحتمال أن يكون كاتب الوثيقة المتأخرة قد وقف على وثيقة تعاصرت الأولى وقد انعدمت. ومن هذا يظهر كبر الخطأ الذي يقع فيه بعض<sup>(٤٥)</sup> المؤرخين باعتمادهم اعتماداً

(٤٤) راجع كتاب: علم التاريخ للأستاذ هرنشو، في الترجمة العربية، ص ١١٧ - ١٢٠.

(٤٥) يمثل المؤرخ المصري الأستاذ عبد الحميد القبادي حين أثار الشك حول لقب السفاح، وفي مناقشة الرواية القابلة بإباحة



كُلِّيًا الوثائق المعاصرة للأحداث ونُفِي الزيادات نُفِيًا بَاتًا مُتَذَرَعِينَ بِأَوْهِنِ الوسائلِ الأخرى. ويدخلُ في نقدِ الوثائقِ تصنيفُ الكتبِ من حيثِ اعتمادها ورَدُّها، كالذي حاولَهُ آبنُ خلدونٍ في المُقدِّمة حينَ أُرْسِلَ تَعْمِيمَاتِ فِي كُتُبِ المَسْعُودِيِّ والوَاقِدِيِّ وَمَنْ إِلَيْهِمَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُؤَفِّ التَّصْنِيفَ حَقَّهُ، وَنَرَى ضَرُورَةَ هَذَا التَّصْنِيفِ مِنْ حَيْثُ يَجُزُّنَا الِاعْتِمَادُ<sup>(٤٦)</sup> عَلَى كُلِّ مَا فِيهَا إِلَى مَغَالِطٍ كَبِيرَةٍ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ التَّعْمِيمَاتِ مِنْ جَانِبِ آبنِ خَلْدُونٍ جَاءَتْ فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا كِإِطْلَاقِ الطُّعْنِ فِي نُقُولِ المَسْعُودِيِّ - لِأَنَّهُ أَشْتَمَ مِنْهُ رَائِحَةَ المَيْلِ إِلَى الهَاشِمِيِّينَ - وَهُوَ الَّذِي يَجِدُ فِيهِ المُسْتَشْرِقُونَ مُؤَرِّخًا قَدْ أَجْتَمَعَتْ لَهُ كُلُّ صِفَاتِ المؤرِّخِ الحَقِّ وَمَزَايَاهُ، وَكَامِلُ أَدَوَاتِهِ.

وَشَيْءٌ آخَرُ فِي نَقْدِ الوثائقِ وَهُوَ مَحَاوَلَةُ التَّوْفِيقِ بَيْنَ نُصُوصِهَا مَا أُمَكَّنَ، قَبْلَ اللُّجُوءِ إِلَى المُوَازَنَةِ بَيْنَهَا مُوَازَنَةً تَنْتَهِي بِطَرَحٍ بَعْضٍ وَاعْتِمَادٍ بَعْضٍ.

الثالثة: مرحلة التأويل، وهي أشق المراحل لأنها تقتضي تطبيقاً واسعاً للميزان التاريخي، ونُفُوداً في خفايا الماضي البعيد، وهي لا تستقيم إلا للعَبْقَرِيِّينَ مِنْ أَعْلَامِ التَّارِيخِ. الرابعة: مرحلة صياغة القصة التاريخية، وهي ذاتُ أَهْمِيَّةٍ كُبْرَى لِأَنَّهَا الوَسِيلَةُ إِلَى إِبْرَازِ قِصَّةِ التَّارِيخِ إِبْرَازًا قَوِيًّا، يُخَيِّلُ إِلَيْنَا مَعَهُ أَنَّهُ تَقْرِيرٌ لِلوَاقِعِ فِي شَيْءٍ مِنَ المُشَاهَدَةِ والمُذَانَةِ.

\*

يَزِيدُ لِلْمَدِينَةِ. قَالَ فِي بَعْضِ مُحَاضَرَاتِهِ: «هَذَا مَا قِيلَ فِي بَعْضِ المَصَادِرِ، وَلَكِنَّ الرِّوَايَاتِ القَدِيمَةَ جَدًّا لَا تَذْكُرُ هَذِهِ الإِبَاحَاتِ» وَمَنْ ثُمَّ رَاحَ يُنْكِرُهَا أَوْ يَمِيلُ إِلَى الإِنْكَارِ.

(٤٦) ذَكَرَ فَضِيلَةُ السَّيِّدِ حَبِيبُ العَبِيدِيِّ، مُفْتِي العُصْبِلِ، فِي كِتَابِهِ: النَوَاقِ، حَادِثَةً طَرِيفَةً تَدُورُ حَوْلَ الكُتُبِ الوَثِيقَةِ فِي التَّارِيخِ، فَقَدْ أَتَاهُ شَابٌّ وَبَيْتُهُ كِتَابٌ: إِعْلَامُ النَّاسِ بِمَا وَقَعَ لِلْبَرَامِكَةِ مِنْ بَنِي العَبَّاسِ لِأَتْلِيدِي. يَسْأَلُهُ ذَهْشًا عَنْ خَبَرٍ جَاءَ فِيهِ، وَكَانَ الخَبَرُ مُزْرِيًا بِالرَّشِيدِ. فَعَمَدَ العَبِيدِيُّ إِلَى الصَّفْحَةِ الْأُولَى مِنَ الْكِتَابِ وَوَضَعَ سَبَابَتَهُ عَلَى كَلِمَةٍ فِي مُقَدِّمَتِهِ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا صَحِيحًا فَذَلِكَ صَحِيحٌ». وَكَانَتْ الْكَلِمَةُ قَوْلَ الْمُؤَلِّفِ «أَمَرَنِي مَنْ لَا تَسْغُنِي مُخَالَفَتُهُ بِتَأْلِيفِ هَذَا الْكِتَابِ...».



هذه لمحة قصيرة أردنا بها تقييد فكرة ونفي وهم، وهي مع ذلك تتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع هذا الكتاب الذي يعرضُ لدُرُسِ تاريخ الحسين (ع) بما اشتمل عليه من علل وأسباب، وبما اختلف به من مؤثرات وبواعث. وإذا كان حريّاً بالمؤرخ أن يعرض نتائج، فبالأحرى أن يعرض الطريقة الخاصة التي تأتى بها إلى اصطناع هذه النتائج.

وهذا الكتاب ليس ترجمة حياة، بل هو تاريخ حياة، والغالب في الأولى أن تكون شخصية، أي مقصورة على الشخص وما يتصل به من قُرب، وقلماً تجاوزَ خطوطَ حياته إلا بمقدار، بينما الثانية تُتَّسِعُ لكل ما تُتَّسِعُ له كلمة التاريخ.

وسنجد في هذا الكتاب أيضاً نوعاً من الإشهاد في المقدمات التي توخيناها، لأنها في نظرنا بسائط لكل التاريخي يجب تدقيقها وبحثها بآناة.

وشيء آخر يَحْمِلُنَا على بحث شتى العوامل التي مَسَّتْ عصرَ الخلفاء الراشدين وأثرت فيه، وهو أن عصرَ الخلفاء يَقَعُ في جزءٍ من حياة الحسين التي كانت صلةً بين ثلاثة عهود: عهد النبي (ص)، وعهد الخلفاء، وعهد الدولة الأموية. وكانت ميزة الأول أنه عهد التشريع وسنّ اللوائح، وميزة الثاني أنه عهد الإجراء والتطبيق، وميزة الثالث أنه عهد الانفتاح على أشكال إجرائية تُبيح لنفسها اقتياع الهوى، على نحو كثيراً ما مَسَّ جوهر التشريع.

فتاريخ الحسين من هذه الناحية، يضطرُّنا إلى كثير من التَّجاوُزِ في كثير من الإشهاد. وبذلك أيضاً كان الحسين (ع) أخلق شخصية لدُرُسِ ذلك الجيل، من حيث إنه وَحْدَةٌ<sup>(٤٧)</sup> تاريخية كاملة له، فقد كانت حياته حافلة بقضايا التاريخ، وكانت حياته بعد الموت عاملاً من عوامل التاريخ الإسلامي العام. وهؤلاء الأشخاص الذين هم وُحْدَاتُ

---

(٤٧) يرى بعض المؤرخين اختيار الرجال الذين كانوا يُعَبَّرُونَ عن أجيالهم تعبيراً وافياً بما مرَّ بهم من أطراره لجعلهم وُحْدَاتٍ تاريخية يُكْتَفَى بِدُرُسِهَا عن دُرُسِ الأجيال نفسها كَنَابِلِيُون مثلاً، في زعم من يرى هذا الرأي... وفي أجيال الإسلام نجد الحسين فحسب، خليفاً بأن يكون وَحْدَةٌ تاريخية لجيله.



تاريخية في مثل التعاريف، كُلُّ ما يَقَعُ بعدها شرح وتفسير، أَجْدَرُ ما يكونونَ بالمتنِ لأنَّ جيلهم، بما فيه، شَرَحَ لمذاهب حياتهم الغامضة.

وأنا بعدَ ذلكَ ماضٍ في تقريرِ نتائجي بدونِ ما نَظَرُ إلى كبيرِ مُخالفَتِها للعرفِ التاريخيِّ الشائع، فَرُبَّ غيرِ معروفٍ صارَ لا يُعرفُ سِواه كما قُلْتُ في كتاب: مُقَدِّمة لدرس لغة العرب.

وعلى أنَّ فئةً من الناسِ قد تُعْرِضُ عن هذه النتائجِ إغراضاً كبيراً أو قليلاً، وتتنكَّرُ لها تنكُّراً رُبَّما كانَ وَبِيلاً، فَإِنِّي أَحْسِنُ الظَّنَّ بهم وأُمضي على طيِّتي التي أراني أُخْدِمُ بها قضيةَ تاريخنا الإسلاميِّ. فَإِنَّ مِنَ البرِّ بهذا التاريخِ في حَقْلِ الدِّرسِ أَنْ لا نُنْتَصِرَ كبيرَ آتِّصارٍ لرغائِبنا الخالصةِ منه، وإِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نَتَجَرَّدَ إلى إظهارِهِ بما يَتَناسَبُ مع الحُطَّةِ الموضوعيةِ التي هي وحدها الرُّغْبَةُ الحقيقيةُ للدَّارسينَ، كما لو كُنَّا نَصْطَلِعُ في التاريخِ طريقةً زولا في الروايةِ حينَ أَقامَها على الواقعيةِ (Réalisme)، وهي تُصَوِّرُ الأشخاصَ والحوادثَ كما هي لا كما نُحِبُّ أَنْ تكونَ.

وماذا يُفِيدُ لو أَنَّا تناولنا تاريخنا تناوُلًا ذاتيًّا مَحْضًا سوى الاتِّهامِ وإساءةِ الظَّنِّ في أَنَّا نُورِّخُ ما وَقَعَ إلى ما نَتَشَبَّهُ أَنْ يكونَ واقِعاً. وهذه مُغالَطَةٌ مُزْدَوِجَةٌ على التاريخِ مرَّةً، وعلى أَنفُسنا مرَّةً أُخرى. فَقَدْ آتَّصَرْنَا منذُ زمنٍ مضى ضدَّ نظريَّةِ الطُّوطُمِ والأُموميةِ عندَ العربِ، وكانَ ما كانَ من ثورةِ قَلَمِيَّةٍ كبيرةٍ، ولكنَّها لم تُعَبِّرْ عن شيءٍ، ولم تُدْخِلْ أَيَّ تَغْيِيرٍ في وَجْهَةَ نَظَرِ التاريخِ العِلْمِيِّ، ولا يَزَالُ العلماءُ يَنْظُرُونَ إلى تاريخِ العربِ بالنَّظَرِ الطُّوطُمِيِّ، الَّذِي ثَبَتَ عندهم كمرحلةٍ لا بُدَّ من قَطْعِها في الطريقِ إلى النِّظامِ الأُسْرِيِّ القائمِ على الأُبُوَّةِ، فَاسْتِثْنَاءُ العربِ مُناقَضَةٌ لأوَّلِيَّةِ أَجتماعيةٍ ليس ميزةً أَنْ لا نَقْطَعُها كأَنَّا أَنفِياءُ أَجتماعيونَ وشواذُّ بَشَرِيَّونَ، وإِنَّمَا الميزةُ أَنْ نَخْضَعَ، كَكُلِّ صُنُوفِ الكائنِ الحيِّ، لنواميسِ الارتقاءِ العامةِ.

هذا مَثَلٌ أَرَدْتُ بِهِ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ الثورةَ التي تَأْخُذُنا في مُدافَعَةِ نظريَّةِ نَتَشَبَّهُ بِغيرِها، لا



تُقَلَّلُ من قيمتها. بل هي ماضية في سبيلها لتأخذ مكانها اللائق حتى في أديمغة الثائرين. وهذا هو سحر العلم أو سحر الحقيقة الذي عبّر عنه القرآن بقوله (الاسراء ١٧: ٨١):  
«إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا»

وأي لفظ أُبْلَغ في إفادة هذا المعنى من لفظ القرآن «زهوق»<sup>(٤٨)</sup> الذي هو صورة كثيرة الدقة، كثيرة الإثقان، حين رَسَمَتْ لنا أن من طبيعة الباطل لفظ أنفاسه في تدارك وتتابع وبهر، وأن من تمام وجوده أن لا يتنفس بكل رثيته، مثل السقط الذي مرث به الحياة من بعيد فحرّكته بما تدفعه عنها، لا بما ثبت فيه منها. فهو مولود كامل التكوين فيما يُشكّل ظاهره، غير أنه تزوّر على الطبيعة يُغري الحياة به ولكنه لا يخذلها. وليس يُوجد لفظ وراء لفظ القرآن أوفى بكل هذا المعنى في إيجاز واقتضاب.

ومن الخير أن نضطلع هذا النهج، لأن تاريخ الخلفاء أو تاريخ المسلمين في هذه الفترة غامض أشد الغموض. فقد كان هدوءاً ثم عاصفة تثلو، ولا بُدّ لهذا الهدوء وهذه العاصفة من فواعل، ولا بُدّ في درس تاريخنا من تشخيصها وعرضها عرضاً مُبيناً، لما كان لهذا العهد من تأثير في تسلسل التاريخ الإسلامي العام الذي اندفع به، وتلّون بالألوان التي مزجها له ثم طبّعه بها.

وفي ظني أن أول من تنبّه إلى وجود العلاقة بين الأفكار الدينية القديمة، وبين النزعات المختلفة التي ظهرت بعد ذلك، وإلى وجود العلاقة بين حركة النفاق في عهد النبي (ص) وبين حركات الاضطراب في عهد الخلفاء الراشدين، ثم رمى إلى استيضاح كل هذا، الفيلسوف الإسلامي الكبير عبد الكريم الشهرستاني في كتابه الجمل والنحل، وقد صاغ فكرته في كثير من الأطمئنان والتثبت العلمي. وتحقيق مثل هذه العلاقات وكل ما

(٤٨) وهذا آت من التعبير بـ«زَهَقَ» الثلاثي، و«زَهَقَ» فإن أزمق الرباعي يُفيد أن الإهلاك بفعل فاعل، والثلاثي اللازم يُفيد أن الهلاك طبيعة فيه أو من طبيعته وهذا سير القدول.



يُتَّصِلُ بِذَلِكَ الْمَجْتَمَعِ مِنْ شُؤْنِ الْإِدَارَةِ وَالنُّظَامِ هُوَ الَّذِي أَنْصَرَفْنَا إِلَيْهِ لِيَجِيءَ عَمَلُنَا إِخْصَاءً وَتَغْلِيلًا فِي مَأْتَاةِ التَّارِيخِ، وَبِذَلِكَ نَكُونُ قَدْ أَعْطَيْنَا دِرَاسَةً، إِنْ لَمْ تَكُنْ صَادِقَةً فِي أَصِيلَتِهَا وَتَشَعُّبَاتِهَا، فَلَا تَبْعُدُ عَنِ الصُّدْقِ فِي إِجْمَالِهَا وَجَوْهَرِهَا.

وَلَا تَمْنَعْنِي غَرَابَةُ رَأْيِي أَظُنُّ أَنَّهُ صَحِيحٌ أَوْ أَعْتَقِدُ صِحَّتَهُ مِنْ إِبْدَائِهِ، لِأَنَّ الشُّهُرَةَ لَمْ تَعُدْ أَبَدًا عُنوانَ الْحَقِيقَةِ. وَأَيْضًا لَا يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ رَأْيِي أَنَّهُ قَلِيلُ الْأَنْصَارِ، لِأَنَّ الْحَقَّ الْمَوْضُوعِيَّ لَمْ يَعُدْ يُنَالُ بِالتَّضْوِيَةِ، فَإِنَّ الْإِتِّخَابَ مِنْ عَمَلِ الطَّبِيعَةِ وَهِيَ لَا تُغَالِطُ نَفْسَهَا كَمَا لَا تَعْمِدُ إِلَى التَّزْوِيرِ.

وَأُطْرَفُ شَيْءٍ أَذْكُرُهُ عَنْ ذَلِكَ الطَّرَازِ مِنَ النِّقْدِ الَّذِي يَقُومُ عَلَى الْإِسْتِنْكَارِ دُونَ التَّرْوِي، مَا أَجَابَنِي بِهِ أَحَدُ أَصْدِقَائِي الْبَاحْثِينَ، وَكَانَ نَشَرَ كِتَابًا يَدْرُسُ فِيهِ عُمَرَ الْخَيَّامَ، قَالَ فِي تَصْدِيرِهِ: «أَقْدَمُهُ إِلَى الْقُرَاءِ بِيَدٍ رَاجِفَةٍ»، فَقُلْتُ لَهُ: «يَا هَذَا، تَحَقَّقْ مِنْ مَوْضُوعِكَ ثُمَّ قَدِّمُهُ بِيَدٍ مُطْمَئِنَّةٍ»، فَعَطَفَ عَلَيَّ ضَاحِكًا وَهُوَ يَقُولُ: «لَقَدْ فَصَلْتُ مِنْهُ وَأَنَا أَشَدُّ مَا أَكُونُ ثِقَةً بِنَتَائِجِهِ، وَلَكِنْ مَا تَصْنَعُ بِمَنْ يَكَادُ يَنْقُدُ أَوْ يَنْقُدُ بِالْفِعْلِ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ؟». هَذِهِ كَلِمَةٌ عَابَثَةٌ إِلَّا أَنَّهَا مَرِيرَةٌ حِينَ يَكُونُ فِيهَا نَصِيبٌ مِنَ الْوَاقِعِ غَيْرِ قَلِيلٍ.

وَأَنَا بَعْدَ ذَلِكَ أُدِينُ بِرَأْيِي طَائِفَةً مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ كَانَتْ تُحَرِّمُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَقُولَ مَا لَا يَعْتَقِدُ، لِأَنَّهُ فِي نَظَرِهِمْ يُخَادِعُ نَفْسَهُ وَيَخْدَعُ قَارِئَهُ، وَهُوَ فِي الْحَالَتَيْنِ مُضِلٌّ أَوْ غَوِيٌّ، وَيُسْرُونِي أَنْ لَا أَكُونَ أَحَدَهُمَا، بَلَّةَ أَنْ أَكُونَهُمَا...



مُقدِّمات

لا مَحِيدَ عن درسها جَيِّداً

لفهم التاريخ العربي







## القَبَلِيَّة

أسباب ونتائج: لَبِثَ العَرَبُ على شَكْلٍ وَاحِدٍ لَا يَغْدُوْنَهُ، من أَشْكَالِ الاجْتِمَاعِ وهو ما يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْقَبَلِيَّةِ، بِحُكْمِ البيئَةِ الجغرافيَّةِ التي فَرَضَتْهَا الطَّبِيعَةُ في جَزِيرَتِهِمْ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْقَبَلِيَّةُ وَاجِبَةً مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا أَقْصَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْمَحَ بِهِ طَبِيعَةُ الْأَرْضِ الَّتِي يَعِيشُونَ فَوْقَهَا، فَهِيَ لَا تَمُدُّهُمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا يَتَّسِقُ مع هَذَا النِّظَامِ.

وَنَجِدُ عِنْدَ الْأَخِذِ فِي هَذَا الْبَحْثِ مَسْأَلَتَيْنِ لَا بُدَّ مِنْ فَهْمِهِمَا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وهما: الْقَبَلِيَّةُ، وَرُشُوخُهَا شَكْلًا نِظَامِيًّا كَافِلًا لِلْمُجْتَمَعِ الْخَاصِّ.

أَمَّا أُولَاهُمَا: فَظَاهِرَةٌ تَطَوُّرِيَّةٌ لِلْأُسْرَةِ مُكَبَّرَةٌ، مِنْ شَأْنِ كُلِّ شَعْبٍ أَنْ يَمُرَّ بِهَا فِي أَثْنَاءِ رِحْلَتِهِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الشَّاقَّةِ، وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُ أَنْ يُزَايِلَهَا بِمَا يَمُدُّهُ الْإِقْلِيمُ مِنْ أَسْبَابِ النِّمَاءِ، وَبِمَا يُجْمَعُ لَهُ مِنْ عَوَامِلِ النُّضْجِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ. فَالانتخابُ وبقَاءُ الْأَصْلَحِ فِي الْاجْتِمَاعِ يَتَّبَعَانِ الْمَكَانَ بِأَكْثَرِ مِمَّا يَتَّبَعَانِ طَبِيعَةَ الْبِنَاءِ الْعُضْوِيِّ وَالْدَّمِ أَوِ الْعُنْصُرِيَّةِ<sup>(١)</sup>. عَلَى أَنَّ الْمَفْرُوضَ فِي

(١) هَذِهِ الْكَلِمَةُ بَضْعُونَهَا فِي مُقَابِلِ Racisme وهي تُعَبَّرُ عَنْ فِكْرَةٍ قَدِيمَةٍ جَدًّا إِلَّا أَنَّهَا عُوِلِجَتْ فِي الْمَاضِي عَلَى شَكْلِ وَضْفِي خَالِصٍ وَلَمْ تَظْهَرِ الرُّغْبَةُ فِي مُعَالَجَتِهَا مِنْ نَاحِيَةِ تَقْلِيدِيَّةٍ إِلَّا فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، حِينَ تَقَدَّمَتْ بُحُورُ عِلْمِ الْأَحْيَاءِ وَالتَّشْرِيعِ وَالْاجْتِمَاعِ وَالْآثَارِ. وَأَهَمُّ مَنْ حَمَلَ لَوَاءَ هَذِهِ الْفِكْرَةِ وَتَعَصَّبَ لَهَا فِي أَلْمَانِيَا الْمَوْسِيقَاؤُ الشَّهِيرُ فَاجَنِرُ، وَفِي فَرَنْسَا جُوبِينُو، وَهَذَا يُفْتَبَرُ مِنْ



العنصرية أنها تنتقل من حالة التجانس إلى التنافر أو عدم التكافؤ بفعل الموضع وحده، ثم تثبت الفروق العرقية كطبيعة، يتعاقب التاريخ وتلبّد الصفات، فتبدو المفارقة حينئذ بصورتها المركبة كأنها ذاتية. فنحن هنا لا نذكر ما للتنوع العرقية أي للعنصرية المتخيلة، بما فيها من تشكّل بيئي تاريخي، خيّل، لإيغاله في التاريخ، أنه عرقي من خاصية في حالات الاجتماع العليا، وإنما نميل بها إلى التحديد حتى لا تُضطنّع لدى تحليل الخاصيات الأدبية والعقلية في أبسط ما تكون بساطة.

واضح أنها كنظرية متماسكة القوالب، ومؤلفة: إمامة في تفاوت السلالات البشرية من أشهر ما ألف فيها، وفي إنجلترا هستون ستوارت تشمبرلن. وهذه الفكرة ترمي إلى تقرير أن البشر يتفاوتون في المراكز والعقول والقابليات الاجتماعية والأدبية تفاوتاً ذاتياً بين السوء والإسفاف تبعاً للفروق والسلالات. وانجنى على هذا التصنيف القول بوجوب تحكم الأعلى بالأدنى، وهم يحتفلون اختلافاً كبيراً في تحديد هذه الفروق من حيث الأصالة والهجنة، وكان أكثر هؤلاء مبالغاً في تأييد النظرية وتقريرها على شاكلة علمية، أستاذ فرنسي يدعى فاشيه دولابورج، فقد ألف كتاباً دعاه: الانتخاب الاجتماعية، وقسم البشر إلى سلالات جعل على رأسها السلالة الأوروبية، وأنهى بعد ذلك إلى أن لكل من هذه السلالات خاصيات ذاتية متأصلة، وأن على الفروق مدار كل تطور وأزقاع سواء في الفضائل الجسمية أو النفسية. وكان من نتائج هذه النظرية الويلة أن تحال مذاهب اجتماعية غائبة في التقصّب كالتأريّة في ألمانيا وجمعية «كو كلكس كلان» في أمريكا ومحاولة تقرير مبدأ في علم النفس الجنائي يقضي بأن مجرّد أتهم فرد من السلالة الدنيا يكون كافياً لإدانته، وتقرير مبدأ عدم التساوي في الحقوق المدنية.

والحق أن هذه النظرية، على الشكل المذكور خطأ بالغ لأن دعوى الذاتية في الخصائص هدم لقانون التجانس الذي يقضي به علم الأحياء وهدم لقانون التطور، كما أنها لا تصلح أن تكون مقدّمة تعليلية إلا في فهم التنافر بين الأشكال الأدبية العليا عند الشعوب، وأما الأشكال البسيطة فإن تنافرها يرجع إلى البيئة الجغرافية وحدها التي هي أساس كل تغاير. فإذا درسنا خاصية حب النظام عند الرجل من السلالة الآرية الأوروبية وهشاشيته عند العربي نجدهما يرجعان إلى تأثير الموضع من أقرب طريق. فالعربي الذي ذاته أتيحاج الموعى المتبايد الشقة لن يجد في الطبيعة ما يهيئ له ليكون نظامياً؛ ولكننا إذا درسنا حب النظام عند الرجل الأوروبي، وعند الرجل الألبيني، كما يسميه دولابورج، نجد التفاوت نتيجة لتشكلات العنصرية التي رقدت في رقيها مد التاريخ.

ومما يدل على فساد نظرية العنصرية بالنظر إلى خصائصها الذاتية قابلية العناصر المفروض فيها الامتياز، للاتيكا، وقابلية العناصر الدنيا لنوع من السوء تدريجاً بفاعلية التاريخ. وحكمكم آبن خلدون على العرب جاء من شائبة هذه النظرية، وإن لم تكن أخذت بعد شكائيتها الحديثة وإشكالياتها الجديدة.



وأما ثانيتهما: وهي ثبوت القبليّة في محيط العرب على أنّها شكل اجتماعي كامل الارتقاء، فإنّها تزجّع إلى تأثير<sup>(٢)</sup> البيئة الطبيعيّة التي تعهّدت العرب بالإتماء والتّطوير. وبذلك كانوا أبعد الأمم عهداً بهذا النّظام وتراوْحاً عليه، وكانوا إلى ذلك أكثر النّاس شعوراً بآثاره من حيث إنّ مُجتمَعَهُم استوى في حدوده، ثمّ لم يُجاوِز قواعده إلّا بمقدار لا نسمح لأنفسنا أن ننعته بشيء وراء الاندماج القبليّ الجزئيّ.

فالذي نرغب في تعليله الآن، ليس هو تمذهب العرب في ماضيهم بالمذهب القبليّ، لأنّه سنّة تكاد تكون طبيعيّة، أو هي طبيعيّة بالفعل لأنّها الصّورة المُكبّرة للأُسرة، ولكنّما هو استقرار هذا النّظام لديّهم بحيث كان ظاهرة لازمة لها أبلغ مَساسٍ بتضريف حياة العرب وتلوينها، وهذا ما نُعلّله بالبيئة الجغرافيّة.

والذي نعرفه من تكوين تلك البيئة، أنّها مجموعة من الشّهب والصّحارى، يَنحَسِرُ البَصَرُ دون أن يتناهى في انتظام أزجائها، تَكْسُوها طبقة رابيّة من الرّمال المُلتَهَبَةِ التي تُنْذِيها الشّمس بلعابها الحزور، وتَتَخَلَّلُها جبال كثيرة وأوديّة كثيرة مُخْتَلِفَةُ الخُصوبة تتناثر هنا وهناك.

فطبيعة كهذه لم تكن لِتَسْمَحَ للعرب بالزّراعة - وهي مُقدّمة القوميّة - إلّا في حدّ محدود وفي بعض الأنحاء، ولم تكن تُساعدُهم إلّا على أن يكونوا قبائل رُحَلاً يَنْتَحِجُونَ أي يَنْتَقِلُونَ حيث الماء والكَلأ. وعندي أنّ العمل في الأرض بالزّراعة<sup>(٣)</sup> باعث لكلّ شعور

---

(٢) تأثير البيئة على هذا النّسب مُبرهن عليه في كلّ أنواع الكائن، فإنّا نرى في فصائل التّبات والحيوان كيف تُزوّدُها قواعِلُ الجوّ والبيئة بخصائص كان يُظنّها القدماء ذاتيّة مَحْصُنة كشجر الصّنوبر مثلاً، فقد اكتسب قوّة الألياف من صُموده الطّويل أمام الرّوايح. وأبلغ من هذا في مغرِبِ المثل الحيوانات من الفصيلة الواحدة فإنّها تُخْتَلِفُ اختلافاً كبيراً في الأشكال الجسديّة والأعمال المُضويّة بحسب البيئة، فهي بين إفريقيا وآسيا وأوروبا تتمايز إلى حدّ بعيد واضح.

(٣) واضح أنّ الاستقرار وعشق الموطن والشّعور الشديد بوجوده نتيجة لازمة للحياة الزراعيّة، وأرى أنّ تعلق اليهود بالمال وسياساته من أنجار، والانتحار به، صيرفة وإقراضاً كضمان لمقوماتهم الحيويّة أفرغهم إفرافاً شعوبياً، أو قل اندماجياً في عالم المُسكونة؛ وحذر التّلاشي



بالوطن إذ يُورث الإنسان عِشْقاً مُبْهِماً للأرض التي تَهْبُهُ كُلُّ ما يحتاج إليه من مُقَوِّمات الحياة، وتدعوهُ للانْدماج القومي الصحيح.

فنحنُ مَهْمَا بالغنا في تَفْتِيشِ شِعْرِ العَرَبِ فلنْ نَقَعَ على شيءٍ من الحنين<sup>(٤)</sup> إلى الأرض كالذي نَجِدُهُ عند الفلاحِ الروسي لدى غوغول مثلاً. ولنْ نَقَعَ بين دُمُوعِهِ المنظُومَةِ على دَمْعَةٍ واحدةٍ أُرْسَلَهَا في وداعِ الحَقْلِ، بينما نَجِدُ شيئاً كثيراً من هذا الحنينِ وهذه الدُمُوعِ يَبْثُهَا لِإِلَهِهِ وَخِيبَاءِهِ لَأَنَّهُمَا كَانَا أَكْبَرَ مُقَوِّمَاتِ الحياةِ لديه.

فلَمْ يَكُنِ العَرَبِيُّ فلاحاً لأن بيئته لم تُهَيِّئْ لَهُ ما بِهِ يَكُونُ كَذَلِكَ، وإنَّ أَتْبَاعَهُ القَطْرَةَ من المطرِ حيثُ تَحِلُّ جَعَلَتْهُ مُنْتَجِعاً رَحِالاً، وَأُورَثَتْهُ الاضطرابُ في كُلِّ سَهْلٍ وَحَزْنٍ، ودَعَتْهُ للانْدماجِ ولكنْ في حدودِ القَبِيلَةِ التي يَتَصَوَّرُ فيها أَنَّهَا تَزْجُلُ جَمِيعاً وتَحِلُّ جَمِيعاً. ولذا كَانَتِ العُقُوبَةُ الأَقْصَى والأَقْصَى، هي الخَلْعُ والانتِبادُ بعيداً. وهذه صُورَةٌ حَيَّةٌ رَسَمَهَا الشاعِرُ النَّجاشِي:

وماءِ كلونِ الغِشَلِ قد عادَ آجِناً      قليلٌ به الأصواتُ في بَلَدٍ مَحَلٍ  
وجدتُ عليه الذُّبَّ يَغْوي كَأَنَّهُ      خَلِيعٌ خَلا مِنْ كُلِّ مالٍ وَمِنْ أَهْلِ

وهذا التَّكْوِينُ الطَّبِيعِيُّ لسطحِ الجزيرةِ يُرِينَا كَيْفَ اسْتَطَاعَ العَرَبُ أَنْ يَنْتَقِلُوا مِنْ

---

جعلوا التوارثية عاصماً من الدُّوبان في الأُمم. وهذا سِرٌّ تَعَلُّقُهُمُ التاريخي بالغيتو «الحيي اليهودي»، أُلِّيَ أَنْتَظَمُهُمْ مقام، وأَيَّانَ انتشرَتْهُمْ القبلية في قُرَيْشٍ، فإنَّ التجارة لم تُحاجِزْهُمْ عنها.

(٤) لا يُؤْخَذُ عَلَيْنَا بما يُوجَدُ في الشَّعْرِ العَرَبِيِّ من الحنينِ إلى الأوطانِ، حتَّى أَلَفَ الجاحِظُ رسالةً بهذا الاسمِ جَمَعَ فيها طائِفَةً من الأفاضلِ وطائِفَةً من الشُّعْر، لأَنَّهُا دَمْعَةٌ أَجْرَاهَا ذِكْرُ الصُّبَا وَغُهوْدُ الأُنْسِ. وأما الحنينُ الَّذِي نَعْنِيهِ فهو تِلْكَ العاطفةُ التي تُثِيرُهَا الأَرْضُ بِاعتبارِها شيئاً عزيزاً يَتَّصِلُ بِأَسْبَابِ الحياة، حتَّى لِيَفْضُلُ الحَزْنُ فِرَاقَ الحياةِ على فِرَاقِها. على أَنَّ الشَّعْرَ العَرَبِيَّ يُعَرِّفُنَا أَنَّ العَرَبِيَّ عُلِقَ الرِّيحَ بِأَكْثَرِ مِمَّا عُلِقَ الأَرْضُ لَأَنَّهُا كَانَتْ تَحْمِلُ إِلَيْهِ شيئاً من الطُّرُوةِ والحِفَّةِ والنَّشْوَةِ بنسبةٍ لا يَجِدُهَا في الأَرْضِ، وإِنَّا نُكَلِّفُ الجاهليَّ شَطَطاً إِذَا طالَبْنَاهُ بِشِعْرِ هُوَ أَشْمَى مِنْ واقِعِهِ في المَكَانِ... وإِنِّي أَلْفِتُ نَظَرَ نَقَادِ الأدبِ إلى أَنَّ كُلَّ شِعْرِ للجاهليةِ يَذْهَبُ مَذْهَبَ التَّأْمُلِ التَّجْريدِيِّ، أو بتعميمٍ أَصَحُّ كُلُّ شِعْرِ يُنْسَبُ للجاهليِّ ولا تُسَاعِدُ عَلَيْهِ البيئَةُ فهو مُنْحوِلٌ. وإِلَّا فنحنُ نَتَّهَمُ معارِفَنَا ونُؤْمِنُ بالمُفَارَقَاتِ الميتافيزيقيةِ الغيبيةِ.



الأشكال البدائية الأولى، ويقفوا عند النظام القبلي الذي هو أسمى ما تمنحه بيعة على هذه الشاكلة. ثم توالى الحياة بالعرب وهم على سنة هذا النظام فثبتت في نوع من الارتكاز. وإن اضطراز العربي، تحت عامل الطبيعة، أن يتبع مساقط الغيث ومراعي الكلا من حين لآخر، لم يهيئته أبداً للتحويل عن شكل نظامه الاجتماعي. وساعد عليه أيضاً قيام حياتهم على الاقتناص والغزو من حيث إنه أرتت القبيلة، وجعل منها عصبية حقوداً، فكانت بينهم تراث وتارات لا تفتأ تهيئ بهم على الدوام.

ويظهر لنا من هذا أن العرب ظلوا على النظام القبلي يحكم البيعة، وأن التحويل عنه لا يتم إلا باستعداد الموضع للزراعة، وأن أساس كل قومية ثابتة يستند استناداً كبيراً أو كلياً إلى صلاحية الأرض لتكون زراعية. وقد نجد البرهان على هذه الدعاوى في تحويل عرب اليمن وأطراف الجزيرة إلى فلاحين، فقد عكفوا جيداً على الأرض التي نعتوها بالسعيدة، واختصوها بنوع من الحب والتعلق والأمل، حتى ظهرت أشكال من أمانهم الزراعية في ديانتهم، فآلهوا النخيل<sup>(٥)</sup> في بعض أنحاء اليمن، كما آله العرب الآخرون في المناطق الجرداء الآبار<sup>(٦)</sup>. ويذهب ظننا إلى أن «زَمْزَم» كان معبوداً عند عرب الوادي، ومن ذلك اكتسب اسمه الخاص الذي يعطي في السامية معنى الارتعاد والكهانة. وهؤلاء الذين وقعوا في بيئاتهم على ما يكفل حاجتهم في شيء من الاستقرار، اتجهوا بأبصارهم نحو القومية أو فكرة الأمة، وتلبسوا بما لا يُنكر من أشكالها. فالاستقرار لا يقوم إلا على الزراعة، والقومية لا تقوم إلا على هذا النوع

(٥) راجع كتاب: تاريخ سوريا للمطران الدبس، ج ١.

(٦) عرف هذا النوع من التأليه في طوائف صخرائية عديدة، ولكن الشيء الوحيد هو دعوى عبادة زمزم، فليس بين أيدينا نصوص تُشايح هذا الظن وتدل على أنه كان معبوداً وكل ما لدينا أنه مقدس فقط. وكان لجل اعتمادنا فيه على تحليل الاسم وجود قبيلة كانت تنسب إليه، أو تحمل اسمه في بعض نواحي مدين. وهو ظن قريب من حيث إن عبادة الآبار مألوفة، ومن حيث إنه يُفسر حقيقة التقليد المزوي في الآثار من أنه تفجر بغمزة جبريل للأرض بأرتكاضة من قديمه.



من الاستقرار، فحيث كان العرب زُرَّاعاً كانوا أقرب إلى القومية وأكثر استعداداً للتكتُّل. ولذلك عمَدَ النبي (ص) لنقل العرب من رُعاةٍ رُحَّلٍ إلى زُرَّاعٍ، وهي خُطوةٌ هامةٌ في التَّحضيرِ والقضاءِ على القَبَلِيَّةِ قضاءً حاسِماً، فقد قال: «خيرُ المالِ سِكَّةٌ مأبورةٌ وشاةٌ مؤمورةٌ... والسِّكَّةُ كما تُعرفُ، هي هذه الأداةُ الحادَّةُ الفالحةُ للأرضِ والجائلةُ فيها أثلاًماً.

ويُصدِّقُ وجهةَ نظرنا، سرعةُ تحوُّلِ<sup>(٧)</sup> اليهود الذين شاركوا العرب جزيرتهم، إلى قَبَلِيَّينَ فيهم من عَصَبِيَّينَهم وحماسيهم، وفيهم من كلِّ ما يتَّصفُ به القَبَلِيُّ الخالِصُ. ولا يُخالِجنا شكٌّ في أنَّ البيئَةَ آمَنَصَّتْ من أفكارهم ما لا يتَّسِقُ مَعَ وَضْعِها، وما آنَفَكَتْ تَنَفُّثُ فيهم حتَّى تَفَسَّخُوا وآزَتَدُوا إلى القَبَلِيَّةِ الدُّنيا.

وهناك سببٌ خارجيٌّ أيضاً ساعدَ على زُسُوخِ القَبَلِيَّةِ فيهم، وهو كَوْنُ العربِ غيرِ مُهَدِّدينَ بعدوٍّ أجنبيٍّ يَدْعُوهُمْ إلى التَّكْتُّلِ القوميِّ، فإنَّ الأُمَّةَ المُهَدَّدةَ من الخارجِ تُقاوِمُ بِفَضْلِ الامْتِزاجِ والتَّعاونِ الذي يَجْعَلُ من المجموعِ رجلاً واحداً. ونحنُ إذا عَلِمْنَا بأنَّ العربَ كانوا مُهَدِّدينَ بعداوةٍ بعضهم آنَكَشَفَ لنا السُّرُّ في تَكْتُّلِهِم تَكْتُّلاً قَبَلِيَّاً. وقد ظَهَرَتْ في أواخرِ جاهليَّةِ العربِ تَجَرُّبَةٌ من جانبِ الفُرسِ دَعَتْهُمْ إلى نوعٍ من التَّعاونِ في غيرِ حدودِ الحِلْفِ والقَبيلةِ، فهَبُّوا يومَ ذي قارٍ، لِذَفْعِ عاديةِ الفُرسِ في تَضامُنٍ جُزْئِيٍّ إِلَّا أَنَّهُ من حيثِ الشُّعُورُ كانَ تَضامُناً حَقِيقِيَّاً، حتَّى لَنَجِدُ أثرَ هذا الشُّعُورِ على لسانِ النَّبِيِّ (ص) فَقَدِ آغْتَبَطَ لَأَنْتِصارِهِم وبارَكَ كِفاحَهُم وآفَتْخَرَ بِهِ. وهذا شيءٌ يُرينا مدى تأثيرِ الخطرِ الأجنبيِّ في بَعَثِ القومِيَّاتِ وأَنَّهُ كبيرٌ.

وكانَ لهذا التَّركيزِ الطَّبيعيِّ آثارٌ بالِغةٌ في مَذهَبِ مُيُولِ العَرَبِ النَّفْسِيَّةِ، فقد صَبَّها صَباً فُولادِيَّاً، وأضَافَ إلى طَبِيعَتِهِم غُنْصُرَ الجُمُودِ والثَّباتِ، وأفقدَهُم قابِلِيَّةَ التَّحوُّلِ والتَّغْيِيرِ، هذه

---

(٧) عَرَضَ إلى تَغْلِيلِ تحوُّلِ اليهود إلى هذه الشَّاكِلَةِ ولَفَنَسْتون في كتابه: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ولكنه لم يَقَعِ على شيءٍ يُطْمَأُنُّ إليه.



القابلية التي هي مدار كل تطوّر وتكامل. وقد سبق لنا في بحث دواعي الإشراف أن عدّنا في جُمْلَتها أهليّة الشعوب للحصول على صفات جديدة، وقلنا بأنّه لا بُدّ لدوام الارتقاء من قُدرة الشعب على تحقيق التّوازن بين تحوّلِهِ وثباتِهِ، وإلاّ فهو مُساق إلى التّصلّب الذي يُفقدُهُ الحيويّة والمرونة شيئاً بعد شيء.

فالمُحافظة المُتزمّة والانفصاليّة المُتطرّفة يُفضِيان إلى نتائج واحدة، هذا من جهة التّصلّب، وهذا من جهة الانحلال. وكذلك كلّما زادت نسبة الثّبات في الشعب وقّف، وكلّما اشتدّت به الحركة فقدّ الشعب تماشكه وتبعثر.

فكان الجُمود ظاهرة واضحة في قابليّات العرب الأوّلين نتيجة لهذا التّركيز القَبليّ الطّويل، وقد انعكس أثره في بناء الدّولة التي لم تُقْم على تطهير نفسيّ شامل، فأدى إلى زوالها في كافّة الجهات، من أندلسة إلى المغرب إلى الشرق. وهذا طبيعيّ ما دام الائتلاف لم يُقْم على تهذيب اجتماعيّ صحيح، بل ضَمِنَتُهُ القوّة وحدها، وسرعان ما ظهرت فيه الفُتوق بأنحلال الرّباط الوَقْتيّ. وأيّ شعب يقوم على مثل هذا الائتلاف بمُجرّد انحلاله لا يَسْتَطِيع أن يَشْتَعِيدَهُ مرّة أخرى لأنّه يَفْقِدُ المرونة الكفيلة بالائتلاف.

وأنا أعترف هنا بأنّ التّبيعة الجَسِيمة تَقَع على عاتق الأمويّين الذين ألْهَبُوا<sup>(٨)</sup> حماس القبيلة وأسْتَغْلَوْهُ، فقد كان هذا جزءاً من سياستهم، إلّا أنّه صَدَعَ بعد ذلك بُنيان دولتهم المطبوعة على غِراهِ، وصَدَعَ بناء الدّولة عُموماً.

---

(٨) في كُتُب الأدب والتّاريخ أُنَاصِيصُ شَتَّى وأخبار كثيرة عن اهتمام بني أميّة بهذا النوع من المُنافرة والمُفاخرة وعِنايتهم بإذكاء العصبيّات الخطيّة وإفساحهم المجال للمُطارحات التي تدور على هذا اللّون، وأُخِصّ منها خَبيراً ذَكَرَهُ صاحبُ الأغاني في تَرْجُمَةِ الفضل اللّهي ج ١٥، ص ٨. وخبرُ مجالس معاوية في كتاب: الحُاسِن والأُضداد لابن قتيبة. وللحصري في جَمْعِ المَلَح طرفة نادرة تُعبّر عن مُبلَغ هذا الحماس قال: «لما بَلَغَ التّعصّب للقُحطانيّة والعدنانيّة مُبلَغَهُ انْطَلَقَ رجلٌ إلى بعضِ الأنحاء فاستَوْفَقَهُ جماعةٌ تسألُهُ عن نِسْبَتِهِ أَقُحطانيّ هو أم عدنانيّ؟ فخافَ الرّجلُ إذا هو قال عدنانيّ وكانت الجماعة قُحطانيّة أن يَقْتُلُوهُ، والعكسُ صحيحٌ، فَتَحَيَّلَ للخروج من خِرجِهِ بأنّه من سِفاج». وهي نادرة لا نَحْتَاجُ إلى تعليقٍ لأنّها تُعبّرُ بِجَلَاءٍ عن مُبلَغِ استحكام التّنافر القَبليّ في عهد بني أميّة.



وَيَجِبُ أَنْ يُفَرَّقَ جَيِّدًا بَيْنَ الْقَبِيلِيَّةِ فِي الْعَهْدِ الْجَاهِلِيِّ، وَالْقَبِيلِيَّةِ فِي عَهْدِ الْأُمَوِيِّينَ. فَإِنَّ الثَّانِيَةَ كَانَتْ تَفَاخُرًا وَعَصَبِيَّةً بِالْأَنْسَابِ وَالْأَصُولِ، بَيْنَمَا كَانَتِ الْأُولَى قَبِيلِيَّةً تَنْظُرُ إِلَى الْقَبِيلَةِ بِأَنَّهَا رَمَزُ الْوُجُودِ، رَمَزُ الْمَصَالِحِ الَّتِي أَهْمُّهَا الْبَقَاءُ. هَذَا النَّظَرُ لَمْ يَعُدِ الْحَادِيَّ عَلَى الْعَصَبِيَّةِ فِي عَهْدِ بَنِي أُمَيَّةَ، فَقَدْ اتَّسَعَ أَفَقُ نَظَرِهِمْ وَشَعَرُوا بِالدَّوْلَةِ، وَأَنَّهَا مَعْقِدُ الْمَصَالِحِ وَمَصْدَرُهَا، وَلَكِنْ نَفْسَهُمْ بَقِيَتْ مُنَحْنِيَّةً عَلَى مَا فِيهَا مِنْ أَذْرَانٍ.

وهذه ملاحظات دقيقة جداً ومهمة جداً، من حيث إنها تشرح لنا كثيراً من الخوافي، وتُعلِّل طائفة من الظواهر المعقدة، وتُصحِّح أوهام نقد التاريخ في استعدادات العرب الذاتية وقابلياتهم اللازمة. فقد نستطيع على ضوءها أن نفهم لماذا كان العرب قَبِيلِيِّينَ، ولماذا ظلُّوا كذلك حتى بعد أن شكَّلوا لهم دولة مبسوطة الأرجاء، مُختلطة المصالح، وبالتالي نَتِمَكَّنُ مِنْ أَنْ نَكْشِفَ عَنْ مِقْدَارِ الْوَهْمِ الْجَائِمِ فِي نَظَرِيَّةِ آبِنِ خَلْدُونِ عَنِ الْعَرَبِ، وَمُشَايَعِيهِ مِنْ مُسْتَشْرِقَةِ الْفَرَنْجَةِ.

وفاءً بحقِّ البحثِ، وإنْ يَكُنْ تَوْسَعاً وخروجاً، أَتَكَلَّمُ عَنْ أَثَرِ هَامٍ مِنْ آثَارِ الصُّرَاعِ الْقَبِيلِيِّ الطَّوِيلِ؛ وَهُوَ الْاِئْتِيَاُزُ فِي الْكِفَاحِ.

فإنَّ التَّنَازُعَ<sup>(٩)</sup> عَلَى الْبَقَاءِ يَسْتَتْبِعُهُ أَوَّلًا ائْتِيَاُزُ الْأَصْلَحِ، كَمَا يَقُولُ السُّطُورِيُونُ، وَإِنْ دَوَامَ التَّنَازُعِ يَزِيدُ الْكَائِنَ عَزْماً وَرِصَانَةً وَصَبْرًا وَصِدْقَ نَظَرٍ فِي الْحَيَاةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَنَاصِرِ التَّجَاحِ. وَنَحْنُ مِنْ مُحِيطِ الْعَرَبِ الْقَبِيلِيِّ أَمَامَ تَنَازُعٍ لَا يَعْرِفُ الْهُدْنَةَ، وَغِلَابٍ لَا يَنْتَهِي أَوْ يَنْتَهِي الْأَحْيَاءُ الْمُتَنَازِعُونَ أَيِ التَّفَانِي. وَهَذَا يُفْضِي بِنَا إِلَى نَتِيجَةِ مُهِمَّةٍ، وَهِيَ أَنَّ الْمُجْتَمَعَ الْقَبِيلِيَّ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ عَمَلُ قَانُونِ التَّنَازُعِ عَلَى صَوْرَةٍ أَبْلَغَ، يَكُونُ أَفْرَادُهُ أَحْسَنَ اسْتِعْدَادًا

(٩) راجع أثر التنازع على البقاء في تكوين الشعب الممتاز، في كتاب: مقدمة الحضارات الأولى لغوستاف لوبون، ص ١١٣. وهذه الملاحظة على العرب جديرة جداً بإنعام النظر وتؤييده. وقد فاءت كلُّ نقدة التاريخ الذين عرَضُوا لِيَتَحَبَّ التَّوَسُّعُ الْعَرَبِيُّ السَّرِيعَ، وَتَدُلُّنَا عَلَى الْحَسَنَةِ الْوَحِيدَةِ الَّتِي اسْتَفَادَهَا الْعَرَبُ مِنْ رُسُوخِ النَّظَامِ الْقَبِيلِيِّ فِي مُحِيطِهِمْ.



للحياة، وأجدر بالنجاح في حومة الاغتراك السياسي والاجتماعي، من حيث ما يجتمع فيهم من عناصر الامتياز الطبيعي والقابليات.

إذا فمِنْ أسباب تَبَرُّزِ العربِ في الغلابِ الذي أخذوا العالمَ القديمَ به، وتوسَّعهم السَّريعُ فيه بالصَّورة المذهلة الهائلة، أنَّهم الشعبُ المُنتخَبُ بفعلِ التَّنازعِ على البقاءِ الطَّويلِ، وهؤلاءِ حينَما أخذوا بالتَّهذيبِ الأدبيِّ الإسلاميِّ وتوسَّعتْ آفاقُ نَظَرِهِم، أَضْحَوْا رِجالاً مُتَمازِينَ من كُلِّ وجهٍ، وبذلك أعطوا النَّتيجةَ التي لا تَزَالُ محلُّ دَهْشَةِ المؤرِّخينَ، ومن ثَمَّ نَسْتَتِجُ بأنَّ الشَّعبَ القَبَلِيَّ أَكْفَأُ دائِماً في الكِفاحِ والتَّوسُّعِ، ولكنَّه يَضَعُفُ<sup>(١٠)</sup> عَنِ تَعَهُّدِ الحَيَاةِ المدنيَّةِ وتوجيهِها إلَّا بَعْدَ أَنْ يُدْخَلَ به في مَراحِلَ تَهْذِيبِيَّةٍ طَوِيلَةٍ، فإذا أَهْمِلَ من هذه الناحية وتَرِكَ لَطَبِيعَتَهُ فَإِنَّهُ يَزِيدُ بِنُزْوَعِهِ القَبَلِيِّ دَاخِلَ نِطاقِهِ نَفْسِهِ ولكنَّ على نَحْوِ نِسْبِيٍّ في دَرَجَةِ القُرْبِ أو البُعْدِ ومن هنا أَتَى العربُ في نظري، ومن ثَمَّ ظَلُّوا قَبَلِيَّينَ أيضاً.

وَنَسْتَخْلِصُ من هذا أَنَّ نِظامَ القَبِيلَةِ مَرَحَلَةٌ أَجْتَمَاعِيَّةٌ، وأنَّ العربَ وَجَدُوا في بَيْئَتِهِم ما يُسَاعِدُهُم على التَّمَكُّينِ لها، ثُمَّ تَخَلَّفَتْ بِهِم طَبِيعَةُ الأَرْضِ عن قَطْعِهَا وَبُلُوغِ مَرَحَلَةِ القَوْمِيَّاتِ، وأنَّ كُلَّ شَعْبٍ، مَهْمَا تَكُنْ غُنْصَرِيَّتُهُ، مَقْضِيٌّ عَلَيْهِ بهذا النِّظامِ والعِيشِ في ظِلِّهِ، ما دَامَ في حُدُودِ بَيْئَةٍ كَالجَزِيرَةِ، والسَّلَالَةِ مَهْمَا كَانَتْ دَرَجَتُهَا مِنَ السُّمُوِّ فَإِنَّهَا، إِذَا لَمْ تَجِدْ فِي البَيْئَةِ ما يُسَاعِدُهَا على عَمَلِ طَبَائِعِهَا الأَدَبِيَّةِ وَالخُلُقِيَّةِ المُكْتَسَبَةِ من تَرَائِكِ الْوِراثَاتِ، تَتَقَهَّقُرُ وتُسِفُّ حَتَّى تَتَّسِقَ مع المُكَيِّفَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ الْخَاصَّةِ. وقد رأينا في مَوْجَاتِ العربِ

---

(١٠) وشاهدُ هذا في حُكُومَةِ آيِنِ سَعُودٍ في نَشْأَتِهَا الأَوَّلَى، فَإِنَّهَا بَدَوِيَّةٌ شَكَّ تُشَبِّهُ حُكُومَاتِ العربِ الْغَابِرَةِ، فَإِنَّ القَبَائِلَ تَنْتَظِمُهُمُ الْقُوَّةُ وَحَدَهَا وَالْقُوَّةُ لَا تُكُونُ الْإِزَاجَ الْعَقْلِيَّ وَالزُّوجَ الشَّعْبِيَّةَ لِلأُمَّةِ، وَبِذَلِكَ نَقْطَعُ بِأَنَّ أَيْ أَمْتِحَانِ يُصِيبُ الْقُوَّةَ الَّتِي تَرْبُطُ الْقَبَائِلَ وَالْجَمَاعَاتِ فِيمَا يُفَسِّحُهُمْ وَيَعُودُ بِهِمْ إِلَى نِظَامِهِمُ الْعَتِيقِ، فَهِيَ نَوْعٌ مِنَ الدَّوْلِيَّةِ. إِذَا فَرَضْنَا أَنَّ دَوْلَةَ آيِنِ سَعُودٍ أَمْتَدَّتْ فِي بَيْئَاتِ حَضَارِيَّةٍ ثُمَّ لَمْ تَعُدْ شَأْنَهَا الْقَبَلِيَّ فَلَيْسَ لِأَنَّ الْعَرَبَ مِنْ طَبِيعَتِهِمُ الْقَبَلِيَّةُ فَلَا يَضْلُحُونَ لِلْمَلِكِ وَالدَّوْلَةِ كَمَا يَرْغُمُ الشُّعُوبِيُّونَ، وَإِنَّمَا لِأَنَّهُمْ لَمْ يُعَالَجُوا مَعَالَجَةً كَافِيَةً لِحُلُقِ الزُّوجِ الشَّعْبِيِّ وَالْإِزَاجِ الْعَقْلِيِّ. رَاجِعْ كِتَابِي: ابْنُ سَعُودٍ لِكُلِّ مَنْ مَسَّرَ وَلِيْمَ وَأَرْمَسْتَرُونِغ.



القديمة ما يُبرهن على هذا، ورأينا كيف تشكّلت في حضارات مرموقة في بابل وآشور، وكيف اكتسبت العرب صفات أدبيّة جديدة.

وإنّ التركيز للمصّفات القبليّة، وعدم العناية بمكافحتها على الطّريقة التي آتتها النبيّ (ص)، غلب الدّولة بآثاره في كلّ عهد.

والغريب في نزعة الدّرس الحديث لتاريخ العرب مُبالغة المؤرّخين بإظهار نظام القبليّة بمظهر الدّولة أو المُقاطعة، وهو خطأ محض، ولعلّ الحاديّ لهم على هذا التّصنّع رغبتهم في الظهور بمظهر المدافعين عن الاجتماع العربيّ القديم. وهم بذلك يُسيئون إليه من حيث يظنون أنّهم يخدمونه، فإنّ معنى التسليم بأنّ القبيلة، من النّاحية السياسيّة، دولة، التسليم بأنّ البيئة العربيّة تجمّع المؤهلات الخاصّة بالدّولة. وفي هذا تأكيد ما تؤسّم به السّلالة العربيّة من أنّها لا تصلح إلّا لنوع هذا النّظام مهما اختلفت بها البيئة. والحقّ أنّ القبيلة لا يُمكن أن تُعتبر كذلك لأنّ من خصائص الوحدّة السياسيّة: الأرض، والشّعب، والاستقرار، والنّظام، والاشتراك في الآمال.

ومن هذا يظهر أنّ القبيلة المُتقلّبة لا يُمكن بحال أن تُعدّ مظهرًا للدّولة أو المُقاطعة؛ ولأنّما هي أسرة بنظّامها ومزاجها.

**القبيلة ونظامها:** لكي نتحقّق من صِدق هذه النّظريّات يلزمنا أن نستعرض، على وجه سريع، القبيلة والنّظام القبليّ الذي كان سائدًا عند عرب الجاهليّة. فالقبيلة طائفة مُتبدّية من النّاس تعيش مُتقلّبة فوق بقاع من الأرض تصلح للحياة بأضيقي معانيها. ومن فوط تماشكها تذهب إلى أنّها أسرة حقيقيّة لها أب واحد قديم، كرّموه بأنّه مصدّر التّاريخ أو التّاريخ نفسه، على ما أطبقت عليه المعاجم نصّاً... والغريب غفلة الباحثين القوميّين عن هذا النصّ الثّمين، الذي يُشرع مغالق الماضي الموصدة على ما يتعلّق بالمعنى الاجتماعيّ للقبيلة في الخيال العربيّ البدائيّ، وما فيه من مفهوم عضويّ يُداخله مفهوم زمنيّ مُتمادٍ في أعماق الماضي البعيد.



هذا النصّ يَعدِلُ، من حيثُ القيمةُ الفنّيّةُ الأثاريّةُ، نُقوشَ مِسلّةٍ من مَسالٍ قَدَماءِ  
الفراعين، وأُغني النصّ اللُّغويّ القاطِعُ بأنّ التَّاريخَ كلمةٌ في مقدّمةِ معانيها الأصيليّة: الجَدُّ، أي  
الأبُّ الأعلى الأكبر.

والقبيلةُ، من وجهٍ عامٍّ، وَحدةُ العربِ الاجتماعيّةُ، ونظامُها يميلُ إلى الاشتراكيّةِ  
السَّاذِجَةِ، إلّا أنّها استطاعتُ أن تُذيبَ الفرديّةَ تماماً من جهةٍ، وأن تُحقِّقَ صِلَةَ الجماعةِ  
بالفرْدِ من جهةٍ أُخرى. فكما لم يكنْ له استقْلالٌ شَخْصِيٌّ فيما تَتَّجِعُ إليه الجماعةُ، كانَ  
عليها أن تُكَلِّأَ جانبَ الفرْدِ وتَحوطَه من العُدوانِ. وكان يُشْرِفُ على هذا النِّظامِ رئيسٌ له شِبْهُ  
سلْطَةِ مُطلَقةٍ، ومن فَرْطِ خُضوعِهِم لنوعِ هذا النِّظامِ، استِجابةً لمطالبِ البيئَةِ الَّتِي لا تَسْمَحُ  
للفرْدِ أن يعيشَ وحده، فَيُطلَبُ دائماً الاندماجُ في الجماعةِ، سَيطرُ عليهم الحماسُ للقبيلةِ  
وتَوَهَّجَ بنارِهِ في نُفوسِهِم. وهكذا تَكُونَتِ العصبِيّةُ العنيفَةُ عندَ القبيلةِ للفرْدِ، وعندَ الفرْدِ  
للقبيلةِ. هذه العصبِيّةُ الَّتِي كانَ من شِعارِها «أَنْصُرُ أَخاكَ ظالِماً أوْ مَظْلوماً» وقولُ قُرَيْطٍ بنِ  
أَنْيَفَ:

لا يَسْأَلُونَ أَخاهُمْ حينَ يَنْدُبُهُمْ في النَّائِبَاتِ على ما قالَ بُرْهَنا

حَنَّتْ نفوسُ العربِ على أَعْتِبارَاتِ شديدةِ الخطورةِ في تَوَزيْعِ الشُّعورِ وَبَدَوَاتِ  
الإحساسِ، وأقامَتِ مُيولَهُم على قاعِدةٍ بالِغةِ الضُّيقِ بالِغةِ الحَرَجِ. وبرُغمِ أَضْرارِها كانتِ  
ضَرورَةٌ من ضَرورَاتِ المحافظةِ على البقاءِ في حُدودِ القبيلةِ، من حيثُ رَكُزَتِ في طِباعِهِم  
وَحدةُ المطالبِ والغاياتِ والأفكارِ والعاداتِ، وَوَسَمَتُهُم بِسِمَةِ التَّكافلِ والتَّضامُنِ السَّابِغِينَ.  
فكانَ هذا الوضعُ الحَيَوِيُّ لَدِيهِم يُشْبِهُ نَظيرَهُ عندَ الإسْبَرْطِيِّينَ، وإن كانَ وَضْعُ الحِياةِ في  
إِسْبَرْطَةَ أَكْثَرَ مَيْلاً إلى اللَوْنِ الحضاريِّ والطَّابعِ القَومِيِّ.

إنَّ ضَرورةَ التَّعاوُنِ في الدِّفاعِ عن النفسِ، صَيَّرَ بينَ القبيلةِ أَصِرَّةً قويَّةً ولُحْمَةً تَكاوُ  
تَكُونُ عَضَلِيَّةً مُجْتَمِعَةً الأليافِ، وأقامَتِ المَجمَعُ العربيُّ على العصبِيَّةِ النُّكْراءِ. ولقدْ غَلَتْ



بهم حتى امتدَّت بآثارها إلى القانون والعرف، وحتى استحال تاريخ العرب القبلي إلى تاريخ للدماء. وإذا أردنا أن نحصر بواعث التاريخ لديهم فلا نجد شيئاً وراء هذه الداعية العنيفة؛ وقد نكون أكثر تحقيقاً إذا قررنا أنها كانت المُحرِّك الحيويِّ العام، فقد ظهرت بألوانها في الاجتماع والأخلاق والأديان وفي المثل أيضاً. فكان لكل قبيلة طوطم خاص بها، بحسب التسميات الحديثة، وطقوس تُرضي تصوُّراتها وتُشجِّم مع مذاهب ميولها. ولم تكن عند العرب نزعة ما، تفوق هذه النزعة في عنفها وشِدَّتِها، وكانت إلى جانب هذا معيَّناً، تمُدُّ خيالهم الأدبي والمثالي. فاستحكمت القبليَّة على هذه الشاكلة عند الجاهليين يُظهرنا على مقدار الجهود الواجب بذلها، لتطهير النفس العريَّة، وإغدادها بسبيل المبادئ الجديدة.

والنبي (ص) اعتمد في كفاح العصبية على شتى الوسائل، وطاولها مُطاولَةً كانت قمينة بأن تأتي عليها، وبالفعل رأينا أنها استتارت في زمن النبي (ص) واستخفت كما يستخفي الميكروب في أنحاء الدَّم، حتى إذا هادته العلاج ظهر بعنفه وقوته وانتشر بحمائه. وسياسة النبي (ص) تملخص بالسُّمو ببيئة العرب، والقضاء على المزاج العقلي القبلي بإعطائهم مزاجاً عقلياً جديداً خليقاً بتصريف حركاتهم في كيانهم الدولي الجديد، وتهيئتهم مع الزمن لما يُسمونه بخلق الأمة على شكل صالح. وهذا يستدعي من العناية العملية أكبرها، وإلا فمجرد<sup>(١١)</sup> التعاليم لا تكفي لتغيير روح الأمة، ولذا قال نُقاد الثورة الفرنسية إن الشعب الفرنسي سار في طُرق المَلَكِيَّة من حيث لا شعور، وكذلك الشأن في العرب فإنهم عادوا، في ظل الحكومة الجديدة والتعليم الجديد، إلى مزاجهم العقلي القديم. وعندي

(١١) وشاهد هذا أن التنافس على القربات الدينية دخله شيء كبير من العصبية أي أنها تأثرت بالمزاج العقلي القديم. ذكر ابن جرير الطبري في ج ٣، ص ٧: «أن هذين الحيين من الأنصار، الأوس والخزرج، كانا يتصاولان مع رسول الله (ص) تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئاً فيه غناء عن رسول الله إلا قالت الخزرج والله لا يذهبون بهذين فضلاً علينا عند رسول الله في الإسلام، فلا ينتهون حتى يرقوا مثلها... إلخ»، وهذا خبر يُرينا مقدار تأثير المزاج العقلي الذي لم تضعف شكيمته بعد، برغم ما كان يأخذهم النبي به من تهذيب، فالقبليَّة بلا شك كانت لدى العرب مُسيرة أعظم.



أن في جملة الأسباب التي أعانت على أن تنجم العصبية مرة أخرى أمرين مهمين:

١- التعجل بالفتوح قبل الاختمار الديني الذي يؤلف من مجموع الصفات النفسية للأفراد صفة عامة، وهي التي يعبر عنها لدى الباحثين القوميين بخلق الأمة. مما أدى إلى أن يخرج هذا الخليط الكبير من العرب، وينتشر في بقاع واسعة من الأرض، حاملاً غريزته الاجتماعية التي كانت لا تزال أكثر اتصالاً بأسباب نفسه، ولقد تمتد فتصبغ كل صفاته الأدبية بصبغتها.

٢- عدم عناية حكومة الخلفاء ببيت التربية الدينية على النحو الذي جرى عليه النبي (ص)، هذه التربية التي إذا اقترنت بالزمن كوّنت المزاج العقلي للأمة الذي هو الوحدة الحقيقية لها، والرباط المعنوي الثابت. فإنه يعمل في تطور الأمم من وراء النظم والفنون والتقلبات السياسية.

وهذان سببان مهمان، سنتكلم عليهما عندما نتناول الفكرة الدينية عند العرب، لأنهما أكبر مساساً واتصالاً بها. وخليق بنا أن نستعرض المناسبات التي ظهرت فيها الفكرة القبلية بشكلها العنيف بعد أن أسلم النبي (ص) نفسه ولحق بالرفيق الأعلى. وأهم المواقف التي غلت فيها العصبية، أو كانت مغتركا للعصبيات في عهد الخلفاء، هي:

١- الانتخاب يوم السقيفة: فقد كان تنازعا تمده العصبية بأسبابها، وأي واقف على الخبر لا يخفى عليه جانب العصبية في هذا النزاع. بيد أنه كان متميزاً مع ذلك بصفة هامة، وهو التنازع والخلاف ضمن نطاق محدود تحترمه الجماعة كافة، وفي حدود رمز واحد يختلفون إلا عليه، ولذلك لم تعمل العصبية عملها النكير، وكانت عقيمة الأثر، لأن الجمهور المتنازع كان مختير النفس، مشوب العقيدة، عامر القلب بالمبدأ السامي. وهذا يظهر صدق نظريتنا في أن الخلفاء لو غنوا بيت التربية الدينية على الشكل الذي بثه النبي (ص) في نفوس الجموع القريبة منه، لما تفرق العرب قدداً، وتطوخوا في مذاهب مختلفة. وإليك



خَبَرَ هذا اليوم الذي يُعْتَبَرُ أولَ آجتماعِ آنتخابيِّ في تاريخِ الدَّولةِ العربيَّةِ:

اجتمعَ الأنصارُ في سقيفةِ بني ساعدة، وقد عَقَدُوا أمرَهم على تَوَلِيَّةِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، ثُمَّ تَوافَى النَّاسُ إِلَيْهِمْ، فَتَكَلَّمَ سَعْدٌ، وَكَانَ مَنَاطِقُ خُطْبَتِهِ يَدُورُ عَلَى أَنَّ الْغَنَمَ بِالْغُرَمِ. وَالْأَنْصَارُ هُمُ الَّذِينَ غَرِمُوا فِي سِلْسِلَةِ الْحُرُوبِ وَحَرَكَاتِ الْجِهَادِ الَّتِي قَامَ بِهَا النَّبِيُّ (ص)، وَهَاتَانِ الْمُقَدِّمَتَانِ تُسَلِّمَانِ إِلَى النَّتِيجَةِ الَّتِي يَتَوَخَّاهَا سَعْدٌ زَعِيمُ الْحِزْبِ الْأَنْصَارِيِّ الَّذِي يَقُولُ بِأَنَّ الْخِلَافَةَ لِلْأَنْصَارِ. ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَتْ عُنَاصِرُ دِفَاعِهِ عَنْ قَضِيَّةِ الْمُهَاجِرِينَ تَرْجِعُ إِلَى أَنَّ قَاعِدَةَ الْغَنَمِ لَا تَصِحُّ ضِدَّ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ كَانُوا الثَّرْبَةَ الْأُولَى لِلنُّوَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَهُمْ زُمَلَاءُ النَّبِيِّ (ص) فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ الْجَدِيدِ، فَلِلْأَنْصَارِ مَنْزِلَتُهُمْ وَلَكِنْ عَلَى غَيْرِ هَؤُلَاءِ الْأَشَابَةِ الْمُخْتَارَةِ. وَهَذَا الْمَنَاطِقُ أَسْلَمَهُ إِلَى النَّتِيجَةِ الَّتِي شَغَلَتْ الْأَنْصَارَ وَجَعَلَتْهُمْ يُفَكِّرُونَ فِي شَيْءٍ جَدِيدٍ، وَهِيَ الَّتِي طَرَحَهَا أَبُو بَكْرٍ «نَحْنُ الْأَمْرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ».

وَأَعْتَقَدُ بِأَنَّ خُطْبَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ مُدَاوِرَةً لَبِيقَةً أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ دِفَاعاً بِالْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ، وَبِرَاعَتُهُ الْفَائِقَةُ ظَهَرَتْ فِي الْفِكْرَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي آتَتْهَا إِلَيْهَا، فَفِيهَا إِغْرَاءٌ، وَبِذَلِكَ أَطْمَعَهُمْ وَحَرَّكَ أَمَالَهُمْ، وَفِيهَا تَسْلِيمٌ بِقَاعِدَةِ الْغَنَمِ بِالْغُرَمِ، وَبِذَلِكَ أُعْطِيَ عَلَى نَفْسِهِ وَحِزْبِهِ ضَمَاناً لِلْأَنْصَارِ بِأَنَّ لَهُمْ أَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنَ الْمَرَكَزِ الَّتِي تَلِي الْخِلَافَةَ بِالذَّاتِ.

وَكَمْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ دَقِيقاً حِينَ خَصَّ دِفَاعَهُ بِطَائِفَةِ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ فَقَطْ دُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَامَّةً، وَإِلَّا لَتَهَدَّمْ دِفَاعُهُ مِنْ أَسَاسِهِ لِأَنَّهُ لَيْسَ لِعَامَّةِ الْمُهَاجِرِينَ هَذِهِ الصُّفَةُ الَّتِي أَوْسَعَهَا فِي خُطَابِهِ، كَمَا أَنَّهُ بِذَلِكَ لَمْ يُوقِظِ الْعَصَبِيَّةَ الرَّائِدَةَ. وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ أَوَّلَ أَثَرٍ يَتْرُكُهُ هَذَا الدِّفَاعُ فِي جَمَاعَةِ الْحِزْبِ الْأَنْصَارِيِّ الْانْقِسَامُ، وَقَدْ أَحَسَّ بِهَذَا الْانْقِسَامِ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاجْتَهَدَ بِأَنَّ يُنْقِذَ الْمَوْقِفَ بِاقْتِرَاحِ جَدِيدٍ وَهُوَ «مَنَا أَمِيرٌ وَمَنْكُمْ أَمِيرٌ». وَكَانَ خَلِيقاً أَنْ لَا يُلَاقِي أَشْيَاءَ لِأَنَّهُ رُجُوعٌ إِلَى الْمَنَاطِقِ الْقَبْلِيِّ الْخَالِصِ. عَلَى أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ أَبَتْ إِلَّا أَنْ تَذَرَّ قَرْزَهَا وَسَطَ هَذَا الْإِنْتِخَابِ فَقَالَ عُمَرُ: «وَاللَّهِ لَا تَرْضَى الْعَرَبُ أَنْ يُؤْمَرُوا بِكُمْ وَنِيَّيْهَا مِنْ



غيركم ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت الثبوة فيهم وولي أمرها منهم، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته، إلا مدلل بباطل أو متورط في هلكة». فقال الحباب بن المنذر رداً عليه: «يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتهم فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور، أنا جذيلها المحكك وغذيقها المرجب أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة».

وقال سعد بن عبادة لغمر: «والله لو أن بي قوة ما أقوى على النهوض لسمعت مني في أقطارها وسككها زيراً يُجيزك وأصحابك، أما والله إذا لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع». ومن هذه المقاولات نفهم أن فكرة الدولة كانت بعيدة عن أذهانهم، كما نلمس مقدار الأثر القبلي في الخلاف، ولكنه لم يتحول إلى صراع ففوضى كبيرة، لأن نفوس المختلفين كانت أكثر تهديباً بآثار الثبوة، فلذلك كانت أقل عنفاً.

٢- الارتداد: كان الارتداد حركة يُراد بها في أول الأمر الخروج على السلطة المركزية التي تمثلها هيئة حاكمة في المدينة. ولا ريب في أن الباعث الأعظم عليها هو العصبية التاريخية بين طوائف الشمال وطوائف الجنوب. ثم غلبت العصبية في جماعات، فعمدوا إلى الانفصال بكل الأشكال حتى في الدين، فقد قدموا أنبياء أيضاً قاصدين بذلك القضاء على كل ما يُشتم منه رائحة الاتصال.

وهؤلاء المتنبتون لا قوا تعصيماً من أغلب المرتدين الذين وجدوا فيهم الرمز الروحي المفقود لحركتهم الانفصالية، التي كانت جزءاً من الصراع القديم بين الشمال والجنوب، وبالتالي بين القحطانية<sup>(١٢)</sup> والعذنانية. ونحن إذا لاحظنا أن الروح القبلي لا ينسجم والحكم

(١٢) يذهب العلامة جويدي المستشرق الإيطالي إلى أن الأولى في التقسيم الاعتماد على النسبة الجغرافية لأن في الشمال

قحطانيين وفي الجنوب أيضاً عدنانيين.



المركزي بحال، نَقَعَ على الحافز المُهم الذي دَفَعَ المُرتدِّين إلى تشكيل حركتهم الكبيرة بشكْلِها العنيف، ونرى أيضاً كيف عَثَرُوا بسرعة على ما يُوحِّدُ بينَ جهودِهِم الخاصة. وَيَحْسُنُ بنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بإجمالٍ عن كلمة آرتداد، وعن عوامِلِهِ الأُخْرَى.

لم يكن<sup>(١٣)</sup> لهذا اللَّفْظِ مَعْنَاهُ الفِقهِيُّ الذي يُرادُ الإلْحَادُ في ذلك الزَّمنِ، وإنَّما أُطْلِقَ بِمَعْنَاهُ اللُّغَوِيُّ فَقَطْ، الَّذِي يُفِيدُ النُّكُولَ والرُّجُوعَ، لأنَّ من جُمْلَةِ طَوَائِفِ المُرتدِّينَ جماعاتٍ لم تَكْفُرْ ولم تُلْحِذْ، وإنَّما آمَنَّتْ عَنِ التَّقْيُّدِ بِممارسةِ النِّظامِ الماليِّ الَّذِي كَانَتْ تُمارِسُهُ في زمنِ النَّبِيِّ (ص). وعليه فالْمُرتدُّونَ قِسْمان:

١- المُلْحِدُونَ وهُمُ المُفْرِطُونَ في العَصَبِيَّة.

٢- الخارجُونَ على السُّلْطَةِ المركزيَّة في المدينة.

وعواملُ هذه الحركة، عدا ما ذَكَرْناه، كثيرةٌ منها:

أ - الجُحُودُ الطَّبِيعِيُّ في النفسِ البدَوِيَّة، وحالةُ الشُّكِّ الدِّينِيِّ المُتَوَلِّدِ عِنْدَهُم من تَنَاحُرِ الدِّيانَاتِ المُخْتَلِفَةِ.

ب - فَقْرُ العرب.

ج - نَظَرِيَّتُهُم في الحكومةِ بأنَّها عُذْوَانٌ على الحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَالكِيانِ الفَرْدِيِّ.

د - نَظَرِيَّتُهُم في الزَّكَاةِ بأنَّها ضَرِيَّةٌ تَمَسُّ الاستِقْلالَ الماليَّ للفردِ، وتُنافِي المِلْكِيَّاتِ الخاصَّة. ويُضَافُ إلى هذا سَبَبٌ آخَرُ مَبْنِيٌّ على نِظامِ<sup>(١٤)</sup> الطَّبَقَاتِ حَسَبَ ما هو وارِدٌ في الهامِشِ.

---

(١٣) ومن هذا يَظْهَرُ ما في تَقْرِيرِ بَغْضِ المؤرِّخينَ مِنْ أَنَّ هذا اللَّفْظَ أَطْلَقَهُ عَلَيْهِمُ خُصُومُهُمُ لِلتَّهْجِجِ، من مُجَاوِزَةٍ وَعَدَمِ تَحْقِيقِ.

(١٤) كَانَتِ القَبِيلَةُ تَعْرِفُ نِظامَ الطَّبَقَاتِ فَكَانَتْ عِنْدَهُم:

١- طَبَقَةُ الأَحْرَارِ أي العربُ المُخْلِصُ الدِّينَ لم يَجِرْ عَلَيْهِمُ رَقٌّ.

٢- طَبَقَةُ العَبِيدِ وهُمُ أَسَاوِي الحَرْبِ أو الذِّينَ يُشْرَوْنَ بِالمالِ.

٣- طَبَقَةُ التَّوَالِي، وهي طَبَقَةُ وُشْطَى بَيْنَ الحُرِّ والعَبِيدِ. وَأَنْوَاعُ الوَلَاءِ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا مَوْلَى المَوَالِاةِ وَمَوْلَى النِّسَبِ وَمَوْلَى العِتاَقَةِ.



هـ - فَهْمُهُم لِلزَّكَاةِ بِأَنَّهَا حَقٌّ لَازِمٌ لِلطَّبَقَةِ الْفَقِيرَةِ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ بِالكَرْهِ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لِنُفُوذِ الطَّبَقَةِ الْمَالِيَّةِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ رَأَوْا فِي نِظَامِ الزَّكَاةِ اسْتِطَالََةً وَتَطَفُّلاً. وَبِذَلِكَ نَفْهَمُ أَنَّ حَرَكَةَ الْمُزْتَدِّينَ، فِي حَقِيقَتِهَا، كَانَتْ «ثَوْرَةً شَبَّهَ الرُّأَسْمَالِيَّةِ عَلَى الْمَبَادِيءِ الْإِشْتِرَاكِيَّةِ الْجَدِيدَةِ» تُحْمِسُهَا الْعَصَبِيَّةُ وَيُذَكِّبُهَا الرُّوحُ الْقَبْلِيُّ.

وَالآنَ نَعُودُ إِلَى صَدْرِ الْحَدِيثِ لِنُجِيبَ عَلَى سُؤَالٍ وَهُوَ: كَيْفَ اسْتَسَاعَ هَؤُلَاءِ الْحُكْمَ الْمَرْكَزِيَّ فِي ظِلِّ حُكُومَةِ النَّبِيِّ (ص) وَلَمْ يَسْتَسِيغُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ؟

يَرْجِعُ السَّبَبُ فِي هَذَا إِلَى أَنَّهُمْ أَخَذُوا حُكُومَةَ النَّبِيِّ (ص) مِنْ جَانِبِهَا الرُّوحِيِّ وَنَظَرُوا إِلَيْهَا مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ فَقَطْ، فَلَمْ يَجِدُوا فِيهَا مَا يُخَيِّبُ عَنَنَاتِهِمُ الْعَصَبِيَّةَ الْقَدِيمَةَ، وَمَا يُهَيِّجُ فِيهِمُ الْحَمَاسَ التَّقْلِيدِيَّ. إِنْ النَّظَرُ إِلَى النَّبِيِّ (ص) كَانَ دِينِيًّا مَخْصُصًا عَلَى أَنَّهُ، وَإِنْ مَارَسَ السُّلْطَةَ الزَّمْنِيَّةَ، فَقَدْ كَانَتْ الصُّبْغَةُ الدِّينِيَّةُ تَغْمُرُهَا حَتَّى لَتُخْفِيَ بَوَادِي الْحُكْمِ وَالسَّيْطَرَةِ، وَيَكْفِي أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ الْإِعْتِقَادَ حِينَئِذٍ بِأَنَّ إِسْلَاسَ الْقِيَادِ فِي يَدِ النَّبِيِّ (ص) قُرْبَةٌ دِينِيَّةٌ وَذَخِيرَةٌ أُخْرَوِيَّةٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْخَلِيفَةُ بَعْدَهُ، مَهْمَا كَانَتْ مَزَايَاهُ. وَنَحْنُ إِذَا دَرَسْنَا كَلِمَةَ «خَلِيفَةُ» الَّتِي تُفِيدُ مَعْنَى النِّيَابَةِ فِي الْحُكْمِ دُونَ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ فِيهِ، نَشْعُرُ بِأَنَّ الْهَيْئَةَ الْحَاكِمَةَ إِنَّمَا اخْتَارَتْهَا لِقَبَا لِيُؤَيِّدُوا مِنْ شَكِيمَةِ أَوْلِيَاءِ النَّافِرِينَ، حِينَ لَا يَكُونُ مِنْ مَعْنَاهَا شَيْءٌ سِوَى الْإِشْرَافِ عَلَى الْحُكْمِ بِالْوِكَالَةِ، وَفِي هَذَا اللَّفْظِ لَبَاقَةٌ تُسَهِّلُ وَقَعَهُ.

وَهَذَا التَّحْلِيلُ يُظْهِرُنَا عَلَى أَنَّ السُّلْطَةَ لَوْ أُسْنِدَتْ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ إِلَى شَخْصٍ مِنْ أُسْرَةِ النَّبِيِّ (ص) لَكَانَتْ أَكْثَرَ أَنْسِجَامًا مَعَ الرُّوحِ الْعَرَبِيَّةِ السَّادِجَةِ الْبَعِيدَةِ عَنْ مَذْهَبِ الْحُكْمِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَمْنَحُهُ جُزْءًا مِنْ نَظَرِهَا الرُّوحِيِّ الَّذِي كَانَتْ تَنْظُرُ بِهِ وَحْدَهُ إِلَى النَّبِيِّ (ص).

---

وَكَانَ لِهَذَا النِّظَامِ ثَنَائُجٌ هَامَّةٌ، فَالْعَبْدُ عَدِيمُ الْحَقُوقِ مُجْمَلَةٌ، وَالْحُرُّ يَتَمَتَّعُ بِالْحَقُوقِ الْعَامَّةِ كَامِلَةً، وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْآنَ مَدَنِيَّةً، وَالْمَوْلَى وَسَطٌ بَيْنَ التَّمَتُّعِ بِالْحَقُوقِ كَامِلَةٍ وَالْحَرَمَانِ مِنْهَا جُمْلَةً، فَلَيْسَ مِنْ حَقِّ الْمَوْلَى أَنْ يُنْقَسِبَ إِلَى الْقَبِيلَةِ إِلَّا مُشَبَّهًا بِكَلِمَةِ حَلِيفٍ، وَلَهُ أَنْ يَرِثَ مِنْ خَلِيفِهِ بِخِلَافِ الْعَبْدِ.



وَيُخَشَّنُ أَنْ تُغْنَى بِفَهْمِ وَجْهَةِ هَذَا النَّظَرِ لِأَنَّهُ يُجْلِي لَنَا السَّرَّ فِي آتِدْفَاعِ قِبَائِلِ الْجُنُوبِ إِلَى الْخُرُوجِ، كَمَا أَنَّهُ يُعَرِّفُنَا أَنَّ الْأَسَاسَ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُكُومَةُ لَمْ يَكُنْ ثَابِتًا إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ.

نَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ الْإِعْتِقَادَ فِي حُكُومَةِ النَّبِيِّ (ص) قَائِمٌ عَلَى أَنَّهَا إِلَهِيَّةٌ مَحْضٌ، وَأَنَّ مُمَارَسَتَهُ لَهَا ضَرْبٌ مِنْ رِسَالَتِهِ التَّشْرِيعِيَّةِ، فَلَا عَجَبَ إِذَا مَالَتِ الْقِبَائِلُ إِلَى الرِّضَا وَالِاسْتِسْلَامِ، وَلَمْ تُحَارِبِ السُّلْطَةَ الْمُطْلَقَةَ فِي شَخْصِ النَّبِيِّ (ص). وَمَوْتُ النَّبِيِّ وَضَعَ حَدًّا لِهَذَا الْإِعْتِقَادِ فِي الْأَشْخَاصِ، فَلَمْ يَكُنْ بِدَعَا أَنْ تَنْظُرَ الْقِبَائِلُ إِلَى الْقَائِمِ بِأَعْبَاءِ الْحُكْمِ مِنْ بَعْدِهِ بِالنَّظَرِ الْآخِرِ الَّذِي يُخَيِّي فِيهِمُ النَّزْعَاتِ الْكَامِنَةَ، وَيُوقِظُ لَدَيْهِمُ الْحِمَاسَ الْقَبِيلِيَّ الْقَدِيمَ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الصَّلَاحِيَّاتِ وَالْمَزَايَا الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا الْمُرْشُخُ. هَذِهِ الصَّلَاحِيَّاتُ الَّتِي كَانَتْ بَعِيدَةً عَنْ فَهْمِ أَوْلَئِكَ الْعَرَبِ الْفِطْرِيِّينَ.

وَمِمَّا يَشْهَدُ لِهَذَا أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ حِينَما تُؤْفَى النَّبِيُّ (ص) آعْتَقَدُوا بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أَنْتَهَى وَمَالُوا إِلَى الْعُزْلَةِ مُمَارِسِينَ وَاجِبَاتِهِمُ الدِّينِيَّةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْفُسِهِمْ، مِمَّا دَعَا أَبَا بَكْرٍ إِلَى تَذْكِيرِهِمْ بِأَخْبَارِ النَّبِيِّ (ص) الْمُتَعَلِّقَةِ بِغَلَبَةِ كِسْرَى وَقِيصَرِ. وَهَذَا يُظْهِرُنَا عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ حِينَئِذٍ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِكْرَةٌ عَنِ الْحُكُومَةِ الزَّمْنِيَّةِ أَبَدًا، وَلَا رَغْبَةً خَاصَّةً بَعِيدَةً عَنِ الدِّينِ فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفَتِيَّةِ.

إِذَا فَأَوَّلُ مَا يَتَبَادَرُ إِلَى ذِهْنِ الْأَغْرَابِ، إِذَا رَأَوْا رَجُلًا مِنْ عَامَّةِ الْعَرَبِ يَتَّبِعُ كُرْسِيَّ الْحُكْمِ، أَنَّ الْأَمْرَ تَمَّ لَهُ بِالْغَلَبَةِ فَقَطْ، وَالنَّاتِجَةُ الْمُنْطَلِقِيَّةُ لِهَذَا أَنَّهُمْ مَا دَامُوا ذَوِي سُلْطَةٍ تُخَوِّلُ لَهُمُ الْغَلَبَةَ فِي حَوْمَةِ الصُّرَاعِ فَهُمْ أَحَقُّ وَأَجْدَرُّ بِالْأَمْرِ. وَتَبَيَّنَ صِدْقُ هَذَا النَّظَرِ عِنْدَهُمْ، الْخِلَافُ عَلَى التَّرْشِيحِ الَّذِي تُعْمِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَخْبَارِهِ، وَلَا شَكَّ قَدْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَزِيهِ لِلْمَصِيرِ عَلِيِّ (ع) وَهُوَ الَّذِي عَرَفُوهُ عَنْ قُرْبٍ، وَأَحْبَبُوا فِيهِ شَخْصِيَّتَهُ الْمُمْتَازَةَ، وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَيْضًا بِأَنَّ آعْتِقَادَ الْفِطْرِيِّينَ يَنْصَرِفُ إِلَى الْوَرَاثَةِ الدِّينِيَّةِ؛ وَأُسْرَةُ النَّبِيِّ (ص) عَرِيقَةٌ بِهَذَا النَّوعِ مِنَ التَّخْصِيسِ وَالِامْتِيَازِ الرُّوحِيِّ، فَلَمْ يَكُنْ بَعِيدًا أَنْ يَطْمَئِنَّ الْعَرَبُ النَّائُونَ إِلَى مُمَارَسَةِ هَذِهِ



الأُسرة الحُكْم في ظلّ الدين بالخِلافة والنِّبَاة. والذي يَدُلُّنا على صِدْقِ هذا التَّقْدِيرِ آخِْتِجَا جُ عُمَر (ض) الَّذِي أَصْطَنَعَ فِيهِ مَنَظِقاً صَوَّرَ فِيهِ النَّفْسِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ خَيْرَ تَصْوِيرٍ، فَقَدْ أَشَارَ لَنَا فِي كَلِمَةٍ لَهُ يَوْمَ ذَاكَ إِلَى أَنَّ الْعَرَبِيَّ شَدِيدُ النَّفْوَ رٍ مِنَ السُّلْطَةِ إِلَّا عَنْ نَبْعَةِ الدِّينِ. وَمَنْ الْحَيَّرَ أَنْ نَذْكُرَهَا عَلَى طَوْلِهَا، لِأَنَّهَا مِنْ الْقِيَمَةِ الْجَوْهَرِيَّةِ فِي بَحْثِ هَذَا الْمَوْضُوعِ، قَالَ:

«وَاللَّهِ لَا تَرْضَى الْعَرَبُ أَنْ يُؤْمَرُوا مِنْ غَيْرِكُمْ، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ لَا تَمْتَنِعُ أَنْ تُؤَلَّى أَمْرَهَا مَنْ كَانَتِ النَّبُوَّةُ فِيهِمْ وَوَلِيَّ أَمْرِهَا مِنْهُمْ، وَلَنَا بِذَلِكَ، عَلَى مَنْ أَبِي مِنَ الْعَرَبِ، الْحُجَّةُ الظَّاهِرَةُ وَالسُّلْطَانُ الْمَبِينُ، مَنْ ذَا يُنَازِعُنَا سُلْطَانَ مُحَمَّدٍ وَإِمَارَتَهُ وَنَحْنُ أَوْلِيَاؤُهُ وَعَشِيرَتُهُ، إِلَّا مُدِلُّ بِيَاظٍ أَوْ مُتَجَانِفٌ لِإِثْمٍ أَوْ مُتَوَرِّطٌ فِي هُلَاكَةٍ»<sup>(١٥)</sup>.

تأملُ قَوْلَهُ: «وَلَكِنَّ الْعَرَبَ لَا تَمْتَنِعُ أَنْ تُؤَلَّى أَمْرَهَا مَنْ كَانَتِ النَّبُوَّةُ فِيهِمْ»، الَّذِي هُوَ بَيَانٌ تَصْوِيرِيٌّ يَكْشِفُ بِجَلَاءٍ عَنْ خَوَافِي النَّفْسِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ. وَنَحْنُ الْآنَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ مَنَظِقِ عُمَر (ض) الَّذِي اسْتَعْمَلَهُ ضِدَّ خُصُومِهِ السِّيَاسِيِّينَ فِي اكْتِسَابِ قَضِيَّةِ التَّرْشِيحِ، مِنْ حَيْثُ هُوَ شَاهِدٌ عَلَى مَا نَدَّعِي مِنْ أَنَّ النَّفْسَ الْعَرَبِيَّةَ تَنْبُو عَنْ كُلِّ سُلْطَةٍ عَلَى آيَةٍ شَاكِلَةٍ، إِلَّا إِذَا جَاءَتْ مِنْ جَانِبِ الدِّينِ فَتَلِينُ سَكِيمَتُهَا. وَعُمَرُ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَوَسَّلُ بِأَنَّهُمْ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ (ص) فَهُمْ أُخْلِقُوا بِتَمَثِيلِهِ، وَمِنْ هَذَا نَنْتَرِجُ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ السُّلْطَةَ لَوْ وَكَلَتْ إِلَى أُسْرَةِ النَّبِيِّ (ص) مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ لَمَّا شَجَرَ هَذَا الْخِلَافُ، وَلَمَّا ظَهَرَتْ حَرَكَةُ الْإِزْتِدَادِ فِي أَغْلِبِ الظُّنِّ. وَهَذَا لَا يَغْنِي أَنَّ الْأَمْرَ سَيُفْضَى فِي النِّهَايَةِ إِلَى الْحُكْمِ عَلَى نِظَامِ الْأُسْرَةِ، بَلْ يَغْنِي أَنَّ شَكْلَهُ كَذَلِكَ أَكْثَرُ أَنْسِجَاماً مَعَ الرُّوحِ السَّائِدَةِ إِذْ ذَاكَ، وَبِالتَّكْثُلِ التَّارِيخِيِّ، وَقُرْبِ الْأُمَّةِ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ مِنْ فَهْمِ مَذَاهِبِ الْحُكْمِ، تَتَغَيَّرُ نَظَرُتُهَا.

وَأَذْكُرُ الْآنَ، كَتَغْلِيْقٍ عَلَى حَرَكَةِ الْإِزْتِدَادِ، بِأَنَّ الشُّدَّةَ الَّتِي أَخَذَهُمْ بِهَا أَبُو بَكْرٍ (ض)

(١٥) راجع: تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٠٩.



وتشديده الضربة القوية إليهم كانت لخير الدولة، لأن أولى النتائج التي ترتبت على حركته الموفقة هي إيجاد الوحدتين السياسية والعسكرية بشكليهما الحقيقيين. ونحن لا نُنكر بأن ظهور الوحدة العسكرية الثامة كان على يدي أبي بكر، وإليه يرجع الفضل فيها من أقرب طريق، سواء كانت هذه الوحدة العسكرية هدفه أم لا.

٣- إفتناع قريش بعدم العصيان، أو بتعبير ذلك العصر بعدم الارتداد: يُحدثنا التاريخ بأن قريشاً حاولت، ككثير من العرب، أن تخرج وتعلن العصيان، ولكنها عادت فرَكَدَتْ. وفي هذا الركود السريع ما يدعو إلى الدهشة، ويحيل الدارس على إنعام النظر لفهم السر الصحيح. وأعتقد بأن المؤرخين عموماً لم يكتفوها الأسباب الحقيقية لرضا قريش بالتعاون مع حكومة المدينة بالخضوع لها.

وتعليه عندي بأن التنازع على الخلافة يوم السقيفة كان في ظاهره بين جزئين: كتلة المهاجرين وكتلة الأنصار، وفي حقيقته بين مكة والمدينة. وكان الظن القريب أن المدينة ستفوز في الخلاف المنتظر، ولو تم الأمر بغلبة الأنصار لما أخلدت قريش إلى السكينة أبداً، ولكن أنسياق الفوز إلى جانب المهاجرين - أي فوز مكة في الصراع الانتخابي - سهل على قريش الخضوع والاستسلام. ومعنى فوز مكة في الحقيقة البعيدة فوز أكبر أسرها المدنيّة، فلم يفز بنو تيم بفوز أبي بكر بل فاز الأمويون وحدهم، ولذلك صَبَغُوا الدولة بصبغتهم، وأثروا في سياستها، وهم بعيدون عن الحكم، كما يُحدثنا المقرئ في رسالته النزاع والتخاصم.

ومن تاريخ هذا الفوز الانتخابي بدأت سعاية بني أمية لتهيئة الأسباب إلى الانقلاب الذي سيفضي في نهايته إلى استخواذهم على السلطة. وأي ناظر في حركات أبي سفيان لا يشك بأنه بدأ يعمل بهمة لا تعرف الكلل لتعبيد الأمور على ما يريد، فقد رأينا كيف يفكر باستعجال الأمور من وراء شخص علي والعباس، وكيف يشتعل ويعلنهما باستعداديه لإحداث الانقلاب، مُستغلاً العناصر غير الراضية عن نتائج الانتخاب.



وبالنظر إلى هذا التحليل لِرُكود قريش بعد التَّهَيُّؤ للثَّورة، نَلِمَسُ عملَ العصبيةِ الكبيرِ في هذا الحادثِ، ونَضَعُ أَيْدِيَنَا على السِّرِّ الصَّحيحِ في مُحيطِ القَبَلِيَّاتِ. وإنَّ مِنَ الغَرَارَةِ الرُّكُونَ إلى تصويرِ المؤرِّخينِ السَّاذِجِ لهذا الحادثِ بأنَّه نتيجةُ تعنيفِ الضميرِ الدِّينيِّ وهو لم يَبْلُغْ بعدُ. إنَّ الواجبَ التاريخيَّ يَقْضِي علينا بأنَّ نَفْهَمَ كُلَّ حادثٍ في مُحيطِ القَبَلِيَّةِ على ضوئِها لأنَّها بآثارِها أقوى من كُلِّ عاملٍ آخرَ، كالَّذين مثلاً الذي لم يَخْتَمِرْ بَعْدُ في نُفوسِ العربِ آخِتمارُ القَبَلِيَّةِ. ونحنُ، حينَما نُديرُ البَحْثَ في هذه الفَترَةِ من التاريخِ على قاعِدةِ الدِّينِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، نَغَالِطُ أَنْفُسَنَا في حَقائِقِ الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ وأَوَّلِيَّاتِ عِلْمِ النُّفُسِ، كما أنَّ المِيزانَ التاريخيَّ الَّذي قَرَزْنَاهُ في التَّصْدِيرِ يَقْضِي بأنَّ يَكُونَ أَثَرُ الدِّينِ البَدِيءِ، والمُثَلِّ الجَدِيدَةِ في هذه النُفوسِ، جُزْئِيًّا وَعَامِلًا على نَحْوِ مَا.

٤- التَّعِينَاتُ الحُكُومِيَّةُ: أُنْذِي المَقْرِيزِيَّ دَهْشَتَهُ المُصْحُوبَةَ بِتَسْأُؤِ حَائِرٍ، من حِزْمَانِ بَنِي هَاشِمٍ مِنَ التَّعِينِ فِي الْوَلَايَاتِ، بَيْنَمَا كَانَتْ مَغْمُورَةً بِالْعُنْصَرِ الْأُمَوِيِّ، فِي كُلِّ جِهَةٍ وَإِلَى مِنْ أُمِّيَّةٍ. وَالْمَقْرِيزِيَّ لَا يُخْفِي دَهْشَتَهُ الشَّدِيدَ مِنْ هَذَا الْإِجْرَاءِ، لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ تَبْرِيزَهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْهَاشِمِيِّينَ رَجُلٌ وَاحِدٌ كَفِيٍّ بِأَعْبَاءِ الْوَلَايَةِ وَتَبِعَاتِ الْإِمَارَةِ، وَهَذَا إِذَا أُمَكِّنَ فَرَضِيًّا فَإِنَّهُ يَسْتَحِيلُ فِي الْوَاقِعِ. وَنَحْنُ بِهَذَا لَا نُريدُ أَنْ نَنْتَهِيَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ السِّيَاسَةَ الْإِدَارِيَّةَ كَانَتْ مَقْصُودَةً مِنَ الْخَلِيفَةِ الْقَائِمِ تَحْزُبًا وَعَصْبِيَّةً، وَإِنَّمَا دَلَّلْنَا عَلَيْهَا لِنَتَشَهَّدَ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ السِّيَاسَةِ مَقْدَارَ نُفُوذِ الْإِصْبَعِ الْأُمَوِيِّ فِي تَسْيِيرِ دَفَّةِ الْأُمُورِ. وَقَدْ سَاعَدَهُمْ عَلَى آكْتِسَابِ ثِقَةِ الْخُلَفَاءِ أَنَّهُمُ الْأَشْرَةُ السِّيَاسِيَّةُ الْعَرِيقَةُ - إِذَا صَحَّ هَذَا التَّعْبِيرُ - فَالْخُلَفَاءُ لَدُنْكَ يُقَدَّرُونَ مُوَاهِبَتَهُمُ الْمَدِينِيَّةَ الْمُورُوثَةَ. وَمِنْ ثَمَّ نَصِلُ إِلَى النَّتِيجَةِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي نَسْبَعِي إِلَى تَقْرِيرِهَا وَإِبْضَاحِهَا وَهِيَ أَنَّ أَكْثَرِيَّةَ الْأُمَرَاءِ وَالْوَلَاةِ كَانُوا مِنْ بَنِي أُمِّيَّةٍ فِي أَزْمَانِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ، وَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ إِثَارَةَ الْعَصْبِيَّاتِ الْمَكْبُوتَةِ كَانَتْ جُزْءًا مِنْ سِيَاسَةِ الْحِزْبِ الْأُمَوِيِّ ذِي الْمَطَامِعِ الْكَبِيرَةِ، اسْتَطَعْنَا أَنْ نَقْطَعَ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْوَلَاةِ كَانُوا، وَهُمْ يُمَارِسُونَ إِمَارَتَهُمْ فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، لَا يَفْتَوُونَ



يُخَيِّونَ كَوَامِنَ النَّزَعَاتِ وَيُرَبِّبُونَهَا لِيُلْهِبُوا الْمُجْتَمَعَ الْإِسْلَامِيَّ الزَّاحِرَ بِمَا فِيهِ مِنْ شُؤُونَ.  
وهذا تقديرٌ سَوَفَ يَسْتَبْعِدُهُ جُلُّ الدَّارِسِينَ، وَلَكِنَّهُ حَقِيقَةٌ تُنَاصِرُهَا الشُّوَاهِدُ الْكَثِيرَةُ  
وَتُعَلِّلُ الاضْطْرَابَ السَّرِيعَ.

٥- التَّغْيَةُ الْقَبَلِيَّةُ: ونعني بهذا تنظيمَ الجيشِ تنظيمًا بِحَسَبِ الْقَبَائِلِ، فَكُلُّ قَبِيلَةٍ كَانَتْ  
تُشَكِّلُ فِرْقَةً مِنَ الْجَيْشِ وَقَائِدُهَا هُوَ الزَّعِيمُ الْقَبَلِيُّ نَفْسُهُ. وَهَذَا، وَإِنْ كَانَ يُؤَلِّدُ مُنَافَسَةً مَحْمُودَةً  
مِنْ حَيْثُ الِاسْتِبْسَالُ فِي الْفَتْحِ، إِلَّا أَنَّ أَضْرَارَهُ فِي النَّتِيجَةِ تَفُوقُ كُلَّ تِلْكَ الْمَزَايَا. وَلَقَدْ سَمِعْنَا  
فِي آخِرِ اجْتِمَاعِ أَوْلَئِكَ الزُّعَمَاءِ نَغْمَةً أَنَّهُمْ مَغْبُوثُونَ وَأَنَّ مَا نَالَهُمْ مِنْ فَوَائِدِ الْحَرْبِ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ مِنْ  
تَضَرُّجَاتِهِمْ، مِمَّا يُؤَيِّدُ وَجْهَةً نَظَرِنَا فِي أَنَّ هَذَا الْمَنْطِقَ آسَتْوَلَى عَلَيْهِمْ وَظَهَرَ بَعْدَ حِينٍ بِخَطَرِهِ الْعَنِيفِ.

٦- السِّيَاسَةُ الْمَالِيَّةُ: لَا رَيْبَ فِي أَنَّ النِّظَامَ الْمَالِيَّ لَمْ يَكُنْ بَعِيدًا عَنِ التَّأَثُّرِ بِهَذِهِ النَّزْعَةِ  
الْقَبَلِيَّةِ، وَبِالْأَخْصَصِ فِي خِلَافَةِ عَثْمَانَ حَيْثُ ظَهَرَتْ فِيهِ بِكُلِّ جَلَاءٍ. وَسَيَأْتِي لَنَا بَحْثُ النِّظَامِ  
الْمَالِيِّ حِينَمَا نَتَنَاوَلُ بِالدَّرْسِ النِّظَامَ الْعَامَّ، وَسَتَرَى هُنَاكَ أَيَّ أَثَرٍ كَبِيرٍ تَرَكْتُهُ السِّيَاسَةُ الْمَالِيَّةُ الَّتِي  
قَامَتْ عَلَى أُسَاسٍ قَلِيلٍ، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُثِيرَ الاضْطْرَابَ فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ، كَبِيرَةٍ أَوْ صَغِيرَةٍ. وَأَنَّ  
مِمَّا يَعْكِسُ لَنَا صُورَةً مِنْ قَبَلِيَّةِ هَذَا النِّظَامِ، تَرْتِيبُ الدَّوَاوِينِ عَلَى الْقَبَائِلِ، وَتَنْسِيقُ الْقَيْدِ فِي  
السَّجَلَاتِ عَلَى سُتُهَا.

إِذَا فَقَدْ ظَهَرَتْ الْقَبَلِيَّةُ فِي مُنَاسَبَاتٍ شَتَّى وَظُرُوفٍ كَثِيرَةٍ، بَلْ وَفِي كُلِّ ظَرْفٍ مِنْذُ وَفَاةِ  
النَّبِيِّ (ص). وَهَذِهِ الْمُنَاسَبَاتُ أَيْقَظَتِ الْعَصَبِيَّةَ الْكَامِنَةَ حَتَّى أَنْطَلَقَتْ فِي النِّهَايَةِ مِنْ عِقَالِهَا  
وَشَكَّلَتِ الثَّوْرَةَ الْعَنِيفَةَ. وَكَانَ الْوَاجِبُ النِّظَامِيُّ يَقْضِي عَلَى هَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءِ بِاتِّبَاعِ السِّيَاسَةِ  
النَّبَوِيَّةِ فِي الْقَضَاءِ عَلَى الْعَصَبِيَّةِ النَّكِيرَةِ، الَّتِي كَانَتْ تَقُومُ عَلَى أُسَاسَيْنِ مُهِمَّيْنِ:

الأَوَّلُ: تَأْنِيسُ الثُّفُوسِ الْآبِدَةِ بِتَطَرُّيَاتِ الْعَقِيدَةِ، وَصَقْلُ الصُّمَائِرِ الْخَشِينَةِ حَتَّى تَعُودَ  
إِنْسَانِيَّةً نَبِيلَةً تَوَلَّفُ بَيْنَهَا مِثْلٌ وَاحِدَةٌ تَقُومُ عَلَيْهَا وَتَصْدُرُ عَنْهَا. وَهُوَ مَا عَنِيتَاهُ بِبَثِّ التَّرْبِيَةِ  
الدِّينِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ لَازِمَةً لِدَلِكِ الْمَجْتَمَعِ لُزُومَ التَّرْبِيَةِ الْوَطْنِيَّةِ فِي نِظَامِ الْقَوْمِيَّاتِ الْحَدِيثِ. وَلَا



شكَّ بأنَّ دَفَعَ العَرَبِ الفِطْرِيَّينَ إلى الفَتْحِ والجِهَادِ، ثَنَّى نُفُوسَهُم وجَوَانِحَهُم على تقاليدِهِم القديمة وعاداتِهِم السَّحِيقَةِ مُرَدَّةً بِرِداءِ الدِّينِ. فَكَانَتْ تَرْبِيَّتُهُم الدِّينِيَّةُ شَكْلِيَّةً مَحْضَةً.

وقد ذَكَرْتُ في كِتَابِ سُمُومِ المَعْنَى في سُمُومِ الذَّاتِ طَائِفَةً مِنَ الأَخْبَارِ، تُشْهَدُ بِأَنَّ الأَعْرَابَ خُصُوصاً لَمْ يَتَضَلَّعُوا مِنَ الدِّينِ. وقد كَبَّرَ على كَثِيرِينَ القَوْلُ بِأَنَّ الخُلَفَاءَ لَمْ يُعْنُوا بِهَذَا اللُّونِ مِنَ التَّرْبِيَةِ، فَتَسَاءَلُوا عَنِ الأَشْخَاصِ الَّذِينَ أَوْصَلُوا الدِّينَ إلى الجِهَاتِ المَخْتَلِفَةِ، وَأَعْطَوْا تِلْكَ المَجْمُوعَةَ الإِسْلَامِيَّةَ الكُبْرَى. وَنَحْنُ لَمْ نُنْكِرْ بِأَنَّ الخُلَفَاءَ عُنُوا بِالفَتْحِ، وَهُوَ يَسْتَتْبِغُهُ دَائِماً دُخُولُ أَقْوَامٍ لَا عِدَادَ لَهُمْ فِي دِينِ الغَالِبِينَ، وَلَكِنْ دُخُولُهُمْ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ لَا يَغْنِي أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ بِالْكَمِّ فَقَطْ، وَهَذَا مَا لَمْ تُغْنِ بِهِ، وَإِنَّمَا آنْصَرَفْنَا إِلَى دَرْسِ إِسْلَامِيَّةِ هَؤُلَاءِ وَأَوَّلِكَ، مِنْ حَيْثُ آثَارُهَا فِي الضَّمِيرِ. وَالنَّبِيُّ (ص) أُنْبَهَنَا إِلَى أَنَّ المَدَارَ عَلَى الضَّمِيرِ الدِّينِيِّ وَخَدَهُ الَّذِي يَجِبُ تَخْصِيصُهُ وَمُدَّهُ بِنَمِيرِ التَّعَالِيمِ الصَّالِحَةِ لِإِزْوَائِهِ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَجَعْنَا مِنَ الجِهَادِ الأصْغَرِ إِلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ»؛ جِهَادِ النَّفْسِ. وَبِهَذَا أَجَلَى النَّبِيِّ (ص) عَنْ خُطْبَتِهِ الرَّشِيدَةِ فِي الفَتْحِ وَالتَّهْذِيبِ. وَلَا يُنْكَرُ أَنَّ سِيَاسَةَ الخُلَفَاءِ كَانَتْ سِيَاسَةً فَتْحٍ فَقَطْ، وَعَلَيْهِ فَقَدْ أَهْمَلْتُ أَهَمَّ الجَانِبَيْنِ مِنَ السِّيَاسَةِ النَّبَوِيَّةِ.

الثَّانِي: تَحْضِيرُ العَرَبِ بِتَمْصِيرِهِمْ وَتَخْطِيطِ الأَرْضِي لِيَقُومُوا عَلَيْهَا بِالزَّرْعَةِ، فَالنَّبِيُّ (ص) كَانَ جُهْدُهُ مُنْصَرِفاً إِلَى:

أولاً: تَرْغِيبِ العَرَبِ فِي سَكْنَى الأَمْصَارِ، وَلِذَلِكَ حَضَّ الأَعْرَابَ عَلَى الهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ لِتُبَدَّلَ مِنْ نَفْسِيَّاتِهِم الجَافِيَّةِ.

ثانياً: تَرْغِيبِهِمْ فِي الزَّرْعَةِ. فَقَدْ قَالَ (ص): «خَيْرُ المَالِ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ، وَشَاةٌ مَوْمُورَةٌ». وَفِي هَذَا الحَدِيثِ حَضٌّ لِلْعَرَبِ عَلَى أَنْ يَكُونُوا زُرَّاعاً مُسْتَقَرِّينَ، وَهُوَ يَكْشِفُ عَنْ مَقْدَارِ شَغْفِ النَّبِيِّ بِالْعُمَرَانِ.

وَنَحْنُ إِذَا دَرَسْنَا السِّيَاسَةَ الَّتِي أَدَّى إِلَيْهَا أَجْتِهَادُ الخَلِيفَةِ الصَّالِحِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، نَرَاهَا



سياسةً حربيّةً خالصةً حتّى (١٦) مَنَعَ آذْخَارَ الأَمْوَالِ، وَحَرَّمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ اقْتِنَاءَ الضِّيَاعِ وَتَعَاطِي الزَّرَاعَةِ، وَبِذَلِكَ أَوْفَقَهُمْ عَلَى الْجُنْدِيَّةِ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ نَفْسَ عَمَرِ الْكَبِيرَةِ لَمْ تَكُنْ تُفَكِّرُ إِلَّا بِالتَّوَشُّعِ، فَهُوَ لَمْ يُعِدِّ الشَّعْبَ لِلِاسْتِقْرَارِ، وَإِنَّمَا آجَتَهْدَ بِإِعْدَادِهِ لِلْفَتْحِ بِسَبِيلِ نَشْرِ الْمَبْدَأِ الْإِسْلَامِيِّ الْجَدِيدِ فِي أَكْبَرِ رُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ. وَهَذِهِ السُّخْطَةُ، وَإِنْ تَكُنْ أَفَادَتِ الْعَرَبَ دَوْلَةً وَاسِعَةً الْأَرْجَاءِ، إِلَّا أَنَّهَا غَيْرُ مَتَمَّاسِكَةٍ أَيْضًا. وَسَرَعَانَ مَا أَنْبَعَثَتْ فِيهَا الْعَصَبِيَّةُ الْقَبِيلِيَّةُ وَالْعَصَبِيَّةُ الشُّعُوبِيَّةُ، وَعَانَتِ الدَّوْلَةُ أَشَدَّ الْعَنَاءِ فِي رَتْقِ الْفُتُوقِ الَّتِي أَوْقَعَتْ كُلَّ نَشَاطٍ مُثْمِرٍ.

وَلَعَلَّ أَكْبَرَ دَلِيلٍ عَلَى عَدَمِ نُضْجِ التَّعَالِيمِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي نُفُوسِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ سَمَّوْا بِغُنْضَرِهِمْ فَوْقَ الْعَنَاصِرِ، حَتَّى لَكَأَنَّهُمْ أَرَسَتْقِرَاطِيَّةً عَلَى النَّاسِ كَافَّةً. وَالْإِسْلَامُ لَا يَعْرِفُ أَرَسَتْقِرَاطِيَّةَ الْجَمَاعَةِ وَالْجِنْسِ بَلْ جَانَسَ بَيْنَ الشُّعُوبِ حِينَ خَلَقَهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَهُمْ شُعُوبًا وَقِبَائِلَ لِيَتَعَارَفُوا عَلَى مِثْلِ خَاصَّةٍ وَمَبَادِيءٍ فَضْلَى وَتَعَالِيمٍ قَوِيَّةٍ، لَا تَفَاضَلَ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَمْثَلِ... وَإِنْ أَفْتَرَضَ وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ أَرَسَتْقِرَاطِيَّةً، فَهِيَ أَرَسَتْقِرَاطِيَّةُ الْمَنَاقِبِيَّةِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ: تَخَلَّقُوا بِخُلُقِ اللَّهِ، وَخُلُقِ اللَّهِ الْقُرْآنُ... وَهُوَ أَثَرٌ يُغْزَى إِلَى النَّبِيِّ وَفِيهِ مَقَالٌ كَثِيرٌ عِنْدَ رِجَالِ التَّخْرِيجِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ.

وَمِنْ هَذَا يَظْهَرُ أَنَّ عَصَبِيَّةَ الْعَرَبِيِّ كَانَتْ تَعْمَلُ ضِدَّ أَخِيهِ (١٧) الْعَرَبِيِّ، وَضِدَّ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ مِنْ سَائِرِ الشُّعُوبِ، مِمَّا أَشْتَبَعَهُ آغْتِزَاؤُ الشُّعُوبِيِّ (١٨) بِقَبِيلِهِ وَمَاضِيهِ أَيْضًا، وَفِي مُعْتَرَكِ هَذِهِ الْعَصَبِيَّاتِ الْقَبِيلِيَّةِ وَالشُّعُوبِيَّةِ أَنْحَلَّ الرِّبَاطُ الْإِسْلَامِيُّ الصَّمِيمُ.

(١٦) راجع: المقرئزي، ج ٢، ص ٢٥٩.

(١٧) دُكِّرَ الْمُسْتَشْرِقُ الْكَبِيرُ دُوزِي فِي كِتَابِهِ: تَارِيخُ الْإِسْلَامِ فِي إِسْبَانِيَا أَنَّ بَعْضَ قَبَائِلِ الْيَمَنِ لَقِيْسَ كَانَ أَشَدَّ مِنْ بَعْضِ الْعَرَبِ لِلْأَعَاجِمِ. وَأَرْجَعَ إِلَى سِلْسِلَةِ الْحُرُوبِ بَيْنَ الْقَيْسِيَّةِ وَالْيَمَنِيَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ نَجْدَ مِقْدَارَ مَا عَمِلَتِ الْعَصَبِيَّةُ فِي خَلِّ عُقْدَةِ الرِّبَاطِ الدُّوَلِيِّ لِلْعَرَبِ.

(١٨) أَرَادَ الشُّعُوبِيُّ أَنَّ يُنْذِمَجَ فِي الدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ فَلَمْ يَجِدْ أُمَّةً وَإِنَّمَا وَجَدَ قِبَائِلَ مُعْتَزَّةً بِأَنْسَابِهَا مُتَعَالِيَةً بِأَحْسَابِهَا فَاضْطَرَّ أَنْ يَغْتَزَرَ بِنَفْسِهِ. وَقَبِيلُهُ وَقَبِيلُهُ.



## التدين

تناحر الديانات في الجزيرة أدّى إلى حالة من الشك: يقتضيها البحث في تشخيص الروح الديني، ودرجة ثبات العقيدة لدى العرب في عهد الخلفاء، أن ندرس تاريخ المناخنة العنيفة بين الأديان التي شهدت فصولها بلاد العرب قبل الإسلام، وكانت على ما يظهر مناخنة رهيبة مروعة. وقد يكون الحديث عنها طريفاً عداً عن أنه ضروري لازم لمن يريد أن يسبر غور النفس العربية من حيث العقيدة، وينصرف إلى إمطة اللثام عن الخيرة النفسية المبهمة التي شكلت عند البعض إغصاراً قوياً، أوزتهم حالات من الشك والتعطيل والتردد، وبالأخص إذا عرفنا أن العرب كانوا لا يملكون<sup>(١)</sup> حتى ذلك التاريخ،

(١) والشاهد على هذا خلاف علي وآبن مسعود في حابل توفّي عنها زوجها، فقال علي: تَعْتَدُ بِأَعْيَدِ الْأَجْلِينَ، توفيقاً بين آية البقرة وهي: «وَالَّذِينَ يُتَوَلَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً» وآية سورة الطلاق: «وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ». وقال آبن مسعود: من شاء بالملته أن الثانية نزلت بعد الأولى فهي ناسخة. هذه القصة تكشف لنا عن مقدار السذاجة العقلية التي لا تستقيم لها الموازنة والتحكيم المنطقيان، وإنما تلجأ إلى الغيب المحض، فأبن مسعود يئذ بالملته، أي الاحتكام إلى السماء ويستند إليها كمقدمة برهانية، هذا هو المنطق الغالب على العرب لذلك العهد، فليس بدعاً أن يترددوا ويبالغوا في التردد، وأنا أعتقد بأن شعباً يصدّر عن منطق كهذا ما كان ليفهمه علياً (ع). ويتدقّق النظر في منطق علي في هذه المسألة يكشف لنا نظام تعقّله السري العني.



القدرة المنطقية على الموازنة والتحكيم.

والنتيجة التي نستخلصها من صراع الديانات وغلاب الشيع، أن تتولد في العقلية العربية شبهة ذبذبات مضطربة متنازعة، فلم تكن النفس العربية فطرية بالمعنى الصحيح، ولا صحيفة بيضاء أو ساذجة بل كان حشيتها تعاليم مختلطة آخلاقاً غير منسقة ولا مفهوم.

فالبينة العربية من هذه الناحية كانت مشوبة إلى حد كبير، وإلى درجة قعيرة ذات غرور. والآن نأخذ بعرض هذه الديانات التي اختصنتها الجزيرة ولعبت في ساحتها أدواراً مختلفة الأهمية، ثم نعود إلى درس أثرها ومدى ظهوره في حركات ما بعد الإسلام الغامضة، فإن نظرية المؤتدين والمتتبعين وكذلك نظرية الخوارج والسبئية لا يمكن فهمها إلا على ضوء هذا التشخيص.

والنحل المذكورة هي: الوثنية، المجوسية، الصابئة، اليهودية، الحنيفية، النصرانية، اليهودية النصرانية. ومن هذا نرى أن جميع الديانات المعروفة لذلك العهد في الشرقين، الأدنى والأوسط، اجتمعت في بلاد العرب قبيل الإسلام. ويحسن بنا أن نعطى تعريفات سريعة عن كل ديانة، حتى إذا خضنا في حديث الصراع وآثاره وضحت لنا النتائج التي نجتهد بشرحها وتمثيلها عن قُرب.

الوثنية: كانت هي الديانة الغالبة في المحيط العربي، وهي تقوم على تأليه التماثيل أو قوى الطبيعة التي تزمر إليها، على شكل من وثنية اليونان والرومان، وإن كانت بدائية لا تبعت في صاحبها أنواعاً سامية من التفكير ولا نظراً خاصاً إلى المثل الأعلى للخير والجمال. والمعروف أن لكل قبيل من العرب معبوداً خاصاً يُرضي ميوله القبلية وينسجم مع أهوائه الخاصة. وبذلك كانت وثنية مفرقة جرت على العرب التطاحن والحرب. فإن من أسباب الوحدة السياسية وخذة المقدس المطلق والأسمى. وقد بدت طلائع الاجتهاد الديني



بين القبائل الوثنيّة في أعمال الطُقوس وتقديم القرابين ممّا أدى إلى تَكُون طائفة سُمِّيَتْ بالحُمُس (٢).

المجوسية: ديانة تُمَثِّلُ أخلام الروح الآريّة التي تستهويها مناظر الطبيعة، وتخلبها فتون الكائنات، كما أنّها ديانة رمزيّة، أي ترمز إلى المعاني والفضائل من طريق قريب إلى فهم الإنسان، وتقوم على فكرتي الخير والشر، وتمازجهما بغضاً في بعض، على شكل ثنائيّة ساذجة هي أول ما يتبدى للذهن مقيساً على ما يعرض له من حال ثنائيّة ذواليك: الجوع والشبع، الظمأ والرّي، الصّحة والمرض... إلخ. ثمّ مضت في الرمز إلى أبعد من هذا، فاتّخذت النار رمزاً للضوء، والضوء رمزاً للخير، وتعبير آخر قالت إنّ النور من الشمس، والشمس من النار، فأصل النور إذاً، هي النار، فرمزوا بها عن الخير. واتّصلت ببلاد العرب

(٢) الحُمُس هم قريش وكنانة وجزاعة وجماعة من بني عامر بن صعصعة، وسُموا بذلك لِتَشْدُّهُمْ في أحوالهم ديناً ودنيا، راجع: شرح ديوان الحماسة للخطيب التبريزي ج ١، ص ٤. وسبب التسمية يُنظر إلى شيء وراء ما وَضَحَ للقرّنين، وهو عندي يُدُلُّ على مذهب ديني خاص، فإنّ القرّنين عُرِفوا بذلك، كما تَبَعْتُ فينا هذه التسمية إحساساً بأنّ الحماسة كانت عند العرب هي المثل الأعلى، ونظنّ أنّ أبا تمام استعملها بهذا المعنى حين أطلقها على ديوان مختاراته من الشعر العربي. وعليه فقد كان للعرب مثل أعلى يُعَبِّرُ عن أقصى ما تصوّر إليه أخلاقيهم. وبالمُناسبة أذكرُ بأنّه وَضَحَ لي لفظ آخر يَصْلُحُ أن يكون هو لفظ المثل الأعلى عندهم، وهو الأمانة. فإنّ العرب الجاهليين أطلقوا لقب الأمين على النبي (ص) في الجاهلية، لأنّه كان نسيج وحيد في شمائله العالية، وبسبب ذلك استعملوا له كلمة المثل الأعلى، ويؤيّد هذا التقديرُ نُصوص القرآن، فقد أوردَ مُشتَقَّات هذه المادة كلها تقريباً، وهي تدور على هذه الملاحظة. ومهما قرّضنا أنّ القرآن هو الذي طوّر هذه المشتقات وأفرغَ عليها معاني جديدة فليس من الجائز أبداً أن نظنّ بأنّه تحلّل بالكلمة عن أصل معناها مُطلقاً، فهو يشتغل الأمين بمعنى «القدس» بجانب جبريل وبمعنى «الرسول» في سورة الشعراء، وبمعنى «القوي» في سورة التحليل، ويشتغل الأمانة بمعنى «الشريعة» في الأحزاب، ويشتغل المؤمن وصفاً لـ «الله» ووصفاً لـ «المسلم». وكأنّه في جانب الله بملاحظة المثل الأعلى الذي هو مُصدّر المثل، قال تعالى: «ولله المثل الأعلى» وفي جانب المسلم بملاحظة المثل الأعلى الذي يشخصُ الناس إليه، أو الذي هو حدّ للإنسانية الرفيعة، ثمّ كلمة أمين التي تشتغل في الدّعاء، والدّاعي حين يدعو يُحاولُ غرضاً عَجَزَ عنه بقوّة فلجأ إلى الغيب يطلب منه العون الإلهي للوصول إليه، وهو غرض أسمى له في الحال وفي المال. وبما أنّ الشعب تتفاوت طبقاته فقد كان للعرب مثلاً: الأول مثل الطبقة العامة وهو الحماسة: (حللٌ بجيداً الفضيلة في) «أنصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً». فقد كان هذا التحمُس والتعصّب فضيلة خاصّة والثاني مثل الطبقة الخاصة وهو الأمانة.



من الجهة الشرقية، فقد وُجِدَتْ في قبائل هَجَرَ وقبائل البَحْرَيْن. وكتابُ أُفْسْتَا لزرادشت عَرَفَهُ العربُ عن قُرْب، فقد نُقِلَ إليهم، وتأثروا به إلى حدٍّ ما.

**الصَّابئة:** هي ديانةٌ بَابِلِيَّةٌ بَقِيَتْ بعدَ ذَوَاءِ يَنْبوعِهَا الأَقْدَمِ أَجْيالاً طَوَالاً. وتقومُ على عِبَادَةِ الأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ من نُجُومٍ وَكَوَاكِبٍ وما يَحْوِي الفَلَكُ الدَّوَّارُ، وتَشِيدُ إليها القُدْرَةُ على تَشْيِيرِ النَّاسِ، آنْتَقَلَتْ إلى بلادِ اليَمَنِ من أَقْدَمِ الدَّهْرِ. وَقِصَّةُ بَلْقَيْسَ في القرآنِ شَاهِدٌ على أَنَّهَا كَانَتْ الدِّينَ الرَّسْمِيَّ أوِ القَوْمِيَّ في دورٍ من أَدْوَارِ التَّارِيخِ القَدِيمِ. وَلَعَلَّ التَّشْمِيَةَ بَعْدَ شَمْسِ النَّبِيِّ كَانَتْ شَائِعَةً عِنْدَ العربِ تَدُلُّنا على مَبْلَغِ سَيِّطَرَةِ تِلْكَ الدِّيانَةِ العَتِيدَةِ الوَطِيدَةِ كعَقِيدَةٍ، وعلى درَجَةِ رُسُوخِ أَصْبَاغِهَا كمراسيمٍ وَطُقُوسٍ.

**اليهودية:** هي ديانةٌ سَمَاوِيَّةٌ اعْتَرَفَ بها الإسلامُ وَغْنِي بِدَرْسِهَا، وَأَخْتَصَّصَهَا القرآنُ بِطَائِفَةٍ من الآيَاتِ. وهذا يَدُلُّنا على عِظَمِ أَثَرِهَا في العربِ، وَأَنَّهَا كَانَتْ أَكْثَرَ سَيِّطَرَةٍ من سِوَاهَا وَأَكْثَرَ تَأْثِيرًا، وَلَعَلَّ السَّبَبَ في تَغْلُغِهَا بِسُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ في مُحِيطِ العربِ يَرْجِعُ إلى أَنَّهَا سَامِيَّةٌ كُلُّ السَّامِيَّةِ، فَوَقَعَ العربُ فِيهَا على ما يُعَبَّرُ عن تَصَوُّراتِهِم الدِّينِيَّةِ، وَلِذَلِكَ وَجَدَتْ إلى نَفْسِهِمْ مَجَازًا عَرِيضًا. وَقَدْ أَثَّرَ اتِّشَارُهَا في عَقْلِيَّةِ العربِ تَأْثِيرًا كَبِيرًا، إلى حَدٍّ ظَهَرَ في أَدْبِيَّاتِهِمِ الْعَامَّةِ، وَهَذَا نَقَلَ العربُ من حَيْثُ يَشْعُرُونَ أَوْ لَا يَشْعُرُونَ، إلى حَالٍ أَزْقَى في مَجَالِ التَّصَوُّرِ الدِّينِيِّ. وَكَانَتْ قِبَائِلُ يَثْرِبَ أَشْرَعَ تَأْثُرًا بِهَا وَقَبُولًا لَهَا من سَائِرِ القِبَائِلِ الوَثْنِيَّةِ الأُخْرَى. وَكَذَلِكَ تَطَرَّقَتْ إلى اليَمَنِ، وَكَانَ لَهَا شَأْنٌ من النَّاحِيَةِ السِّيَاسِيَّةِ، حَتَّى أَنَّ الْبَيْتَ الْمَالِكَ تَهَوَّدَ، وَكَانَ لِهَذَا تَأْثِيرٌ في مَجْرَى الأَحْوَالِ السِّيَاسِيَّةِ، نَظَرًا إلى وُجُودِ حَزْبٍ آخَرَ مُنَاوِيٍّ يُؤَيِّدُ النَّصْرَانِيَّةَ.

**النَّصْرَانِيَّة:** هي كَسَابِقَتِهَا، دِيانَةٌ سَمَاوِيَّةٌ اعْتَرَفَ بها الإسلامُ وَأَوْسَعَ لَهَا مَكَانًا في القرآنِ، وَكَانَ لَهَا تَأْثِيرٌ غَيْرُ يَسِيرٍ في الهَيْكَلِ الرُّوحِيِّ الْعَامِّ، غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مُتْرَكَّةً جُغْرَافِيًّا في نَاحِيَةٍ مَعْيِنَةٍ كَالْيَهُودِيَّةِ، عَلَى أَنَّ قِبَائِلَ عَدِيدَةً تَنَصَّرَتْ، بَيِّنَدَ أَنَّ تَسَرُّبَهَا



إلى الجزيرة مُكْتَنَفٌ بِالْغُمُوضِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَذْهَبَ النَّسْطُورِيَّ بَعْدَ أَنْ أَنْثَقَلَ مِنْ  
بِلَادِ الرُّومِ إِلَى الْعِرَاقِ، نَقَدَ إِلَى بِلَادِ الْعَرَبِ.

الْحَنِيفِيَّةُ: يَذْكُرُ الْمُسْتَشْرِقُ وَلِهَاوِزْنُ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ كَانَتْ مَذْهَباً نَصْرَانِيّاً ذَائِعَ الصُّبَيْتِ  
فِي بِلَادِ الْعَرَبِ. وَتُعَارِضُهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ بِأَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ لَمْ تَكُنْ مَذْهَباً نَصْرَانِيّاً كَمَا لَمْ  
تَكُنْ مَذْهَباً مُعَيَّناً، وَإِنَّمَا كَانَ هُنَاكَ أَشْخَاصٌ مِنْ مُفَكِّرِي الْعَرَبِ اسْتَنَكَرُوا عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ  
مُتَأَثِّرِينَ بِتَعَالِيمِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ جَمِيعاً، حَتَّى دَخَلَ بَعْضُهُمْ فِي الْيَهُودِيَّةِ، وَبَعْضُهُمْ فِي  
النَّصْرَانِيَّةِ، وَبَقِيَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ مُنْتَمِينَ إِلَى دِينٍ. جَاءَ فِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ: «أَنَّ زَيْدَ بْنَ  
عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ تَوَقَّفَ عَنْ دُخُولِ النَّصْرَانِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ، وَاعْتَزَلَ دِيَانَةَ الْأَوْثَانِ وَتَقَالِيدَهَا، وَنَهَى  
عَنْ قَتْلِ الْمُؤَوَّدَةِ، وَكَانَ يُسَيِّدُ ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ وَيَقُولُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لِمَ يَبْقَى عَلَى دِينِ  
إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي. ثُمَّ يَقُولُ: اَللّٰهُمَّ لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَيَّ الْوُجُوهِ أَحَبُّ إِلَيْكَ عَبَدْتُكَ عَلَيْهِ وَلَكِنِّي لَا  
أَعْلَمُهُ».

وَأخيراً طَلَعَ الدَّكْتُورُ وَلْفَنسْثُونُ، فِي كِتَابِهِ تَارِيخَ الْيَهُودِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، بِرَأْيٍ  
طَرِيفٍ بَنَاهُ عَلَى دِرَاسَةٍ لِغَائِيَّةٍ<sup>(٣)</sup> (فِيلُولُوجِيَّةٍ) دَقِيقَةٍ لِكَلِمَةِ «حَنِيفٍ» وَ«مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ» قَالَ: هُنَاكَ  
أَصْطِلَاحٌ مَشْهُورٌ عِنْدَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَهُوَ «مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً»، وَبَحْثُ هَذَا الْإِصْطِلَاحِ  
قَدْ يُفْهِمُنَا شَيْئاً عَنْ عَادَةِ الْخِتَانِ. يُعْرَفُ غِلَافُ الْحَشْفَةِ بَعْدَ الْخِتَانِ فِي الْعِبْرِيَّةِ بِاسْمِ «مِلَّةٍ»  
وَقَبْلَهُ بِاسْمِ «غُرْلَةٍ»، وَبِمَا أَنَّ الْخِتَانَ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ الْإِسْرَائِيلِيِّ فَقَدْ عَبَّرَ النَّامُوسُ الدِّينِيُّ عَنْ  
كُلِّ مَنْ آخَتَنَ أَنَّهُ دَخَلَ فِي ذِمَّةِ إِبْرَاهِيمَ. وَمِنْ هُنَا أُطْلِقَ الْيَهُودُ عَلَى كُلِّ مَنْ آخَتَنَ هَذَا  
التَّعْبِيرَ «مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ»، وَهَذَا اللَّفْظُ يَقُولُهُ الْعَاذِرُ لِلطُّفْلِ عِنْدَمَا يَعْذِرُهُ، وَالْحَاضِرُونَ يُؤْمِنُونَ. وَلَمَّا  
كَانَ الْخِتَانُ وَحْدَهُ لَا يُؤَدِّي إِلَى الْإِيمَانِ فَقَدْ أُطْلِقَ الْيَهُودُ عَلَى كُلِّ مَنْ آخَتَنَ، دُونَ أَنْ  
يَعْتَنِقَ الْيَهُودِيَّةَ، اسْمَ حَنِيفٍ الَّذِي مَعْنَاهُ فِي الْعِبْرِيَّةِ تَمَلُّقٌ، إِقْتَرَفَ إِثْماً، تَذَلُّلٌ، دَاهَنٌ، يَعْنُونَ

(٣) كَلِمَةٌ مِنْ وَضَعِنَا الْجَدِيدِ تُرَادِفُ كَلِمَةَ فِيلُولُوجِي. رَاجِعْ كِتَابَنَا: مَقْدَمَةٌ لِدُرْسِ لُغَةِ الْعَرَبِ.



به غير الصّالح، أي الختان غير المُستوفي للشروط، ولهذا متابعات فيما تحفظ المعاجم العربية من تفسيرات لكلمة حنيف. جاء في لسان العرب أنّ من آخَتنَ في الجاهليّة وَحَجَّ سُمِّيَ حنيفاً. قال الفراء: «الحنيف من سُنَّته الختان، وَتَحَنَّفَ الرجلُ آخَتَنَ». وهو ينتهي إلى أنّ الحنيفيّة طائفة تأثرت بطُقوس وعادات اليهوديّة غير أنّها لم تؤمن بجوهر الديانة.

ومن بين هذه التقديرات نفهم أنّ الحنيفيّة نخلة أو نزعَة عُرِفَتْ بها طائفة لم تكن بعيدة عن التأثير بالمسيحيّة واليهوديّة على السواء، وهذه الطائفة كانت أقرب إلى الحيرة والشك.

اليهوديّة النصرانيّة (Secte judéo - chrétienne): وهي فرقة تجمع بين عادات اليهود وعقائد النصرانيّة، عَبَرَتِ الأزدُ وقت حصارِ الرّوم لأورشليم، فسكنت في بلاد العرب. ومن هذه الفرقة السَّمَوَال<sup>(٤)</sup> الشاعر.

ويعارض بعض<sup>(٥)</sup> المؤرخين هذا الرأي، بأنّه لا جدال في أنّه وُجِدَتْ طائفة يهوديّة نصرانيّة، في الحين الذي كانت فيه النصرانيّة دَعْوَة يهوديّة بَحْتَة، وكان النصارى شيعة من شيع اليهود وقد فَنِيَتْ هذه الفِئَة بعد أن أَخَذَتِ النصرانيّة تنتشر بين اليونان والسريان، ولم يبقَ للطائفة اليهوديّة النصرانيّة ذِكْرٌ في القرن الثالث بعد الميلاد، وليس لنا مراجع تاريخيّة تُثَبِّت وجودَ هذه الطائفة مُنفردة في الجزيرة...

هذا الخليط من الديانات والنحل جعل بلاد العرب في شبه حركة زويعيّة، لأنّها لم تكن فائرة بل عاملة ناصبة، ومن ثم دخلت في صراع عنيف اتّصل بأسباب الحياة العامّة، وأدّى إلى تناقضٍ سحيقٍ وحزبٍ مُستعرة. وأشدّ ما كان الصّراع والتناحر بين المسيحيّة التي تُشجّعها الدولة الرومانيّة وبين اليهوديّة التي وَجَدَتْ في الجزيرة ملاذاً لها يحميها من غَدوانِ

(٤) راجع: شرح ديوان السَّمَوَال، ليفطويه، ص ١٠.

(٥) راجع كتاب: تاريخ اليهود في بلاد العرب، للدكتور ولفنستون.



المسيحيين. ولكي تكون ضامنة لمستقبل مُستقرّ جَمَعَتِ أَهْتِمَامَهَا لِتَضْبِغِ العرب بِصِبْغَتِهَا، وفكّرت لأول مرّة بالدولة<sup>(٦)</sup> اليهوديّة، ولعلّ هذه المحاولة تَصْلُحُ أَنْ تُعَدَّ فاتحة الحركات اليهوديّة لتأسيس الوطن القومي، فما ذَهَبَ إليه ولفنستون من أنّ اليهوديّة لم تكن تُعْنَى بالتبشير في الجزيرة استناداً إلى أنّها ديانة غير تبشيريّة وَهْمٌ بالغ، لأنّ الظُّرْفَ يَقْضِي بأنّ تَتَّخِذَ التبشير وسيلة من وسائل المحافظة على البقاء. كما نَعُتُّرُ على ديانة ثالثة كانت تَفْذُلُ جهوداً لا تَقِلُّ عن جهود هاتين الديانتين وهي المجوسيّة التي آتخذتها الدولة الفارسيّة وسيلة إلى القضاء على النفوذ الروماني.

والشيء الذي يَلْفِتُ نظري أنّ الفُرس كانوا يَنْظُرُونَ إلى اتّشار اليهوديّة في بلاد العرب بعين الرضا، وهذا يَحْمِلُنَا على ظَنِّ أنّ الفُرس - وهم الذين عَطَفُوا على اليهود بعد

(٦) فَكَّرَ اليهود بَعْدَ تَشْتِيهِمُ في موقفهم كأمة من واجِبها الدِّفاعُ عن كيانها حَذَرُ الدُّوبان في الأمم والشعوب. وبعد مُحاولات كثيرة تَوَصَّلَ عُقْلَاؤُهُم في العصر الحديث إلى وُجوبِ تَحْطِيرِ مكانٍ لِيَتَغَبَّرُوهُ وَطناً قومياً لهم، فَفَكَّرُوا بِقَاعٍ كثيرة كالأرجنتين وشاطيء إفريقيا الغربي ولسطين، ولكنّ التجارب أَخْفَقَتْ إلّا في فلسطين حيثُ أَمَكَنَّ لِرُعَمَائِهِمُ إقْتِناعُ سَوَادِ اليهود في الشّتات بسهولة، وأذكى هذه الفِكرَةَ فيهم مذابح الرُّوسيا التي وَقَعَتْ بِحُلَالِ القرنِ التاسع عشر فَتَحَطَّطُوا الحُدُودَ إلى الأرض العربية البَحْتِ، وكانت أولُ هجرة منظّمة في عام ١٨٨١، وأُنْشِئَتْ الجمعيات لإبواء أولئك المنتسدين، فكانت أولُ مستعمرة منظّمة هي ريشون لصيون، إلى أن اجْتَمَعَتْ في جمعية مركزية للإشراف على حركة الاشتيطان في فلسطين وأشْهَرُها جمعية الاستعمار اليهوديّة، ثمّ ظَهَرَ هِرْتزل الداعية اليهودي التمساري الألماني الذي تَفَرَّغَ للدُّعْوَةِ إلى الحركة المذكورة وجَاهَرَ بها في كتابه: الدولة اليهوديّة، الذي بات إنجيل الصّهيوينيين في الوقت الحاضر.

وكانَ قَدْ سَبَقَ هِرْتزل يهودي آخر عَمِلَ لترويج الفِكرَةَ بِوُجوبِ اندماج اليهود في العناصر التي يعيشون بينها، فاليهودي المقيم في بريطانيا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بريطانيّاً، وقد سَفَّهَتْ تعاليمُ هذا الرُّسُولِ الجديد المُدْعُو مندلسوهن. راجع كتاب: العقائد لعمر عنابت، طبعة دار العصور، ١٩٢٨، ص ٨٩ - ١٠٢.

وفي نظري أنّ هذا النّشاط السياسي لليهود ظَهَرَتْ أولى مُحاولاتِهِ في جزيرة العرب قبل الإسلام ولذلك كان لانْهيار الدولة الجُمُهورية اليهوديّة، دَوْلَةُ ذِي نُواسٍ، رَنَّةً أَسَى عند جميع اليهود في الجزيرة وخارجها، حتّى ظَهَرَ في أشعارهم ومرائهم الطَّوِيلَةُ لتلك الدولة، وَبَلَغَ بهم خيالهم المُدْعَوُ إلى التَّوَهُّمِ بأنّ الدولة لم تُنْجِ بل هي مُتَخَصِّصَةٌ في الصّحارى، ولذلك هاجَرَ اليهود إلى اليمن لِيَبْجَحُوا عن حكومتهم المؤمّورية. راجع كتاب: تاريخ اليهود في جزيرة العرب، مرجع سابق.



فَتَحَ بَابِلَ - آتَّخَذُوا مِنَ الْيَهُودِ صَنَائِعَ لَهُمْ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُونَهُمْ فِي الْحَيْلُولَةِ دُونَ تَسَرُّبِ النُّفُوزِ الرُّومَانِيِّ إِلَيْهَا. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْفُرسَ أَغْرَوْا الْيَهُودَ بِتَأْسِيسِ دَوْلَةٍ يَهُودِيَّةٍ فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ. وَلَمَّا كَانَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْتَطَاعِ أَنْ يَجْعَلُوهَا يَهُودِيَّةً قَلْبًا وَقَالِبًا، وَإِلَّا أَهَاجُوا الْعَرَبَ عَلَيْهِمْ، أَكْتَفَوْا مِنْ يَهُودِيَّةِ الدَّوْلَةِ بِالذِّينِ، فَحَصَرُوا جُهوْدَهُمْ فِي تَهْوِيدِ الْبَيْتِ الْمَالِكِ وَجَعَلِ الْيَهُودِيَّةَ دِينًا رَسْمِيًّا لِلدَّوْلَةِ، وَلَقَدْ تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ. وَهَذَا يُفَسِّرُ لَنَا أَنَّ حُكُومَةَ ذِي نُوَاسٍ كَانَتْ شَدِيدَةً الْإِتِّصَالَ بِحُكُومَةِ الْفُرسِ، وَكَانَتْ سِيَاسَتُهَا الْعَامَّةُ جُزْءًا مِنْ سِيَاسَةِ الثَّانِيَّةِ، وَلَعَلَّ حَرَكَةَ ذِي نُوَاسٍ ضِدَّ النَّصَارَى كَانَتْ بِتَشْجِيعِ الْفُرسِ أَنْفُسِهِمْ، لِتَكُونَ مُقَدِّمَةً لِحَصَامٍ عَنِيفٍ، حِينَ وَقَفَتْ كِلَتَا الدَّوْلَتَيْنِ عَلَى جُهوْدٍ أُخْرَى. فَالرُّومَانُ آتَّخَذُوا التَّبَشِيرَ فِي الْحِجَازِ، وَالْأَحْبَاشِ فِي الْجَنُوبِ، وَسِيلَةً إِلَى الظُّفَرِ، وَآتَّخَذَ الْفُرسُ وَسِيلَتَهُمْ إِلَى ذَلِكَ بِإِقَامَةِ دَوْلَةٍ يَهُودِيَّةٍ مُوَالِيَةٍ لَهُمْ فِي الْجَزِيرَةِ. وَالَّذِي يَدُلُّنَا عَلَى صِحَّةِ هَذَا التَّقْدِيرِ، أَنَّهُ سَرَعَانَ مَا آتَّكَشَفَتِ الْحَوَادِثُ عَنْ تَمَاسِّ الْقُوَى الْفَارِسِيَّةِ وَالرُّومَانِيَّةِ مُبَاشَرَةً وَدُونَ مُبَاشَرَةٍ. وَمَنْ الْخَيْرُ أَنْ نَذْكُرَ أَذْوَارَ الصَّرَاحِ بَيْنَ الْمَسِيحِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ، لِمَا كَانَ لَهُ مِنْ نَتَائِجٍ نَفْسِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ فِي الْمُحِيطِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ الْعَامِّ.

ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَسْتَشْرِقِينَ، مِنْهَا الْعَالِمَانِ وَلِهَازِنٌ وَهَالْفِي، إِلَى أَنَّ ظُهُورَ الْيَهُودِيَّةِ فِي بِلَادِ حِمْيَرَ كَانَ نَتِيجَةً لِنِضَالٍ عَنِيفٍ وَقَعَ بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، تَمَكَّنَتْ فِيهِ الْأُولَى مِنْ أَنْ تَتَغَلَّبَ عَلَى الْأُخْرَى فِي بَادِيءِ الْأَمْرِ.

وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى، مِنْهَا الْعَالِمَانِ جَلَّازَرٌ وَفَنكِرٌ، إِلَى أَنَّ الْبَاعِثَ سِيَاسِيًّا مَحْضًا، وَهُوَ أَنَّ مَلُوكَ الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ فَرَّغُوا مِنَ الْأَقَالِيمِ الْمَجَاوِرَةِ لِلْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، تَأَهَّبُوا لِضَمِّ أَطْرَافِهَا إِلَى أَمْلَاكِهِمْ، فَزَيَّنُوا لِتَنْفِيزِ هَذَا الْغَرَضِ سِيَاسَةً مُحْكَمَةً، تَقَوْمُ، مِنْ جِهَةٍ، عَلَى إِزْسَالِ وُفُودِ الرُّهْبَانِ إِلَى الْحِجَازِ لِيُمَثِّلُوا دَوْرَ الدُّعَاةِ لِلنَّصْرَانِيَّةِ بَيْنَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى عَلَى تَمْهِيدِ الْأَفْكَارِ وَالنُّفُوسِ لِقَبُولِ السُّلْطَانِ الرُّومَانِيِّ. فَلَمَّا تَنَبَّهَ مُلُوكُ حِمْيَرَ لِهَذِهِ الْحَيْلِ، وَأَذْرَكُوا مَا يَتَعَرَّضُ لَهُ كَيَانُهُم السِّياسِيُّ مِنَ الْخَطَرِ الشَّدِيدِ بِسَبَبِهَا، نَشِطُوا لِإِخْبَاطِهَا



وفكروا في أمضى الأسلحة التي تمكنهم من القضاء عليها، فأعتنقوا اليهودية ليقاوموا سيطرة  
الدين الجديد باعتباره ديناً توحيدياً. وبذلك قضى ملوك حمير على كل الحجاج التي كان  
ملوك الدولة الرومانية الشرقية يعتمدون عليها في الترويج لدعوتهم السياسية.

وكان من النتائج المباشرة لهذا الصراع بين الديانتين، المذبحة التي ارتكبتها ذو نواس  
الحميري بتخريض اليهود، وإعداد الشعب لثورات اجتماعية داخلية. فقد حدث المؤرخ  
اليوناني يوحنا<sup>(٧)</sup> من مدينة إفزوس، أن دومنيوس (ذا نواس) قبض على تجار من نصارى  
الروم وقتلهم، واستمرّ يُعامل تجارهم بالقسوة والعنف، ويضطهدهم كلما مرّ أحدهم ببلاد  
اليمن، حتى انقطع جميع التجار المسيحيين من دخول اليمن. فكسدت التجارة وضُغفت  
الحركة، لأن أسواقها تستمد الحياة بما تُصدّره إلى الخارج من الحاصلات الزراعية  
والمنتجات الصناعية، ولأن ثغور اليمن كانت الواسطة بين الهند وجميع الأصقاع الشرقية  
 والغربية. فلم يكن من الممكن أن ينظر اليمنيون إلى شل الحركة في الأسواق بعين الرضا،  
فتقدّم إيدوج، (قيل وثني)، إلى ذي نواس وقال له: «إن أعمالك القاسية نقلت الحركة  
التجارية من ثغورنا إلى ثغور الأعداء». فأجابته ذو نواس: «إن إخواني اليهود في بلاد الروم  
يدوقون ألواناً شتى من الهوان والتعذيب، فأنا أريد أن أكفهم عن ذلك بمعاملة تجارهم  
بقسوة مماثلة». ولكن إيدوج خرج غير راضٍ عن هذه السياسة التي ستؤدي إلى خراب  
البلاد. ففكر في أن يتخلّص من ذي نواس، فاتفق مع باقي الأقبال الوثنيين وجمع بواسطتهم  
جُموعاً قاتل بها ذا نواس حتى تغلب عليه وقتلته، ثم أعتنق إيدوج النصرانية.

هذه الرواية يشك فيها بعض المؤرخين لأنها لا تشير إلى غزو الحبشة لليمن، وليس  
فيها ما يدعوا إلى الشك عندي لأنّ عدم تعرّض الرواية للتنبؤ به ذكر غزو الحبشة لا ينفيها،

(٧) راجع كتاب: تاريخ اليهود في جزيرة العرب، مرجع سابق.



فقد يُحتمل أن تكون الغزوة الحبشية رافقت الثورة الداخلية. والمؤرخ اليوناني مُهتَم بالسبب الذي كان أكثر مَساساً في الانقلاب الثوري الذي أطاح بالدولة الحميرية المُتهوِّدة، على أنه صَحَّ لدينا أن الدَّعاية السياسيَّة عن طريق الدِّين للدولة الرومانية الشرقيَّة أَصْطَنَعَتْ بعضَ الشَّخصيات العربيَّة، وأنَّ تَنْصَرَ إيدوج، أو بعبارة أَصحَّ، إظهاره النَّصرانيَّة، يدفَعنا إلى اعتقاد أنه كان صَنيعَةً من صنائع الدولة الرومانية، وهذا يُصَحِّح الرِّواية من بعض الوجوه.

وذكر مؤرِّخو العرب ثورةً أُخرى قام بها رجل يُقال له لَخْنِيعَة ينوف وتمكَّن هذا من الغلبة وجمع السُّلطة في يديه، ولكنَّ المصادر العربيَّة لم تذكُر ما إذا كانت ثورة لَخْنِيعَة مُوجَّهَةً إلى الأسرة الحاكمة فقط، أو كانت مُتَّجِهَةً أيضاً إلى هدم كيان اليهودية، إذ لا بُدَّ من آلة يَشْتَغِلُونَهَا للتأثير في نفوس الشَّعب وتَهييج عواطفه، وخيِّر وسيلة لذلك أن يظهروا بمظهر المدافعين عن عقيدة الآباء والأجداد ودين البلاد.

إذاً فهذه الحركات التَّمَرُّدِيَّة التي دَبَّرَهَا القَيْلُ إيدوج والشَّعْبِي لَخْنِيعَة كانت مُتأثِّرة بالصِّراع بين الديانتين.

والنتيجة الثالثة التي تَرْتَبَتْ على هذا الصِّراع، هي قَلَقُ الضُّمير الديني وخيرة النفس المُفْعَمَة بالسَّأولِ المَبْهَم. فالعربي لم يعد يطمئن إلى وثيقتيه التي لَمَسَ في أدبياتها نوعاً من الضَّعة والانحطاط بمقارنتها بالأدبيات المِثاليَّة لِكِلتا الديانتين، كما لم يطمئن إلى واحدة منهما لأنَّ الدُّعاة المُتَنازِعِينَ كَشَفُوا عَمَّا في الديانتين من عَوْرَاتٍ، والمجتمع لم يَسْتَطِعْ تقديم مُصْلِحٍ عبقرِيٍّ يَتَسَنَّى له إنقاذ هذا الشَّعب الحائر قبل أن تُسْلِمَهُ الخيرة إلى أسوأ حالاتها، وبالأخصَّ في قُريش الذين كانوا في حالة نفسيَّة جدَّ مريضَة، بما أَجْتَمَعَ فيهم من أُمُور هيئات لذلك، فقد كانوا تُجاراً يَجُوبُونَ العالم القديم تقريباً للتَّجارة، ويختلطون بشعوب تُنْتَسِبُ إلى ديانات مُختلفة ويشهدون أشكالا من العبادات تُثير تطلُّعات نفسيَّة مُتفاوتة، وتبعث الوجدان على ألوان شتى. ولذلك كانوا ذوي قلوب غُفْلٍ حيال دَعْوَةِ الإصلاح التي



أذكاها النبي (ص) فَوَجِدَ فِيهِمْ مَنْ يُعَارِضُ مَوَاعِظَ النَّبِيِّ الْقَوَارِعَ بِأَقاصيصِ إسْفَنْدِيَارِ وَأَخْبَارِ  
الْفُرسِ الْقَدَمَاءِ، لَأَنَّهُمْ أَخَذُوا دَعْوَةَ النَّبِيِّ (ص) عَلَى أَنَّهَا صِنْتُوْ لِذَعْوَةِ الْمُبَشِّرِينَ مِنْ ذَوِي  
الدِّيَانَاتِ الْأُخْرَى، فَعَارِضُوهُ بِمَا اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ تَأْثِيرِ الدُّعَاةِ الْمَجُوسِ وَتَأْثِيرِ الدُّعَاةِ  
الْآخَرِينَ. فَقَدْ ذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ أَنَّهُ وَجِدَ فِي مَكَّةَ يَهُودَ، كَمَا حَاوَلَ الْمُسْتَعْرِبُونَ، بَيْنَهُمْ  
الْمُسْتَشْرِقَ لَامَنَسَ، أَنَّ يُبَزِّهِنُوا عَلَى أَنَّ عِدداً كَبِيراً مِنَ الْيَهُودِ كَانَ يَسْكُنُ مَكَّةَ قُبَيْلَ ظُهورِ  
الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ أَفْرَاداً مِنَ النَّصَارَى وَعَبِيدِهِمْ كَانُوا فِي مَكَّةَ مُخْتَلِطِينَ بِأَهْلِهَا.

فَلِهَذهِ الْحَيَرَةِ الدِّينِيَّةِ، وَلِعَوَامِلَ دِينِيَّةٍ أُخْرَى، لَمْ يَسْتَسَيِّغِ الْقُرَشِيُّونَ دِعَاوَةَ الْإِسْلَامِ  
وَدَعْوَتَهُ، وَأَمَّا الْمَدِينَةُ، فَلَأَنَّ الْيَهُودِيَّةَ تَرَكَّزَتْ فِيهَا وَحَدَّهَا، كَانَتْ عَقْلِيَّةً قَاطِنِيهَا الدِّينِيَّةُ هَادِئَةٌ  
كَثِيراً، وَكَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى التَّائُسِ بِالْإِسْلَامِ.

وَهَذَا التَّطْبِيقُ فِي مُحِيطِ قُرَيْشٍ يُوصِلُنَا إِلَى نَتِيجَةٍ هَامَّةٍ، وَهِيَ أَنَّ طَبَقَاتِ قُرَيْشٍ، عَلَى  
أَخْتِلَافِهَا، كَانَتْ مَغْلُوبَةً بِخَيْرَةِ بِالْغَةِ. وَفِي مَعْرِفَةِ كُلِّ مَنَا أَنَّ آلَ هَاشِمٍ كَانُوا يُمَثِّلُونَ شِبْهَ فِئَةٍ  
كَهَنَوِيَّةٍ، أَوْ أَنَّهُمْ حُمَاةُ التَّقَالِيدِ الْمُورُوثَةِ؛ فَبِحُكْمِ هَذَا التَّخْصُّصِ كَانَتْ لَهُمْ تَرْبِيَّةٌ دِينِيَّةٌ  
خَاصَّةٌ تَجْعَلُنَا نَقْطَعُ بِأَنَّ بِيئَتَهُمُ الدِّينِيَّةَ وَلَدَتْ فِيهِمْ ضَمِيراً خِصْباً بِحُكْمِ الْوَرَاثَةِ، فَيُنْبَغِي إِذَا أَنَّ  
يَكُونُ صَاحِبُ التَّعَالِيمِ الْجَدِيدَةِ مِنْهُمْ، وَأَنَّ يَكُونُوا هُمْ رِعَاةَ هَذِهِ التَّعَالِيمِ أَيْضاً.

وَالَّذِي يُصَدِّقُ هَذَا التَّقْدِيرَ، أَنَّ الْوِجْدَانَ الدِّينِيَّ كَانَ يَغْلِبُ عَلَى جَمِيعِ رِجَالِهِمْ فِي  
كُلِّ دَوْرٍ، فَإِنَّ عَلِيّاً (ع) وَالْحَسَنَ وَآبَنَ عَبَّاسٍ وَزَيْنَ الْعَابِدِينَ وَمُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ شَوَاهِدُ  
صَادِقَةٌ.

فَالنَّفْسُ الْعَرَبِيَّةُ كَانَتْ حَائِزَةً مَا فِي ذَلِكَ شَكٍّ، وَقَدْ تَمَادَى بِهَا الشَّكُّ إِلَى أَلْوَانٍ مِنَ  
الْجُحُودِ وَالْإِلْحَادِ الْخَالِصِ. فَإِنَّ مِنَ الْمُحَقِّقِ أَنَّ الْأَطْفَالَ، وَمَنْ فِي مُسْتَوَاهُمْ مِنْ ذَوِي  
الْعَقْلِيَّاتِ الْبَدَائِيَّةِ الَّتِي تَضَعُفُ عَنِ الْمَوَازَنَةِ وَالتَّحْكِيمِ، يَمِيلُونَ بَلْ يُسْرِعُونَ إِلَى التَّصْديقِ  
وَالْإِيمَانِ فِي غَيْرِ شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ. وَالْمَنْطِقُ الْجَازِمُ هُوَ الَّذِي يَأْخُذُ سَبِيلَهُ إِلَى عَقُولِهِمْ



وقلوبهم، لِيَمْلَأَ خَلَاءَهَا السَّادَجُ، وهذه الرُّغْبَةُ عِنْدَ الْإِنْسَانِ الَّتِي لَا تَفْتَأُ سَاعِيَةً بِهِ إِلَى إِرْوَاءِ ظَمْئِهِ الرُّوحِيِّ، هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ اسْتِعْدَادَهُ لِلْإِيمَانِ غَيْرَ مَحْدُودٍ، وَإِنَّ مَا يُسَمَّوْنَهُ فِي الْفَلَسَفَةِ بِالْوَجْدَانِ الْبَدِيعِيِّ (Sentiment esthétique) يَدْفَعُ الْإِنْسَانَ الْفَطْرِيَّ إِلَى إِشْبَاعِ نَهْمِهِ الْفِكْرِيِّ. فَالْعَرَبِيُّ بَدَائِيٌّ، وَالْبَدَائِيُّ سَرِيعُ التَّضَدُّيقِ، وَلَكِنَّ نَشَاطَ الْمُبَشِّرِينَ بِدِيَانَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، جَعَلَهُ يَتَرَدَّدُ. فَهُوَ لَا يُمَكِّنُهُ الْإِيمَانُ بِهَا جَمِيعاً، كَمَا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ دِيَانَاتٍ وَثْنِيَّةً أَوْ تُشْبِهُ الْوَثْنِيَّةَ حَتَّى يَجِدَ الْحَلَّ مِنْ قَرِيبٍ، بِأَنْ يَحْتَرِمَ آلِهَتَهَا بِدُونِ تَفْرِيقٍ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الْوَثْنِيُّونَ الْقَدَمَاءُ. فَالْإِسْكَندَرُ حِينَ فَتَحَ مِصْرَ تَبَنَّى فِكْرَةَ الْمِصْرِيِّينَ الدِّينِيَّةَ وَحَرَّقَ لآلِهَتِهِمْ.

إِذَا فَلَمْ يَبْقَ أَمَامَ الْعَرَبِيِّ إِلَّا أَنْ يَشْكُ وَيُلْحَ فِي الشَّكِّ، لِأَنَّ حَزْبَ الدِّيَانَاتِ بَيْنَهُمْ لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ هَوَادَّةً أَوْ تَفِيءً إِلَى هُدْنَةٍ. فَالْعَرَبِيُّ كَانَ صَاحِبَ وَجْدَانٍ دِينِيٍّ لَا يَخْلُو مِنْ سَقَمٍ، وَبِالْأَخْصِ الَّذِي يَسْكُنُ الْحَوَاضِرَ. وَالْأَخْبَارُ الَّتِي حَدَّثْنَا عَنْ شَكِّ الْعَرَبِيِّ فِي مُنَاسَبَاتِ حَيَاتِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، حَتَّى لَقَدْ أَهْتَمَّ الْقُرْآنُ بِشَأْنِ هَؤُلَاءِ الشَّاكِّينَ أَهْتِمَاماً خَاصّاً، وَهَاجَمَهُمْ مُهَاجِمَةً عَنِيفَةً كُلَّمَا حَكَى أَفْكَارَهُمْ فِي مِثْلِ آيَةِ «إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ»<sup>(٨)</sup> وَآيَةِ «وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ»<sup>(٩)</sup> إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ. وَهَذَا الْمَذْهَبُ الدَّهْرِيُّ كَانَ أَكْثَرَ الْمَذَاهِبِ آتِشَاراً كَمَا يَظْهَرُ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَكَانِ هَذَا الشَّكِّ فِي نُفُوسِ الْعَرَبِ شُيُوعُ فِكْرَةِ النِّفَاقِ فِي عَدَدٍ كَبِيرٍ بَعْدَ مَا قَوِيَ شَأْنُ النَّبِيِّ (ص)، وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ الْإِصْلَاحِيَّةُ، وَاسْتَعَلَّتِ الضُّمَائِرُ بِالثُّورَةِ عَلَى الْقَدِيمِ، وَمَالَ النَّاسُ إِلَى تَعَالِيمِ النَّهْضَةِ الَّتِي أَعَدَّ النَّبِيُّ (ص) هَيْكَلَهَا. بِرُغْمِ هَذَا النَّمِيرِ الصَّافِي الَّذِي أَجْرَاهُ النَّبِيُّ (ص) إِلَى كُلِّ نَفْسٍ لِإِرْوَاءِ ظَمْئِهَا وَتَبْرِيدِ غُلَّةِ الشَّكِّ فِيهَا، لَمْ تَتَأَنَّسْ نُفُوسُ الْمُتَنَافِقِينَ بِتَعَالِيمِ الدِّينِ الْجَدِيدِ، بَلْ لَمْ تَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ، وَهُمْ مَعْدُورُونَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُعَانُونَ مِنْ

(٨) الْجَاثِيَةُ ٤٥ : الْآيَةُ ٢٣.

(٩) الْأَنْعَامُ ٦ : الْآيَةُ ٢٩.



بَرَحَ الشُّكُّ الْخَفِيُّ مَا جَعَلَ ضَمَائِرَهُمْ قَلَقَةً عَلَى الدَّوَامِ.  
وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي تَرَكَهَا صِرَاحُ الدِّيَانَاتِ عِنْدَ الْعَرَبِيِّ، سَوَاءٌ فِي الْوَضْعِ النَّفْسِيِّ أَوِ الدِّينِيِّ أَوْ  
الاجتماعي هي:

١- الْخَيْرَةُ النَّفْسِيَّةُ الْعَمِيقَةُ.

٢- صَقْلُ الْوُثْنِيَّةِ إِمَّا بِالْفِكْرَةِ عِنْدَ الطَّائِفَةِ الْمُشْتَنِرَةِ، كَالَّذِي حَدَّثَنَا بِهِ الْقُرْآنُ حَاكِياً  
قَوْلَهُمْ «وَمَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى». فَهَذِهِ الْوُثْنِيَّةُ الْمَتَطَوِّرَةُ الْفِكْرَةَ لَا بُدَّ أَنَّهَا  
مَذْهَبٌ أَثَّرَ فِي وُجُودِهِ مَا شَاعَ بَيْنَ الْعَرَبِ مِنْ أَفْكَارِ الدِّيَانَاتِ الْأُخْرَى؛ وَإِمَّا بِالْعَادَاتِ  
كَالصُّوفَةِ وَالنَّسَبِ.

وَالصُّوفَةُ وَظِيفَةُ<sup>(١٠)</sup> دِينِيَّةٌ؛ قَالَ أَبُو هِشَامٍ: كَانَتْ صُوفَةٌ تَذْفَعُ بِالنَّاسِ مِنْ عَرَفَةٍ، وَتُجِيرُ  
لَهُمْ إِذَا نَفَرُوا مِنْ مَنَى، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ النَّفَرِ أَتَوْا لِرَمِي الْجِمَارِ، وَرَجُلٌ مِنْ صُوفَةٍ يَزُومِي لِلنَّاسِ،  
وَلَا يَزُومُونَ حَتَّى يَزُومِي، وَكَانَ آخِرُهُمُ الَّذِي شَارَفَ الْإِسْلَامَ كَرِثُ بْنُ صَفْوَانَ. وَيَقُولُ الدَّكْتُورُ  
وَلْفَنَسْتُونُ إِنَّ صُوفَةَ الَّتِي مَعْنَاهَا فِي الْعِبْرِيَّةِ الْحَارِسُ أَوْ الشَّخْصُ الْبَصِيرُ فِي الشُّؤُونِ الدِّينِيَّةِ،  
وَظِيفَةُ تَسَرَّبَتْ إِلَى الْعَرَبِ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ.

وَالنَّسَبُ وَظِيفَةُ أَيْضاً، تَسَرَّبَتْ إِلَى الْعَرَبِ مِنَ الْيَهُودِ. وَتَمِيلُ جَمَاهِرَةُ الْمُشْتَشْرِقِينَ إِلَى  
تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ بِمَا كَانَ مَعْرُوفاً عِنْدَ الْعِبْرِيِّينَ مِنْ أَنَّ النَّاسِيَّةَ، أَيْ الرَّئِيسَ الدِّينِيَّ، كَانَ

---

(١٠) مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي لَمْ تُحْلَمْ حَتَّى الْآنَ تَغْيِينُ الْأَصْلِ الَّذِي تُنْظَرُ إِلَيْهِ كَلِمَةُ صُوفِيَّةٌ وَتَصَوُّفٌ. وَعَلَى كَثْرَةِ التَّقْدِيرَاتِ لَمْ يَصِلِ  
الْعُلَمَاءُ إِلَى رَأْيٍ قَاطِعٍ، فَهَمُ تَارَةً يَزِدُّونَهَا إِلَى الصُّوفِ وَتَارَةً إِلَى الصَّفَاءِ، وَأَحْيَاناً يَزِدُّونَهَا إِلَى أَصُولِ يُونَانِيَّةٍ. وَرَأْيِي الَّذِي أَطْمَعُ فِيهِ جِذَاً  
أَنْ يَكُونَ صُوفِيَّةٌ وَتَصَوُّفٌ مِنْ كَلِمَةِ صُوفَةٍ بِمَعْنَاهَا الْعِبَادِيَّةُ، وَهِيَ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمُشْتَرَكَةِ التَّجَارِ فِي الشَّامِيَّاتِ، وَمُضَدَّرُ هَذَا الْاَطْمِئْنَانِ  
شَيْثَانُ:

أ- الْآصِرَةُ الشَّدِيدَةُ بَيْنَ مَعْنَى صُوفِيَّةٍ وَمَعْنَى صُوفَةٍ، فَكُلُّ مَنْهَا طَائِفَةٌ لَهَا تَرْتِيبٌ دِينِيٌّ خَاصٌّ وَأَشْكَالٌ تَعْبُدِيَّةٌ. وَإِنْ تَخْصُصَ فَرِيقٌ  
مِنْ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ بِوُظُفَةِ الصُّوفَةِ يَجْعَلُهُمْ طَبَقَةً ذَاتَ شَعَائِرَ وَاقْتِيَاظٍ فِي مَذَاهِبِ حَيَاتِهَا عَلَى سُكُلِ الْمُتَصَوِّفَةِ.  
ب- مُسَاعَدَةُ قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ فِي التَّسْبِيَةِ وَالْاِشْتِقَاقِ عَلَى هَذَا التَّخْرِيجِ اللَّغَوِيِّ.



يُؤَخَّرُ وَيُقَدَّمُ الشُّهُورَ، وَيُعَيَّنُ مواعيدُ الأعيادِ والصَّيامِ، ويُعلِنُ النتيجةَ بواسطةِ وفودٍ إلى الطَّوائفِ اليهوديَّةِ المُختلِفةِ. والتَّاسِيءُ هو الاسمُ الشَّائِعُ لرئيسِ القبائلِ عندَ بني إسرائيلَ منذَ أزمنةٍ غابِرةٍ، ووجودُ هذه الوظيفةِ في بني كِنانةَ التي كانَ منها بَطونٌ مُتَهَوِّدَةٌ يُرَجِّحُ هذا التَّقديرَ، كما يُوَيِّدُهُ ما ذَكَرَهُ أبو معشرٍ البَلْخِيُّ في كتابِ الألوَفِ، وأبو الرُّيْحَانِ البَيْهَرِيُّ في كتابِ الآثارِ الباقيةِ عن القرونِ الخاليةِ، والمَقْرِيزِيُّ في كتابِ المواعظِ والاعتبارِ بِذِكْرِ الخِطَطِ والآثارِ. ويذهبُ المستشرقُ الهولَنديُّ دوزي إلى أنَّ حَرَمَ مَكَّةَ عُمَرُ بواسطةِ بَطونِ<sup>(١١)</sup> بني شَمْعونَ، وأنَّ تقاليدَهُ ليستْ إِلَّا وِراثَةً إسرائيليَّةً قديمةً. كما ذَهَبَ أيضاً إلى أنَّ العربَ

(١١) يُدَاخِلُنِي تَطَلُّنٌ جَدُّ غريبٍ، لا يَبْلُغُ حَدَّ الرَّأيِ لِعَدَمِ مُسَاعَفَةِ الشَّواهِدِ، في أصْلِ العَدْنَانِيَّينَ والقَحْطَانِيَّينَ، وقد تَكَوَّنَ لَدَيَّ من تَلَوِيحاتٍ مَخْصِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ وَفَقاً لِلأَصُولِ المَقْرُورَةِ في كتابِ مُقَدِّمَةِ لَدَرْسِ لُغَةِ العربِ وعلى الرُّغْمِ من أَنَّهُ تَقْدِيرٌ لا يَسْتَنِدُ إلى وثائِقٍ أو أَشْباهِها، فَإِنَّها لا تَجْفُوهُ لِأَنساقِهِ مع رُوحِ ما هو مَحْفُوظٌ من وثائِقٍ بَثْرَاءِ.

ويَتَلَخَّصُ هذا التَطَلُّنُ، بأنَّ العَرَبَ واليَبَرَّ كانوا الانشِيعاتِ الأقدمَ لِلأُزُومَةِ السَّامِيَّةِ، في مُحِيطِ الأَحْقادِ والجَنُوبِ اليَمَنِيِّ... والجماعاتُ التي كانتْ مَسَاكِنُها إلى السَّاحِلِ شُمُوا عِبَرِيَّينَ أي سَاحِلِيَّينَ نَسَبَةً إلى العِبرِ، والجماعاتُ التي مَسَاكِنُها إلى الصَّحْراءِ أو فيها، شُمُوا عَرَباً أي صَحْراوِيَّينَ من كَلِمَةٍ عَرَبِيَّةٍ بِمعْنى صَحْراءِ.

وَأَقْدَرُ أَنَّ هؤلاءِ السَّاحِلِيَّينَ كانوا يَشْتَغِلُونَ في البَحْرِ كما هو شأنُ أَشْباهِهِمْ، وقد وَفَّقُوا إلى نوعٍ من نِعمَةِ العَيْشِ وَعَضَارَتِهِ، بَيْنَما الجماعاتُ الأُخْرى التي لم تَحاولْ عَنِ الصَّحْراءِ مُنْقَلَباً، غَرِقُوا بالقَحْطانِ أي أَبْناءِ القَحْطِ. فَقَدْ أَلَحَّ عَلَيْها الجُهدُ والشَّطَلُ وَلَزِمَها النَعَثُ لُزُومَ الاسمِ، مثلاً لَزِمَ المُستَقَرِّينَ النَعَثُ الآخرُ العَدْنانُ، أي المَقِيمِ.

فَكَلَّا المَفْرَدِيَّينَ: قَحْطانَ وَعَدْنانَ، لَيْسا عَلَمَيْنِ على شَخْصِيَّينَ تَارِيخِيَّينَ كما يُظَنُّ وَيُتَوَهَّمُ، بل هِما نِقتانِ جُغرافيَّانِ... فالعَدْنانُ المُسْتَقَرُّ المُتَخَضِّرُ والقَحْطانُ المُتَبَدِّلُ المُتَحَلِّلُ... وَيَبْدُو هذا شَدِيدَ الوُضُوحِ حِينَما نَتَناولُ بِالدَّرْسِ كُلِّ ما تَدُلُّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العِبرِ: فَهِيَ تَدُلُّ على السَّاحِلِ والسَّاطِيءِ، وعلى الجَماعَةِ والمكانِ الأهلِ.

ثُمَّ إِذا ضَمَعْنَا إِلَيْها تَلَوِيحاتِ مَعانِي جَذَرٍ: عَدَنُ أَي أَقامَ، نَجِدُ أَنَّ العَدنانَ يَدُلُّ على السَّاحِلِ لِلْبَحْرِ وَالضِّفَّةِ لِلنَّهْرِ، وَأَنَّ العَدانةَ تَدُلُّ على الجَماعَةِ... وهذا كُلُّهُ حَمَلَنِي على نَحْوِ من غَلَبَةِ الظَّنِّ، بأنَّ المكانَ المَعروفَ بِاسمِ: عَدَنَ، إِنِما أُعْطِيَ هذا الاسمُ في القَدِيمِ القَدِيمِ بِمعْنى ما نَفْهَمُ نَحْنُ اليَوْمَ من كَلِمَةٍ: مَرْوفاً؛ بِمَلَحْظِ أَنَّهُ مَكَانُ إِقامَةِ الشُّفُنِ وَرُسُوِّ الأَصْبابِ مِنْ أَقْواجِها.

هذا التَطَلُّنُ الَّذِي نَلِجُ بِمِشْكَاتِهِ، إِنَّ صَحَّ وَكانَ لَهُ مِشْكَاةٌ، إلى ذِهابِ المَاضِي السَّحِيْقِ، ثُمَّ أَتَّفَقَ وَظَهَرَ ثَلاثُ ثَلاثِيقٍ تُشْفَعُ بِهِ وَثِيقُهُمْ أَمنَةً وَعِزِّجُهُ، نَعْرِفُ أَنَّ عَدنانَ وقَحْطانَ أَقدمَ مِمَّا كُنَّا نَظُنُّ، وَأَبْعَدُ عَنِ أَنْ يَكُونَا شَخْصِيَّينَ تَارِيخِيَّينَ.



أَسْتَعَارُوا أَسْمَاءَ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ مِنَ الْيَهُودِ، إِذْ لَا يُمَكِّنُ تَصَوُّرُ اسْتِعْمَالِ لَفْظِ السَّبْتِ بِدُونِ هَذَا، كَمَا أَنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عُرِفَ عِنْدَ أَهْلِ مَكَّةَ بِلَفْظِ عَرُوبَةٍ، وَهُوَ لَفْظٌ يُطْلَقُ عِنْدَ الْيَهُودِ عَلَى كُلِّ يَوْمٍ قَبْلَ السَّبْتِ وَقَبْلَ الْأَعْيَادِ.

٣- فِكْرَةُ تَحْرِيمِ الْأَشْهُرِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى شُعُورِ اجْتِمَاعِيٍّ خَاصٍّ دَفَعَهُمْ إِلَى تَكْتِلِ قَوْمِيٍّ مُؤَقَّتٍ، هَذِهِ الْفِكْرَةُ الَّتِي كَانَتْ وَلِيدَةً الشُّعُورِ الْبَلِيغِ بِالاجْتِمَاعِ. وَنَحْنُ نَطْمِئِنُّ إِلَى أَنَّهُ نَتِيجَةُ التَّعَرُّفِ إِلَى نُظْمٍ جَدِيدَةٍ، فَإِنَّهُ لَوْ أَنَّ مِنَ التَّعَاوُنِ الشَّعْبِيِّ أَوْسَعُ مِنْ أَعْتِبَارَاتِ الْقَبِيلِيَّةِ، مُتَّخِذًا شَكْلًا دِينِيًّا عَمِيقًا، بَلَّهَ أَنَّهُ كَانَ حَاجَةً أَكِيدَةً مِنْ حَاجَاتِ التَّعَايُشِ فِي ظِلِّ الْجِنْسِ. وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ بَعِيدِ النَّشْأَةِ أَنَّ قِبَائِلَ مِنَ الْعَرَبِ كَلَّخِمَ لَمْ تَكُنْ تَخْضَعُ لِهَذَا الشَّرِيعِ.

وَالنَّاتِجُ الَّتِي نَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا، بَعْدَ هَذَا الْعَرْضِ الشَّرِيعِ هِيَ:

أَوَّلًا: إِنَّ صِرَاعَ الدِّيَانَاتِ كَانَ عَنِيفًا، وَكَانَ مَأْجُورًا اسْتُعْمِلَتْ فِيهِ شُرُ الْوَسَائِلِ، حَتَّى أَدَّى إِلَى مَذَابِحَ رَسْمِيَّةٍ فِي الْجَنُوبِ عَلَى أَيْدِي الْجَحْمِيرِيِّينَ<sup>(١٢)</sup>، وَإِلَى مُنَاوَشَاتٍ فِي الْحِجَازِ.

ثَانِيًا: إِنَّ الدِّيَانَاتِ لَمْ تَظْفَرْ بِتَحْوِيلِ الْعَرَبِ عَنْ عَقَائِدِهِمْ، بَلْ ظَفِرَتْ بِإِثَارَةِ الشُّكُوكِ.

ثَالثًا: إِنَّ الْأُسْرَةَ الْهَاشِمِيَّةَ كَانَتْ هِيَ الْمَأْمُولَةَ بِأَنَّ تَقَدَّمَ الْمُصْلِحِ أَوْ الْمُخْلَصِ، وَإِنَّ الْمَدِينَةَ هِيَ الْوَطْنَ الصَّالِحَ لِنُفُوزِ الدِّيَانَةِ الْجَدِيدَةِ وَبَقَائِهَا.

رَابِعًا: إِنَّ النِّفَاقَ مَبْعَثُهُ الشُّكُّ الدِّينِي.

هَذَا بَحْثٌ لَا يَغْنِينَا مِنْهُ إِلَّا أَنْ نَتَحَسَّسَ حَالَةَ الشُّكِّ عِنْدَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَمَقْدَارَ مَا بَقِيَ مِنْهَا فِي النُّفُوسِ بَعْدَهُ. وَقَدْ ظَهَرَ لَنَا إِذَا سَبَقَ أَنَّ حَالَةَ الشُّكِّ كَانَتْ مُتَحَكِّمَةً إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ فِي عُقُولِ الْعَرَبِ وَنُفُوسِهِمْ، وَرَأَيْنَا أَيْضًا كَيْفَ أَخَذَ الشُّكُّ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ (ص) شَكْلًا

(١٢) الْجَحْمِيرِيُّونَ طَائِفَةٌ مُبْهَمَةٌ النَّشْأَةِ، وَالْمُؤَرِّخُونَ عَلَى اخْتِلَافٍ فِي حَقِيقَتِهَا. وَأَنَا أَرْجِّحُ أَنَّهُمْ غَيْرُ الْخُلَصِ الصُّرَحَاءِ فِي أَنْسَابِهِمْ وَأَغْرَاقِهِمْ.



آخِرُ دُعَايَ نِفَاقًا. وَفِي كُتُبِ التَّارِيخِ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ وَأَقَاصِيصٌ كَثِيرَةٌ، مِنْ مِثْلِ قِصَّةِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرَبِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي مُقَدِّمَةِ<sup>(١٣)</sup> سُمُورِ الْمَعْنَى فِي سُمُورِ الذَّاتِ، وَقِصَّةِ تَهَاوُنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ بِالصَّلَاةِ، عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ مِنْ صَحِيحِهِ، وَتَهَاوُنِهِ بِالْحُدُودِ، عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي كِتَابِ الْأَغَانِي. وَكُلُّهَا تَدُلُّنَا عَلَى مَكَانِ هَذَا الشُّكِّ الَّذِي ظَهَرَتْ طَلْعَاتُهُ وَخَوَالِجُهُ الْمَكْبُوتَةُ فِي حَرَكَةِ الْإِزْدَادِ وَحَرَكَةِ الْمُتَنَبِّئِينَ.

فَإِنَّ حَرَكَةَ الْإِزْدَادِ، إِذَا دَرَسْنَاهَا دَرْسًا دَقِيقًا، دَلَّتْنَا عَلَى مَوْضِعِ الشُّكِّ عِنْدَ هَاتِيكَ الْأَقْوَامِ الْفِطْرِيَّةِ، وَأَنَّهُ أَمْتَدَّ إِلَى نَوَاحِي نَفْسِيَّاتِهِمْ، وَصَبَغَ عَلَيْهِمْ مُيُولَهَا. وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ كَانَتْ مُتَمِّمَةً لِحَرَكَةِ التَّنَبُّؤِ الَّتِي بَدَتْ طَلَائِعُهَا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ (ص) آخِرَ عَهْدِهِ، وَكَانَتْ شَائِعَةً بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الْخَوَاصِّ، وَإِنَّ ظَاهِرَةَ الشُّكِّ فِيهَا كَانَتْ مَلْمُوسَةً إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، حَتَّى لَنَرَاهَا فِي تَضَاعِيفِ قِصَّةِ الْمُتَنَبِّئِينَ وَاضِحَةً جَلِيَّةً. وَقَدْ تَأَثَّرَتْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ فِي نَظَرِي بِعَوَامِلَ ثَلَاثَةٍ:

الأول: الاستياء الَّذِي تَمَلَّكَ الطَّبَقَاتِ الدِّينِيَّةَ (الْكُهَّانَ) مِنْ ضَيَاعِ نُفُوذِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، فَعَمَدُوا إِلَى اسْتِعَادَةِ مَجْدِهِمْ الْمَفْقُودِ بِدَعْوَةٍ مُشَابِهَةٍ.

الثاني: قَلَقُ الْوُجْدَانِ الدِّينِيِّ الَّذِي ظَهَرَ أَنَّهُ كَانَ قَوِيًّا إِلَى حَدٍّ مَا، وَقَدْ آسَتْغَلَّهُ الْمُتَنَبِّئُونَ لِإِيصَالِ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْعُقُولِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلِ لِإِثَارَةِ الشُّكِّ فِي التَّعْلِيمِ الْجَدِيدِ الَّذِي أَطْمَأَنَّ الْعَرَبُ إِلَيْهِ أَطْمِئْنَانًا مَا. وَهَذَا يُكْسِبُهُمْ رُجُوعَ الْعَرَبِ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِمْ الْمُضْطَرِيَّةِ.

الثالث: عَدَمُ فَهْمِهِمْ لِلنُّبُوَّةِ عَلَى حَقِيقَتِهَا، فَإِنَّ الَّذِي فِي خَيَالِهِمْ عَنْهَا كَانَ تَصَوُّرًا مُبْهَمًا وَمُشَوَّهًا. وَلَكِي تَتَّضِحَ لَنَا هَذِهِ الْعَوَامِلُ فِي حَرَكَةِ الْمُتَنَبِّئِينَ عَلَى وَجْهِ أَدْعَى إِلَى التَّضْدِيقِ نُورِدُ نُتَفَاءً مِنْ أَخْبَارِهِمْ.

ذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُ لَمَّا أَشْتَكَى النَّبِيُّ (ص) وَثَبَ الْأَسْوَدُ بِالْيَمَنِ، وَمُسَيْلِمَةُ بِالْيَمَامَةِ،

(١٣) راجع: سُمُورِ الْمَعْنَى فِي سُمُورِ الذَّاتِ، الطَّبَعَةُ الْأُولَى، ص ٥١.



ووثب طليحة في بلاد بني أسد. ولعل أطرف شخصية بين المتنبيين هي سجاح بنت الحارث التي كانت كاهنة، وكانت على علم بالنصرانية، وكانت راسخة فيها، تأثرت بنصاري تغلب. وإنما اختزناها لأن شخصيتها ازدوجت بشخصية متنبئ آخر هو مسيلمة. وخبرها، كما ذكره الطبري<sup>(١٤)</sup>، أنها تنبأت بعد موت رسول الله (ص) بالجزيرة في بني تغلب، فاستجاب لها الهذيل، وترك التَّنَصُّر، وكان قصدها غزو أبي بكر في المدينة، غير أن الظروف جعلتها تُغيَّر اتجاهها إلى اليمامة. ويقولون إنه جرى على لسانها: «عليكم باليمامة، ودُقُّوا دَفيْفَ الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا يلحقكم بعدها ملامة». فنَهَدَتْ لبني حنيفة، وبلغ ذلك مسيلمة فهابها، فأهدى إليها، ثم أرسل لها يستأمنها على نفسه حتى يأتيها، فنزلت الجنود على الأمواه، وأذنت له وأمنته، فجاءها وجعل لها نصف الأرض. وزووا أنها تزوجته وطلبت إليه أن يصدقها، فأمر مؤذنها شبت بن ربيعي الرياحي أن يؤذن في الناس أن مسيلمة بن حبيب، رسول الله، قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد: صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر. وذكر الكلبي أن مشيخة بني تميم حدثوه أن عامة بني تميم بالرميل لا يصلونهما.

وكان من جملة أصحابها عطار بن حاجب، وهو الذي يقول:

أُمِسْتُ نَبِيًّا أَنْتِي نَظِيفٌ بِهَا وَأُضْبَحْتُ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ ذُكْرَانَا  
ثُمَّ أَسْلَمْتُ وَحَسَنَ إِسْلَامُهَا.

هذه القصة تذكر أن سجاح كانت متأثرة بالنصرانية إلى حد كبير، أي غير مطمئنة، أو حائرة، وكانت كاهنة، فهي لذلك مُستاءة حيث إن الإسلام وضع حداً للاعتقاد بأشباهها، وآتبعها كثير من متنصرة تغلب؛ وأنها تزوجت بمسيلمة الذي جعل صداقها إسقاط صلاتين

(١٤) راجع: تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٢٨ - ٢٤١.



من ديانة مُحَمَّدٍ (ص). ويؤكدُ نظريتنا في ضميرِ العربِ الدينيِّ، وأنَّه كان مُتَلَدِّداً، ما ذَكَرَهُ  
الكلبيُّ من أنَّ عامَّةَ بني تميمٍ بالرَّمْلِ لا يُصلُّونَهما. على أنَّنا نكادُ نَلِمُسُ الابْتِسَامَةَ الماكَرَةَ  
السَّاخِرَةَ في قَوْلِ عَطَّارِدَ بْنِ حَاجِبٍ، وبالأخصِّ هذا التَّعبيرِ: «أُنْثَى نَطِيفُ بِهَا» ورُغِمَ ذلكَ  
نَجْدُهُ مُنْقَاداً مُسْتَسْلِماً لأسبابٍ منها، أو أهمُّها، الحَيَرَةُ الَّتِي طَبَعَتْ دَخِيلَتَهُمُ النَّفْسِيَّةَ.

والآنَ نَنْتَقِلُ إلى دُرْسِ هذه الظَّاهِرَةِ في عَهْدِ الخُلَفَاءِ، وَخُصُوصاً عِنْدَ الأعرابِ ومن  
لَفَّ لَفَّهُمُ، وَبَتَعْبِيرٍ أَصَحَّ: لَأَفْهَمُ. ولِسُنَا نَقِفُ عِنْدَ حَوَادِثٍ جُزْئِيَّةٍ وَقَعَتْ مِنْ الأَشْخَاصِ فِي  
بَعْضِ مُنَاسَبَاتِ حَيَاتِهِمْ، وَإِنَّمَا نَتَّجِعُ مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ إلى أَحْدَاثٍ كَبِيرَةٍ تَجَلَّتْ فِيهَا ظَاهِرَةُ  
الشُّكِّ عَلَى تَحْوِيفِنا أَنَّ نُشْخِصَهُ.

وَيَحْسُنُ بنا أَنْ نُشِيرَ هنا إلى أَنَّ كِتَابَ نَهْجِ البَلَاغَةِ، إِذَا دَرَسْنَاهُ دِرَاسَةً نَقْدِيَّةً، نَقَعُ فِيهِ  
عَلَى ما يُؤَكِّدُ هذا الظَّنَّ، ففِيهِ خُطَبٌ كَثِيرَةٌ وَمَجَالِسٌ كَثِيرَةٌ تَدُورُ عَلَى مَسَائِلَ مِنْ أَصُولِ  
الدِّينِ، كَانَ النَّاسُ لَا يَفْتَوُونَ يَسْأَلُونَهُ عَنْهَا، أَوْ يَتَسَاءَلُونَ عَنْهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَهِيَ مَسَائِلُ تَتَعَلَّقُ  
بِالذَّاتِ الإِلَهِيَّةِ فِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ، كَمِثْلِ خُطْبَةِ الأَشْبَاحِ، وَهِيَ مِنْ جَلَائِلِ خُطَبِهِ، وَكَانَ سَأَلُهُ  
سَائِلٌ أَنْ يَصِفَ اللَّهَ حَتَّى كَأَنَّهُ يَرَاهُ عِيَاناً، فَغَضِبَ الإمامُ (ع) وَعَرَّفَهُمْ كَيْفَ يُنْزِعُ اللَّهَ،  
وُخْطِبَتْ فِيهِ فِي أَوَّلِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَخُطِبَتْ فِيهِ فِي تَنْزِيهِ اللَّهِ، وَأَجُوبَتِهِ فِي الْحَرِّيَّةِ  
الأَدْبِيَّةِ، أَوْ الإِرَادَةِ الْجُزْئِيَّةِ (مُغْضِلَةُ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ). مِمَّا يَدُلُّنا عَلَى ما هُوَ مُتَمَلِّكُهُمْ مِنْ حَيَرَةٍ  
خَفِيَّةٍ؛ فَإِنَّ الإِسْلَامَ، بَرُغِمَ أَنَّهُ وَضَعَ حَدّاً لِهَذِهِ الحَيَرَةِ، بِمَا فَرَضَ مِنْ مُثُلٍ وَتَعَالِيمٍ، عَادَتْ  
فَظَهَرَتْ بِأَشْكَالٍ إِسْلَامِيَّةٍ، وبالأخصِّ بَعْدَ عَمَلِيَّةِ التَّمَازُجِ الكُبْرَى الَّتِي أَدَّى إِلَيْهَا الفَتْحُ السَّرِيعُ.  
فَدُخُولُ ذَوِي الدِّيَانَاتِ الأُخْرَى فِي الإِسْلَامِ - وَالْأُمَمُ لَا تُغَيِّرُ دِيَانَاتِهَا كَمَا تُغَيِّرُ أَثْوَابَهَا - ثَبَّتَتْ  
هَذِهِ الحَيَرَةَ أَوْ أُنْمَاها، وَلَكِنَّهُ أَعْطَاهَا شَكْلَ الاجْتِهَادِ الدِّينِيِّ. وَالآنَ نَدْرُسُ حَرَكََةَ الخَوَارِجِ  
وَالسَّبْئِيَّةِ عَلَى ضَوْءِ هذه النُّظَرِيَّةِ.

نُظَرِيَّةُ الخَوَارِجِ: جَاءَتْ الأَخْبَارُ بِأَنَّ المُتَحَارِبِينَ فِي صِفَيْنِ، لَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى التَّحْكِيمِ، نَفَرَ



قَوْمٌ مِنْ جُنْدِ عَلِيٍّ (ع) أَكْثَرُهُمْ مِنْ قَبِيلَةِ تَمِيمٍ، مِنْ أَنْ يُحْكَمَ أَحَدٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ. وَيَنْبَغِي أَنْ لَا نَنْسِيَ بَأْنَ تَمِيمٍ كَانَتْ فِيهِمْ أَرْتَدُّ، وَكَانَتْ رِدَّتُهَا إِلْحَادًا، فَقَدْ قَدَّمْتُ نَبِيَّةً كَانَ لَهَا شَأْنٌ مُهِمٌّ، وَهِيَ سَجَاخُ بِنْتُ الْحَارِثِ. وَإِنَّمَا أَتَيْتُنَا عَلَى هَذَا لِيَبْقَى فِي ذِكْرِنَا أَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي ضَمِيرٍ دِينِيٍّ قَلِقَ تَبَعًا لِمَا يَغْرِضُ فِي سَمَاوَةِ خَيَالِهِمْ. وَبِمَا أَنَّهُمْ يَفْقِدُونَ الْقُدْرَةَ عَلَى الْمُوازَنَةِ الْعَقْلِيَّةِ فَهُمْ لِذَلِكَ يَصِيرُونَ إِلَى التَّمَشُّكِ بِالرَّأْيِ أَوْ التَّرَدُّدِ. وَسَنَجِدُ صِدْقَ هَذَا بَعْدَ حِينٍ، فَإِنَّ بَعْضَهُمْ تَشَدَّدَ وَغَلَا، وَبَعْضُهُمْ تَرَدَّدَ، فَكَانَتْ أَفْكَارُهُمْ تَخْتَلِفُ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا كَمَا يَقُولُونَ، وَفَقَدُوهُمُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْمُوازَنَةِ يُعَلِّلُ انْقِسَامَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ هَذَا الانْقِسَامَ السَّرِيعَ. وَقَدْ جَعَلُوا شِعَارَهُمْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ: «لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» الْمَأْخُوذَةُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى «إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» (١٥).

أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ حِينَمَا قِيلَ عَلِيٍّ (ع) بِالتَّحْكِيمِ لِأَنَّ قَبُولَهُ، كَمَا ذَكَرْتُ فِي كِتَابِ سُمُورِ الْمَعْنَى فِي سُمُورِ الذَّاتِ، مَعْنَاهُ أَنَّ لِلْخُصُومِ شُبْهَةَ حَقٍّ، وَهُوَ مَا لَا يَسْمَحُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بِاعْتِقَادِهِ، وَإِلَّا فَقَدْ تَهَاوَتُوا بَيْنَ عَمَلِهِمُ الْيَوْمَ وَعَمَلِهِمُ بِالْأَمْسِ. وَهُمْ حِينَ اسْتَبَدَّ بِهِمُ الْقَلْقُ، لِيَضْعِفَ الْمُوازَنَةَ الْعَقْلِيَّةَ عِنْدَهُمْ، لَمْ يُنْقِذْهُمْ إِلَّا أَنْ يُقَرَّرَ عَلِيٍّ (ع) بِالْخَطِّ أَيَّ الْكُفْرِ.

وَمِنَ الْخَيْرِ أَنْ نَذْكُرَ طَرَفًا مِنْ تَعَالِيمِهِمْ لِنُوجِدَ صِلَةً عَقْلِيَّةً بَيْنَ أَفْكَارِهِمْ، وَبَيْنَ الْأَفْكَارِ الْقَدِيمَةِ مِنْ جِهَةٍ، وَصِلَةً أُخْرَى بَيْنَ طُلُوعِهِمْ بِهَذِهِ التَّعَالِيمِ وَبَيْنَ الْخَيْرَةِ الْمُسَيِّطِرَةِ.

ذَهَبُوا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ إِلَى أَنَّ الْخِلَافَةَ لَيْسَتْ حَقًّا أَصِيلًا، وَلَا مُكْتَسَبًا لِقُرَيْشٍ، وَإِنَّمَا هِيَ حَقٌّ مَشَاخٍ بَيْنَ الْعَرَبِ، ثُمَّ قَالُوا بَيْنَ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

دَقَّقِ النَّظَرَ فِي هَذِهِ الْفِكْرَةِ الَّتِي تَنْفَسُ عَلَى قُرَيْشٍ سُلْطَانَهَا وَتَحْكُمُهَا، وَبَيْنَ مَا جَاءَ عَلَى لِسَانِهِمْ يَوْمَ الْإِزْدَادِ، تَجِدُ الْبَوَاعِثَ وَاحِدَةً. فَمُسَيِّلَمَةُ كَانَ يَقُولُ إِنَّ قُرَيْشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ،



وقال قيس بن عاصم:

ألا أبلغا عني قريشاً رسالةً إذا ما أتنّها بيّناً الودائع  
كما نجد من أهمّ بواعث الثورة على عثمان أيضاً، أنّ القبائل نفست على قريش  
إمرتها، وقد أنضج سخيمنتهم تصرف قريش تصرفاً غير مشروع ولا عادِل، إلى حدّ جعل  
القبائل تزعم قريشاً بأنّها نصّلت من الدين تقريباً. وأسْمَع إلى ما يقول شاعر:

بُلينا من قريش كلّ عام أميرٌ مُحدث أو مُستشار  
لنا نارٌ نُخوّفها فنخشى وليس لهم، فلا يخشون، نارٌ

فكان بين هذه الحركات الثلاث صلةً شديدة، وهي في الواقع حركة واحدة ظهرت  
في ظروف مختلفة، وكانت تضطّيع لها في كلّ ظرفٍ ما يُناسبه. فحركة الخوارج، في  
نظري، بقية من حركة الارتداد الكامنة، ولكنها في هذه المرة أخذت شكلَ آجتها ديني  
إسلامي.

ورأيهم في الخليفة أنّه لا يصحّ له أن يتنازل ولا أن يحكم، وإذا تمّ اختياره صار  
رئيس المسلمين، ويجب أن يخضع خضوعاً تامّاً لِما أمر الله، وإلاّ وجب عزله. ومن  
طوائف الخوارج من يذهب إلى أنّه لا حاجة بالأمة إلى إمام، وإنما على الناس أن يعملوا  
بكتاب الله من أنفسهم، وهذا ما كان يفهم من كلمتهم: «لا حكم إلاّ لله». ولذا قال  
عليّ (ع): «كلمة حقّ أريد بها باطل، نعم إنه لا حكم إلاّ لله ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة  
إلاّ لله». يتبيّن لنا من هذا أنّ نظرية الخوارج ترجع إلى عوامل ثلاثة:

أولاً: القلق الديني.

ثانياً: العصبية.

ثالثاً: خضوع هؤلاء الأعراب، أيّام جاهليّتهم، للكُهان خضوعاً تامّاً، فما كانوا  
يقطعون بشيء إلاّ بعد تخكيمهم. والمفروض في الكُهان أنّهم يستفسرون الغيب، وهذا



أَدْخَلَ فِي فِطْرَتِهِمْ أَنَّهُمْ مُسَيَّرُونَ كَرَاهًا، وَجَاءَ التَّنْبُؤُ فَتَبَّتْ فِي ضَمَائِرِهِمْ أَنَّ الْغَيْبَ هُوَ الْمُحَكَّمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. فَالْعَرَبُ مِنْ هَذِهِ النَاحِيَةِ كَانُوا جَبْرِيِّينَ، وَنَجَدُ فِي الْآثَارِ الْمَرْوِيَّةِ وَنَهْجِ الْبَلَاغَةِ أَنَّ عَلِيًّا (ع) أَجْتَهَدَ كَثِيرًا فِي تَفْهِيمِهِمْ حَقِيقَةَ الْقَدَرِ، وَكَانَتْ لَهُجَّتُهُ فِي ذَلِكَ قَاطِعَةً صَارِمَةً. وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ فِي الْجَوَابِ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي الْقَدَرِ «لَوْ كَانَ، أَيْ مَعْنَى الْقَدَرِ، كَمَا تَظُنُّونَ لَبَطَلَتِ الشَّرَائِعُ وَالتَّكَالِيفُ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ، وَبَطَلَ إِرْسَالُ الرُّسُلِ، إِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الْعَقِيدَةُ فَإِنَّهَا عَقِيدَةُ مَجُوسِ هَذِهِ الْأُمَّةِ». هَذِهِ هِيَ الْبَوَاعِثُ الْحَقِيقِيَّةُ لَخُرُوجِهِمْ، وَإِنْ كَانَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يُعْطَى إِلَّا أَنَّهُ نَتِيجَةُ ظَرْفٍ خَاصٍّ أَنْكَشَفَ عَنْهُ.

السَّبَبِيَّةُ: وَالْآنَ نَتَنَاوَلُ السَّبَبِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ أَدْخَلَ فِي وَجْهَةِ هَذَا النَّظَرِ. وَهِيَ نِخْلَةٌ تَنْتَسِبُ إِلَى شَخْصِيَّةٍ غَامِضَةٍ كُلِّ الْغُمُوضِ، حَتَّى عُدَّتْ شِبْهَ تَارِيخِيَّةٍ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبْيَأٍ. وَالرُّوَاةُ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُمْ يُجْمِعُونَ عَلَى الدَّوْرِ الَّذِي لِعَبِّهِ، وَأَكْثَرُهُمْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُ يَهُودِيٌّ مِنْ صَنْعَاءَ، قَدِيمَ الْحِجَازِ وَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ كَمَا دَخَلَ غَيْرُهُ مِنَ الْيَهُودِ. وَقَدْ ابْتَدَعَ لِلْعَرَبِ قَضَايَا شَغَلَتِ الْأَفْكَارَ، وَأَقَامَتِ الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيَّ وَأَذَكَّتْ فِيهِ الثَّورَةَ، وَلَعَلَّهُ الشَّخْصُ الَّذِي نَظَّمَ تَعَالِيمَ الثَّورَةِ، وَأَعْطَاهَا شَكْلًا مُنْسَقًا مُهْدَّبًا.

وَالْمَسَائِلُ الَّتِي نَخَلَبُ بِهَا النَّاسَ تُنَظَّمُ فِي صِنْفَيْنِ:

الأول: دِينِي، وَمَسَائِلُهُ هِيَ:

أ - إِنَّ عَلِيًّا يَجِبُ أَنْ يَخْلُفَ النَّبِيَّ (ص) وَلَيْسَ أَبَا بَكْرٍ.

ب - إِنَّ عَلِيًّا (ع) وَصِيَّ مُحَمَّدٍ (ص)، كَمَا كَانَ هَارُونُ وَصِيَّ مُوسَى (ع)، وَشَمْعُونُ الصِّفَا وَصِيَّ عِيسَى (ع).

ج - إِنَّ مُحَمَّدًا (ص) سَيَعُودُ كَمَا عَادَ مُوسَى، وَكَمَا لِلْمَسِيحِ رَجْعَةٌ لَهُ رَجْعَةٌ مُسْتَنِدًا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ» (القصص ٢٨ : ٨٥).



الثاني: إجتماعي، وهو من النوع الاشتراكي المتطرف، ومسائله هي:

أ - إن المال يجب أن يُقسَم بين الناس بالسوية، وليس هناك غني ولا فقير.

ب - إن تسمية معاوية للمال بـمال الله لا مال المسلمين آفقت على حقوقهم، وقصد معاوية من هذا، كما كان يُروَّج، أن يستأني له التصرف به كيف شاء. ولا يختلف اثنان من المؤرخين بأن ابن سبأ تأثر إلى حد كبير بتعاليم الديانات المختلفة، وأخصها المزدكية في الجانب الاجتماعي من أفكاره. وفي نزعة مضداً لنظريتنا التي آجتهنا أن نُفسر بها الأهواء الدينية التي أدت إلى اختلاف كبير.

والمؤرخون يرون في عبد الله بن سبأ هذا، رجلاً دسّاساً خطيراً، ونرى فيه غير ذلك. ومقدمات هذا الرأي الذي كوَّنته لنفسه، أن السياسة المالية التي سار عليها عثمان (ض) من حيث إقطاع المحاسيب، فقد أقطع مروان خمس ما فتحه في أفريقيا، والإقطاع شيء مُستحدث في الإسلام، بل أنه حوّل قريشاً الملك وأقنائه الضياع والتزيد منها إلى أبلغ حد، هذه السياسة كانت طفرة بالنظر إلى سياسة عمر (ض) الصارمة في هذا الجانب. وقد نشأ عنها ولوع بالاشتكتار، ورغبة جامحة في التمول ضرورة أنها نُقلت من الفقر الجديب إلى الثراء العريض. وقد ظهر أثر هذا التسابق على الامتلاك سريعاً في الوضع الاقتصادي العام، حيث جعل العسكريين الذين أوقفوا أنفسهم على الجندية طبقة فقيرة يائسة بائسة، وألحف عليها الفقر بصورة أشد، حينما وقفت الفتوح أو فترت. وإذا علمنا بأن العسكريين هم أكثرية العرب المسلمين نصل إلى أن الطبقة الفقيرة شملت العرب أكثرهم. وأصبحت قريش وحدها هي التي تُولف الطبقة المالية أو الأرستقراطية، فعزت الناس ضغينة على قريش باعتبارها المُستبدة بالمرافق العامة، والمُستبدة بالدولة، ولاعبت نفوسهم أفكاراً ثورية عميقة. وبحكم أن عبد الله بن سبأ رجالة، ويحمل عقلاً مفكراً وجسداً نافذاً إلى بواطن المجتمعات، لمس أسباب الاشتياء العام، وحاول أن يتناول المجتمع في ناحية المال بإصلاح مناسب.



ولذلك لاقت أفكاره رواجاً أيّ رواج.

وأما أن نَظُنَّ بأنه استطاع أن يفتن شعباً مُطمئناً إلى عقائده وشؤونِهِ بالدعاية الخالصة، فخرق بالنظر النفسي والاجتماعي، وأن يفتن خلص الرجال الذين ساهموا في بناء الهيكل الإسلامي من مثل أبي ذر (ض) الرجل الذي طوّرتُه الديانة تطويراً حقيقياً وجعلت منه مسلماً عميق الإسلاميّة، فإنه يسمُنّا بنوع من البله والسذاجة في فهم طبائع النفوس. إذا فقد كان في حكم الثابت أن الناس عامّة شعروا بشعورٍ واحد، وألف بينهم الاستياء، ويدلّ على هذا انتقاد علي (ع) نفسه لهذه السياسة التي جعلت قريشاً تبتلع المجتمع الإسلامي الواسع، وتتجاهله وهو القرشيّ الصميم. وشكواه من قريش، التي كان يزُمُّ بها في ذلك الحين باسم الأمويين، تملأ خطبته التي في النهج.

وإنّ أبا ذر (ض) لمس هذا الاستياء، وحاول أن يضع حداً للتدهور الاجتماعي السريع الذي بدأ يؤذن بالثورة على الرأسمالية الوليدة. وقد استنّام إلى أفكار عبد الله بن سبأ التي تُولفُ ببرنامج الإصلاح، لأنها وافقت أفكاره، ولأنّه وجد فيها علاجاً لا يتعدّد عن روح الإسلام في جوهره، خصوصاً وأنّ في برنامجهِ مردّاً إلى سياسة عُمرَ المالية في غايته بدون نظير إلى الصيغة التي أُفرغَ فيها.

ونحن لا نُنكر بأن أفكاره الاشتراكية متطرفة، ولكن التطرف دائماً شأن الشعور بالضيق، والمفكر بأفكار ثورية يكون على الدوام مفكراً متطرفاً. وكذلك الشعب الثائر يكون متطرفاً على مقدار كبير. فعبد الله بن سبأ، إن صحّ وكان، مسلم ليس ما يَحْمِلُنَا على الشك في إسلاميته، وصاحب أفكار إصلاحية اشتلّهمها من حالة المجتمع العامة لا أنّه نفّثها فيه. وهذا لا يَمْنَعُنِي أن أقرّر أنّ برنامجَه في قسميه، اللاهوتي والاجتماعي، كان مُقتبساً من ديانات عدّة وبالأخص في القسم الاجتماعي، إلّا أنّه سبّكها على شكل لا تتنافى به مع



روح الإسلام<sup>(١٦)</sup>، فهو صاحبُ فلسفةٍ دينيةٍ مُقتبسة. وقد أثر أيضاً في الخوارج، وسيأتي لنا درسٌ هذا في بحثِ الثورة على عثمان (ض).

هذه مُقدّماتٌ ونتائجٌ نريدُ أن نصلَ من ورائها إلى استيضاح أثرِ القلقِ في الوضعِ الدينيِّ والحياةِ العامةِ بعدَ الإسلام، ونحنُ في هذا الفصلِ قد أظهرناه في حدودِ المناسبةِ التي دَعَتْ إليه. ويتَحَثُّمُ علينا قبلَ مُزايلةِ الموضوعِ أن نَتَكَلَّمَ عن السياسةِ التربويةِ التي اتَّخذها النبيُّ (ص) وتَحَزَّمُ بها للقضاءِ على القلقِ الدينيِّ الخطيرِ الأثر. ونحنُ، بعدَ إلمامةٍ قصيرةٍ بالسيرةِ النبويةِ، نجدُ النبيَّ (ص) آغْتَمَدَ على أساليبِ تربويةٍ خالصةٍ لإبلاغِ الدينِ إلى الضمائرِ في استقرارٍ مكين. فكانَ يأخذُ العربَ بالترغيبِ تارةً والترهيبِ أخرى، ويأخذُهم أحياناً برياضاتٍ دينيةٍ من شأنها أن تَبْعَثَ الضميرَ الدينيَّ المهذب. بيدَ أن الفترةَ التي قضاها النبيُّ (ص) بينهم كانت قصيرةً، فلم تُحَقِّقِ الاختِمَارَ إلا في طبقةٍ بقيت لها مِيزَتُها في السياسةِ إلى زمنٍ بعيدٍ، ومِيزَتُها في الاعتقادِ ما بقي على الأرضِ مُسلمون.

وكانَ على الخلفاءِ أن يتابعوا هذه السياسةَ التربويةَ التي أُنْتُجَها النبيُّ (ص) لكي يُحَقِّقُوا الاختِمَارَ الدينيَّ المنتظرَ. بيدَ أن سياسةَ الخلفاءِ مالتْ إلى التَّوسُّعِ في تَزْيِيدِ أُسْرَعِ بَفَناءِ الطُّبَقَاتِ التي تهَدَّبَتْ على يَدَيِ المُصْطَفَى كَالْقُرَاءِ، ولم يَدْعُ فرصةً لتحقيقِ الاختِمَارِ في الباقيين. فالتَّعَجُّلُ بالفتوحِ كانَ بمثابةَ آنحسارٍ وجذَرٍ قَوِيٍّ في التَّفْسِيَةِ العربيةِ الإسلاميةِ، وقد لَمَسُوا بعضاً من نتائجِ المحسوسةِ في فَناءِ القُرَاءِ تقريباً حتَّى عَمَدُوا إلى كتابةِ القرآنِ صَوْناً له عن الضِّياع.

---

(١٦) خَالَطَ الْقَوْلُ بِالرَّجْعَةِ وَهَمَ عَمَرُ (ض) بعدما مات النبيُّ (ص) فَقَدْ كَانَ وَقَعَ الْخَبَرُ عَلَيْهِ شَدِيداً فَلَمْ يُصَدِّقْ وَذَهَبَ يُغَالِطُ نَفْسَهُ فِي صِدْقِ الْخَبَرِ بِأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ وَإِنَّمَا ذَهَبَ كَمَا ذَهَبَ مُوسَى وَسَيَعُودُ، وَمِنْ هُنَا أَخَذَ الرَّجْعَةُ أَهْلُ سَبَأٍ. وَأَخَذَ دَعَاوَاهُ فِي الرِّصَايَةِ مِنْ حَدِيثِ «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى» الْحَدِيثِ.



فإن من المسلم به أنه لا بُدَّ من مُرور الزمن لتتَرَسَّخَ التَّعاليمُ وتَتَحَوَّلَ إلى صِفَةٍ إراديةٍ غير مشعورية بها، كما يُعَبَّرُ لِيَبْنَز. فهذا الاختمارُ الدِّينيُّ ضَرُوريٌّ جِدًّا. وقد أُصِيبَ الإسلامُ، من حيثُ العَجَلَةُ بالفتوح، بما أُصِيبَتْ به الثَّورَةُ الفرنسيَّةُ. فإنَّ حركةَ نابوليونَ جاءتْ سريعةً بحيثُ لم تَدْعُ لمبادئِ الثَّورةِ ما كان يُلزِمُ لها من زمن. وهي، وإن تَكَرَّرَ قَدْ نَشَرَتْ مبادئَ الثَّورةِ خارجَ الحدودِ، كما نَشَرَتْ حركةُ الفَتْحِ الإسلاميِّ الدِّينَ خارجَ الحدودِ، فقد حالتْ دونَ قُطْفِ ثمارِها على الوَجْهِ الَّذِي كان مرغوباً فيه. والثَّورَةُ الفرنسيَّةُ كالصَّورةِ الإسلاميَّةِ تماماً، فقد تَوَلَّدَ من امتدادِها في غير حدودِ فرنسا، على الوجهِ المذكورِ، مَذهَبُ أَجتماعيَّةِ مُتَدَبِّذَةٍ في كُلِّ أورُوبا، كما حَدَثَ في الإسلامِ، فالماركسيَّةُ والفوضويَّةُ، وما إلى هذه من مَذهَبِ أُخرى، كانت كَالخَوارجِ والسَّبْيِيَّةِ، لأنَّ كُلًّا مِنْهُما اسْتَحَالَ، بفعلِ عَدَمِ الاختمارِ، مَذهَباً غامِضاً.

على أنَّا لا نُجَرِّدُ هذه الحَرَكةَ من محاسِنِها، بَيِّدَ أنَّها لا تُوازِي ما نَشَأَ عنها من نتائجَ كانتْ أَشدَّ خَطراً وأَهَمِّيَّةً. ولو أنَّ الإسلامَ أَدْرَكَه الاختمارُ اللَّازِمُ، ثُمَّ جَرَّبَ أَنْ يَلْعَبَ دورَه العسْكَريَّ لَما كان مَباءَةً أَبداً لِأَيَّةِ نازِعَةٍ أو شائِئَةٍ. فتأثيرُ عَمليَّةِ المَزْجِ الَّتِي كانتْ نَتيجَةُ ضَرُوريَّةِ التَّوسُّعِ الإسلاميِّ، جاءَ من هذا الجانِبِ الاِعتقاديِّ الَّذِي كانَ مَرِيضاً.

ولا نَنسَ هنا أَثرَ القَبْلِيَّةِ الَّتِي ثَبَتَ لَنا في الفَصْلِ السَّابِقِ أَنَّها كانتْ شديدةَ التَّحَكُّمِ في نَفْسِ العربيِّ، وعَظيمةَ التَّضْريفِ لِحَرَكَاتِهِ. وَيَحْسُنُ بنا أَنْ نُشيرَ إلى أَنَّ من جُمْلَةِ أسبابِ الرُّدَّةِ، أو الحَرَكةِ الانفصاليَّةِ الدِّينيَّةِ كما أَفْهَمُها، القَبْلِيَّةُ، فإنَّ مِنَ الأشياءِ الَّتِي سَبَقَتْ الإسلامَ تَفْكيرَ النُّجْرانيِّينَ بِتأسيِسِ كَعْبَةٍ لَهُم، قالَ ياقوتُ في معْجَمِ البلدان: «وكَعْبَةُ نَجْرانَ هذه يُقالُ بِيعَةُ بَناهَا بَنو عبدِ المَدانِ بنِ الدِّيانِ الحارِثيِّ على بِناءِ الكَعْبَةِ وعَظْموها مُضاهاةٌ لِلكَعْبَةِ وَسَمُّوها كَعْبَةُ نَجْرانَ، وكانَ فيها أَساقِفَةٌ مُعَمَّمُونَ». غيرَ أَنَّ بعضَ الباحِثينَ يَميلُ إلى «أنَّها كانتْ كَعْبَةً لِلعَرَبِ تُحْجُّ إِلَيْها قَبْلَ مَجيءِ النُّصرانيَّةِ، ثُمَّ اتَّخَذَها النُّصارى بِيعَةً بَعْدَ انْتِشارِ



النَّصْرَانِيَّةَ فِيهَا»، وهذا هو الرَّأْيُ الْمُحَقَّقُ فِي نظري. وبتأملٍ بسيطٍ في الحادي على الأفرادِ بِكَعْبَةٍ نَعْتُرُ عَلَيْهِ فِي النَّزْعَةِ الْقَبِيلِيَّةِ الَّتِي تَمِيلُ إِلَى التَّحَرُّرِ مِنَ التَّبَعِيَّةِ فِي كُلِّ الْأَشْيَاءِ وَأَشْيَاءِ الْعِبَادَاتِ أَيْضاً. وَيُظْهِرُ لَنَا مِنْ هَذَا أَنَّ الرُّغْبَةَ اتَّجَهَتْ إِلَى الانفصالِ الدِّينِيِّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَثَبَّتَ التَّبَعِيَّةَ الدِّينِيَّةَ، وَوَحَّدَ الْكَعْبَاتِ عَاوِدَتُهُمُ الرُّغْبَةُ السَّالِفَةُ إِلَى الانفصالِ فَأَذْكُوا حَرَكَةَ الْإِزْدَادِ.

يَثْبُتُ لَنَا مِنْ هَذَا، أَنَّ عَدَمَ الْإِخْتِمَارِ الدِّينِيِّ أَدَّى إِلَى الْبَلْبَلَةِ الَّتِي شَهِدْنَا مِنْ آثَارِهَا فِي الْمُحِيطِ الْعَرَبِيِّ شَيْئاً كَثِيراً، وَشَهِدْنَا مِنْ آثَارِهَا مِثْلَ ذَلِكَ بَعْدَ عَمَلِيَّةِ الْمَزْجِ الْإِسْلَامِيِّ الْوَاسِعَةِ. وَالْمَسِيحِيَّةُ، كَالْإِسْلَامِ، أَدْرَكَهَا بَعْضُ الْإِخْتِمَارِ فِي أَوَّلِهَا، ثُمَّ طَفَرَتْ بِدُخُولِ قُسْطَنْطِينِ فِيهَا، وَكَانَ بَدْءُ انْتِشَارِهَا بَدْءُ أَضْمِخْلَالِهَا أَيْضاً. فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ دَخَلُوهَا بَعْدَ ذَلِكَ دَخَلُوهَا عَلَى وَجْهِ السَّرْعَةِ، فَلَمْ يَدْخُلُوا وَحْدَهُمْ بَلْ بِعَقَائِدِهِمْ أَيْضاً، فَاتَّسَبَتِ الْمَسِيحِيَّةُ شَكْلِيَّةً أُخْرَى، وَبَدَأَ الْإِنْقِسَامُ فِيهَا نَتِيجَةً لِلْإِخْتِلَافِ الْعِتْقَادِيِّ الْقَدِيمِ، وَلَيْسَ نَتِيجَةً لِلْإِخْتِلَافِ الْاجْتِهَادِيِّ أَوْ التَّفْسِيرِيِّ كَمَا يُظَنُّ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْإِسْلَامَ صَادَفَ مَا لَمْ يُصَادِفْهُ دِينٌ آخَرُ، مِنْ حَيْثُ هُيِّئَتْ فِيهِ سُبُلُ التَّعَالِيمِ وَفُطِرَتْ لَهَا، وَمِنْ حَيْثُ جُمِعَتْ لَهُ الْقُوَّةُ أَيْضاً لِيَحْوَطَهَا، فَلَمْ يَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى عَوْنٍ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ التَّحَرُّكُ السَّرِيعُ أَفْقَدَهُ هَذِهِ الْمَزِيَّةَ، وَظَهَرَ فَضْلُ مِيزَةِ الْقُوَّةِ الَّتِي هَيَّأَهَا مُحَمَّدٌ (ص)، أَكْثَرَ مَا ظَهَرَ، فِي عَدَمِ تَحْرِيفِ التَّعَالِيمِ، فَإِنَّ التَّحْرِيفَ يَكُونُ نَتِيجَةً لِلضَّعْفِ وَالتَّسْتُرِ وَالتَّخْفِي.

وَالنَّبِيُّ (ص) سَنَّ مِنْهُجَ الْإِخْتِمَارِ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ. وَفِي نَظَرِي أَنَّ دَارَ الْأَرْقَمِ كَانَتْ مَرْبًى لِلْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ، وَكَهْفَ الثَّوْرَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. وَشَاءَتْ طَبَائِعُ الثَّوَرَاتِ أَنْ يَكُونَ لَهَا هَذَا الْكَهْفُ أَوَّلَ مَنْزِلَةٍ مِنْ مَنَازِلِهَا، ثُمَّ تُطْلُ مِنْهَا كُكُوءٌ لَا تَزَالُ تَتَسَبَّحُ وَتَتَكَوَّرُ حَتَّى تُسَامِتَ الْأَفْقَ وَتَبْلُغَ دَرَجَةَ الْإِرْتِفَاعِ بِالْمَعْنَى الْفَلَائِكِيَّةِ، وَتَضِيقَ عَنْهَا الْحُدُودَ. فَكُلُّ مُطَوِّرٍ كَانَ لَهُ مِثْلُ دَارِ الْأَرْقَمِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ نَائِرٍ وَكُلُّ مُصْلِحٍ.



وَيَحْسُنُ أَنْ نَشْرُدَ نَتَائِجَ هَذَا الْفَصْلِ بَعْدَ اللَّمَحَةِ الْاسْتِعْرَاضِيَّةِ الَّتِي أَتَيْنَا بِهَا لَتَكُونَ فِي الدَّانِي الْقَرِيبِ وَتَذَكِيرَةً لَنَا بِدَوْنِ عَنَاءٍ، وَهِيَ:

أولاً: تناحرُ الدِّياناتِ، على شَكْلِ أَنْ يَدَّعِي كُلُّ فَرِيقٍ بِأَنَّ الْحَقَّ فِي جَانِبِهِ، أَقَامَ الْفِكْرَةَ الدِّينِيَّةَ عِنْدَ الْعَرَبِ عَلَى الْحَيِّزَةِ الْمُبْهَمَةِ وَالشُّكِّ الْخَالِصِ، فَفَسَّاهُمْ التَّعْطِيلُ وَالْإِلْحَادُ وَالْقَوْلُ بِعَدَمِ الْبَعْثِ.

ثانياً: الدِّياناتُ الدَّخِيلَةُ كَانَتْ أَرْقَى مِنَ الْوَثْنِيَّةِ فَأَثَّرَتْ فِيهَا تَأْثِيراً مُتَفَاوِثاً، وَهَذِهِ نَتِيجَةُ ضَرُورِيَّةٍ لِلتَّفَاعُلِ بَيْنَ الدِّياناتِ وَالْوَثْنِيَّةِ.

ثالثاً: الدِّياناتُ الَّتِي تُكُونُ لَهَا فِي نُفُوسِ الشُّعُوبِ مِزَاجاً خَاصّاً لَا تَنْدَثِرُ بَلْ تَتَقَمَّصُ وَتَسْتَعِيدُ حَيَاتَهَا فِي زِيٍّ آخَرَ.

رابعاً: النُّزَعَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْأُولَى، كَالْخَوَارِجِ وَالسَّبْعِيَّةِ، تَأَثَّرَتْ بِصِفَةِ الشُّكِّ الَّتِي لَا بَسَتْ النَّفْسَ الْعَرَبِيَّةَ.

خامساً: صِرَاعُ الدِّياناتِ أَعَدَّ الْعَرَبَ لِلثُّورَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَلِحَرَكَاتِ الْاضْطِرَابِ.

سادساً: أُسْرَةُ بَنِي هَاشِمٍ هِيَ الْأُسْرَةُ الَّتِي نَضَجَ فِيهَا الضُّمِيرُ الدِّينِيُّ حَتَّى زُوِّدَهَا بِخَصَانَةِ ضِدِّ الشُّكِّ وَالْقَلَقِ، فَهِيَ إِذَا الْأُسْرَةُ الْخَلِيقَةُ بِأَنَّ تَقَدَّمَ الْمُصْلِحِ لِلْمَجْتَمَعِ الْمَحْمُومِ، وَهِيَ الْخَلِيقَةُ بِكَفَالَةِ التَّعَالِيمِ وَرِعَايَتِهَا، لِأَنَّ الدِّينَ مِنْهَا كَالطَّبِيعَةِ الْغَرِيزِيَّةِ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ.







## النظام العام

نظرية: لكي نكون أكثر فهماً للنظام في عهد الخلفاء، من شتى نواحي الإدارة والحكومة والقضاء فيما يتعلق بالتفصيلات، نُقدّم بين يدي الموضوع نظرية لها أهميتها لأنها كالقطب الذي يدور حوله الموضوع، وعلى ضوءها نتهدى إلى شرح خفاياه وخافياته. وأظن بأن كثيرين يُشاركوني الرأي فيها.

وهذه النظرية هي أن الثورة الإصلاحية التي وضع النبي (ص) تميمها، ثم أذكاهها في المجتمع العربي الواسع على حدوده، لم تدخل في دور استقرار حقيقي. بل اتصلت عبر الحدود إلى الأقاليم القريبة والشعوب المجاورة، وكذلك اتسعت دائرتها في حركات تعاقبية سريعة، وما انتهت إلى شكون طبيعي إلا بقيام الدولة الأموية. ومعنى هذا أن الثورة الإسلامية كان لها دوران: الأول حين ألهمها النبي (ص) في جزيرة العرب، والثاني حين ألهمها الخلفاء في العالم القديم كله. وبانتهائها انتهى عهد الخلفاء.

ومن طبيعة التنظيم، فيما يتعلق بالإجراءات والتفصيلات، أنها لا تقيم إلا بعد الاستقرار، ضرورة أن الإدارة والتنظيم التامين عمل تشييدي لا يكون في فترة الفتح والتوسع إلا بمقدار الحاجة والضرورة. والفرق بين معاطة الفتح في عهد الأمويين، وبينه في عهد



الخلفاء، أن الأول كان من جملة أعمال الملك المتمركز بينما الثاني كان كل عمل الخليفة.

وهذا يوصلنا إلى أن التنظيم الكامل لم يتم في عهد الخلفاء، لأنهم لم يستقرّوا في حياة مدنية خالصة تدعوهم إليه، على أنهم قطعوا أشواطاً في سبيل التنظيم العام. ولا يتوهم من متوهم حينما نتكلم عن النظام أننا نعني الناحية التشريعية التي كملت بالقرآن، وإنما نعني من الناحية العملية الإجرائية، أي من ناحية التشكيلات والتراثيخ خاصة.

وإن الواقف على الكُتب التي عُنيَتْ بهذه الناحية من الدرس، ككتاب الماوردي الموسوم بـ الأحكام السلطانية يقع على تجربات تقنية ومحاولات تنظيمية تمت في عهد الخلفاء، إلا أنها لم تجاوز هذه الصفة، أي لم تُنسّق على وجه يسمح لنا بإطلاق اسم النظام عليها إلا في توسّع ومجازية. وهذه المحاولات والتجربات ألهمت ذوي العقليات القضائية العميقة أن يُقدّموا دستور النظام العام بكافة ما يلزم فيه. ومما لا ريب به أن علياً (ع) كان صاحب أكبر عقلية قضائية نظامية في هذا العهد، فهو قد آستفاد من كل ما مرّ بالحكم العربي الإسلامي من أشكال، وأيضاً لمس حاجة المجتمع من وجه، ومحاسن ومساوئ المحاولات التي حاولها الخلفاء قبله من وجه آخر. فقدّم دستور التنظيم العظيم في عهده إلى الأشر النخعي بعد الاختمار والامتحان الواقعي.

وهذا العهد يشك فيه بعض الباحثين، مُستندين إلى أن الأفكار النظامية التي يحتوي عليها لا تسمح بإضافتها إلى عصر علي (ع). ومما ذكرنا نتبين بأنه لا محل للشك، لأن علياً موهوب في القضاء والإدارة، ما في ذلك شك، حتى قيل: «قضية ولا أبا حسن لها». ولقد آهتّم المُشرعون، بعد ذلك، بجمع أفضيته، وأحكامه وتنظيماته، فألف الترمذي كتاباً في مُجلدين دعاه أفضية علي، وألف ابن قيم الجوزية كتاباً في السياسة الشرعية ملأه بأفضيته. فهذا يدلنا على أن علياً كان يمتاز بعقلية نادرة في القضاء المُتّصل بالتنظيم. ولأن



المحاولات التي صدرت من أبي بكر (ض) جاء غمر فحوّر فيها، وغمر (ض) كان أكثر تشبهاً بالتنظيم وميلاً إليه، فكثرت في عهده التشكيلات نوعاً ما، ثم جاء عثمان (ض) فأقرّ نظاماً وغير نظاماً واستحدث مثل ذلك، وعلي (ع) يرقب كل هذا التطور النظامي، وهو متّصل بالشعب يرى مقدار رضاه عن هذه الترتيبات، فاستفاد من هذه المحاولات التي مرّت به، إلى ما عنده من فطرة قضائية خارقة. وبذلك استطاع أن يطابق بين أمانى الناس، وبين النظم التي تحكمهم، وأن يُعطي أيضاً تشريعات إصلاحية تتّصل بالاجتماع والسياسة والنظام العام، فإذا كان النبي (ص) هو المشرّع القانوني، فإن علياً (ع) هو المشرّع<sup>(١)</sup> النظامي.

فعهد علي إلى الأشر النخعي ليس فيه ما يدعونا إلى الشك فيه، أو استبعاده عنه. وهو أول دستور حكومي صدر كمرسوم في الإسلام. ويظهر من هذا العهد أن علياً (ع) كان يرمي، في مدة خلافته، إلى أخذ الشعب الإسلامي الذي تركّب، بما شمل من الأمم المختلفة، بعمل تشييدي عظيم، وكان عملاً موفقاً جداً ونظامياً جداً، لأنّه الطبّ بأدواء المجتمعات من النواحي التشريعية. ولكن الثورة الداخلية التي أثّرت عليه ودارت حول شخصه، أعجلته وأوقفت كل حركاته الإصلاحية التي ابتدأها بحزم وشدة.

وأهم نواحي النظام التي سندير البحث عليها هي: نظام الحكم، نظام المال، نظام الإدارة والقضاء، نظام الجندية.

**نظام الحكم:** نتعرّض لصعوبة حقيقية حينما نريد أن نحدّد من أي نوع من أنواع الحكومات كانت الحكومة الإسلامية في أطوارها الأولى. ولنكون أكثر

(١) إنما عرّنا بمشرّع، وإن كانت صيغة أشترع غير محفوظة لأنّ غرضنا أن نضيف إلى التشريع معنى الاقتباس الذي يُستفاد من صيغة آفتعل.



قَضْدًا فِي بَحْثِنَا يَحْسُنُ أَنْ نُقَدِّمَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَوْضُوعِ تَوْطِئَةً فِي الدَّوْلَةِ<sup>(٢)</sup> وَوِظَائِفِهَا، عَلَى مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ السِّيَاسَةِ.

يَرَى أَرِسْطُو أَنَّ أَنْوَاعَ الْحُكُومَةِ تَتَمَايَزُ بِعَدَدِ الْأَشْخَاصِ الْقَابِضِينَ عَلَى زِمَامِ السُّلْطَةِ، فَالدَّوْلَةُ الَّتِي يُدِيرُ شُؤْنَهَا فَرْدٌ وَاحِدٌ تُسَمَّى مَلَكِيَّةً، وَالَّتِي يُدِيرُ شُؤْنَهَا جُمْهُورُ الْأُمَّةِ تُسَمَّى جُمْهُورِيَّةً، وَالَّتِي يُدِيرُ شُؤْنَهَا جَمَاعَةٌ قَلِيلَةٌ تُسَمَّى أَرِسْتَقْرَاطِيَّةً.

وَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ الثَّلَاثَةُ، إِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ صَالِحَةً، أَيْ كَانَ الْغَرَضُ مِنْهَا رِعَايَةَ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ، فَإِذَا ظَهَرَ فِيهَا الْفَسَادُ، وَأَصْبَحَ هُمُّ الْحُكَّامِ تَحْقِيقَ مَطَامِعِهِمِ الشَّخْصِيَّةِ، سُمِّيَتْ الْحُكُومَةُ مِنَ النَّوعِ الْأَوَّلِ اسْتِبْدَادِيَّةً، وَمِنَ النَّوعِ الثَّانِي اسْتِثْنَارِيَّةً، وَمِنَ النَّوعِ الثَّالِثِ حُكُومَةُ الْغَوَاغِي. ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَشْكَالَ تَتَعَاقَبُ عَلَى الدَّوْلَةِ الْوَاحِدَةِ فِي سُنَّةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ دَائِمَةٍ تَقْرِيْبًا. فَالدَّوْلَةُ تَكُونُ فِي بَدَايِئِهَا مَلَكِيَّةً صَالِحَةً، حَتَّى إِذَا فَسَدَتْ طِبَاغُ الْمَلِكِ انْقَلَبَتْ اسْتِبْدَادِيَّةً، غَايَتُهَا تَحْقِيقُ شَهَوَاتِ الْحَاكِمِ، فَإِذَا تَغَلَّبَ عُقْلَاءُ الْأُمَّةِ عَلَى الْمُلِكِ وَتَقَلَّدُوا زِمَامَ الْأَحْكَامِ أَصْبَحَتْ أَرِسْتَقْرَاطِيَّةً، فَإِذَا خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَجْهَتْهُمْ الْاسْتِثْنَارُ بِالسُّلْطَةِ وَالْمَنَافِعِ تَحَوَّلَتْ إِلَى حُكُومَةٍ اسْتِثْنَارِيَّةٍ، فَإِذَا هَبَّتِ الْأُمَّةُ لَتَذُودَ عَنْ مَصَالِحِهَا وَتَوَلَّتْ أُمُورَهَا بِنَفْسِهَا أَصْبَحَتْ جُمْهُورِيَّةً، فَإِذَا جَاوَزَ الْأَفْرَادُ حَدَّ الْمَعْقُولِ فِي اسْتِعْمَالِ السُّلْطَةِ، وَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ أَصْبَحَتْ الْحُكُومَةُ قَوْضَى وَفِي هَذَا الظَّرْفِ تَعُودُ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ كَمَا بَدَأَتْ. وَقَدْ كَانَتِ الثَّوْرَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ مُضْدَاقَ نَظَرِيَّتِهِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ.

وَذَهَبَ مونتسكيو إِلَى أَنَّ الْحُكُومَةَ لَا تَخْرُجُ عَنْ أَنْ تَكُونَ مَلَكِيَّةً أَوْ جُمْهُورِيَّةً أَوْ اسْتِبْدَادِيَّةً. فَالْمَلَكِيَّةُ عِنْدَهُ مَا تَوَلَّى الْحَكْمَ فِيهَا فَرْدٌ بِمُقْتَضَى قَوَانِينٍ ثَابِتَةٍ، وَالْجُمْهُورِيَّةُ مَا كَانَتِ السِّيَادَةُ فِيهَا لِلْأُمَّةِ أَوْ بَعْضِهَا، وَالْاسْتِبْدَادِيَّةُ مَا كَانَتِ السُّلْطَةُ فِيهَا بِيَدِ فَرْدٍ

(٢) رَاجِعْ كِتَاب: تَارِيخُ الدِّسْتُورِ لِلْأَسْتَاذِ وَايْت، ص ٤٧ - ١٧٤.



يَتَصَرَّفُ فِيهَا بِإِرَادَتِهِ وَأَهْوَائِهِ.

وَقَسَمَ روسو الدُّوَلَ بِأَعْتِبَارِ عَدَدِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ الْأَمْرَ، إِلَى مَلَكِيَّةٍ، وَهِيَ الَّتِي يُدِيرُ شُؤْنَهَا فَرْدٌ وَاحِدٌ، وَأَرِسْتَقْرَاطِيَّةٍ وَهِيَ الَّتِي يُدِيرُ أُمُورَهَا فِئَةٌ قَلِيلَةٌ، وَدِيمَقْرَاطِيَّةٍ وَهِيَ الَّتِي تَسْتَمِدُّ سُلْطَتَهَا مِنْ عَامَّةِ الشَّعْبِ. وَالدِّيمَقْرَاطِيَّةُ نَوْعَانِ: مُبَاشِرَةٌ وَهِيَ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الْجَمَاعَةِ الْقَلِيلَةِ الْعَدَدِ الْمَحْدُودَةِ الْمَطَالِبِ وَالْحَاجَاتِ؛ وَغَيْرُ مُبَاشِرَةٍ أَوْ نِيَابِيَّةٍ.

وَزَادَ بَعْضُ كُتَّابِ الْأَلْمَانِ نَوْعاً آخَرَ أَسْمَاهُ الشُّيُوقْرَاطِيَّةُ، وَهِيَ الَّتِي يَسْتَمِدُّ فِيهَا الْحَاكِمُ نَفُوذَهُ مِنَ السُّلْطَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

وَهُنَاكَ نَظَرِيَّاتٌ مُخْتَلِفَةٌ فِي وَظِيفَةِ الدَّوْلَةِ، وَهِيَ تَرْجِعُ إِلَى ثَلَاثٍ، إِذَا نَحْنُ أُبْعَدْنَا النَّظَرِيَّةَ الْفَوْضَوِيَّةَ الَّتِي تَزْمِي إِلَى الْقَضَاءِ عَلَى الْحُكُومَاتِ بِأَخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا.

١- النَّظَرِيَّةُ الْفَرْدِيَّةُ: وَهِيَ تَزْمِي إِلَى قَصْرِ عَمَلِ الْحُكُومَةِ عَلَى رَدِّ الْإِعْتِدَاءِ عَنِ الْأَفْرَادِ، فَعَمَلُهَا سَلْبِيٌّ وَتَكُونُ وَظِيفَتُهَا الْخَارِجِيَّةُ الْمُحَافَظَةُ عَلَى سَلَامَةِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْإِعْتِدَاءِ، وَوُظِيفَتُهَا الدَّاخِلِيَّةُ الْمُحَافَظَةُ عَلَى الْأَمْنِ الْعَامِّ، وَكُلُّ عَمَلٍ تَأْتِيهِ وَرَاءَ ذَلِكَ يَكُونُ خُرُوجاً عَنِ الْأَغْرَاضِ الَّتِي وُجِدَتْ لِأَجْلِهَا. وَكَانَ سَبَبُ سُرْمِ مِنْ أَكْبَرِ دُعَاةِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ، وَقَدْ أَنْتَشَرَتْ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ.

٢- النَّظَرِيَّةُ الْإِشْتِرَاكِيَّةُ: وَهِيَ تَزْمِي إِلَى ضَرُورَةِ تَدَخُّلِ الْحُكُومَةِ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ تَوَصُّلاً إِلَى زِيَادَةِ هِنَاءِ الْفَرْدِ وَرِفَاهِيَّتِهِ. وَأَصْحَابُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ يَهْتَمُّونَ بِالْحُرِّيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ أَيْضاً، وَلَكِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ صِيَانَتَهَا أَتَمُّ مِنْ طَرِيقِ تَدَخُّلِ الْحُكُومَةِ، وَلَمْ يَتَّفِقْ أَنْصَارُ هَذَا الْمَذْهَبِ عَلَى مَدَى تَدَخُّلِ الْحُكُومَةِ فِي شُؤُونِ الْأَفْرَادِ، فَهُنَاكَ مُتَطَرِّفُونَ وَمُعْتَدِلُونَ.

٣- النَّظَرِيَّةُ الْمُتَوَسُّطَةُ: وَهِيَ لَيْسَتْ فَرْدِيَّةٌ بَحْتَةً وَلَا إِشْتِرَاكِيَّةٌ بَحْتَةً.

وَالآنَ نَتَنَاوَلُ حُكُومَةَ النَّبِيِّ (ص) وَحُكُومَةَ الْخُلَفَاءِ، حَتَّى نَقَعَ عَلَى الشُّبْهِ الَّذِي يَرُدُّهُمَا إِلَى نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ هَذِهِ الْحُكُومَاتِ الْمَذْكُورَةِ.



نَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ (ص) جَمَعَ السُّلْطَةَ الزَّمْنِيَّةَ فِي يَدَيْهِ، إِلَى جَانِبِ السُّلْطَةِ الدِّينِيَّةِ، فَكَانَ مَصْدَرُ كَافَّةِ السُّلْطَاتِ. فَحُكُومَتُهُ، عَلَى مَا وَصَلَ إلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهَا، ثِيوقَرَاتِيَّةٌ فِي جَوْهَرِهَا، وَدِيمَقَرَاتِيَّةٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْأَفْرَادَ كَانُوا يُبَايِعُونَهُ عَلَى إِسْلَامِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ وَمَدِّهِ بِالسُّلْطَةِ. وَهَذِهِ الْمُبَايَعَةُ اتَّخَذَتْ أَكْثَرُ مِنَ التَّصْوِيتِ، وَكَانَتْ ثِيوقَرَاتِيَّةً مِنْ حَيْثُ الصِّفَةُ التَّشْرِيعِيَّةُ.

وَدِيمَقَرَاتِيَّةٌ حُكُومَةُ النَّبِيِّ (ص) مِنَ النَّوعِ الْمُبَاشَرِ، وَهَذَا مَا يُعْطِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» (آل عمران ٣: ٥٩)، وَكَانَتْ مِنْ حَيْثُ الْوُضُفَةُ أَكْثَرُ أَنْطَبَاقاً عَلَى النَّظَرِيَّةِ الْمَتَوَسُّطَةِ، فَهِيَ تُحَافِظُ عَلَى الْأَمْنِ الْعَامِّ، وَتُدَافِعُ عَنْ سَلَامَةِ الدَّوْلَةِ الْفَيْيَّةِ، وَتَحْمِي الْعُمَرَانِ وَمَا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِالْعَمَلِ الْحُكُومِيِّ الْإِجْبَابِيِّ.

وَأَمَّا فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ فَقَدْ عُرِفَ نِظَامٌ جَدِيدٌ لِلْحُكْمِ يَقُومُ عَلَى فِكْرَةِ الْخِلَافَةِ، وَالْأَسَاسُ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ هُوَ أَنَّهَا عَقْدٌ حَقِيقِيٌّ بَيْنَ الْمُتَخَبِّ وَبَيْنَ الْجُمْهُورِ، وَلَيْسَ أَمْعَنَ فِي الدِّيمَقَرَاتِيَّةِ مِنْ أَنْ يَتَعَاقَدَ طَرَفٌ مَعَ آخَرَ عَلَى شُرُوطِ مُعَيَّنَةٍ بِحَيْثُ إِذَا أُخِلَّ أَحَدُ الْمُتَعَاقِدَيْنِ بِالشُّرُوطِ أَنْخَلَّ الْعَقْدُ. يَرَى رُوسُو فِي نِظَرِيَّةِ الْعَقْدِ الْاجْتِمَاعِيِّ أَنَّ أَسَاسَ الْحُكْمِ، فَلَسَفِيَّ، هُوَ عَقْدٌ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ وَبَيْنَ شَخْصٍ، عَلَى أَنَّ يَتَوَلَّى حُكْمًا لِمَصْلَحَتِهَا. وَرُوسُو لَمْ يَجْلِبْ شَاهِدًا وَاقِعِيًّا عَلَى دَعْوَاهُ، وَلَئِنَّمَا اسْتَنَدَ فِيهَا إِلَى الْفَلَسَفَةِ الْمَحْضِ، وَفِي الْخِلَافَةِ شَاهِدٌ وَاقِعِيٌّ صَرِيحٌ.

وَالَّذِي نَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ الْخِلَافَةِ أَنَّ الْمُبَايَعَةَ شَرْطٌ ضَرُورِيٌّ فِيهَا، فَهِيَ إِذَا قَائِمَةٌ عَلَى الْإِنْتِخَابِ، وَأَنَّ الْخُلَفَاءَ الْأَرْبَعَةَ لَيْسُوا مِنْ أُسْرَةٍ. وَاحِدَةٍ فَإِذَا هِيَ لَا وَرَاثِيَّةً، وَوُجِدَتْ بَيْنَهُمْ طَبَقَةٌ دُعِيَّتْ بِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، وَيُظْهَرُ مِنْ أَشْمِهَا أَنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ نَفُوذٍ كَبِيرٍ فِي كَافَّةِ الشُّؤُونِ، مِمَّا يَجْعَلُنَا نَنْظُرُ إِلَيْهَا كَطَبَقَةٍ بَرْلَمَانِيَّةٍ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهَا الْأَشْكَالُ عَيْنُهَا، فَإِنَّ الْعِبْرَةَ بِالرُّوحِ لَا بِالْحَرْفِيَّةِ.

فَالْخِلَافَةُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ دِيمَقَرَاتِيَّةٌ لَهَا شَكْلُ الْمَلَكِيَّةِ، وَدِيمَقَرَاتِيَّةٌ كَانَتْ غَيْرَ مُبَاشَرَةٍ، أَوْ نِيَابِيَّةً بِعِبَارَةٍ أَكْثَرُ مَجَازِيَّةً. فَإِنَّ طَبَقَةَ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ كَثِيرَةٌ الشَّبَهُ بِطَبَقَةِ النَّوَابِ



لأنهم كانوا في موضع الثقة من كل الطبقات الإسلامية. وبقيت هذه الصفة لحكومة الخلفاء إلى زمن عثمان (ض) الذي حَقَّتْ به طبقة حاكمية من أُسْرَتِهِ، مالت بالحكومة إلى الأرستقراطية وكانت وجهتهم الاستئثار بالمنافع. فإن سياسة مزوان، الذي أُطْلِقَتْ يَدُهُ في حكومة عثمان، كانت نفعية مخضاً. وبسبب هذا هَبَّتِ الأُمّة لتدود عن مصالحها فأُخْذَتِ الثورة التي انتهت بمَضَرَعِ الخليفة، وتولت أمورها بنفسها في عهد علي<sup>(٣)</sup>، فكان المُنتَخَبُ الجمهوري بدون وساطة أهل الحل والعقد، فَقَدْ بايَعَهُ أَوَّلَ مَنْ بايَعَهُ الأَشْتَرُ الثَّائِرُ، وبذلك كانت حكومته جمهوريّة بكل المعنى.

وكان، كما يَظْهَرُ من عهده إلى الأُشْتَرِ، أنه يميلُ في وظيفة الحكومة إلى النظرية الاشتراكية الخالصة، فإننا نجدُه يُوجِبُ على الحكومة التَّدخُلَ في كُلِّ ما من شأنه أن يُؤدِّيَ إلى ضَرَرٍ إذا تُركَ لِحَرِيَّةِ الأفراد، كالضُّرْبِ على أيدي المُخْتَكِرِينَ وتسهيل السَّيْلِ للتَّاجِرِ المُغَامِرِ، وهو الذي عَبَّرَ عنه بالمضطَّربِ بماله، وأوجِبَ الإصلاحَ العُمُرانيَّ والزَّراعيَّ في مُقَابِلِ الضَّرَائِبِ. ولكن هؤلاء الجمهوريين جاوزوا الحدَّ في التَّدخُلِ، وتنازَعوا أمرهم بينهم فَظَهَرَتِ الفوضويّة، التي يقول عنها أرسطو، في الخوارج الذين قالوا «لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ»، أي لا إمْرَةَ إِلَّا لِلَّهِ، وبذلك أَعْدُوا الظُّرْفَ إلى المَلِكِيَّةِ.

من هذا نَتَبَيَّنُ أنَّ في تسلسل الحكومة الإسلامية، التي ابْتَدَأَتْ بالنَّبِيِّ (ص) وانتهت بعلي<sup>(ع)</sup>، مُضْداً من بعض الوجوه لنظرية أرسطو في تعاقب أنواع الحكومات. فلم يَكُنْ لدولة الخلفاء صفة واحدة، كما يَظُنُّ أكثر المؤرخين، بل تشكَّلت بأشكالٍ شتى، على ما ذَكَرْنَاهُ، فكانت:

١- إلهية (ثيوقراطية) لها شكل الديمقراطية في مُدَّةِ حكومة النَّبِيِّ (ص)، ومن حيث

(٣) لم يَكُنْ نفوذ الجمهور في دُور أقوى منه في هذا الدور، وظَهَرَ أثر قوة الجمهور في إكراه علي<sup>(ع)</sup> على التحكيم يوم صفين، وفي التصميم على الإيقاع بالبصرة يوم الجمل، برغم أن رأي علي أتجَّه إلى المطازلة.



الوظيفة متوسطة<sup>(٤)</sup>.

٢- ديمقراطية لها شكل الملكية في مدة حكومة أبي بكر وعمر (ض) ومن حيث الوظيفة متوسطة.

٣- أرستقراطية لها شكل الجمهورية في مدة حكومة عثمان (ض)، ومن حيث الوظيفة متوسطة.

٤- جمهورية بحثت في مدة حكومة علي (ع)، ومن حيث الوظيفة اشتراكية.

٥- فوضوية في حكومة الخوارج إلى ما قبل تأميم<sup>(٥)</sup> عبدالله بن وهب الراسبي.

(٤) كان في دولة النبي (ص) تشريع ضاف للأسرة، وهو ما نُسب إليه اليوم بقانون الأحوال الشخصية، حُض على الزواج الذي هو الطريقة الوحيدة للتكاثر القومي، وبين مواثيقه ووضع قانون الرضاع والعناية بالطفل والأيتام وقانون الطلاق والإرث وورث الطفل الشنكي، ولم يكن العرب يورثونه، وتشريع في المعاملات وهو ما نُسب إليه القانون المدني ويدور على:

أ - العقد الذي هو أساس المعاملات الشرعية.

ب - طرق الإثبات كالشهود والكتابة والزمن.

ج - غرض للمعاملات الرئيسية كالبيع وتحرير الربا والغش والتدليس والتطفيف وبيع الغرر، ووضع آداباً للمداينة كالرفق بالمدين (وإن كان ذو غشوة فنظرة إلى ميسرة) وسن التأجيل الجبري للديون (المورتوريوم). وسن قانون العقوبات وسماها القرآن محدوداً. والمنصوص عليها في القرآن أربعة:

١- القتل مع تفصيل في العمد وغير العمد، والعمد جزاؤه القتل.

٢- عقوبة السارق.

٣- عقوبة قطع الطريق.

٤- عقوبة الزنى وعقوبة القذف واللعان.

وهي عقوبات قاسية وضعت للزجر القاطع وكل ما أوصَلَ إلى هذه الغاية من عقوبات، تقوم مقامها كما ذهب إليه بعض الفقهاء على ما ذكره الشرنجبني في المبسوط، على أن الشريعة اشترطت شروطاً شديدة في إثبات العقوبة كما تركت العقوبة للشبهة البسيطة، أي فسرناها في مصلحة المتهم، وما سوى هذه الحدود تُسمى تعازير، وهي متروكة إلى تقدير الحكيم، وعلى كل فالعقوبات مُراعى بها المكان والزمان كما يظهر من اختلاف الفقهاء.

(٥) قال ابن أبي الحديد «إن الخوارج كانوا في بدء أمرهم يقولون لا حكم إلا لله أي لا إمرة إلا لله، ويذهبون إلى أنه لا حاجة إلى



ولأنَّ مُهمَّتَنَا هنا وَضْفِيَّةٌ خَالِصَةٌ فَلَا نَغْتَرُّ بِكَلِمَتَيْ خِلَافَةٍ وَخَلِيفَةِ اللَّتَيْنِ أُطْلِقَتَا عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ، فَتَصِفَ حُكُومَتَهُمْ بِصِفَةٍ وَاحِدَةٍ بِأَعْتِبَارِ وَاحِدَةِ الْأَسْمِ، كَمَا وَقَعَ لَجُمْهُورِ الْمُؤَرِّخِينَ. إِنَّ الْحُكُومَةَ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ تَشَكَّلَتْ بِأَشْكَالٍ آجَتْهَدُنَا بِرَدِّهَا إِلَى شُعْبِهَا بِالْمَقْدَارِ الَّذِي وَضَحَ لَنَا. وَمَحَاوَلَتُنَا هَذِهِ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ تَطْبِيقاً لِنَظَرِيَّةِ أَرِسْطُو مِنْ أَكْثَرِ الْوُجُوهِ.

وَفِي الْخِلَافَةِ نَظَرِيَّاتٌ دِينِيَّةٌ قَامَتْ عَلَى أَسَاسِهَا فِرْقٌ شَتَّى فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمْ تَزَلْ إِلَى آخِرِ الْعَهْدِ الْكَلَامِيِّ مَوْضِعاً لِلْأَخْذِ وَالرَّدِّ، حَتَّى عَقَدَ الْمُتَكَلِّمُونَ لَهَا بَاباً خَاصّاً، وَدَعَوْهُ بِالْإِمَامَةِ، وَلَمَّا تَزَلْ مَحَلّاً لِلْخِلَافِ مِنْ وَجْهَةِ النَّظَرِ الدِّينِيِّ، وَنَحْنُ هُنَا لَا نَسْتَعْرِضُ لَشَيْءٍ مِنْهَا لِقَلَّا تَجَرُّنَا الْمُنَاسِبَةَ إِلَى مَنَاسِبَةٍ أُخْرَى نَخْرُجُ بِهَا عَنِ الْمَوْضُوعِ خُرُوجاً كَلِّياً.

**نظام المال:** نجدُ في السَّيْرَةِ التَّبَوُّيَّةِ أَنَّ أُسُسَ هَذَا النَّظَامِ الْمَالِيِّ الْكَبِيرِ وُضِعَتْ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ (ص). فَقَدْ رَتَّبَ أَهَمُّ مَوَارِدِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَأَقَامَهَا عَلَى تَوَازُنٍ دَقِيقٍ بَيْنَ رَأْسِ الْمَالِ وَقُوَّتِهِ عَلَى الْإِنْتِاجِ، وَلِذَلِكَ خَالَفَ بَيْنَ الْأَنْصِبَةِ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ بِحَسَبِ أَنْوَاعِ الْمَالِ. وَفَرَضَهَا فِي مُعَادَلَةٍ مُقَدَّرَةٍ بَيْنَ اسْتِفَادَةِ الْفَرْدِ مِنَ الْمَجْمُوعِ بِإِنْتِاجِهِ<sup>(٦)</sup>، وَبَيْنَ اسْتِفَادَةِ الْمَجْمُوعِ مِنَ الْفَرْدِ بِاسْتِهْلَاكِهِ، وَبِذَلِكَ حَقَّقَ الصُّلَةَ بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى أُسَاسٍ عَادِلٍ،

---

الإمام، ثُمَّ رَجَعُوا عَنْ ذَلِكَ الْقَوْلِ لَمَّا أَمَرُوا عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ الرَّاسِبِيُّ رَاجِعاً: «شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢١٥».

(٦) نَعْنِي بِهَذَا أَنَّ الْفَرْدَ يَسْتَفِيدُ مِنَ الْمَجْمُوعِ بِمَا يُنْتِجُهُ وَالْمَجْمُوعُ مُسْتَهْلِكٌ، فَلِلْمَجْمُوعِ حَقٌّ فِي قِرْوَةِ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ اسْتَعْلَوْهُ فِي جَمْعِهَا بِرِبَادَاتٍ تَكُونُ فِي أَغْلِبِ الْأَحْيَانِ فَاجِسَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى رَأْسِ الْمَالِ وَالْمَجْهُودِ، فَلِلْجُمْهُورِ إِذَا حَقَّ أَكِيدٌ. وَعَلَى هَذَا النَّظَرِ يُبْنَى تَشْرِيعُ الزَّكَاةِ كَمَا يَتَضَيِّعُ. وَهَذِهِ مِلَاحَظَةٌ وَقَعَتْ فِي خِيَالِ أَبِي الْعَلَاءِ فَصَّوَرَهَا بِصُورَةٍ ثَرِيَّةٍ جَمِيلَةٍ قَالَ: إِنَّ الْخَلَائِقَ دُعُوا إِلَى مَائِدَةِ اللَّهِ فَسَبَقَ إِلَيْهَا أَقْوَامٌ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَحْتَنُوا الْآخَرِينَ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ، إِذَا لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْوُصُولِ أَنْ يُنَازِلُوهُمْ مِمَّا ثَبَتَ عَلَى الْمَائِدَةِ وَأَنْ يُسَاعِدُوهُمْ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهَا.



بحيث لم يَسْمَحْ لِنُموِّ الفرديَّةِ إِلَّا بِمَقْدَارٍ، كما لم يَسْمَحْ لِنُموِّ الاشتراكيَّةِ إِلَّا بِمَقْدَارٍ، فكان نظامه (ص) بَرَزْخاً بينَ مَدِّ القُوَّتينِ، وعِلاجاً لِمُشْكِلَةِ<sup>(٧)</sup> الإنسانيَّةِ الدَّائمةِ. وكان خُضوعُ الأفرادِ لنظامِ المالِ، في أوَّلِ الأمرِ، خُضوعاً فَرْدِيّاً، فَكُلُّ مُسْلِمٍ يُخْرِجُ الزَّكَاةَ بِنَفْسِهِ، فلم يكن للحكومة القائمة جُباةً مُخَصَّصُونَ، ولم تكن تُشْرِفُ بِنَفْسِهَا على درجة تطبيقِ النظامِ. ولكن في أواخرِ عهدِ النَّبِيِّ (ص) جُعِلَ نظامٌ لِلصَّدَقَاتِ ووُكِّلَ إلى طائفةٍ من العُمَّالِ الموظَّفينَ أُمُرُ مَقاضِيَّاتها. ولَمَّا اتَّسَعَ نِطاقُ الهَيْمَنَةِ الإسلاميَّةِ اتَّسَعَ نِطاقُ عملِهِم.

ومقاديرُ الزَّكَاةِ، أي ضريبةُ الأموالِ، مُقَدَّرَةٌ مفروضةٌ على مَنْ بَلَغَ عِنْدَهُ النُّصَابُ، وَيُخْتَلَفُ بِاِخْتِلَافِ الأصنافِ، وهذا تشريعٌ بِقَدْرِ مَوزُونٍ قائمٌ على أدقِّ نَظَرِيَّاتِ المالِ وقوَّةِ إنتاجِه، وهذه القوَّةُ هي مدارُ التَّفَاوُتِ. وأما الجِزْيَةُ فقد تَرَكَ النَّبِيُّ (ص) تَقْدِيرَها لَوَلِيِّ الأمرِ، لأنَّها تَخْضَعُ لأحوالِ دَائِبَةِ التَّغْيِيرِ، كحالةِ الأرضِ وحالةِ المالِ وحالةِ الزَّرْعِ وحالةِ الجَوِّ. فكان النَّبِيُّ (ص) يُرْسِلُ أَحَدَ أَصْحَابِهِ، إلى خَيْبَرَ لِيَقْسِمَ ثَمَرَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ المَلَّاكِ.

هذا هو العملُ في جِزْيَةِ الأَرْضِ، وكذلك كان الحالُ في جِزْيَةِ الرُّؤُوسِ، فالْمُدُنُ الكُبْرَى كَالْيَمَنِ مثلاً، حيثُ يوجَدُ الشُّكَّانُ الَّذِينَ يَشْتَغِلُونَ بِالصَّنَاعَةِ، فأحياناً تكونُ ديناراً وأحياناً أقلُّ أو أكثر.

---

(٧) وبحقِّ نقولُ إنَّها مُشْكِلَةُ الإنسانيَّةِ الَّتِي لا تَفْتَأُ عَابَةً بالقُوَى البشريَّةِ ودافِعَةً لها في مَضايِقَ تَبَعُثُها بَغْناً عَنِيفاً إلى التَّزَاحِ والتَّخاضُّمِ. ولِوَضُوحِ هذه الظَّاهِرَةِ ذَهَبَ الماركسيُّونَ إلى النَظَرِيَّةِ الماديَّةِ في تَغْلِيلِ حَرَكَاتِ التاريخِ. وإذا وُفِّقَ المُصْلِحُونَ إلى تَقْرِيرِ التَّكَافُرِ بَيْنَ الشَّعْبِ الواحدِ فلم يُؤَفِّقُوا إلى تَحْقِيقِهِ بَيْنَ الشُّعُوبِ المُتَخَلِّفَةِ والدُّولِ الآخِذَةِ بِأسبابِ التَّقَدُّمِ الحَيَوِيِّ. فالمَجَالُ الحَيَوِيُّ الواسِعُ هو هَدَفُ كُلِّ شَعْبٍ وَكُلِّ دَوْلَةٍ. وفي الإسلامِ تَحْقِيقُ مَكِينٍ راسخٍ لِهَذَا التَّكَافُرِ البشريِّ العامِّ. ويُعْجِبُنِي أَنْ أَذِلَّ القُرَّاءَ على رِوَايَةِ عَرَبِيَّةٍ عَرَضَتْ لِهَذِهِ الفِكرَةِ وداوَرَتِ النظامَ الماليَّ للشُّعُوبِ مداوَرَةً تَنْتَهِي إلى أَنَّ في الإمكانِ الوُصُولَ إلى هذا الهَدَفِ المَكِينِ عن طَرِيقِ النظامِ الماليِّ في الإسلامِ. وهذا عَرَضٌ جَمِيلٌ ونَظَرٌ مُؤَفِّقٌ، والزَّوَايَةُ المذكورةُ بعنوان: الحَرْبِ والسَّلَمِ للأستاذِ هاشم الدُّفتردارِ المدنيِّ، وفيها عَرَضٌ للعواملِ المُخْتَلِفَةِ الَّتِي تُحَثِّمُ على الشُّعُوبِ الخُرُوجَ من حَالَةِ التَّجَانُّسِ إلى التَّنَافُرِ على سُنَّةٍ دائِمَةٍ مُطَرِّدَةٍ.



وعندما فَتَحَ العربُ الشَّامَ والعِراقَ وَجَدُوا نوعاً آخَرَ أَسمُهُ الخَرَاجُ، فَخَصَّصُوا الجزيةَ بضريبةِ الرُّؤوسِ، والخَرَاجَ بضريبةِ الأراضِي، وعليه فالخَرَاجُ في جَوْهَرِهِ ليس ضريبةً جديدةً، وإنما تَدْخُلُ في حَدِّ التشكيلاتِ فقط. والنَّظامُ الذي اتَّبَعَ فيها لا يَخْرُجُ عَنِ النَّظامِ القديمِ في دولةِ الرُّومانِ ودولةِ القُروسِ، فالعَرَبُ وَجَدُوا في الأقاليمِ المفتوحةِ نظاماً<sup>(٨)</sup> الضَّرَائِبِ وَجِبَايَتِهَا، فَرَأَوْا الإبقاءَ عليه مع تَغْيِيرِ مَالٍ بِهِ الْفَاتِحُ إِلَى التَّخْفِيفِ وَمُلاءِمَةِ رُوحِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي يَعْمَلُ عَلَى نَشْرِهَا، وَهَذَانِ اللَّفْظَانِ<sup>(٩)</sup> كَانَا مَعْرُوفَيْنِ قُبِيلَ الإِسْلَامِ.

والجزيةُ من المَوَارِدِ المَالِيَّةِ الهَامَّةِ، وَزَادَ فِي أَهَمِّيَّتِهَا أَنَّ الشَّرِيعَةَ لَمْ تُقَيِّدْهَا بِنُصُوصٍ خَاصَّةٍ، فَهِيَ تُقَدَّرُ كَيْفَمَا آفَقَتْ حَالَةُ الدَّوْلَةِ، كَمَا لَمْ تَكُنْ مُقَيَّدَةً أَيْضاً فِي وُجُوهِ إِنْفَاقِهَا، وَلِوَلِيِّ الْأَمْرِ حُرِّيَّةُ التَّصَرُّفِ بِهَا فِي جَمِيعِ مَرَافِقِ الدَّوْلَةِ.

والخَرَاجُ مَالُوا بِهِ، فِي التَّصْنِيفِ الجَدِيدِ، إِلَى تَخْصِصِهِ بِضَرِيبَةِ الْأَرْضِ، وَالْأَرْضِ الَّتِي يَشْمَلُهَا هِيَ الَّتِي تَحْتَ يَدِ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَقَطْ، وَكَانَتْ عَلَى أَنْوَاعٍ: عَثْوَةٌ وَهِيَ الَّتِي تُفْتَحُ قَسْراً، وَأَرْضٌ صُلِحَ وَهِيَ الَّتِي تُؤْخَذُ عَنْ طَرِيقِ الْمُفَاوَضَةِ وَالْإِتْفَاقِ. وَالْأُولَى تُصْبِحُ مِلْكَاً لِلْفَاتِحِينَ، وَالثَّانِيَةُ تَظَلُّ مُسْتَمْسِكَةً بِحُرِّيَّتِهَا وَاسْتِقْلَالِهَا، وَمِلْكِيَّتُهَا تَبْقَى فِي أَيْدِي أَصْحَابِهَا. وَمِنَ النَّوْعِ الْأَوَّلِ أَكْثَرُ أَرْضِي الشَّامِ وَالْعِراقِ فَأَصْبَحَتْ مِلْكَاً لِلْعَرَبِ الْفَاتِحِينَ، أَيْ غَنَائِمَ، وَحُكْمُ الْغَنَائِمِ أَنَّهَا تُقَسَّمُ إِلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ، أَرْبَعَةٌ لِلْجَيْشِ، وَالْخُمْسُ الْبَاقِي لِبَيْتِ الْمَالِ.

(٨) وعلى هذا بُنِيَ مَنْ قَالَ مِنْ الْمُسْتَشْرِقِينَ بِتَأْثِيرِ الْفِقْهِ الرُّومَانِيِّ فِي الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ حَيْثُ التَّفْصِيلَاتُ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ وَرَثَ الشُّعْبَ وَالنَّظَامَ الْإِجْرَائِيَّ، فَتَأَثَّرَ بِهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ فِي حَدِّ مَا وَعَلَى نَحْوِ مَا. وَبِمَا أَنَّ هَذِهِ التَّفْصِيلَاتِ وَالْإِجْرَاءَاتِ أَقْرَبُهَا الْخُلَفَاءُ وَفُقَهَاءُ الصُّحَابَةِ كَمَشْنُونٍ مِنْ شَنْنِ الْإِدَارَةِ اعْتَمَدَهَا الْمُجْتَهِدُونَ فِي عَهْدِ الثَّقَنِينَ الْعَظِيمِ وَفَرَّغُوا عَلَيْهَا. وَهَذَا يَجْعَلُنَا نَذْهَبُ إِلَى أَنَّ تَأْثَرَ الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْمَادَّةِ الْحَقُوقِيَّةِ كَانَ طَفِيفاً جِداً وَمَتَحَدوداً جِداً، وَإِنَّمَا التَّأْثَرُ الْعَظِيمُ اتَّصَلَ بِطَرَائِقِ الْعَمَلِ وَالْإِدَارَةِ. وَالَّذِينَ يَزْعُمُونَ غَيْرَ ذَلِكَ تَنْقُصُهُمُ الشُّوَاهِدُ الصَّرُورِيَّةُ.

(٩) يُقَالُ لِهَاتِمَا مِنَ اللَّغَةِ النَّبِطِيَّةِ جِزْيَتٌ، وَخُرُوجَةٌ.



والخراج على أشكال ثلاثة:

الأول: خراج المساحة، أي على كل مساحة مُعَيَّنَةٍ مقدار من المال.

الثاني: خراج المُقاسَمَةِ، وهو الذي عُرف في زَمَنِ الرِّسُولِ (ص)، ويُقسَّم المَحْصُولُ بينَ الدَّوْلَةِ وبينَ صاحبِ الأرض.

الثالث: خراج المُقاطعة، وهو أن يُفرضَ على صاحبِ الأرض مقدار من المَحْصُولِ يُؤَدِّيهِ باستمرار.

وكانَ السَّائِدُ في مَضَرَ خِراجِ المساحة، وفي الشَّامِ خِراجِ المُقاطعة، وفي العراقِ خِراجِ المُقاسَمَةِ، فَكُلُّ جِهَةٍ كانَ لها نِظامٌ خاصٌّ يلائِمُها.

وهنا عَرَضَتْ مشكلَةٌ قانونيَّةٌ، وهي كيفَ تُقسَّمُ هذه الأمِراطوريَّةُ الجديِدةُ بينَ الجنودِ، وهذا الأمرُ يُؤدِّي إلى فَوْضَى وإرهاقٍ مِنَ النَّاحِيَةِ الاقتصاديَّةِ. على أَنَّ أَهْلَ البلادِ الأصليينَ يُوطَّنُونَ أَنفُسَهُمْ على الثَّوراتِ دائِماً. فَاسْتَشَارَ عُمَرُ الصَّحَابَةَ في حَلِّ المُشكِلةِ على صورةِ تَضَمُّنِ حَقوقِ الجميعِ. فمِنْهُمْ مَنْ أَشارَ بِاتِّباعِ النَّصِّ وكانَ الجُنْدُ من أنصارِ هذا الرَّأيِ، ولم يَرْضَ عُمَرُ به لَأَنَّ تَنْفِيذَهُ يَجُرُّ إلى مشاكلَ كَبيرةٍ، مِنْها حِرْمانُ الدَّوْلَةِ مِنَ المَوارِدِ الهامَّةِ الَّتِي بِواسِطَتِها تَسْتَطِيعُ حِمَايَةَ نَفْسِها مِنَ غاراتِ العَدُوِّ وترعى مَصالِحَها، وَمِنْها القَضاءُ على الرُّوحِ العسْكَريَّةِ في العَرَبِ، فمالَ عُمَرُ إلى رَأيٍ آخَرَ وهو أَنَّ تَبْقَى في أَيْدِي أَصْحابِها ويُؤْخَذَ مِنْهُمْ الخِراجُ ويُوزَّعَ على المُسْتَحِقِّينَ، وبذلكَ أَجْزَى الأَرْضِ المِفْتوحَةِ عَنوَةً مَجْرى الأَرْضِ المِفْتوحَةِ صُلْحاً.

هذا الرَّأيُ يَكُونُ مُوَفَّقاً لَه لو كانَ عِنْدَ العَرَبِ في ذَلِكَ الحِينِ خِدمَةٌ عسْكَريَّةٌ دائِمةٌ، وَلَكِنْ أَمَّا وَالْجُنْدِيَّةُ عِنْدَهُمْ مُوقَّتَةٌ بِالْقَدْرِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الظَّرْفُ، ثُمَّ يَعُودُ العَسْكَريُّونَ إلى مَدَنِيَّينَ، فَمِنْ المُتَنظَرِ أَنَّ يَتَأَلَّبَ هَؤُلاءِ حِينَما يَرَوْنَ أَنفُسَهُمْ أَكْثَرِيَّةً فَقيرةً، ثُمَّ يَثُورُونَ، وَهَذَا ما حَدَثَ بِالْفَعْلِ، وَمِنْ ثَمَّ يَظْهَرُ سِرُّ التَّشْرِيعِ النَّبَوِيِّ الَّذِي كانَ يَرمي إلى تَمْلِيكِ هَؤُلاءِ الجُنودِ



المؤقتين، لكي يعودوا إلى نظم أنفسهم في حياة مدنيّة ذات غضارية، ويكون منهم طبقة ماليّة مُنتجة تُغني بالأرض والثروة. والأمر الذي لا ريب فيه أنّ عُمرَ (ض) كان يزمي إلى تأسيس نظام الجنديّة الدائم، وهذا التشريع الماليّ عنوانٌ على ما يَجولُ في نفسه.

وعرّضت مُشكلةً أخرى وهي تقديرُ العطاء، وكان العملُ في زمنِ النَّبيِّ (ص) وأبي بكرٍ جارياً على التسوية العامّة، إلّا أنّ عُمرَ رأى، وخالفه عليّ<sup>(١٠)</sup>، أن لا يُجعلَ مَنْ قاتَلَ رسولَ الله كَمَنْ قاتَلَ معه، فجعلَ الامتيازَ بحسبِ السَّابقَةِ، فالَّذي قاتَلَ يومَ بدرٍ يُفضَّلُ من قاتَلَ في فتوحِ العراقِ والشَّامِ. ومن هنا حَدَثَ التَّفاوُثُ الملموسُ في الأُعطياتِ وتشكَّلَ على طبقاتٍ ومراتب. فطائفةٌ تأخذُ عطاءً كبيراً، وأخرى عطاءً مُتوسّطاً، والأكثريةُ يأخذون عطاءً ضئيلاً. وكانت الطبقاتُ على هذه الشاكلة:

١- زوجاتُ النَّبيِّ (ص) وأقربُ النَّاسِ إليه في حياته، لهم بضعةُ آلافٍ من الدنانير سنوياً.

٢- كبارُ المهاجرين.

٣- كبارُ الأنصار.

٤- مَنْ اشْتَرَكَ في الغزواتِ حسبَ أهميّتها.

٥- كلُّ مَنْ جاءَ من الباديةِ واشْتَرَكَ في الحرب.

هذا التنظيمُ الماليّ أوجَدَ تمايزاً كبيراً، وأقامَ المُجتمَعَ العربيَّ على قاعدةِ الطبقاتِ، بعدَ أن كانوا سواءً في نظيرِ القانونِ (الشريعة). فقد أوجَدَ، بدونِ شعورٍ، أرستقراطيةً وشُعْباً وعامةً، وبما أنّ التّجنيّدَ شَمَلَ كافّةَ العربِ، فقد اشْتَرَكوا بالعطاءِ اشتراكيةً فذّةً. ولَمَّا رَكَدَتِ

(١٠) راجع كتاب: الأحكام السلطانية للماوردي، ص ١٧٧.



الفتوح واستقر الجند في الأمصار فكروا في أنفسهم وفيما صاروا وانتهوا إليه من عطاء قليل، وقالوا لو قسمت الأرض علينا لكان أرفق بنا، فانتشرت هذه الفكرة انتشاراً ذريعاً ومريعاً، وذكت حفيظتهم حين قارنوا أنفسهم بما وصل إليه نفر من قريش، فاستقر في رؤيهم أن قريشاً استأثرت بالمال، وكان هذا مهيئاً للثورة ومقدمة إلى الفتنه.

ومن هذا نستنتج أن الثورة التي دارت على عثمان (ض) لم تكن نتيجة سياسته الخاصة وحدها، بل ونتيجة مجاوزات سياسته سابقة ظهر أثرها الكامن حين استعد الظروف وحنّ حيثه، وقد فكر عمر، لما كثرت الأموال بكثرة الفتوح، أن يدون الدواوين فكان يحضر أسماء الجنود في ديوان، وأمام كل جندي عطاؤه. ورُتبت الأسماء على حسب الأنساب، واعتمد، في ترتيب القبائل وتنظيمها في الديوان، جانب البعد<sup>(١١)</sup> والقرب من قريش.

وكانت الأموال تُنفق على صورة أن يبدأ كل قطر بسد حاجته ويُرسل الباقي إلى المدينة، وأول شيء يفعلُه الخليفة هو أن يعطي كل جندي عطاءه، وفي آخر كل سنة يوزع ما يبقى في الخزينة على المستحقين. وإذا علمنا أن كل عربي خرج غازياً إلا من لم يستطيع احتمال الجهاد لهرم أو مرض نعلم أنه بعدما ركزت الفتوح أنقلب العرب، وهم أفقر الناس، لأن الميزانية لا تتحمل على الدوام مدّهم بما يكفيهم، وليست لهم ثروة عقارية يعتمدون

---

(١١) يُظن بعض المستشرقين الذين ذهبوا إلى الشك في الأنساب عند العرب، أن ترتيب الديوان على الشكل الذي تم عليه في زمن عمر هو الأساس الذي بُنيَ عليه مشجرات الأنساب المحكمة. ونحن نشتد إلى هذا الترتيب أيضاً للقطع بصحتها ونفي الشك عنها، لأنها لو لم تكن أصح ما يكون وأحكم ما يكون لما جئنا إليها عمر في التنظيم المالي الذي بُني عادة على أدق الأشياء وأصحها. والنظاميون في عهد عمر (ض) لما لم يجدوا أدق وأصدق من الأنساب ليجعلوه قاعدة للتنظيم اعتمدوها كقاعدة للتسيير النظامي، فلو لم تكن تلك الأنساب معروفة فكيف يحقق البعد والقرب من قريش. ونحن من تنظيم عمر على الأنساب بين أمرين، إما أن نشك فيها وهذا الفرض لا يقيم إلا بتقدير أن عمر اخترع أيضاً مشجرات الأنساب ثم أقام الديوان عليها، وإما أن نغنيها اعتماداً ما لا يريه فيه ولا شك.



عليها في سد حاجاتهم فقد حِيلَ بينهم وبينها بمقتضى النظام الذي جرى عليه عمر (ض) في قسمة الأرض.

**نظام الإدارة والقضاء:** بقيت الوظائف الإدارية مختلطة في الدولة اختلاطاً كبيراً، فكانت تجتمع في شخص الخليفة أحياناً بحيث يباشرها بنفسه، وأحياناً ينتدب لها أشخاصاً آتدباً بدون تعيين. حتى جاء عمر (ض) فرتبها ترتيباً حسناً قام على التخصيص وفضل الوظائف، فجعل في كل مضر قاضياً وواليّاً، وكان الوضع في الأمصار صورة مصغرة عما هو عليه في المدينة. فالوالي يمثل الخليفة وسلطته محدودة، من فوق، بالخليفة، ومن تحت بهيئة المشيرين الذين هم رؤساء القبائل، وكان اختصاصه يشمل الأسس الثلاثة الآتية وهي:

١- أن يؤم الناس في الصلاة.

٢- أن يقودهم إلى الحرب.

٣- أن يجبي الأموال.

على أنه سرعان ما وجد التخصص الإداري حتى في هذه الصلاحيات المذكورة. فاختص رجل بالإمامة، وآخر بقيادة الجيش، وثالث بجباية الأموال أطلق عليه صاحب الخراج. وأضيف إليهم قاض مرجعه الخليفة رأساً ليفصل في الخصومات.

وهنا أثبت ملاحظة عرّضت لي في سمو المعنى في سمو الذات، ومن الخير أن أنقلها بالنص. قلت: «على أن الخلفاء قد اضطروا أحياناً إلى فصل السلطتين في الولايات، فقد كان الخليفة كعمر يبعث بالوالي الزماني والقاضي معاً، بحيث لا يكون للوالي سلطة على القاضي بل يعملان متعاونين، وهذا ممارسة لفضل السلطتين في مناطق محدودة»<sup>(١٢)</sup>.

(١٢) راجع كتاب: سمو المعنى في سمو الذات، ص ٧٣.



هذه ملاحظة ذات أهمية في فهم كثرة الخلاف على ولاية الأمصار، وكأنَّ عُمَرَ (ض) رَمَى من وراء هذا الفصل بين السلطتين أن يوجد رقابة متبادلة من وجه، ويُقلَّل من حِدَّة الانتقاد على الحاكم الزماني من وجه آخر. ويَحْسُن أن نورد عبارة ابن خلدون في وظيفة القضاء، كما كانت في عهد الخلفاء قال: «وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة، لأنَّه منصبُ الفصل في الخصومات حَسْماً للتداعي وقطعاً للتنازع، إلَّا أنَّه بالأحكام الشرعية المُتَلَقَّاة من الكتاب والسنة، فكانَ لذلك من وظائف الخلافة، ومُنْدَرِجاً في عمومها. وكان الخلفاء في صدر الإسلام يُباشرونه بأنفسهم ولا يَجْعَلُونَ القضاء إلى سواهم. وأوَّل من دَفَعَه إلى غيره وفوض فيه عُمَرُ، فَوَلَّى أبا الدرداء معه بالمدينة، وولَّى شريحاً بالبصرة، وولَّى أبا موسى الأشعري بالكوفة، وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة وهي مُستوفاة فيه، يقول: «أما بعد، فإنَّ القضاء فريضة مُحْكَمَةٌ وسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَافْهَمُوا إِذَا أَذْلَى إِلَيْكَ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ، وَأَسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَعَذْلِكَ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي خَيْفِكَ وَلَا يِيَّاسٌ ضَعِيفٌ مِنْ عَذْلِكَ. الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحاً أَحَلَّ حَرَاماً أَوْ حَرَّمَ حَلَالاً، وَلَا يَمْنَعُكَ قَضَاءُ قَضِيَّتِهِ أَمْسٍ فَرَجَعْتَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهُدَيْتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ، فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ. الْفَهْمُ الْفَهْمُ فِيمَا يَتَلَجَّلَجُ فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ. ثُمَّ آعْرِفِ الْأَمْثَالَ وَالْأَشْبَاهَ، وَقِسِ الْأُمُورَ بِنظَائِرِهَا وَاجْعَلْ لِمَنْ ادَّعَى حَقّاً غَائِباً أَوْ بَيِّنَةً، أَمْداً يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَتَهُ أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا اسْتَخْلَلْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ. فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشُّكِّ وَأَجْلَى لِلْعَمَى. الْمُسْلِمُونَ عُذُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُوداً فِي حَدٍّ أَوْ مُجْرِيٍّ عَلَيْهِ شَهَادَةُ زورٍ، أَوْ ظَنِيناً فِي نَسَبٍ أَوْ وِلَايَةٍ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَفَا عَنِ الْإِيمَانِ وَدَرَأَ بِالْبَيِّنَاتِ، وَإِيَّاكَ وَالْقَلَقَ وَالضُّجْرَ وَالتَّأْفُفَ بِالْخُصُومِ، فَإِنَّ اسْتِثْقَارَ الْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ يُعْظِمُ اللَّهَ بِهِ الْأَجْرَ وَيُحْسِنُ بِهِ الذِّكْرَ،



والسلام». (انتهى كتاب عمر). وإنما كانوا يُقَلِّدون القضاء لغيرهم وإن كان مما يَتَعَلَّقُ بهم لقيامهم بالسياسة العامة. والقاضي إنما كان له في عَصْرِ الخلفاء الفضل بين الخصوم فقط. ثم دُفِعَ له بعد ذلك أمورٌ أخرى على التدرج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى. واستقرَّ منصب القضاء، آخِرَ الأمر، على أنه يَجْمَعُ مع الفضل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المَحْجُورِ عليهم مِنَ المَجَانِينَ واليتامى والمُفْلِسِينَ وأهل الشَّفَةِ، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيتام عند فَقْدِ الأولياء على رأي مَنْ رآه، والنظر في مصالح الطُّرُقَاتِ والأُبْنِيَةِ وتَصْفِيحِ الشُّهُودِ والأمناءِ والثَّوَابِ واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليَنَحْضَلَ لهم الوثوق بهم، وصارت هذه كُلُّها من تَعَلُّقَاتِ وظيفته وتوابع ولايته<sup>(١٣)</sup>.

هذه العبارة تضع بين أيدينا شيئاً عن نشأة القضاء وتطوُّراته، وهي تُفيدنا أن الخلفاء الراشدين اهتموا من كُلِّ وظائف الدولة بهذه الوظيفة، فعالجوها كثيراً ونظَّموها كثيراً لتجني شيئاً يَرُوضُونَ عنه، وأحاديث نراه قضايتهم وعدالته جاوزت الإحصاء. حتى قيل: كان القضاء في عَهْدِهِمْ ساحةً يَقِفُ فيها الطُّبِيُّ الأَعْرُ مع الأسدِ الرُّبَالِ فلا يهابه ولا يخشاه. وقد اجتذبت سياستهم القضائية عدداً كبيراً إلى الإسلام.

وكتاب عُمرَ مرسومٌ اشتراعيٌّ عظيمٌ أُصْدِرَ وُضِّدَ في حكومته، وفيه تقريرٌ لمبدأ الاستئناف ونقض الحكم إلا أنه جعل هذه الصلاحية للقاضي نفسه، فكانت أزدواج في البداية والاستئناف. على أن الخليفة كان المَرْجِعُ الأعلى للقضاء فكان بمثابة محكمة النقض والإبرام، كما يظهر من القصص التي ذكرها المقرئ وغيره من أنه كان ينقض على القضاء والولاية أحكامهم وإجراءاتهم.

(١٣) راجع: مقدمة ابن خلدون، ص ص ٢٢٠ - ٢٢١.



نظام الجندية: لم يُخَرَّج في ترتيباته العسكرية على القاعدة المُتَّبَعَة في حروب العرب<sup>(١٤)</sup> التَّقْلِيدِيَّة القَبَلِيَّة إِلَّا بِمَقْدَارٍ يَسِيرٍ، وَكَانَ النَّوْعُ الغَالِبُ عَلَى حَرَكَاتِهِمْ، حَرْبُ الإِزْعَاجِ وَالْعِصَابَاتِ، وَالْعَرَبُ يُسَمُّونَهُ حَرْبَ الإِجْهَادِ وَالْإِنْهَاكِ (Guerre d'usure)، وَلَجَّؤُوا إِلَى هَذَا النَّوْعِ فِي حَرْبِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ أَوَّلَ الْأَمْرِ.

وَكَانَتْ فِرْقُ الْجُيُوشِ تَسِيرُ مُسْتَقْلَلَةً أَسْتِقْلَالًا تَامًّا، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ قَائِدٌ أَعْلَى لِلجَيْشِ يُنَاطُ بِهِ تَوْحِيدُ الْقِيَادَةِ وَتَنْظِيمُ الْحَرَكَاتِ الْعَامَّةِ. كَمَا أَنَّ الْكَتَائِبَ تُؤَلَّفُ تَأْلِيفًا قَبَلِيًّا. فَرَأَيْتُ الْكَتِيبَةَ هُوَ الزَّعِيمُ الْقَبَلِيُّ نَفْسُهُ. وَعَدَدُ الْفِرْقَةِ كَانَ يَتَرَاوَحُ بَيْنَ ثَلَاثَةِ آلَافٍ إِلَى سَبْعَةِ آلَافٍ، وَلَهَا مَدَدٌ، أَيْ قُوَى أَخْتِيَابِيَّة.

وَكَانَ هُمُّهُمْ يَنْصَرِفُ إِلَى الْمُدُنِ وَالْعَوَاصِمِ، وَتَحَاشَى الْإِلْتِقَاءَ بِالْجَيْشِ، وَهَذِهِ الْخُطَّةُ أَدَّتْ بِهِمْ إِلَى أَنْهْزَامَاتٍ كَثِيرَةٍ وَأَنْدِحَارَاتٍ جَمَّةٍ، فَقَدْ اسْتَوْلَى جَيْشُ الشَّامِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُدُنِ كَحِمَصَ، ثُمَّ أَضْطُرَّ إِلَى إِخْلَائِهَا وَالْجَلَاءِ عَنْهَا. وَمِنَ الْأَوَّلِيَّاتِ الْمُتَّبَعَةِ فِي حَرَكَةِ السُّوقِ الْجَيْشِيَّةِ، الْإِبْتِدَاءُ بِقَهْرِ الْجَيْشِ أَوَّلًا فِي مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ، وَعَلَى نَتَائِجِهَا يَتَرَتَّبُ تَعْيِينُ الْأَهْدَافِ التَّالِيَةِ وَالتَّدَابِيرِ الْأُخْرَى.

وَالصِّفَةُ الْعَامَّةُ لِحَرَكَاتِهِمْ الْخِفَّةُ وَالسَّرْعَةُ وَالِاحْتِفَاطُ بِخَطِّ الرَّجْعَةِ، خَوْفًا مِنَ التَّطْوِيقِ وَالْإِلْتِفَافِ مِنَ الْوَرَاءِ، وَلَعَلَّ السَّرْعَةَ الْفَائِقَةَ كَانَتْ أَكْبَرَ مِيزَةِ الْمُحَارِبِ الْعَرَبِيِّ، وَيُظْهِرُ هَذَا جَلِيًّا فِي الْمُجَازَفَةِ الَّتِي قَامَ بِهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، حِينَمَا أُنْتَقَلَ بِجَيْشِهِ مِنَ الْعِرَاقِ لِإِنْجَادِ جَيْشِ الشَّامِ. وَهِيَ مِثَالٌ نَادِرٌ مِنْ سُرْعَةِ الْقَرَارِ وَخِفَّةِ الْحَرَكَةِ، وَلَا يُشَبِّهُهَا إِلَّا حَرَكَةُ نَابُولِيُونَ فِي مَعْرَكَةِ وَاغْرَامِ الشَّهِيرَةِ، فَقَدْ أُنْتَقَلَ حِينَمَا بَلَغَهُ تَجَمُّعُ الْأُورُوبِيِّينَ ضِدَّهُ مِنْ إِسْبَانِيَا، بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ كَمَا يَقُولُونَ، وَدَخَلَ مَعَهُمْ فِي مَعْرَكَةٍ قَاسِيَةٍ.

(١٤) راجع: حركات خالد بن الوليد العسكرية، للفريق طه باشا الهاشمي.



وهذه الترتيبات غير المنتظمة بقيت، إلى ما قبل اليرموك، المعركة النظامية الأولى في الفتح العربي. فقد غيّر، لأول مرة، خالد بن الوليد من نظام الحرب المتبع، بعد أن استطلع حالة خصمه ودقق تشكيلاته وطرار تعبئته، واقتنع<sup>(١٥)</sup> بأنه لا بُدَّ من تقسيم جيشه وتوزيعه على طراز الجيش الروماني، فعمد إلى تنسيقه وفق الأصول الرومانية. قسّم الجيش إلى كراديس بلغ مجموعها من ٢٦ إلى ٤٠ كُردوساً، عيّن لكل منها قائداً، ثم ألف الكراديس فرقا من ١٠ إلى ٢٠ كُردوساً، وجعل على كل منها قائداً كبيراً، وخصّص للقلب (المركز) فرقة وللميمنة فرقة وللميسرة فرقة، وأنشأ هيئة أركان الحرب، وكان لديه من هيئة أركان المقر (مقر القيادة العامة) أبو الدرداء قاضي الجيش، وأبو سفيان ابن حرب القاص (أي خطيب الجيش)، ومن وظيفته أيضاً إيصال الأخبار إلى الفرق المحاربة ونقل الأوامر، وعبد الله بن مسعود مأمور الإقباض (أي الذي يؤمّن الجيش ويجمع الغنائم)، وأقام أمام الجيش طلائع (خفراء الأمام)، وكانت هذه التعبئة في اليرموك أول تعبئة نظامية.

فالعرب استفادوا من الرومان والفرس نظاماً جديداً فيما يتصل بالتشكيلات الحربية والتعبئة والقيادة العامة، وخطّة استدراج الجيش قبل كل شيء للإيقاع به وإبطال مقاومته؛ وكلمات كثيرة منها كُردوس التي يُقدرون أنها مُحَرَّفَةٌ، أو مُعَرَّبَةٌ عن كلمة Kortis الرومانية، وهي بمثابة كتبية، وأزطبون وهي مُحَرَّفَةٌ عن كلمة Tribum ومعناها قائد فرقة.

بيد أنهم لم يستفيدوا شيئاً مما يتصل بالتربية العسكرية التي تُعلّم الطاعة والانضباط، وتقضي على الروح القبلي قضاءً حاسماً، والجندية الدائمة التي تُحدّد المدنيين والعسكريين، وتخلق شعوراً في الصنفين يُدركون به صلاحياتهم ومدى أهليّة تدخّلهم. وهذا ما لاحظناه في مقدّمة سمو المعنى في سمو الذات، وأسميناه فساداً عسكرياً أدّى إلى كثير من النتائج

(١٥) راجع: محاضرة عسكرية في خطط خالد في فتح الشام لأحمد بك اللخام، قائم مقام أركان الحرب.



السَّيِّئَةِ الْمُؤَلِّةِ، وهذا ما قُلْتُ عنه: «وفائدة النظام العسكري أَنَّهُ يُعَلِّمُ الاِثْتِمَارَ، وَيَحْصُرُ النَّظَرَ عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَّا فِي حَدُودِ الْمِهْنَةِ، وَيَبْعُدُ بِنَفْسِ الْعَسْكَرِيِّ عَنِ الْمُنَاقَشَةِ لِلشُّؤُونِ الْعَامَّةِ، وَيَرْوِّضُهُ عَلَى التَّمَشُّكِ بِالْحَاكِمِ الْمَدَنِيِّ الْقَائِمِ. وَمِنْ فَضَائِلِ هَذَا النِّظَامِ الْوَاضِحَةِ تَحَامِي الرَّجُلِ الْعَسْكَرِيِّ مَهْمَا سَمَا قَدْرُهُ عَنْ وَضْعِ نَفْسِهِ فِي مَرْكَزِ مَدَنِيٍّ صَرُوفٍ، وَتَحْمُلِ الْمَسْئُولِيَّاتِ، وَالْأَغْبَاءِ الْعَامَّةِ. إِذَا فَقَدَ وَجُودَ نِظَامٍ مِنْ هَذَا النَّوعِ فِي مُحِيطِ الْعَرَبِ، جَعَلَ الرِّجَالُ الْعَسْكَرِيِّينَ الَّذِينَ أَشْهَرُوا بِالْبَطُولَةِ يُفَكِّرُونَ بِالذَّعْوَةِ لَأَنْفُسِهِمْ، وَالْاِئْتِقَاضِ لَأَخْتِوَاءِ السُّلْطَةِ»<sup>(١٦)</sup>.

وأهم نتائج هذا الفصل هي:

- ١- إِنَّ نِظَامَ الْحُكُومَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ قَاعِدَةٌ وَاحِدَةٌ، بَلْ سَارَ مِنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ إِلَى الْأَرِسْطَقْرَاطِيَّةِ فَالْجُمْهُورِيَّةِ فَالْفَوْضَوِيَّةِ.
- ٢- إِنَّ نِظَامَ الْأَمْوَالِ لَمْ يَقُمْ عَلَى قَاعِدَةٍ تَكْفُلُ حَاجَاتِ الْمُجْتَمَعِ وَتُحَقِّقُ أَمَانِيَهُ.
- ٣- إِنَّ نِظَامَ الْجُنْدِيَّةِ خَلَا مِنَ الرُّوحِ الْعَسْكَرِيَّةِ الصُّرُوفِ الَّتِي تَبْعَثُهَا التَّرْبِيَةُ الْخَاصَّةُ.

---

(١٦) راجع كتاب: سمو المعنى في سمو الذات، ص ص ٢٢-٢٣.



## الحزبية

تَطْمَئِنُّ جُمُوهَرَةُ الْبَاحِثِينَ إِلَى أَنَّ التَّشَرُّدِيَّةَ الْحِزْبِيَّةَ عَلِقَتْ بِمُجْتَمَعِ الْعَرَبِ الْوَلِيدِ، وَهَذِهِ كَكُلِّ الطُّفَيْلِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ مَا عَلِقَتْ بِمَحِيطٍ إِلَّا أَثَرَتْ فِيهِ تَأْثِيرًا سَيِّئًا. لِأَنَّ نَشَاطَهَا يَنْصَرِفُ إِلَى تَأْيِيدِ أَهْدَافِ الْحِزْبِ وَأَعْرَاضِهِ الرَّئِيسِيَّةِ، وَبِالْأَخْصِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا مَثَلٌ رَمَزِيٌّ تَعْمَلُ لَهُ جَمِيعُهَا وَتَقِفُ جُهُودَهَا فِي سَبِيلِهِ، عَلَى آخْتِلَافٍ فِي الْوَسَائِلِ وَالطُّرُقِ.

وَهَذِهِ الْحِزْبِيَّةُ الَّتِي نَتَحَدَّثُ عَنْهَا، لَمْ تَكُنْ مِنْ طِرَازِ الْحِزْبِيَّةِ ذَاتِ اللَّوْنِ الْمَفِيدِ الْمُتَشَبِّهِ، بَلْ كَانَتْ مُغْرِضَةً نَفْعِيَّةً فِي أَغْلَبِ طَوَائِفِهَا، تَدَوِّرُ عَلَى الْإِنْتِهَازِيَّةِ وَالْإِفْتِرَاصِ.

وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الْوَسْطَ الْقَبْلِيَّ أَصْلَحَ مَا يَكُونُ لِهَذَا الضَّرْبِ مِنَ التَّحْزُبِ، وَزَادَ فِيهِ التَّرَكُّبُ الْأُمَمِيُّ الَّذِي أَدَّى إِلَيْهِ الْفَتْخُ السَّرِيعُ. فَلَمْ تَكُنْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ بَسِيطَةً بَلْ مُرَكَّبَةً تَرْكِيبًا صِنَاعِيًّا غَيْرَ مُحْكَمٍ. فَكَانَ ضَرُورِيًّا أَنْ تَتَوَلَّدَ فِيهَا تِيَارَاتٌ مُخْتَلِفَةُ الْقُوَّةِ مُخْتَلِفَةُ الْعُنْفِ، تَلْعَبُ بِالْجُمَاهِيرِ وَتَعْبَثُ بِالْقُوى الْعَامَّةِ. وَمَا مِنْ أُمَّةٍ قَامَتْ عَلَى أَطْلَالِ أُمَمٍ أُخْرَى، إِلَّا وَبَقِيَتْ مَمْلُوءَةً بِالْإِنْقِسَامَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالتَّقَلُّبَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَلَا تَنْقُضِي حَتَّى تَسْتَقِرَّ الْأَخْلَاقُ النَّفْسِيَّةُ الْجَدِيدَةُ.

وَالْمُلَاحَظَةُ عَلَى هَذِهِ الْحِزْبِيَّةِ الَّتِي نَتَحَدَّثُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَنْدَفِعُ بِعَوَامِلٍ ثَلَاثَةِ:



الأول: القبليَّةُ وكانت على صنفين:

أ - قبليَّةٌ خالصةٌ كالتحزُّبِ ضدَّ قريشٍ والتحزُّبِ ضدَّ المَعَدِّيَّة<sup>(١)</sup>.

ب - قبليَّةٌ نفعيَّةٌ كالتحزُّبِ الأمويِّ والتحزُّبِ القحطانيِّ الذي حاربه معاويةٌ مُحارَبَةً قويَّةً على ما يَظْهَرُ من خبر<sup>(٢)</sup> ذكره البخاريُّ في صحيحه.

الثاني: الشُّعوبيَّةُ: ظَهَرَتْ هذه الحزبيَّةُ نتيجةً آنحلالِ عناصرِ شَتَّى وأُمَمِ شَتَّى، دَخَلَتْ في دَوْرٍ تفاعُلٍ عنيفٍ ولَمَّا تَنَتَّه إلى اتِّحادٍ راسخٍ يقومُ على مزاجٍ عقليٍّ واجِدٍ وخُلُقٍ شُعبيٍّ وسَطِيٍّ، أيُّ يُمَثِّلُ الوَسْطَ كصورةٍ كثيرةِ الصُّدقِ، وهو ما يُعَبِّرُ عنه بالِمِثَالِ الوَسْطِ في الأُمَمِ النَّاضِجَةِ أَجْتِمَاعِيًّا أوِ الْمُكْتَمِلَةِ التَّطَوُّرِ.

إنَّ العُنْصَرَ الَّذِي كانَ مَفْقُوداً في دولةِ العربِ الفَتِيَّةِ هو هذا الخُلُقُ الشُّعبيُّ الَّذِي يُقَرَّرُ مُسْتَقْبَل<sup>(٣)</sup> أَيْةِ أُمَّةٍ، وهو موجودٌ على الدَّوامِ خَلْفَ العواملِ الَّتِي فرضَها النَّاسُ سَبَباً لأعمالِهِمْ. فَالتَّحزُّبُ الشُّعوبيُّ في المُحيطِ العربيِّ كانَ مُنْفَعِلاً بهذا الامتزاجِ السَّريعِ، وأَعْتَقِدُ بأنَّ الحِزْبَ الشُّعوبيَّ كانَ صَنِيعَةً من صَنَائِعِ الحِزْبِ الأمويِّ يُحرِّكُونَهُ في سَبِيلِ أغراضِهِمْ، وكانتْ شَخْصِيَّاتُهُ آلاَتِ مُسَخَّرَةً في أيديهِمْ، وأَبْعَدُ ما يَكُونُ عَنِ الظَّنِّ أَنَّهُمْ كانوا يَشْتَغِلُونَ

---

(١) ذَكَرَ ابْنُ قُتَيْبَةَ في الشُّعْر والشُّعْرَاء أنَّ عَمْرُو بْنَ مَعْدِي كَرِبَ الرِّبِيدِيِّ كانَ يَقْصُ أَقاصِبَ من أخبارِ فَتْيِكِهِ، فَقَصَّ على شُجاعٍ من شُجعانِ القُرْبِ، وهو لا يَعرِفُهُ، أَنَّهُ غَرَا قَوْمَهُ وَبَارَزَ الشُّجاعَ الَّذِي كانَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ وَقَتَكَ بِهِ فَقَالَ لَهُ مُحَدِّثُهُ لِيَهْئِكَ يا أبا ثورٍ، إِنَّ صَرِيكَ هُوَ مُحَدِّثُكَ فَقَالَ عَمْرُو بَدُونِ دَهْشَةٍ: اسْمَعْ يا هَذَا لِمَا يُلقَى عَلَيْكَ فَإِنَّا بِهِذِهِ الْأَحاديثِ نُزهِبُ هَؤُلَاءِ المَعَدِّيَّةَ. وَكانَ تَخْطِيطُ الكُوفَةِ تَخْطِيطاً قَبْلِيًّا.

(٢) أَخْرَجَ البخاريُّ بِسَنَدِهِ أَنَّهُ بَلَغَ معاويةٌ، وَعِنْدَهُ وَفَدٌ من قُرَيْشٍ، أَنَّ ابْنَ عَمَرَ يُحَدِّثُ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ مَلِكٌ من قَحْطانٍ، فَغَضِبَ فَقامَ فَأَتْنِي على اللَّهِ يَما هو أَهْلُهُ ثُمَّ قالَ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ رِجالاً مِنْكُمْ يُحَدِّثُونَ أَحاديثَ لَيْسَتْ في كِتابِ اللَّهِ ولا تُؤْتَرُ عَن رِسالِ اللَّهِ (ص) وَأُولَئِكَ جُهاَلُكُمْ فَيَأْتِيَكُمُ وَالْأَمانيُّ الَّتِي تُضِلُّ أَهْلَها فَإِنِّي سَمِعْتُ رِسالَ اللَّهِ (ص) يَقولُ إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ في قُرَيْشٍ لا يُعادِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا كَبَّهُ اللَّهُ على وَجْهِهِ ما أَقامُوا الدِّينَ». راجع: صحيح البخاري، ج ٩، ص ٦٢.

(٣) راجع كتاب: سر تطور الأمم لغوستاف لوبون، ص ٣٥.



على وَجْهِ الاستقلال. وهذا تَقْدِيرٌ وَقَعَ في خَاطِرِ عُمَرَ (ض) فَحَذَّرَ من الموالى، لأنَّهم سَرَّعَانِ ما يَنْقَلِبُونَ آلَةً في أيدي ذَوِي الأغراضِ، وإلَّا فَهُمْ على الانفرادِ أضعفُ من أنْ يَحُوكُوا المؤامراتِ. وهذا أَمْرٌ نُشَاهِدُ مثله اليومَ، فإنَّ الفِدائِيَّينَ، أي «القِدَاوِيَّة»، الذين تَصْطَلِحُهُم الأحزابُ لأغراضٍ إجراميةً كبيرةً، إمَّا يكونونَ عادةً من الثِّفَةِ الغُرباءِ الأَفَاقِيْنَ. والمُشَاهِدُ أَنَّهُمْ لا يقومونَ بِعَمَلٍ اسْتِقْلَالِيٍّ أَبَدًا، وهذا من الوُجْهَةِ النَّفْسِيَّةِ صَحِيحٌ جَدًّا. والموالى كانوا بهذه المَثَابَةِ، فما أَسْرَعَ ما يُسْتَحْدَثُونَ بِسَبِيلِ هذه الأغراضِ لِمُتَحَرِّزِينَ ذَوِي نُفُوذٍ.

الثالث: المِثَالِيَّةُ الجَدِيدَةُ الَّتِي وَضَعَ النَّبِيُّ (ص) أُسُسَهَا، وَشَيَّدَ هَيْكَلَهَا الرُّوحِيَّ والاجْتِمَاعِيَّ. كانَ لَهَا شَخْصِيَّاتٌ تُحَافِظُ على مبادئها وتُحامي عن ذِمَارِها وتَعْمَلُ بِسَبِيلِ خِدْمَةِ أغراضِها ونُشْرِ تَعَالِيمِها، ومن هَؤُلَاءِ عَلِيٌّ وَأَبُو ذَرٍّ وَأَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ وَرَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ وَسَائِرُ الطَّبَقَةِ الْقَدِيمَةِ من المَهاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

وكان هَؤُلَاءِ يُشَكِّلُونَ حِزْبًا مُحَافِظًا مُتَقَيِّدًا بِالرُّسُومِ والطَّرَائِقِ النَّبَوِيَّةِ وَأَسَالِيِبِهَا السِّيَاسِيَّةِ. وَقَدْ أَهْتَمَّ بِدِرَاسَةِ الْأَحْزَابِ عَدَدٌ من كِبَارِ الْمُسْتَشْرِقِينَ أَهْمُهُمْ فَإِنَّ فُلُوْتِينَ في كِتَابِهِ السِّيَادَةِ الْعَرَبِيَّةَ، وَنَحْنُ تَوَسَّعْنَا بِهَذَا الْبَحْثِ بِنَاءً على مُلَاحَظَةِ عَرَضَتْ لَنَا في كِتَابِ سُمُوِّ الْمَعْنَى في سُمُوِّ الذَّاتِ، جَاءَ فِيهَا: «إِنَّ الْأَحْزَابَ الَّتِي نَسْتَطِيعُ أَنْ نُعَيِّنَهَا في ذَلِكَ الْعَهْدِ، وَالَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ مُتَنَازِعَةً هِيَ: حِزْبُ عُثْمَانَ أَوِ الْحِزْبُ الْأُمَوِيُّ، وَحِزْبُ طَلْحَةَ وَمِنْ أَكْبَرِ شَخْصِيَّاتِهِ عَائِشَةُ، وَحِزْبُ أَبْنَاءِ عُمَرَ وَمِنْ أَكْبَرِ شَخْصِيَّاتِهِ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَحِزْبُ الْمُتَشَقِّينَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَمِنْ أَكْبَرِ شَخْصِيَّاتِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَحِزْبُ عَلِيٍّ (ع) أَوِ الْحِزْبُ الْمُحَافِظُ»<sup>(٤)</sup>.

وَلَا حَظَّنَا في الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ أَيْضًا أَنَّ السَّبَبَ في اسْتِشْرَاءِ الْحِزْبِيَّةِ لِعَهْدِ عُثْمَانَ هُوَ

(٤) راجع: سُمُوُّ الْمَعْنَى في سُمُوِّ الذَّاتِ، ص ص ٣٦ - ٣٨.



حَضَرُ التَّرْشِيحِ فِي عَدَدٍ مِنَ الْأَشْخَاصِ الَّذِي أَرْتَاهُ عُمَرُ (ض). وَهَذِهِ الْأَحْزَابُ أَكْثَرُهَا وَلِيدٌ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ. وَنَحْنُ عُثْمَانُ بِهَا هُنَاكَ لِأَنَّ قَصْدَنَا كَانَ مُنْصَرِفًا إِلَى تَأْرِيخِ هَذِهِ الْفَتْرَةِ مِنْ عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، بَيِّدَ أَنَّنَا إِذَا تَنَاوَلْنَا الْعَهْدَ مَجْمُوعًا خَرَجَتْ لَنَا أَحْزَابٌ أَكْثَرُ عَدَدًا وَأَكْثَرُ اخْتِلَافًا فِي الْغَايَاتِ وَالْأَغْرَاضِ. وَهَذِهِ الْأَحْزَابُ هِيَ:

١- **حزبُ الثلاثة:** وَهَذَا الْحِزْبُ مَالَ إِلَى الْقَوْلِ بِوُجُودِهِ طَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْمُشْتِشِرْقِينَ بَيْنَهُمُ الْأَبُ لَامَنَسْ، وَدَرَسُوا عَلَى ضَوْءِ هَذَا التَّقْدِيرِ كَثِيرًا مِنَ الْمَسَائِلِ كَمَسْأَلَةِ التَّرْشِيحِ وَالِانْتِخَابِ. وَفِي رَأْيِهِمْ أَنَّ هَذَا الْحِزْبَ كَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَبِي عُبَيْدَةَ ابْنِ الْجَرَّاحِ، وَقَدْ سَبَقَ تَأْلِيْفُهُ وَفَاةُ النَّبِيِّ (ص). وَالثَّلَاثَةُ تَعَاقَدُوا عَلَى أَنَّهُ إِذَا تَمَّتِ الْخِلَافَةُ لِأَحَدِهِمْ نَقَلَهَا مِنْ بَعْدِهِ إِلَى صَاحِبِيهِ. وَيَسْتَبْدُونَ فِيهِ إِلَى أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:

أَوَّلُهَا: الْجُهْدُ الْجَمِيعُ الَّذِي بَذَلُوهُ مَعًا فِي حَرَكَةِ الْإِنتِخَابِ، فَقَدْ كَانُوا مُتَضَامِينَ تَضَامًا قَوِيًّا كَأَنَّهُ نَتِيجَةُ خُطَّةٍ سَابِقَةٍ اتَّفَقُوا عَلَيْهَا.

ثَانِيهَا: تَبَادُلُهُمُ التَّرْشِيحَ يَوْمَ السَّقِيفَةِ، فَقَدْ رَشَّحَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ وَهُمَا رَشَّحَاهُ.

ثَالِثُهَا: لَمَّا سُئِلَ عُمَرُ رَأْيَهُ فِيمَنْ يَكُونُ بَعْدَهُ قَالَ: لَوْ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ حَيًّا لَعَهْدْتُ إِلَيْهِ. وَهَذِهِ الْقَرَائِنُ الثَّلَاثُ عِنْدَهُمْ تَوَلَّفَتْ مَا يُثِيرُ شُبُهَةً فِي أَنَّهُمْ كَانُوا حِزْبًا وَاحِدًا، وَنَحْنُ لَا نَرَى فِيهَا مَا يُسَاعِدُ عَلَى اعْتِمَادِ هَذَا التَّقْدِيرِ.

٢- **حزبُ الأمويين:** وَهَذَا الْحِزْبُ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ عَدَدٌ مِنْ كِبَارِ الْمُؤَرِّخِينَ، وَنَحْنُ لَا نَشْكُ فِي وُجُودِهِ أَيْضًا، وَلَعَلَّهُ أَخْطَرُ حِزْبٍ اسْتَطَاعَ أَنْ يُثِيرَ الْجَمَاهِيرَ وَيَتَحَكَّمَ فِيهِمْ وَيُحْدِثَ الْقَلَاقِلَ. وَأَهْدَافُهُ الَّتِي كَانَ يَعْمَلُ لَهَا مِنْ أَخْطَرِ الْأَهْدَافِ، وَهِيَ تَتَنَاوَلُ الْوَضْعَ السِّيَاسِيَّ وَالْاجْتِمَاعِيَّ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَأَهْمُ نَظَرِيَّاتِهِ حَضَرُ السُّلْطَاتِ الْعُلْيَا فِي أَسْرَةٍ، وَتَقْرِيرُ



مَبْدَأُ الْمَلَكِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ فِي السُّلْطَةِ<sup>(٥)</sup> الْأُولَى، وَنِظَامُ<sup>(٦)</sup> الْوَرَاثَةِ، وَتَسْلِيْطُ الْعُنْصُرِ<sup>(٧)</sup> الْعَرَبِيِّ عَلَى الشُّعُوبِ، وَفَرَضُ الْعَرَبِ كَطَبَقَةِ أَرِسْتَقْرَاطِيَّةٍ، وَفَرَضُ نِظَامِ<sup>(٨)</sup> إِدَارِيٍّ مُقْتَبَسٍ مِّنَ النُّظُمِ الْأَجْنَبِيَّةِ، أَيْ غَيْرِ مُشْتَقٍّ مِّنَ طَبِيعَةِ الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ الْجَدِيدِ، وَتَحْوِيْزُ نِظَامِ<sup>(٩)</sup> الْمَالِ إِلَى مَا يُؤَيِّدُ سُلْطَتَهُمْ عَلَيْهِ وَإِطْلَاقَ أَيْدِيهِمْ فِيهِ، وَفَرَضُ<sup>(١٠)</sup> الْإِقْطَاعِ، وَالْقَضَاءُ<sup>(١١)</sup> عَلَى الطَّبَقَةِ الدِّيْنِيَّةِ الْمَرْمُوقَةِ الَّتِي سَاهَمَتْ فِي بِنَاءِ الشَّرِيعَةِ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَغْرَاضِهِمْ، وَتَسْمِيَةُ الْمَعْنَوِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي خَلَقَتْهَا الدِّيَانَةُ الْجَدِيدَةُ، وَتَشْجِيْعُ<sup>(١٢)</sup> الْمُجْرِنِ وَالْحَيَاةِ اللَّاهِيَةِ بِكُلِّ أَشْكَالِهَا.

هَذِهِ هِيَ أَهْدَافُهُمُ الرَّئِيسِيَّةُ، وَكَانُوا يَعْمَلُونَ لَهَا سِرّاً فِي ظِلِّ الْحُكُومَاتِ السَّابِقَةِ لِحُكُومَةِ عُثْمَانَ، وَيَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهَا بِأَسَالِيْبٍ تَجَمُّعُ بَيْنَ الْإِغْرَاءِ وَالْإِزْهَابِ، وَقَدْ سَاعَدَتْهُمْ الْحَظُورَةُ الَّتِي رَزَقُوهَا مِنَ الْخُلَفَاءِ عَلَى إِعْدَادِ الْجُمْهُورِ، وَكَانَ نَفُوذُهُمْ يَمْتَدُّ حَتَّى يَطْغَى عَلَى أَكْثَرِ الْأَحْزَابِ وَيَسْتَخْدِمُهَا فِي تَنْفِيْذِ رَغَائِبِهِ. وَتَارِيْخُ حَرَكَاتِ هَذَا الْحَزْبِ مُفِيدٌ أَيْمًا فَائِدَةً، وَطَرِيفٌ أَيْمًا طَرَاةً.

نَعْلَمُ أَنَّ بَيْنَ الْأُسْرَتَيْنِ الْهَاشِمِيَّةِ وَالْأُمَوِيَّةِ خِلَافاً تَارِيْخِيّاً يَتَّصِلُ بِعَهْدِ جَاهِلِيٍّ بَعِيدٍ، ثُمَّ

(٥) ظَهَرَ أَنَّهُ مِنْ أَهْدَافِهِمْ بِالْإِنْقِلَابِ الْمَلَكِيِّ الَّذِي أَخَذَتْهُ مَعَاوِيَةُ فِي أَيَّامِ حُكُومَتِهِ.

(٦) ظَهَرَ مِنْ قَوْلِ أَبِي شَفِيَّانٍ حِينَما تَوَلَّى عُثْمَانُ: «لَتَنْصِيرُنَّ إِلَى أَوْلَادِكُمْ وَرَاثَةً»، وَمِنْ صَنِيعِ مَعَاوِيَةَ حِينَما عَهَدَ إِلَى أَبِيهِ.

(٧) ظَهَرَ هَذَا ظُهُوراً وَاضِحاً فِي كُلِّ أَيَّامِ سَيِّطَرَتِهِمْ وَحُكْمِهِمْ.

(٨) نَصَّ التَّارِيْخُ عَلَى أَنَّ عَمَرَ (ض) لَمَّا وَرَدَ الشَّامَ رَأَى طُلَايِعَ هَذَا النِّظَامِ فِي حُكُومَتِهِ فَأَتَقَفَّهُ.

(٩) يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْدَافِهِمْ اتِّقَادُ أَبِي ذَرٍّ.

(١٠) يَدُلُّ عَلَيْهِ إِقْطَاعُ مِرْوَانَ فِي حُكُومَةِ عُثْمَانَ، وَإِقْطَاعُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْجٍ.

(١١) يَدُلُّ عَلَيْهِ حَرَكَتُهُ يَزِيدُ فِي الْقَضَاءِ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَضَاءً قَاسِيّاً، وَسَمَى فَا نَ فُلُوْثِنَ هَذِهِ الطَّبَقَةُ جَزْبَتْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَقَالَ

الْمَسْعُودِيُّ: بَعْدَ حَرَكَةِ يَزِيدَ لَمْ يَبْقَ بَذَرِيٍّ. رَاجِعْ كِتَاب: سَمَوُ الْمَعْنَى فِي سَمَوِ الذَّاتِ، ص ٢٦ - ٢٧.

(١٢) ذَلَّ عَلَيْهِ تَغَاضِيهِمْ عَنْ أَغَايِبِ عُمَرَ ابْنِ أَبِي رَيْعَةَ وَلَفِيهِ الْإِبَاحِيَّةُ. الْمَصْدَرُ لِنَفْسِهِ، ص ٢٧ - ٢٨.



أَخَذَ شُكْلًا أَكْثَرَ غُفَاءً بَعْدَ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَ بِهَا الرَّسُولُ الْهَاشِمِيُّ، فَجَهَدَ الْأُمَوِيُّونَ بَوْضِعَ الصُّعَابِ حِيلُولَةً عَنْ نَجَاحِهَا. بَيَّنَّ أَنَّ صَاحِبَ الرِّسَالَةِ شَقَّ طَرِيقَهُ بَيْنَ الْجَلَامِيدِ وَالصُّخُورِ مُتَغَلِّبًا عَلَى كَافَّةِ الْحَوَاجِزِ الْمُعْتَرِضَةِ، نَاجِحًا فِي أَطْرَادِ مُتْهَوِّدٍ. وَبِذَلِكَ غَدَوْا فِئَةً مُسْتَضْعَفَةً عَدِيمَةً الْقِيَمَةِ ثُمَّ لَا وَزْنَ لَهَا سِيَاسِيًّا، فَعَمَدُوا إِلَى الْعَمَلِ سِرًّا لِكَيْ يَسْتَعِيدُوا مَجْدَهُمُ الْمَفْقُودَ وَمَكَانَتَهُمُ الضَّائِعَةَ فِي ظِلِّ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَكَانَتِ الْحَرَكَةُ الْإِنتِخَابِيَّةُ أَوَّلَ مُنَاسِبَةٍ اسْتَغْلَوْهَا، فَتَحَرَّكَ أَبُو سُفْيَانَ - زَعِيمُ الْحَزْبِ الْأُمَوِيِّ السَّرِيِّ فِي الْإِسْلَامِ، كَمَا كَانَ زَعِيمُ الْحَزْبِ الْمُغْلَنِ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ - لِلْعَمَلِ فِي خِمَاسٍ وَنَشَاطٍ، مُسْتَغِلًّا الْعُنَاصِرَ غَيْرَ الرَّاغِبَةِ عَنْ نَتَائِجِ الْإِنتِخَابِ، وَلَكِنَّهُ فَشِلَ فَشَلًّا ذَرِيعًا لَمَّا اكْتَشَفَ عَلِيٌّ (ع) دَسِيسَتَهُ. عَلَى أَنَّ الْحَزْبَ اسْتَفَادَ مِنْ هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ الْإِنتِخَابِيَّةِ شَيْئَيْنِ:

١- ثُبُوتُ الْخِلَافَةِ فِي قُرَيْشٍ.

٢- إِبْعَادُ الْهَاشِمِيِّينَ عَنِ الْحُكْمِ. وَهُمْ لَا يَخْشُبُونَ حِسَابًا لغيرِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأَسْرِ الْقُرَيْشِيَّةِ، فَأَعْتَقَدُوا بِأَنَّ مَصِيرَ الْحُكْمِ لَهُمْ إِنْ قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا. وَهَذَا مَا يَشْهَدُ بِهِ قَوْلُ أَبِي سُفْيَانَ، بَعْدَ فَوْزِ عُثْمَانَ بِالْخِلَافَةِ: «فَوَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ أَبُو سُفْيَانَ مَا زِلْتُ أَرْجُوهَا لَكُمْ». وَلِنَعْلَمَ مِقْدَارَ نُفُوذِهِمُ النَّفْسِيَّ الْعَمِيقَ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ، نَذْكُرُ قِصَّةً أَوْزَدَهَا الْمَسْعُودِيُّ، قَالَ:

«بَلَغَ أَبَا بَكْرٍ (ض) عَنْ أَبِي سُفْيَانَ صَخْرٍ بِنِ حَزْبٍ أَمَرَّ فَأَخْضَرَهُ وَأَقْبَلَ يَصِيحُ عَلَيْهِ، وَأَبُو سُفْيَانَ يَتَمَلَّقُهُ وَيَتَذَلَّلُ لَهُ، وَأَقْبَلَ أَبُو قُحَافَةَ فَسَمِعَ صِيَاخَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ لِقَائِدِهِ: عَلَى مَنْ يَصِيحُ ابْنِي، فَقَالَ لَهُ: عَلَى أَبِي سُفْيَانَ. فَدَنَا مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَقَالَ لَهُ: أَعْلَى أَبِي سُفْيَانَ تَرَفُّعَ صَوْتِكَ يَا عَتِيقُ؟... لَقَدْ تَعَدَّيْتَ طَوْرَكَ وَجُزْتَ مِقْدَارَكَ. فَتَبَسَّمَ أَبُو بَكْرٍ وَمَنْ حَضَرَهُ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَقَالَ لَهُ: يَا أَبَتِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ رَفَعَ بِالْإِسْلَامِ قَوْمًا وَأَذَلَّ بِهِ آخَرِينَ» (١٣).

(١٣) راجع: مروج الذهب بهامش نفع الطيب، ج ٢، ص ٢١٩.



وهذه القصة لا تحتاج إلى تعليق فيما يختص بمدى سلطتهم على قريش ومبلغ نفوذهم، وفي دهشة أبي قحافة وجواب أبي بكر دليل على ذلك. فالذلة التي لحقهم - كما يقول أبو بكر - والمفروض فيهم أنهم الأعزّة، حملتهم حملاً عنيفاً على السغي الحثيث للاستيحاء على السلطة بأيّ ثمن، واسترداد عزّتهم المذحورة. ويظهر أنّ الفشل جعلهم يُغيّرون أسلوب العمل، فعتمدوا إلى تملق الخلفاء وإظهار الرغبة في الخدمة الإدارية بإخلاص، فأكثر أبو بكر وعمر من تعيينهم في شتى المراكز. وبذلك آنفسخ أمانهم سبيل العمل ضرورة أنّ السلطة الإقليمية أصبحت في أيديهم، فهم يُصرفونها على الشكل الذي يلائم مصالحهم ويخدمها. فكانت وسائلهم كثيرة ومعين أفكارهم لا ينضب، فتارة يستخدمون نفوذ الحكومة، وتارة يميلون إلى الإغراء والإطماع. وقد دلّلت في فصل القبليّة من هذا الكتاب على أسلوب من جملة الأساليب الكثيرة التي كانوا يعتمدون عليها في تقوية حركتهم، لما ذكرنا أنّ أكثرية الولاة كانت منهم، وكان من خطة الحزب الأمويّ أنّ يُشجّع العصبيّات ويزيد في أوارها. فإنّ كلّ حركة من هذا القبيل تُضعف التحزّب السياسيّ ضدّ قريش، وهم ينزلون من قريش منزلة الزعماء. وهذه وسيلة سلبية هامة، ولهم وسائل إيجابية كثيرة منها، أو أهمّها، الرغبة في الإدارة الإقليمية وقيادة الجيوش، ولقد تمّ لهم من ذلك شيء غير قليل.

ولم تزل الأيام تؤاتيهن وتجري وفق أهوائهم حتّى أواخر عهد عمر (ض)، فقد بدأ يميل إلى بني هاشم ميلاً ما وعلى نحو ما، فهو يتوسّل حين الجذب بالعباس، ويُقرّب ابنه عبد الله، ويُشيد بسابقات عليّ (ع) في الإسلام، ويُقترن بأبنته أمّ كلثوم في أخريات أيامه، ويُفضي إلى عبد الله بن عباس بأشياء كثيرة عن الخلافة، وأنهم، أي آل هاشم<sup>(١٤)</sup>، أحقّ

(١٤) راجع: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٣٠ - ٣١.



بهذا الأمر، وميلُ عمرَ هذا يُذكّرنا بميلِ المأمونِ الذي حمّله على العهدِ لعليّ الرضا.

وقد تأكّد الأمويّون، وهم السّاهرون على قضيتهم، بأنّ عمرَ لا بُدَّ صائرٍ إلى ترشيح زعيم الهاشميين عليّ للسلطانِ الأعلى، وبذلك يَنْهَارُ حَجَرُ الأساسِ من بنائهم، فَفَكَّرُوا كثيراً ثُمَّ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى شَأْنٍ رَهيبٍ، وهو في أَغْلَبِ ظَنِّي آغْتِيَالُ عُمَرَ قَبْلَ أَنْ يُعْلِنَ شَيْئاً مِمَّا يدورُ بِخَلْدِهِ. وقلتُ، منذُ حينٍ، بأنّ الشُّعوبِيّينَ كانوا يُسْتَعْدِمُونَ لِمَارِبِ الأحزابِ الكبيرة، وكانَ الحزْبُ الأمويُّ أقوى الأحزابِ القائمةِ وأَمْلَكُهُمْ لوسائلِ الإغراءِ، فضمَّ إليه، كأدواتٍ مُنْفَذَةٍ، أبا لؤلؤةَ وَجُفَيْنَةَ وَكُغَبَ الأَحْبَارِ وَسِوَاهُمْ، وكانَ لِكُلِّ واحدٍ من هؤلاءِ دَوْرٌ خاصٌّ يقومُ به.

ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى الاسْتِيفَادَةِ مِنَ الظُّرْفِ الجَدِيدِ الذي خَلَقَهُ لِعُمَرَ، فَدَسُّوا لَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ بَعْدَ الاِغْتِدَاءِ فَكَانَ لَا يُفَارِقُهُ تَقْرِيباً، وَلَا نَذْرِي لِمَاذَا، إِنْ لَمْ يَكُنْ لذلك. وعندي أنّ عبدَ الرحمنِ كانَ في نَظَرِ عمرَ مُفَكِّراً أَلْمَعِيّاً، فهو بهذا الاعتقادِ، ولأنّه صَرِيحٌ مَنزُوفٌ لَا يَمْلِكُ كَامِلَ قُوَّتِهِ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤَثِّرَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُوجِّهَ أَفْكَارَهُ كَيْفَ شَاءَ، وَقَدْ ظَهَرَ صِدْقُ هَذَا التَّقْدِيرِ فيما ذَكَرَهُ<sup>(١٥)</sup> الطَّبْرِيُّ مِنْ أَنَّ عُمَرَ حِينَما سُئِلَ رَأْيَهُ فِيمَنْ يَكُونُ وَلِيَّ الأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ، لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَرْشِيحِ عَلِيٍّ «وَمَا عَنَّمُ الأَمْرُ حَتَّى أَشْتَبِهَتْ عَلَيْهِ وَجْهُ الرّأْيِ مُدَّةً» ثُمَّ جَعَلَهَا فِي السُّتَةِ المَعْرُوفِينَ. لَا شَكَّ فِي أَنَّ تَضْرِيحَهُ الجازِمَ أَوَّلاً، وَتَرَدُّدَهُ ثانياً، والعَهْدَ أخيراً لهؤلاءِ السُّتَةِ، يَدُلُّنا عَلَى مِقْدَارِ مَا عَرَاهُ مِنْ وَهْنٍ فِي المَجْمُوعِ العَصْبِيِّ، نَتِيجَةً لِلتَّنْزِيفِ الدِّمَوِيِّ الهائلِ، فَلَمْ يَعُدْ، رَحِمَهُ اللهُ، صَاحِبَ تِلْكَ الإِرَادَةِ الحَدِيدِيَّةِ الصَّارِمَةِ بَلِ انْقَلَبَ لَيِّنَ العَرِيكَةِ سَهْلَ القِيَادِ والتَّأْثِيرِ عَلَيْهِ، وَسَادِراً يُفَكِّرُ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ، وَهَذَا التَّقْدِيرُ صَحِيحٌ فِيزِيُولُوجِيّاً، وَقَدْ نَزَفَ دَمُهُ الزُّكِّيُّ. إِنَّ عُمَرَ الحَازِمَ العَظِيمَ والمُفَكِّرَ العميقَ مَا كَانَ

(١٥) المرجع نفسه، ص ٣٤.



لِيُعْطِيَ هذا الرَّأْيَ الواهِنَ لو كَانَ بِكَامِلِ أَغْصَابِهِ وَقُوَاهِ.

وَأَوَّلُ مَا عَرَضَ لِي هَذَا الرَّأْيُ فِي سَمَوِ الْمَعْنَى فِي سَمَوِ الذَّاتِ<sup>(١٦)</sup>، فَقَدْ قُلْتُ هُنَاكَ: «إِذَا عَرَفْنَا أَنَّ الْمُغِيرَةَ بَنَ شُعْبَةَ كَانَ أَشَدَّ مَا يَكُونُ إِخْلَاصاً لِهَذَا الْبَيْتِ الْأُمَوِيِّ وَتَعَلُّقاً بِهِ وَنِفَاقاً عَلَى غَيْرِهِ - وَعَلَائِقُ الثَّقَفِيِّينَ بَبْنِي أُمَيَّةٍ وَطِيْدَةٍ - وَعَرَفْنَا أَنَّ أَبَا لَوْلُؤَةَ كَانَ غُلَاماً لِلْمُغِيرَةِ بَنِ شُعْبَةَ، وَعَرَفْنَا أَنَّ هُنَاكَ حِزْباً أُمَوِيّاً يَعْمَلُ لَهُ الْمُغِيرَةُ، خَرَجَتْ لَنَا قَضِيَّةٌ مُتَرَتِّبَةٌ الْحَلَقَاتِ، مُتَوَالِيَةٌ الْوَقَائِعِ عَلَى نَسَقٍ طَبِيعِيٍّ وَاضِحٍ. وَمَنْ ثُمَّ يَظْهَرُ أَنَّ اغْتِيَالَ عَمَرَ لَمْ يَكُنْ بِفِكْرَةٍ فَارَسِيَّةٍ أَبَدًا، وَإِنَّمَا كَانَ وَلِيْدَ فِكْرَةٍ مَوْضِعِيَّةٍ خَالِصَةٍ، وَأُمَوِيَّةٍ بَحْتَةٍ. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّقْدِيرُ صَحِيحاً، فَلِمَاذَا أَجْتَهَدَ الْمُغِيرَةُ بِإِذْخَالِ هَذَا الْفَارَسِيِّ الْمَدِينَةَ مَعَ عِلْمِهِ بِمَنْعِ عَمَرَ مِنْ ذَلِكَ؟ وَبِمَاذَا تُفَسَّرُ هَذِهِ الْمُصَادَفَةُ فِي أَنَّ يَكُونُ قَاتِلُ عُمَرَ هُوَ غُلَامُ الْمُغِيرَةِ الَّذِي كَانَ أُمَوِيّاً الرَّأْيِ وَالْهَوَى.

فَهَذَا الْاِغْتِيَالُ أَخَذَتْ بَلْبَلَةٌ كَبِيرَةٌ فِي الْأَفْكَارِ، وَهَيَأُ الْمَجْتَمَعَ لِثِقَلَةٍ جَدِيدَةٍ، وَقَدْ ظَهَرَتْ فِي سَمَاءِ الْمَجْتَمَعِ بِرَامُجٌ لَا عَهْدَ لِلْعَرَبِ بِهَا، أَذَتْ إِلَى زِيَادَةِ التَّبَلُّلِ الْفِكْرِيِّ، مِنْ مِثْلِ خَضِرِ السُّلْطَانِ الْعُلْيَا فِي أُسْرَةٍ أَوْ قَبِيلَةٍ، هَذِهِ الْفِكْرَةُ الَّتِي رَوَّجَ لَهَا الْحِزْبُ الْأُمَوِيُّ وَعَمِلَ عَلَى نَشْرِهَا وَتَعْصَبَ لَهَا، ثُمَّ لَمْ يُعْرِفْ حَدِيثُ «الْإِمَامَةِ فِي قَرِيْشٍ» إِلَّا عَنْ طَرِيقِهِمْ وَهُمْ زُورَاتُهُ. وَكَانَ رَدُّ الْفِعْلِ عَلَى التَّمْهِيدِ لِنَظَرِيَّتِهِمْ، ظُهُورَ نَظَرِيَّةِ الْخَوَارِجِ وَأَنَّهَا لِعَامَّةِ الْعَرَبِ أَوْ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ. فَنَظَرِيَّةُ الْخَوَارِجِ رَدُّ فِعْلٍ قَوِيٍّ لِلنَّظَرِيَّةِ الْأُمَوِيَّةِ الَّتِي جَنَحُوا إِلَى تَطْبِيقِهَا بِصُورَةٍ غَيْرِ لَبِيقَةٍ، أُيْقِظَتْ عَنَعَنَاتُ الْعَرَبِ الْآخَرِينَ، فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ عَنِ الْخَوَارِجِ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْ غَيْرِ الْحِجَازِيِّينَ، وَزَادَ فِي عَنَعَنَتِهِمْ خَضِرُ الصَّلَاحِيَّةِ فِي أُسْرَةٍ ثُمَّ الْوَرَاثَةُ الْمَلَكِيَّةِ.

فَالانْتِقَالُ مِنَ الدِّيمَقْرَاطِيَّةِ الَّتِي هِيَ طَبِيعَةٌ عَرَبِيَّةٌ تَتَّصِلُ بِأَسْبَابِ النَّفْسِ وَالْمِزَاجِ الْعَقْلِيِّ،

(١٦) رَاجِع: سَمَوِ الْمَعْنَى فِي سَمَوِ الذَّاتِ، ص ٣٢ - ٣٤.



إلى الأرستقراطية فالملكيّة الوراثيّة، أَيْقَظَ المجتمع وأَعَدَّه لِثَوْرَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ يَشْجُرُ نَفْسَهُ فِي أُتُونِهَا. إِذَا فَقَدْ كَانَ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ نِظَرَتَانِ تَتَحَارَبَانِ بِدُونِ هَوَادَةٍ وَلَا هُدْنَةٍ أَوْ اسْتِجْمَامٍ: النَّظَرِيَّةُ الْأُمَوِيَّةُ وَالنَّظَرِيَّةُ الْجُمْهُورِيَّةُ وَأَشْيَاعُهَا جُمْهُورُ الْعَرَبِ، وَآخَتَكُنَا كَثِيرًا حَتَّى تَوَلَّدَ، مِنْ الْاِحْتِكَالِ الشَّدِيدِ وَالتَّمَاسُّ الْعَنِيفِ، شَرَارَةٌ آتَصَلَتْ بِالْمَجْتَمَعِ مِنْ أَقْطَارِهِ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحِزْبَ الْأُمَوِيَّ كَانَ يَعْمَلُ لِأَهْدَافٍ ثَابِتَةٍ، تَغْيِيرُ السِّيَاسَةِ دُفْعَةً وَاحِدَةً، وَمِنْ أُسَاسِهَا أَيْضًا فِي عَهْدِ عُثْمَانَ الَّذِي تَرَكَ لَهُمْ سِيَاسَةَ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ، وَأُطْلِقَ أَيْدِيَهُمْ فِي كُلِّ الْمُقَدَّرَاتِ. وَلَكِنَّ الشُّعْبَ بَدَأَ يَسْتَيْقِظُ وَيَسْتَفِيقُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ مِنْ سُبَاتِهِ الْعَمِيقِ، فَزَأَى أَفْتِنَاتًا عَلَى حُقُوقِهِ، وَرَأَى آتِيَهَابًا وَاعْتِصَابًا فِي كُلِّ الْمَرَافِقِ، وَلَمَسَ الْفَسَادَ يَدْبُ فِي طُرُقِ الْإِجْرَاءِ وَالْإِدَارَةِ وَشَعَرَ بِالْحَاجَةِ الْمُلِحَّةِ إِلَى الْإِصْلَاحِ، فَمَضَى مُغْلِنًا الثَّوْرَةَ، وَدَقَّ النَّاقُوسَ الشَّعْبِيَّ الْأَقْدَسَ.

وَلَمْ يَجِدْ بَعْدَ زَوْبَعَتِهِ مُصْلِحًا يَنْسَجِمُ مَعْ مُبُولِهِ إِلَّا عَلِيًّا، فَتَرَامَى الشُّعْبُ فِي أَحْضَانِهِ، وَسَقَطَ بِكُلِّكَلِهِ عَلَيْهِ.

فَالْحِزْبُ الْأُمَوِيُّ كَانَ يَعْمَلُ بِوَحْيٍ خَاصٍّ وَلِمَآرِبٍ خَاصَّةٍ عَلَى مَنَهِجٍ مُقَرَّرٍ، وَبِرُغْمِ الظُّرُوفِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي غَمَرَتْهُ لَمْ يَجِدْ لِحَرَكَاتِهِ طَائِعًا خَاصًّا لَا يَتَغَيَّرُ، فَعَهْدُ مُعَاوِيَةَ كَعَهْدِ عُثْمَانَ فِي الْجَوْهَرِ السِّيَاسِيِّ عِنْدَ التَّدْقِيقِ وَالْعُمُقِ، وَمِيزَةُ عَهْدِ عُثْمَانَ أَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ اتِّصَالًا بِالرَّأْيِ الشَّعْبِيِّ فِي السِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّهُ كَانَ التَّجَرِبَةُ الْأُولَى مِنْ تَجَرِبَاتِ الْحِزْبِ، وَأَنَّهُ نُقْلَةٌ بَيْنَ عَهْدَيْنِ. ثُمَّ تَسَنَّى لِلْحِزْبِ فِي الدَّوْرِ الثَّانِي، أَيُّ فِي عَهْدِ مُعَاوِيَةَ، أَنْ يَحْكُمَ بِصُورَةٍ مُبَاشَرَةٍ، وَأَنْ يُعْطَلَ الصَّلَاحِيَّاتِ الشَّعْبِيَّةُ وَيُكْمَمَ الْحَرِّيَّاتِ، وَيَتَحَلَّلَ مِنْ كُلِّ مَسْئُولِيَّةٍ أَمَامَ الشُّعْبِ، وَلَمْ يَعُدْ يَعْتَرِفُ بِالرَّقَابَةِ الشَّعْبِيَّةِ عَلَى أَيْةٍ أَشْكَالِهَا.

هَذَا هُوَ الْحِزْبُ الْأُمَوِيُّ السَّرِّيُّ بِأَشْكَالِهِ وَأَهْدَافِهِ بِالْقَدْرِ الَّذِي وَضَحَ لِي، وَعَسَى أَنْ يَجِدَ الْمُؤَرِّخُونَ مَا يَجْعَلُهُمْ أَقْدَرَ عَلَى تَشْخِصِهِ. وَهَذَا الْحِزْبُ تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ بِحَسَبِ



الظُروف، فكانَ أَوَّلًا القُرَشِيُّ<sup>(١٧)</sup> لَأَنَّهُ نَصَّبَ نَفْسَهُ مُدَافِعاً عَنِ قَضِيَّةِ قُرَيْشٍ، ثُمَّ العُثْمَانِيُّ لَأَنَّهُ قَامَ دِفَاعاً عَنِ الدِّمِ المَطْلُولِ، ثُمَّ الأُمَوِيُّ وَقَدْ تَكَشَّفَ مِنْ أَسْتَارِهِ فِي عَهْدِ مُعَاوِيَةَ.

**٣- حزب الشعب:** كَانَ يَجْمَعُ جُمهُورَ العَرَبِ الَّذِي أَحْسَنَ بَعْدَ صِلَاحِيَّةِ الوَضْعِ الرَّاهِنِ لِلْمَجْتَمَعِ، وَأَنَّ الإِصْلَاحَ يَجِبُ أَنْ يَمَسَّ كُلَّ شَيْءٍ، مُتَنَاوِلًا الأَسَاسَ أَيْضاً. شَعَرَ هَؤُلَاءِ بِأَنَّ الهَيْئَةَ الحَاكِمَةَ الَّتِي فُرِضَتْ عَلَيْهِمْ فَرَضاً لَمْ تُعَدِّ تَطَاقُ، وَأَنَّ ضَغْطَهَا آخِذٌ فِي الزِّيَادَةِ فَفَرَّوْا الثَّوْرَةَ، بَعْدَ أَنْ وَجَدُوا أَنَّ لَا مَذْهَبَ عَنْهَا وَلَا مَجِيدَ، وَأَنَّهَا العِلاجُ الوَحِيدُ لَطُغْيَانِ المُشْتَدِّينَ لِلْحُكْمِ الَّذِينَ لَمْ يَفْهَمُوا حَقِيقَةَ تَمثِيلِهِمْ.

وَالْحُكُومَةُ الجُمهُورِيَّةُ، إِذَا تَجَاوَزَتْ فِي فَهْمِ صِلَاحِيَّاتِهَا، أَوْ بَعَارَةِ أَصَحِّ إِذَا فَسَدَتْ، كَانَتْ نَكْبَةً أَشَدَّ مِنَ النُّكْبَةِ بِالمَلِكِ المَسْتَبِدِّ أَوْ الدِّيكتاتورِ الحَاكِمِ بِأَمْرِهِ - كَمَا يَقُولُ جُون سْتِيوارْت مِيل فِي كِتَابِ الحُرِّيَّةِ - لِأَنَّ الوَضْعَ فِي رَأْيِهِ لَمْ يَخْرُجْ عَنِ اسْتِبْدَادِ الفَرْدِ إِلَّا إِلَى اسْتِبْدَادِ الجَمَاعَةِ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ هَؤُلَاءِ.

وَقَدْ وُفِّقَ الشَّعْبُ المُضْطَرِّمُ إِلَى مُعَلِّمِ ثَوْرِيٍّ هُوَ، كَمَا أَقْدَرُ وَيُظْهَرُ لِلوَهْلَةِ الأُولَى، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ، فَصَاحَ مَطَالِبَ الإِصْلَاحِ بِأُسْلُوبٍ مُوجِزٍ مُغَرٍّ، يَجْعَلُهَا قَمِينَةً بِسُرْعَةِ الانْتِشَارِ. وَكَانَ أَكْبَرَ شَخْصِيَّاتِ الحِزْبِ الشَّعْبِيِّ فِي الشَّامِ أَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ (ض)، وَفِي العِرَاقِ الأَشْثَرُ النَّخَعِيُّ، وَفِي مِصْرَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُذَيْفَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ. وَهَذَا الحِزْبُ يُمَثِّلُ المُعَارِضَةَ المُتَطَرِّفَةَ. وَنَحْنُ إِذَا أَطْلَقْنَا عَلَيْهِ كَلِمَةَ حِزْبٍ فَيَتَجَوَّزُ وَتَوَشَّعَ، وَإِلَّا فَالحِزْبُ بِالمَعْنَى المَعْرُوفِ لَنَا اليَوْمَ لَمْ يَكُنْ صِفَةً إِلَّا لِلْحِزْبِ الأُمَوِيِّ خَاصَّةً.

**٤- حزب علي (ع) أو الحزب المحافظ:** كَانَ هَذَا الحِزْبُ يَضُمُّ إِلَيْهِ أَكْثَرَ ذَوِي السَّابِقَةِ فِي الإِسْلَامِ، وَيَقُومُ عَلَى مَبَادِيءِ المَثَلِ الأَعْلَى الَّذِي فَرَضَهُ الدِّينُ الجَدِيدُ. وَمُهَيْمُنُهُ

(١٧) أَذْرَكَ عَلِيٌّ (ع) العَرَضَ المَقْصُودَ وَرَاءَ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ الَّتِي كَانَتْ تُغْنِي الأُمُوَّةَ، فَحَارَبَهَا كَثِيراً، وَنَهَجَ البَلَاغَةَ مَلِيءٌ بِذَلِكَ.



إرشاد الحكومة وتسييد خطواتها حتى لا يستعجل بها الظرف ويتأزم عليها. وبذلك كان يعمل في حدود المعارضة المعتدلة، ويقوم بدور الرقيب على تصرفات الحكومة ودور الكفيل لمصالح الشعب في حدود المنهج الإسلامي القويم. وكان في الوقت نفسه يغطي على الحزب الشعبي المتطرف ويكبح جماحه. ولم يفتأ حزب المحافظين عن تصحيح أساليب الحكم المتبعة، والعمل على إبقاء الصلة بين الهيئة الحاكمة والهيئة الشعبية لهذه، فكان أحياناً، وفي بعض المناسبات، ضامناً أمام الشعب الهائج للهيئة الحكومية ليخفف من حدته وغلوائه. وقد قلت في سمو المعنى في سمو الذات، «لولا وجود علي (ع) في خلافة عثمان لانهارت من أول عاصفة، ولكن علماً كان دعائمها وسندها المتين»<sup>(١٨)</sup>. وإليك هذه القصة التي ذكرها المشعودي، قال: «لما جاءت جموع الأمصار إلى المدينة وأخبر بهم عثمان بعث إلى علي بن أبي طالب، فأخضره وسأله أن يخرج إليهم ويضمن لهم عنه كل ما يريدون من العدل وحسن السيرة، فسار علي إليهم، فكان بينهم خطب طويل فأجابوه إلى ما أراد وأنصرفوا».

نعلم من هذا أن حزب علي (ع) كان يقوم بالنصح والإرشاد والتوسط أحياناً لحل المشاكل الداهية أو المفاجئة. والذي كان يبعث الشعبين على الاطمئنان إلى شخصيات هذا الحزب، أنهم يمثلون العهد الذهبي للإسلام، أي عهد النبي (ص)، ولأن علي رأسهم أكتبر قانوني ومشرع، يستطيع أن يعبر عن أمانيتهم ويوجه الهيئة الحاكمة إليها. ولكن تطرف هذه الهيئة نتج عنه تطرف الهيئة الشعبية أيضاً ودخلها اليأس من صلاحها، ووقعت الثورة التي لم يعد منها مناص، وتخطى الشعب الحزب المحافظ الذي يحترمه وعمل بنفسه.

(١٨) راجع كتاب: سمو المعنى في سمو الذات، ص ٣٨.



وكان من أكبر شخصيات حزب المحافظين علي (ع)، وأبو أيوب الأنصاري وعبدالله بن عباس، وعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود.

**٥- الحزب الشعوبي:** هذا الحزب كان يضم المؤثرين من ذوي الحكومات المنقرضة والأمم المنحلة. وهم يعملون بين الضغينة والمزاج العقلي المؤروث على تسميم مجتمع العرب، وبالفعل ظهر تأثيرهم الكبير على أفئدة العرب الغضة، وعمل عمله الخطير بينهم. غير أن مدى حركتهم لم يكن يغدو نفث الأفكار المفرقة والتعاليم المؤججة، أو أن يستخدموا كأدوات هدامة<sup>(١٩)</sup> في أيدي الأحزاب القويّة. ومثلهم في مجتمعنا اليوم كمثّل الأقليات المأجورة المسمّمة التي تكون باباً إلى الأمة الناهضة المتماسكة، وهذه الأقليات التي لا تنسجم مع الأمة في مزاجها العقلي وروحها الشعبيّة أو الميليّة، كما يُعبّر لوبون، ثم لا تُشاركها في شيء من وراثتها، لا تكون سوى معاوّل للتخريب، فيها من معنى التخريب، وفيها من قوّة المغول.

وكانت الأقلية في المجتمع الإسلامي الأول هي البقية المنهوكّة من كلّ أمة أطاحها الإسلام وهوى بها. ويعرف التاريخ من شخصيات هذا الحزب أبا لؤلؤة وجفينة وكعب الأخبار والهزئان، لأنهم آفترنوا آفتراناً وثيقاً بحادث الاغتيال الفظيع.

**٦- حزب أهل المدينة:** هذا الحزب أكّد وجوده المستشرق فان فلوين في كتابه السيادة العربيّة، قال: «والمؤمنون إليه يعتبرون أن وصول بني أميّة إلى الحكم، معناه أنصار

(١٩) للمرحوم حافظ بك إبراهيم الشاعر المصري الكبير أبيات جميلة حكيمة في هذا المعنى ضمنتها قصيدته العتريّة وهي:  
والله ما غالها قذماً وكاد لها  
لؤ أنها في صميم العرب قد بقيت  
يا ليتهم سمعوا ما قاله عمر  
لا تكثروا من مواليكُم فإن لهم  
وأجئت ذؤختها إلا مواليتها  
لما نعاما على الأيام ناعيتها  
والروح قد بلغت منة تراقبها  
مطامعاً بسماك الضفد تخفيها



أعدائهم القدامى من مُشركي مَكَّة.

ونحن لا نَسْتَبْعِدُ وُجُودَ حِزْبٍ لِهَذَا الطَّائِفِ وَهَذِهِ الْمِسْحَةُ، بَلْ لَدَيْنَا شَوَاهِدُ تَارِيخِيَّةٌ تُشْجِعُ عَلَى الْمُضِيِّ فِي اعْتِمَادِ الرَّأْيِ الْمَذْكُورِ. وَكَانَ، كَمَا يَظْهَرُ، يَعمَلُ ضِدَّ الْحِزْبِ الْأُمَوِيِّ بِالذَّاتِ، وَيُقَاوِمُهُ مُقَاوِمَةً عَنِيفَةً، وَيُسَيِّئُ بِهِ الظَّنَّ. وَالَّذِي جَعَلَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَنْشَطُونَ لِصِرَاعِ الْأُمَوِيَّةِ تَعَلُّقُ هَؤُلَاءِ بِالِدَّعْوَةِ لِقَضِيَّةِ قُرَيْشٍ تَعَلُّقًا مُفْرِطًا بِمَا أَخْرَجَهُمْ وَجَعَلَهُمْ يَتَمَلَّكُونَ، وَبِذَلِكَ نَظُنُّ بِأَنَّهُ قَدْ كَانَ لِلْغِلَابِ التَّارِيخِيِّ الْقَدِيمِ بَيْنَ مَكَّةَ، بِرَمَزِ الْأُمَوِيَّةِ، وَالْمَدِينَةِ، عَوْدَةٌ مَرَّةً أُخْرَى، وَبِالْأَخَصِّ حِينَمَا نَافَسُوهُمْ عَلَى الْمَدِينَةِ مَوْطِنِهِمُ الْعَتِيقِ.

عَلَى أَنَّ الشَّبَابَ فِي الْمَدِينَةِ، وَهُمْ النَّاشِئَةُ الْجَدِيدَةُ كَانُوا أَكْثَرَ (٢٠) نَزَقًا وَآئِدِفَاعًا، وَلَهُمْ أَيْضًا تَفَكِيرُهُمُ الْخَاصُّ فِي الْخِلَافَةِ وَمَا يَتَّبَعُهَا مِنَ الشُّؤُونِ السِّيَاسِيَّةِ، كَمَا وَجَدُوا أَنَّ الضَّمَانَ الَّذِي قَطَعَهُ الْخَلِيفَةُ الْأَوَّلُ لَهُمْ، بِأَنَّهُمُ الْوُزَرَاءُ، لَمْ تَسْعَ حُكُومَةٌ إِلَى تَحْقِيقِهِ فَتَحَمَّسُوا وَلَجُّوا فِي الْحِمَاسِ وَخُصُوصًا فِي أَوَاخِرِ عَهْدِ عِثْمَانَ، وَاتَّصَلَ إِلَى عَهْدِ يَزِيدَ. وَهَذَا كِشَابٌ بِالْغِ النَّزَقِ وَمُضْغِينَ ذِي إِحْنَةٍ وَتِرَاتٍ جَرَبَ أَنَّ يَضْرِبَهُمْ ضَرْبَةً حَاسِمَةً قَاسِيَةً.

وَكَانَتْ لِلْأُمَوِيِّينَ سِيَاسَةٌ خَاصَّةٌ نَحْوَ الْمَدِينَةِ تَقُومُ عَلَى:

أَوَّلًا: تَسْمِيَةُ الْمَعْنَوِيَّةِ الْمِثَالِيَّةِ فِيهِمْ، وَبِذَلِكَ يَسْقُطُ مَكَانُهُمُ الْأَدَبِيُّ فِي النَّظَرِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَامِّ فَشَجَّعُوا الْمُجُونَ (٢١) وَاسْتَأْجَرُوا طَوَائِفَ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَالْمُخَنَّثِينَ لِيُنْشُرُوا حَيَاةَ تَقَرُّبٍ فِي أَلْوَانِهَا مِنَ الْإِبَاحِيَّةِ.

ثَانِيًا: أَخَذَهُمُ بِالْعُنْفِ دَائِمًا، فَوَلَّوْا أَمْرَاءَ أَضْطَهَادِيِّينَ.

ثَالِثًا: تَخْصِيصُ زُمْرَةٍ مِنْ أَعْلَامِ الْأَدَبِ يُهَاجِمُونَهُمْ بِكُشْفِ سَوَاءَاتِهِمْ، وَكَانَتْ مِنْزِلَةُ

(٢٠) رَاجِعْ قِصَّةَ تَحْدِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانَ لِلْأُمَوِيِّينَ وَغَيْبِهِ بِهِمْ فِي الْأَغَانِي.

(٢١) رَاجِعْ كِتَابَ: سَمَوُ الْمَعْنَى فِي سَمَوُ الذَّاتِ، ص ٢٧ - ٢٨.



هؤلاء الأعلام في العصور القديمة كمنزلة الصحفيين اليوم، يتوسل بهم إلى نشر الدعايات. ويشهد لهذا أن معاوية لما أراد العهد ليزيد<sup>(٢٢)</sup> استخدم طائفة من الشعراء منهم المشكك الدارمي الذي يقول:

إذا المنبر الغربي خلى مكانه فإن أمير المؤمنين يزيد  
ومن شخصيات حزب أهل المدينة قيس بن سعد بن عبادة، وعبد الرحمن بن حسان.

هذه أحزاب رئيسية استخلصت خبرها مستأنساً بإشارات متفرقات، كان لها آثار متفاوتة إلا أنها شرع سواء فيما أحدثته من تيارات متعاكسة متدافعة جعلت المجتمع يثور ويضطرب في حركات جذرية عنيفة تتصل بالأغوار. وهناك أحزاب ثانوية أخرى، ونثبها هنا كما وردت في سمو المعنى في سمو الذات. وقد أنصرفنا<sup>(٢٣)</sup> هناك، في مقدمة الكتاب المذكورة، إلى تحليل نشوء هذه الأحزاب الثانوية، بحضر عمر الانتخاب في عدد مخصوص «فإن هذا التعيين أوجد حزبية وبيلة، وهياً لها أن تعمل أسوأ أعمالها، ولم تقف عند حدود التجاح أو الفشل في الانتخاب فحسب وإلا هان أمرها. والذي يجب أن نفهمه جيداً أن حضر الترشيح في عدد جعل لكل مرشح حزباً يناصره بضرورة حضر دائرة الانتخاب، وزاد في حرج الانتخاب أن ينص على الحكم الانتخابي (عبد الرحمن بن عوف) مما يسهل سبيل الظفر لحزب بعينه إذا استطاع أن يستميل الحكم، ولقد كان كذلك بالفعل». وهذه الأحزاب الثانوية هي:

٧- حزب طلحة والزبير: وهذا حزب يقوم على عصبية شخصية بسبب ما منيا به من

(٢٢) راجع كتاب: الشعر والشعراء لأبي قتيبة. ويؤذى البيت على وجه آخر هو: إذا المنبر الغربي خلأه ربه.

(٢٣) يخش جداً مراجعة هذا البحث في كتاب: سمو المعنى في سمو الذات، ص ٢٩ - ٣٦.



فشل في الانتخاب، وكان يُنْضَوِي إليه بعض من الناقمين على سياسة عثمان، ومن أكبر شخصيات هذا الحزب عائشة.

٨- حزب أبناء عمر بن الخطاب: هذا حزب لا يُحَدِّثُنا التاريخ عنه كثيراً، ولا يُسَجِّلُ له ظهوراً، ولكنني أَرْجُحُ أنه قد كان. فإن موقف عمر من أهل بيته لم يكن مُرضياً ووجد في الناس من يدعو لآل الخطاب، ومن أكبر الشخصيات المُنتَسِبة إليه أبو موسى الأشعري الذي رأينا من خروجه على صلاحية الحكم في صفين إلى إسقاط الإمام القائم ومعاوية، وترشيح عبد الله بن عمر للخلافة التي لم يَرها له أبوه (ض).

٩- الحزب الأموي المنشق: كان يعمل ضد الخليفة بالذات، ويقوم بدور الجاسوسية عليه لحساب بعض الأحزاب، كحزب طلحة - على ما يظهر من قصة ذكرها المشعودي - ومن أكبر شخصياته عمرو بن العاص.

فهذه الحزبيات المتصارعة أدت إلى حالة من الاضطراب والشعور المشترك بالحاجة إلى الإصلاح.

والحقيقة الواضحة هي أن الحزب الأموي كان يزمي إلى إعداد ثورة في المجتمع تُغيِّر كل شيء، وتأتي على ما هو معروف من أوضاع، ما دامت مُتَحَكِّمة بالشعب فلن يستطيع تحقيق أهدافه التي يسعى إليها جهده. وقد رأينا من أهدافه التي ذكرناها، وغيبنا بإحصائها من الظواهر التي صاحبت حكمه، أنه كان يبغي التحلل المطلق والسيطرة المطلقة، وقد نجح في كل شيء، وأهم ما نجح فيه أن الثورة طالت وألقت على نفسها بحيث أتت على الطبقة القديمة التي كان يزهبها كثيراً ويفرق منها كثيراً، وبذلك مرق أعصاب الشعب أيضاً وحمله على الاستكاثرة.

إن الثورة، حينما طال أمدها، أطاحت بأكثر الزعماء والجمهرة الإسلامية الأولى،



وأنهَكَت قُوى الجمهور، فَرَضِي بِالْأَمْرِ الْوَاقِع. وهذا الشُّعُورُ الَّذِي لَمَسَهُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ (ع)  
ظاهراً واضحاً في نَفْسِيَّةِ الجمهورِ حَمَلَهُ عَلَى الْمُسَالَمَةِ وَوَضَعَ أَوْزَارَ الْحَزْبِ.  
ونَتَائِجُ هَذَا الْفَصْلِ هِيَ:

أ - أَنَّ الْحَزْبِيَّةَ عَلِقَتْ بِمَجْتَمَعِ الْعَرَبِ وَكَانَتْ مُغْرِضَةً نَفْعِيَّةً فِي أَكْثَرِ جِهَاتِهَا  
وَحَالَاتِهَا.

ب - أَنَّ الْحَزْبَ الْأُمَوِيَّ كَانَ يَزْمِي إِلَى تَغْيِيرِ كَافَّةِ الْأَوْضَاعِ، وَكَانَ يَقُومُ بِدَوْرِ  
الْمَعَارِضَةِ الْمُتَطَرِّفَةِ الْحَزْبِ الشُّعْبِيِّ، وَبَدَوِ الْمَعَارِضَةِ الْمَعْتَدِلَةِ حَزْبِ الْمُحَافِظِينَ.

ج - أَنَّ الصَّرَاعَ الرَّهِيْبَ كَانَ بَيْنَ الْحَزْبِ الْأُمَوِيِّ، مِنْ جِهَةٍ، وَالْحَزْبِ الشُّعْبِيِّ وَحَزْبِ  
أَهْلِ الْمَدِينَةِ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَمَعَارِضَةُ الْأَوَّلِ كَانَتْ مِنْ وَجْهَةٍ سِيَاسِيَّةٍ، بَيْنَمَا كَانَتْ  
مَعَارِضَةُ الثَّانِي مِنْ وَجْهَةٍ نَفْسِيَّةٍ مَحْضَةٍ.

د - أَنَّ الثُّورَةَ مِنْ بَعْضِ جَوَانِبِهَا، كَانَتْ وَلِيدَةً صِرَاعِ الْحَزْبِيَّاتِ.



\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_



## القديم والجديد

من طبيعة المجتمعات أنها تظل في حالة تغير وتزاييل دائمة، فأى مجتمع لا يبقى حافظاً لأوضاعه أمداً طويلاً، بل يطلب أشكالاً جديدة، وخصوصاً حين يتصل ويختك بمجتمعات أخرى، فإنه يتأثر بها إلى نسب متفاوتة. وهذا راجع إلى الطبيعة في الكائن الحي الذي يؤلف المجتمع. وقد كشفنا في التصدير عن مقدار ما يعرض للمجتمع بأغتياره كائناً مركباً يعرض له ما يعرض للكائن البسيط، هذه الخاصة في كل من الكائن الحي والكائن الاجتماعي على نسبة متقاربة، هي الأساس الذي بنينا عليه النظرية الجديدة في التاريخ. فالارتقاء خاصية لازمة للجماعة ما لم تحل الموانع دون عملها، وهذا هو التجديد.

إذا فتجدد المجتمع ضربة لازب، وهذا بعينه ما صادف المجتمع العربي الوليد، حين مالت الجماعة الأولى إلى الزوال مفسحة المجال ليحل محلهم نشء جديد له أفكاره وميوله ومذاهبه، وهذا النشء، بما اجتمع له من أشكال اجتماعية وأوضاع مدنية للأمم شتى، كوّن لنفسه فكرة ولونا متميزاً، ودخل بأشياءه الجديدة في دور صراع مع الجماعة الأولى بأشياءها القديمة، وتفاعل الجديد مع القديم تفاعل تناحر ضرورة أن كلا منهما يتشبث بأسباب البقاء.



ولعلَّ أحداً لا يَشْكُ بأنَّ محمدَ بنَ أبي بكرٍ كانَ يَنْظُرُ إلى الحياةِ من غيرِ النَّاحِيَةِ الَّتِي كانَ يَنْظُرُ منها أبوه. فالنَّظَرَةُ العامَّةُ له آنَحَرَفَتْ في كثيرٍ أو قليلٍ. كما نَلِمُسُ أيضاً تأثُّرَ كثيرٍ من رجالِ القَدِيمِ بالألوانِ الجَدِيدَةِ الَّتِي آنْتَقَلَتْ إلى العربِ بضمِّ مُجتمعاتٍ كثيرةٍ ذاتِ حضارةٍ سامِيَّةٍ، وكانَ من هؤلاءِ طوائِفُ كبيرةٍ من مِثْلِ طَلْحَةَ والزُّبَيْرِ وزيدِ بنِ ثابتٍ وعبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ ويَعلى بنِ أمِيَّةٍ الَّذِينَ أَخَذُوا بِالْثَّرَفِ وحياةِ الغُضارةِ النَّاعِمَةِ، فَاسْتَكْثَرُوا مِنَ الْأُمُوالِ، ومالوا إلى آغْتِناقِ النُّظامِ الأرستقراطيِّ مُتأَثِّرِينَ بِوَضْعِ الْأُمَمِ الَّتِي فَتَحُوهَا، وَتَنْصَلُوا بِدَرَجَةٍ كبيرةٍ مِنَ النُّظامِ الديمقراطيِّ الَّذِي فَرَضَتْهُ الطَّبِيعَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَالَّذِينَ<sup>(١)</sup>. وهذا ما كانَ يَتَخَوَّفُهُ النَّبِيُّ (ص). فَقَدْ وَرَدَ في أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يَفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ، وَإِنْ مِمَّا يُنْبِئُ الرِّبِيْعُ مَا يَقْتُلُ<sup>(٢)</sup> حَبْطاً أَوْ يُلِيمُ إِلَّا آكِلَةً<sup>(٣)</sup> الْحَضِرِ فَإِنَّهَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا آمْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَعَتْ، وَإِنْ هَذَا الْمَالُ خَضِرَةٌ حُلُوءَةٌ وَنِعَمٌ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ، هُوَ لِمَنْ أَعْطَاهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعَمَ الْمَعُونَةُ هُوَ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ وَيَكُونُ شَهِيداً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

فَالنَّبِيُّ (ص) يُحَذِّرُ مِنَ التَّعَلُّقِ بِمَا سَمَّاهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا كَأَنَّهُ كَانَ يَسْتَقْبِلُهُ وَقِيعاً مَادِيّاً مَخْسُوساً.

- 
- (١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ نَسَبَهُ إِلَى حَيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ اسْمُهُ خُذْرَةَ، وَذَكَرَهُ الْمَيْدَانِيُّ فِي مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ.  
(٢) هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ النَّبِيُّ لِلْمُتَزَيِّدِ الْمُفْرِطِ فِي جَمْعِ الْمَالِ مِنْ أَيْةٍ طَرِيقِيٍّ، وَحَبِطَتِ الدَّابَّةُ حَبْطاً إِذَا أَصَابَتْ مَرْعَى طَيِّباً فَأَفْرَطَتْ فِي الْأَكْلِ حَتَّى تَنْتَفِخَ وَتَنْشَقُّ أَمْعَاؤَهَا وَتَهْلِكَ.  
(٣) هَذَا مَثَلٌ لِلْمُقْتَصِدِ فَإِنَّ الْحَضِرَ لَيْسَتْ مِنْ أَخْرَارِ الْبَقُولِ وَإِنَّمَا تَنْبُثُ بَعْدَهَا، فَضَرَبَهَا النَّبِيُّ (ص) مَثَلاً لِمَنْ يَقْتَصِدُ فِي أَخْذِ الدُّنْيَا فَهُوَ يَنْجُو مِنْ أخطارِها كما نَجَتْ آكِلَةُ الْحَضِرِ، فَإِنَّهَا إِذَا شَبِعَتْ مِنْهَا بَرَكَتْ مُسْتَقْبَلَةُ الشَّمْسِ تَسْتَمِرُّ بِذَلِكَ مَا أَكَلَتْ وَتَجْتَرُّ. رَاجِعْ مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ لِلْمَيْدَانِيِّ فِي الْمَثَلِ «إِنْ مَا يُنْبِئُ الرِّبِيْعُ مَا يَقْتُلُ حَبْطاً أَوْ يُلِيمُ»، ص ٧ - ٨.



إِذَا، فَقَدْ كَانَ فِي الْمَجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْأَوَّلِ الَّذِي نَعْنَى بِدَرَسِهِ قَدِيمٌ وَجَدِيدٌ، وَهَذَا الْأَخِيرُ تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ وَتَنْتَصِرُ لَهُ أَكْثَرِيَّةُ الشَّبَابِ، وَطَوَائِفُ كَبِيرَةٍ مِنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ عَاشُوا النَّبِيَّ (ص) طَوِيلًا.

وكَانَتْ فِكْرَةُ الْجَدِيدِ تَقُومُ عَلَى الْأَرِسْطَقْرَاطِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَظَهَرَتْ فِي التَّنَافُسِ عَلَى الْإِمَارَاتِ الْمَدَنِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ، وَعَلَى التَّزْيِيدِ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَعَلَى التَّحَلُّلِ بِالْحَيَاةِ الْمُتَخَفِّفَةِ مِنَ الْقُيُودِ، وَإِعْطَائِهَا صِفَةً مِنَ الْحَرِّيَّةِ أَكْثَرَ سَعَةً.

وكَانَتْ فِكْرَةُ الْقَدِيمِ تَقُومُ عَلَى قَاعِدَةٍ تُنَاقِضُ ذَلِكَ مُنَاقِضَةً تَامَّةً، فَهُوَ يُؤَيِّدُ الدِّيمَقْرَاطِيَّةَ، وَيُبِيحُ الْأَخْذَ مِنَ الْأَمْوَالِ بِقَدَرٍ فَقَطْ، وَيَتَشَدَّدُ فِي الْقُدُورَةِ وَاتِّبَاعِ الْأَوْضَاعِ. فَالْهُوَّةُ بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ كَانَتْ وَاسِعَةً، وَزَادَتْ مَعَ الْأَيَّامِ سَعَةً وَأَمْتِدَادًا. فَلَا بُتْعَادُ آتِصَلَ بِالْعَقْلِيَّةِ وَالْفِكْرَةِ وَالشُّعُورِ، مِمَّا جَعَلَ نَظْرَةَ كُلِّ إِلَى أَشْيَاءِ الْحَيَاةِ تَخْتَلِفُ عَنِ الْأُخْرَى.

وَنَعْرِضُ الْآنَ لِلْعَوَامِلِ الَّتِي نَزَعَتْ بِالنَّاسِ إِلَى التَّجْدِيدِ وَالْبُعْدِ شَيْئًا فَشَيْئًا عَنْ خُطَّةِ الْوَضْعِ الْقَدِيمِ، وَالَّذِي وَضَعَ لِي مِنْهَا، عِدَا الْإِزْتِقَاءِ الطَّبِيعِيِّ، هِيَ:

أَوَّلًا - الْعَقْلِيَّةُ الْفِطْرِيَّةُ: وَهِيَ تَمِيلُ دَائِمًا إِلَى الْإِخْتِزَاءِ وَالثَّقَلِيدِ، فَالْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ آتَسَعَتْ بِسَهُولَةٍ وَشُرْعَةٍ، وَاهْتَضَمَتْ عَنَاصِرَ شَتَّى وَنُظْمًا كَثِيرَةً، وَبِحُكْمِ فِطْرِيَّتِهَا آخَذَتْ أَكْثَرَ أَلْوَانِهَا. وَظَهَرَ فِي التَّجْدِيدِ اخْتِلَافٌ أَيْضًا، لِأَنَّ الْعَرَبَ كَشَعِبٍ غَيْرِ ثِقَافِيٍّ فِي بَدَاعَتِهِمْ، فَقَدْ تَأَثَّرَ كُلُّ قَبِيلٍ مِنْهُمْ بِأَوْضَاعٍ وَنُظُمِ الْأُمَمِ الَّتِي حَلُّوا عَلَيْهَا، فَالَّذِينَ نَزَلُوا أَرْضَ فَارَسَ تَأَثَّرُوا بِلَوْنِ الْحَيَاةِ الْفَارَسِيَّةِ وَقَامَتْ فِي نُفُوسِهِمْ فِكْرَةُ الْبَيْتِ الْمَالِكِ. وَكَذَلِكَ كَانَ شَأْنُ الَّذِينَ حَلُّوا بِلَادَ الرُّومِ. وَهَذَا وَجْهٌ أَفْكَارِ الْعَرَبِ وَجْهَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ كَانَ لَهَا أَثَرُهَا فِي التَّشْرِيعِ وَالْاجْتِمَاعِ وَالنَّظَرِ الْعَامِّ. وَعَلَيْهِ فَلَمْ تَكُنْ لِلتَّجْدِيدِ صِفَةٌ بَعِيْنَهَا، بَلْ كَانَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ اللَّوْنِ الَّذِي آغْتَنَّقَهُ الْعَرَبِيُّ بِحُكْمِ الْبَيْئَةِ الْجَدِيدَةِ. وَمِثْلُ هَذَا الْإِخْتِلَافِ الْوَاقِعِ فِي نَزْعَةِ التَّجْدِيدِ، الْإِخْتِلَافُ بَيْنَنَا الْيَوْمَ. فَإِنَّ الْمُثَقَّفَ مِنْ بَنَائِغِ لَاتِينِيَّةٍ يَنْصُرُهَا وَيَجْتَهِدُ بِتَحْوِيلِ مُجْتَمَعِهِ إِلَيْهَا، وَكَذَلِكَ الْمُثَقَّفُ مِنْ



ينابيع ألمانية أو سكسونية أو روسية. فاختلاف نزعة التجديد في العهد الأول الإسلامي كان خاضعاً لاختلاف البيئة الجديدة، وفي عهدنا خاضع لاختلاف ينبوع الثقافي.

ثانياً - أطماع الشيوخ: وهم من الطبقة القديمة إلا أن احتكام نفوسهم بأطماع لا حد لها جعلهم ينزعون قسراً إلى الجديد، ويعتقونه في ظمأ وأطمئنان. فهم حينما وجدوا قنونا لا حد لها ومغريات لا عهد لهم بمثلها، نزع نفوسهم إليها، كما ينزع السهم من اليد التي كانت تمسكه، مندفعين بشيء من ميولهم كالوتر الذي أكتسب السهم قوة الاندفاع والاستمرار.

والملاحظ على البدائيين أنهم أكثر تحللاً في سبيل هوى النفوس، بحيث لا يزعمون لشيء من أشياء القديم إلا ولا ذمة، ما دام في الجديد ما يرضي رغائبهم المكبوتة. وهذه الظاهرة تعلل بالظمأ الطبيعي أو الكبت الطبيعي، فإن البداوة لا تكبت على المرء شهواته إلا بمقدار، فهو حين يجد سبيلاً إليها ينقلب ملكياً أكثر من المليك. وهذا ما رهبه النبي (ص) في الحديث السابق وأسماء «زهرة الدنيا» ورغب عنه. إن النبي، ذا النظر العميق في أسرار النفوس وطبائعها، اعتمد في تهذيب العرب على كل الطرائق التربوية التي تهيئ الاختمار الناقل للوراثات. إن كهربائية الوراثة الممتدة إنما تصنع أسلاكها من مادة الاختمار.

ثالثاً - الشباب وأطماعهم: كثر الشباب كثرة مطلقة، واختلوا مكانهم في الحياة العامة، وعمدوا إلى المساهمة فيها بأفكارهم وأحاسيسهم، ولا ريب في أنها لا تتفق في كثير مع أفكار الشيوخ وأحاسيسهم، فظهرت التفاوت المنطقي بين الفئتين، كما أن الشباب يكونون أسرع تأثراً بما يرضي الغرائز ويشيع فيها النشوات. فالحركة السريعة للفتح العربي وجدت سبيلها إلى أفئدة الشباب فطفرت بهم.

رابعاً - الغنى المفاجيء: نقل الشباب وطائفة من الشيوخ إلى جانب آخر غير



الجانب الذي كانوا يسيرون فيه، وغمسهم غمساً بمثل ألوان الترف عند الأمم التي حكموها.

خامساً - قوة الضعفاء: هذه القوة على الدوام تُنتج الميل إلى الأرستقراطية، وقد وقع هذا الملحظ في خاطر أبي تمام الشاعر فعبر عنه تعبيراً فذاً:

وضعيفة، فإذا أصابت فرصة

قتلت كذلك قذرة الضعفاء

سادساً - ظهور المرأة: وهي كثيراً ما تنساق بحوافز عاطفية لا تتسع للأفكار الكلية العامة، وإنما تفكر تفكيراً جزئياً خاصاً، فكان لها أثر في التوجيه الجديد. وقد ظهرت المرأة بحركات كبيرة استقلالية في مناسبتين:

أ - يوم الردة في أمرأتين إحداهما سجاح بنت الحارث وتقدم خبرها<sup>(٤)</sup>. والأخرى هي سلمى ابنة مالك بن حذيفة<sup>(٥)</sup> التي سببت أيام رسول الله (ص) ووقعت لعائشة فأغتقتها، وقد قادت جموع غطفان وهوازن وسليم وأسد وطىء نائرة، فنزل خالد بن الوليد عليها وعلى جماعها فأقتلوا، وهي واقفة على جمال أمها. وكانت مزهوبة عظيمة المنزلة تستنهض الجموع وتغرز الحماس، وقد قُتل حول جمالها مائة رجل، ثم قُتلت وتفللت الجموع. لقد ارتدت هذه المرأة نتيجة لتفكير جزئي، أو قل سطحي، فهي تريد أن تثار لأخيها حكمة الذي قُتل أيام النبي (ص).

ب - ظهور المرأة يوم الجمل في شخص عائشة (ض)، فإنها لعبت مثل دور عتيقتها سلمى ابنة مالك، فقد خرجت على حكومة علي (ع) كما خرجت الأخرى على حكومة

(٤) راجع ص ٨٧ من هذا الكتاب.

(٥) راجع تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.



أبيها، ولغرض مشابه تقريباً؛ فتلك تثار لأخيها، وهذه تثار لعثمان، وقد عقدت الصداقة بينهما زمناً طويلاً، فقد كانت سلمى تختلف إلى عائشة كثيراً وتنزل عليها دائماً. ولا ينعُد عندي أن يكون في جملة الرغبات التي دفعت عائشة إلى الخروج، أنها كانت مُعجبة بالدور الذي لعبته سلمى، وقد كان دوراً مُعجباً حقاً لهج به الناس كثيراً، حتى قيل بلغ من عزها أنه وُضع مائة من الإبل لمن يجرؤ على نخس جملها.

والمرأة ذات تفكير جزئي تشيع فيه الميول والعواطف. لذلك لا أستبعد أن تكون عائشة قد أنطوت على إعجاب عميق بسلمى. وهذا الإعجاب كان عاملاً نفسياً كبيراً هوّن عليها سبيل الخروج لتلعب دوراً مماثلاً تكون فيه القائدة وعلى جمل أيضاً يضحى دونه كثيرون، وكان المصير واحداً تقريباً. وهذا من أغرب المصادفات التاريخية، وليتنبّه إلى أننا لا نقول بأن إعجاب عائشة بسلمى كان عاملاً من عوامل<sup>(٦)</sup> خروجها، بل نقول كان رغبة في جملة الدوافع التي تركز عليها عزيمتها.

فخروج عائشة كأمراة للقيادة العامة شيء جديد في المجتمع الإسلامي الأول، فثار حوله تفكير طويل في أنه هل للمرأة أن تأخذ مثل هذه المبادرات أم لا؟ وكان التفكير في ذلك من وجهة دينية مخضبة. فأُم سلمة<sup>(٧)</sup> (ض)، زوج النبي، والطائفة المحافظة على القديم ذهبوا إلى أنه لا يجوز ذلك لها، وطلحة والزبير والعرب الذين سكنوا البصرة وتأثروا بأفكار الفرس ذهبوا، كما يظهر من عملهم، إلى جوازه. فظهور المرأة شيء جديد طرح مسألة جديدة مثل مشكلة ما في ذلك شك.

سابعاً - غمز الاسلام للأديان: فإن الإسلام حينما غمر في طريقه هذه الأديان

(٦) راجع عوايل خروج عائشة على علي (ع) في كتاب: سمو المعنى في سمر الذات، ص ٤٦.

(٧) أوضحت رأيها هذا في كتابها الحكيم إلى عائشة. ونجدد بكل قارئ مطالعته وهو موجود في الإمامة والسياسة لأبي قتيبة.



الكثيرة، فقد أُنْبَعَثَتْ فيه ثانية وأُخْدِثَتْ فكرة دينية جديدة لها شكلية إسلامية وحقيقة من كل دين. فكان في المحيط الإسلامي يهودية إسلامية، ومسيحية إسلامية، ووثنية إسلامية لبست في عقائدها بل فيما يتصل بتأليف أشكالها وإشكالاتها، كما يظهر في علم الأديان المقارن، وبقية تتكاثر على مثل التوالد الذاتي حتى أتت في أكبر عدد مفروض.

من هذا نعلم أن العرب قبل مَضْرَع عُثْمَانَ (ض) شعروا بشيء جديد، شمل الاعتقاد والاجتماع والحرّيات الأدبية وآداب السلوك، وشهدوا صراعاً خفياً بين القديم وأدى إلى الذبذبة والاضطراب.







## الثورة

بعد ذلك العرض المشهوب للبواعث التاريخية التي اتصّلت بالمُجتمَع الإسلامي الأول، وتشخيصها بالمقدار الذي يسمَح لنا بفهم المحرّكات الرئيسية لذلك العهد، تبدو لنا الثورة حادثاً طبيعياً لطائفة المُحرّضات المُجتمِعة التي تُؤدّي كُلُّ منها إلى توليد حركة ذات صفة بعينها، فإذا اختلّطت حركتها وتشابكت تشكّلت الثورة على وجهٍ طبيعيٍّ جداً.

وفي كلمة التّصدير أعطينا تعريفاً جديداً للثورة يحسُن بنا أن نُعيدَه مرّةً أخرى، فقد قرّرتُ هناك (صفحة ٣٦ وما بعدها من هذا الكتاب) بأنّ الثورة هي الاِزتياب في المثل الأعلى حين يتشكّل ويكون عملاً عنيفاً، وهو يتحرّك إلى هدف مُعيّن ويدور على فكرة خاصّة. وهذا تعريفٌ جدُّ حقيقي يُفهّمنا أنّ الثورة الاجتماعية على الدوام تُعبّر عن فسادٍ في الحكم وتُضجّ في الشعب. وكذلك كانت الثورة الأولى في الإسلام أو الثورة على عثمان.

فهّمنا من الفصول المارة، أنّ مزاج الشعب العقلي لم يزل قَبلياً، وفهّمنا أنّ القلق الديني لم يزل يَتَمَلّكُ الأفراد في كثيرٍ من التأثير، وفهّمنا أنّ قضية المال لم تُسوّ على الوجه الذي يُحقّق الأمان، وأنّ كثيراً من المجتمعات، بنظُمها وقوانينها، انحلت في المُجتمَع الإسلامي ولم يُمثّلها أو يَهْضُمها هُضماً حسناً، وفهّمنا أنّ الحزبيّة البغيضة علقت بذلك



المجتمع الوليد، وأخيراً شهدنا صراعاً بين القديم والجديد يَشْطُرُ العالَمَ الإسلامي في الفكرة إلى مُعْكَرَيْنِ.

إذاً، فقد مَادَ الْمُجْتَمَعُ العربي تحت عواملٍ نَفْسِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ مَيِّدَاناً شديداً وتَطَلَّعَ الشَّعْبُ إلى الإصلاح الشَّامِلِ، وبالأخصَّ بعد أن آسَتْقَلُ بالحكومة الحِزْبُ الأمويّ، ومالَ بها إلى الأرستقراطية وَحَكَمَ النَّاسَ بِسِيَّاسَةِ اللَّامُبَالَاةِ في الإدارة والأموالِ وَشَتَّى نواحي النِّظامِ. إنَّ سِيَّاسَةَ الضُّغْطِ والانتهازِ التي سَارَ على مِثْوَالِهَا الأمويُّونَ، جَعَلَتِ الشَّعْبَ يَحْتَجُّ وَيُبَالِغُ في الاحتجاجِ مُطَالِباً بِضُرُورَةِ الإصلاح السِّيَّاسِيِّ، مُرْتَقِباً آسْتِرْدَادَ حُرِّيَّاتِهِ الْمُغْتَضَبَةِ. وَلَكِنَّ الحِزْبَ لم يَشَأْ تَغْيِيرَ شَيْءٍ مِنْ سِيَّاسَتِهِ التَّقْلِيدِيَّةِ، فَثَارَ الشَّعْبُ الْمُتَذَمُّرُ وَأَعْلَنَ العِصْيَانَ.

أَعْلَنَ الشَّعْبُ الثَّوْرَةَ لِأَنَّ الأَوْضَاعَ التي كَانَتْ تَصْلُحُ لِسِيَّاسَةِ المجتمعِ يومَ كَانَ محدوداً ضَيِّقاً، لم تَعُدْ تَصْلُحُ له بعدَ أَنْ أَدْخَلَ تحتَ جَنَاحِيهِ أَكْثَرَ العَالَمِ القديمِ، وهو مُخْتَلِفُ العَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ وَالتَّرْبِيَّاتِ. وَلِأَنَّ الطَّمَاعِيَّةَ أَوْ الجَشَعَ، التي دعاها مولر لير Pleonexia، تَسَلَّطَتْ على كافَّةِ مَوَارِدِ الدَّوْلَةِ في حُكُومَةِ الحِزْبِ الأمويّ، حَتَّى حَلُّوا كَثِيراً مِنَ المِلْكِيَّاتِ وَجَعَلُوهَا وَقُفّاً عَلَيْهِم، وَهَذَا مَا صَرَّخَ بِهِ كَبِيرٌ مِنْ وُلاَتِهِمْ، وهو سَعِيدُ بْنُ العَاصِ، فَقَدْ قَالَ: «إِنَّمَا هَذَا السَّوَادُ، سَوَادُ العِرَاقِ، بُسْتَانٌ لِقَرِيشٍ»، وَآسْتَبَدُّوا بِالأموالِ آسْتِبْدَاداً كَبِيراً. وَلِأَنَّ الفِكْرَةَ الاجْتِمَاعِيَّةَ بَلَغَتْ فِي النَّاسِ مَبْلَغَ النُّضُوجِ تَقْرِيباً بِتَأْثِيرِ نُظُمِ الأُمَمِ التي آنْتَقَلَتْ إلى نِظَامِهِمْ، وَيُشِيرُ إلى هَذَا أَنَّ أَكْثَرَ الثَّائِرِينَ مِنَ الجِهَاتِ التي خَضَعَتْ في يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ لِحُكُومَاتِ نِظَامِيَّةٍ قَدِيمَةٍ كِمِصْرَ وَالعِرَاقِ، وَلِأَنَّ الأَخْطَاءَ السِّيَّاسِيَّةَ لِلْحُكُومَاتِ السَّابِقَةِ تَجَسَّمَتْ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ فَأَخَذَ بِهَا، مِنْ مِثْلِ سِيَّاسَةِ الأموالِ التي وُضِعَتْ في حُكُومَةِ عُمرَ، فَإِنَّ تَمْلِيكَ الأَكْرَةِ وَالفَلَّاحِينَ الأَرْضَ التي كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(١)</sup> فِيهَا على نِظَامِ القَنَائَةِ، وهو

(١) راجع مُحَاضَرَةُ علي ماهر باشا في التَّربِيَةِ وَالتَّارِيخِ، المنشورة في مَجْمُوعَةِ مَتَخَرِجِي المَدْرَسَةِ الخَدِيوِيَّةِ سَنَةِ ١٩٠١، ص ٣٥ - ٣٦.



يَجْعَلُهُمْ تَابِعِينَ لِلْأَرْضِي فِي عَهْدِ الْحُكُومَاتِ الْمَقْهُورَةِ، أَدَّى إِلَى الْفَوْزَى مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْفَاتِحَ الْعَرَبِيَّ لَمْ يُمْلِكِ الْمَالِكَ الْأَوَّلَ وَحْدَهُ، بَلْ أَوْجَدَ مَالِكاً جَدِيداً هُوَ الْفَلَّاحُ، وَكَانَ أُولَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْمَالِكَ الْجَدِيدَ الشَّرِيكَ هُوَ الْمُجَاهِدُ الْعَرَبِيَّ. إِنَّ مَا هَرَبَ مِنْهُ عَمْرٌ وَقَعَ فِيهِ. هَرَبَ مَنْ تَمْلِكُ الْعَرَبِيَّ حَتَّى لَا يَحْرِمَ الْمَالِكَ الْقَدِيمَ، فَيُؤَدِّيَ إِلَى الْاضْطِرَابِ، فَوَقَعَ عَلَى أَيْ حَالٍ فِيمَا يَمَائِلُهُ حَيْثُ أَشْرَكَ مَالِكاً جَدِيداً مَعَ الْمَالِكِ الْقَدِيمِ. وَكَانَ الْأَفْضَلُ، مِنْ وَجْهَةِ النَّظَرِ الْاِقْتِصَادِيِّ، حَيْثُ حُلَّتِ الْمِلْكِيَّاتُ بِالْفَتْحِ عَنَوَةً، أَنْ يُشَارِكَ الْمُجَاهِدُ الْعَرَبِيُّ الْمَالِكَ الْقَدِيمَ.

فثُورَةُ الشَّعْبِ كَانَتْ نَتِيجَةً لِرَغْبَةٍ أَكِيدَةٍ فِي الْإِصْلَاحِ، وَهَذِهِ الثُّورَةُ هِيَ الَّتِي أُوْحِتْ لِعَلِيِّ (ع) بِنِظَامِ الْإِصْلَاحِ الَّذِي ضَمَّنَهُ الْعَهْدُ إِلَى الْأَشْتَرِ. وَمِنْ هَذَا يَظْهَرُ أَنَّ عَهْدَهُ الْمَذْكُورَ لَمْ يَكُنْ مُوَجَّهًا بَلْ كَانَ نَتِيجَةً لِلتَّزَوُّي الْعَمِيقِ وَالتَّمَرُّسِ بِنُظُمٍ قَدِيمَةٍ وَجَدِيدَةٍ.

وَلَعَلَّ أَقْرَبَ الثُّورَاتِ فِي التَّارِيخِ الْحَدِيثِ إِلَى ثُورَةِ الْعَرَبِ الشَّعْبِيَّةِ هِيَ الْحَرْبُ الْأَهْلِيَّةُ<sup>(٢)</sup> الْإِنْجِلِيزِيَّةُ الَّتِي قَادَهَا أُولِيفَر كرومُول ضدَّ الْمَلِكِ كَارْلُوسِ الْأَوَّلِ الَّذِي أُخِذَ بِأَخْطَاءِ أَبِيهِ وَأَخْطَائِهِ. فَكَانَ كَأَبِيهِ يَكْرَهُ الْحُكْمَ الذَّاتِيَّ وَحُقُوقَ الشَّعْبِ السِّيَاسِيَّةَ وَتَقْيِيدَ يَدَيْهِ وَأَيْدِي حَاشِيَتِهِ فِي الْمَالِيَّةِ؛ وَلَكِنْ الشَّعْبُ قَدَّمَ «عَرِيضَةَ الْحَقِّ» وَقِيلَهَا الْمَلِكُ بَعْدَ أَنْ أَقْرَاهَا مَجْلِسُ اللَّوَرْدَاتِ وَالْعَامَّةِ بِصِفَةِ نَهَائِيَّةٍ. إِلَّا أَنَّ الصُّلَةَ بَيْنَ الشَّعْبِ وَالْمَلِكِ عَادَتْ فَتَحَرَّجَتْ، فَحَلَّ الْمَلِكُ الْبَرْلَمَانَ الَّذِي طَلَبَ مُحَاكَمَةَ الدُّوقِ بُوْكْنَهَام، وَكَانَ سَيِّئَ الشُّمْعَةِ مُحَرِّضاً لِلْمَلِكِ، وَاتَّخَذَ الشَّعْبُ اتَّخِيجاً جَدِيداً الَّذِي أَغْضَبَ الْمَلِكَ غَضَباً شَدِيداً، فَعَزَا إِلَى الزُّعْمَاءِ جَرِيْمَةَ التَّمَرُّدِ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ مِنْ أَسَاسٍ لِلتُّهْمَةِ آغْثِرَتْ غَيْرَ قَانُونِيَّةٍ وَحَاوَلَ الْقَبْضَ عَلَيْهِمْ فَأَخْفَقَ.

لِذَلِكَ آغْثِرَ مَجْلِسُ الْعَامَّةِ أَنَّ الْمَلِكَ بِفِعْلِهِ أَغْلَنَ الْحَرْبَ ضِدَّ حُرِّيَّةِ الشَّعْبِ وَخَافَ أَنْ

(٢) رَاجِعْ كِتَاب: تَارِيخُ أَسَاسِ الشَّرَائِعِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، لِلْأَسْتَاذِ دَافِيدِ وَطْسِنِ رَانِي، ص ١٣٧ - ١٤٨، تَرْجُمَةُ نَقُولَا حُدَاد

ط. الْقَاهِرَةُ سَنَةِ ١٩٠٦.



يَسْتَحْدِمُ الْجَيْشَ ضِدَّهُ، فَاقْتَرَحَ وَجُوبَ أَنْ يَتِمَّ تَعْيِينَ قُوَادِ الْجُنْدِيَّةِ فِي مَجْلِسِ الْعُمُومِ فَرَفَضَ الْمَلِكُ، وَشَبَّتِ الْحَرْبُ الْأَهْلِيَّةُ، وَقَادَ الشَّعْبُ كَرُومُولُ الَّذِي آتَتْصَرَ عَلَى الْمَلِكِ وَأَخَذَهُ أَسِيرًا، ثُمَّ حَاكَمَهُ وَحَكَمَ عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ، بِأَعْتِبَارِ أَنَّهُ صَاحِبُ فِتْنٍ وَدَسَائِسٍ ضِدَّ الشَّرِيعَةِ وَحُرِّيَّةِ الْبِلَادِ. وَتَغَطَّرَسَ الْجُنُودُ الْمُنْتَصِرُونَ غَطْرَسَةً فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْاسْتِهَانَةِ بِالْبَزْلَمَانِ.

هَذِهِ الثَّوْرَةُ، فِي كَثِيرٍ مِنْ ظُرُوفِهَا وَأَغْرَاضِهَا، تَتَّفِقُ مَعَ ثَوْرَةِ الشَّعْبِ الْعَرَبِيِّ الْأُولَى. فَإِنَّ الدِّينَ أَكْسَبَ الْأُمَّةَ الْحَقَّ فِي حُكْمِ نَفْسِهَا وَ«أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ»<sup>(٣)</sup>. «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ»<sup>(٤)</sup>، وَفَرَضَ الطَّاعَةَ لِلشُّلْطَةِ التَّنْفِيزِيَّةِ فِي حُدُودِ طَاعَةِ الشُّلْطَةِ نَفْسِهَا لِلْقَانُونِ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرُّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا»<sup>(٥)</sup>. وَالتَّنَازُعُ فِي الْآيَةِ عَلَى وَجْهَيْنِ: تَنَازُعُ الْأَفْرَادِ عَلَى الْحُقُوقِ، وَتَنَازُعُ الشَّعْبِ مَعَ الشُّلْطَةِ الْحَاكِمَةِ الَّتِي عَبَّرَ الْقُرْآنُ عَنْهَا بِـ «أُولِي الْأَمْرِ» وَحُكْمُهُمَا وَاحِدٌ فِي ضَرُورَةِ الرُّجُوعِ إِلَى الْقَانُونِ الْمُؤَلَّفِ مِنَ الْقُرْآنِ وَأَقْوَالِ النَّبِيِّ وَأَفْعَالِهِ، وَبِذَلِكَ خَوَلَّ الشَّعْبُ، إِذَا كَانَ الْحَقُّ فِي جَانِبِهِ، أَنْ يَأْخُذَهَا بِمُقْتَضَى قَانُونِ الْجَزَاءِ السِّيَاسِيِّ، عَلَى مَا هُوَ مَشْرُوحٌ فِي السُّنَّةِ مِنْ أَنْحِلَالِ الْبَيْعَةِ وَمَا يَتَّبِعُهَا، كَمَا يُؤْخَذُ الْأَفْرَادُ بِمُقْتَضَى قَانُونِ الْجَزَاءِ الْعَدْلِيِّ<sup>(٦)</sup>.

إِذَا فَالْقَانُونُ الدُّسْتُورِيُّ لِلْإِسْلَامِ أَثْبَتَ حُقُوقَ الشَّعْبِ، وَأَعْطَاهُ الْحُرِّيَّةَ الْوَاسِعَةَ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى هَذِهِ الْحُقُوقِ، وَالشَّعْبُ أَعْتَنَقَ هَذَا الْقَانُونَ، فَهُوَ لَا تَمُرُّ بِهِ سَانِحَةً، تُجَاوِزُ فِيهَا الشُّلْطَةَ

(٣) الشورى ٤٢: الآية ٣٨.

(٤) آل عمران ٣: الآية ١٥٩.

(٥) النساء ٤: الآية ٥٩.

(٦) هَذِهِ الْآيَةُ لَمْ يَفْهَمْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى وَجْهِهَا الصَّحِيحِ حِينَ قَصَرُوهَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ مِنَ التَّنَازُعِ، وَلَكِنْ أَقْتَصَرَ الْآيَةُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ دُونَ أُولِي الْأَمْرِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَنَاوَلَ أَيْضًا وَجْهَ التَّرَاجُعِ الْقَانُونِيِّ الَّذِي هُوَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ (الشَّعْبِ) وَأُولِي الْأَمْرِ (الْهَيْئَةُ الْحَاكِمَةُ).



غاية القانون، إلا أحتج ورفع صوته مطالباً باختيار الدستور.

ولما جاء الدور لحكم الحزب الأموي، وتجاوز المبادئ المقررة، وخط لنفسه سياسة ليست مشتقة على أي وجه من حقوق الشعب، عارض الشعب وأحتج وطلبت الإصلاح، فأظهرت الهيئة الحاكمة قبولها، ولكن سرعان ما عادت إلى النكث والتجاوز، وعاد الشعب إلى الاحتجاج، وزاد في عنفه إطلاق الخليفة أيدي حاشيته في المالية وإقطاعهم. ولكن الهيئة الحاكمة عادت فوعدت بتغيير الخطية السياسية ومنهاج الحكم، ولم تلبث حتى رجعت إلى سابقه أمرها. وهنا هدي الشعب إلى معلمين ثوريين نظموا مطالب الإصلاح أو عريضة الحق، فقررت الهيئة الحاكمة القبض على الزعماء، فقبض عليهم معاوية، وفيهم الأشتر، وأسلمهم إلى القائم بأعمال حمص، فأضطهدهم وعاملهم بقسوة ثم عاد فأطلقهم. ولكن هؤلاء لم تخمد حركتهم الإصلاحية فعادوا يطالبون بالإصلاح ويتشبثون بمحاكمة مروان بن الحكم مستشار الخليفة الذي ثبت لهم أنه الوحيد الذي يتلاعب بمقدرات الحكم، فأبى الخليفة وتمسك به، وتخرجت الأمور سريعاً نتيجة أخطاء سياسية بليغة، وأعلن الشعب الثورة بزعامة الأشتر ووقعت الكارثة بمصرع الخليفة.

وتلافياً للأمور حتى لا تطغى الثورة وتشكل حركة زوبعية لا يعلم مداها، قرر الثوار وجوب تعيين الحاكم الأول (الخليفة) فانتخبوا علياً (ع) للخلافة، أو قل أكرهوه عليها. وقد فهم علي أن الظروف يقتضي أخذ الأمور بالحزم والشدّة، لأن طلائع الفوضى بدأت تذر قزنها وتلعّب من بعيد، وفي مثل هذا الظرف لا تنجح إلا حكومة الحزم، غير أن الناصحين ذوي النظر الضيق في طبائع النفوس والحركات الاجتماعية الكبيرة أشاروا عليه بالملاينة، وهذا هراء لم يصنع إليه الخليفة العبري، فعمد إلى سياسة البطش والشدّة، فضرب الخارجين يوم الجمل ضربة صاعقة، أخضعت العراق والحجاز واليمن، وأزهبت الشام. ولقد بات الحزب الأموي في مثل رهبة الظربان، ومعاوية لم يعد على ثقة بنفسه، ويدل على هذا



الرَّعْدَةُ الَّتِي أَخَذَتْهُ حَتَّى مَالَ إِلَى الْاِسْتِسْلَامِ بِدُونِ قَيْدٍ وَلَا شَرْطٍ، كَمَا يَظْهَرُ مِنْ كِتَابِهِ إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ الَّذِي قَالَ فِيهِ: «قَدْ ظَهَرَ مِنْ رَأْيِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ مَا كَانَ يُقَدِّمُ فِي وَعْدِهِ لَكَ فِي طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ فَمَا الَّذِي بَقِيَ مِنْ رَأْيِهِ فِينَا».

وحركة عليّ (ع) السريعة في الانتقال من حَرْبِ البصرة إلى حَرْبِ الشَّامِ، تُرِينَا مَوْضِعَ الإِحْكَامِ فِي خُطَّتِهِ، فَلَمْ يَتْرُكْ لِحُصُومِهِ ظَرْفًا يَتَأَشَّبُونَ عَلَيْهِ فِيهِ، كَمَا لَمْ يَدَعْ الْجَذْوَةَ الْمُتَّقِدَةَ فِي نُفُوسِ جَيْشِهِ تَخْمُدُ، وَعَمِلَ عَلَى اسْتِغْلَالِ أَثَرِ الرُّهْبَةِ الَّتِي أَوْرَثَتْهَا وَقْعَةُ الْجَمَلِ. وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ السَّرِيعَةُ وَاجِبَةٌ إِذَا دَرَسْنَاها عَلَى ضَوْءِ الْفَوْضَى حِينَ تَسْمَلُكُ النُّفُوسَ، فَإِنَّهُ لَا يَثْبُتُ فِي هَذَا الْغِمَارِ إِلَّا الرَّجُلُ الْمُبَادِرُ الَّذِي يَسُوسُ الْمُتَمَرِّدِينَ لِلْوَهْلَةِ، كَمَا فَعَلَ عَلِيّ (ع)، وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا أَتَى مِنْ جَانِبٍ تَسَلَّطَ الْمِزَاجُ الْعَقْلِيُّ الْقَبْلِيُّ بِطَلَعَاتِهِ عَلَى نُفُوسِ جُنْدِهِ، وَهَذَا يَجْعَلُهُمْ نَفْعِيَّيْنِ نَفْعِيَّةً مُطْلَقَةً، كَمَا أَنَّ تَضْجِيحَاتِهِمْ لَمْ تَجْرُ إِلَى مَغْنَمٍ يُنْسِيهِمْ فِدَاخَتَهَا، فَلَنْ يُجَرَّوْا إِذَا إِلَى آخِرِ الشُّوْطِ بِدُونِ غُنْمٍ عَلَى أَنَّهُ بِمَغَارِمَ كَثِيرَةٍ. وَعَلِيّ مُتَشَبِّعٌ بِقَضَايَا الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَوَجُوبِ الْإِصْلَاحِ مِنْ أَقْرَبِ الطَّرِيقِ، فَلَمْ يُخَوِّلْهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِ خُصُومِهِمْ وَمُحَارِبِيهِمْ.

إِنَّ كُلَّ الْمُؤَرِّخِينَ الَّذِينَ آتَقَدُوا سِيَّاسَةَ عَلِيّ كَانُوا سَادَجِينَ فِي دَرْسِ التَّارِيخِ عَلَى مُقْتَضَى الطَّبَائِعِ النَّفْسِيَّةِ، إِنَّ عَلِيًّا (ع) يَجِبُ أَنْ يَفْعَلَ مَا قَدْ فَعَلَ مِنْ عَزْلِ وَتَعْيِينِ وَأَخْذٍ بِالشَّدَّةِ، فَإِنَّهُ لَنْ يُحَدِّدَ مَدَى اتِّسَاعِ الْفَوْضَى، وَقَدْ عَلِقَتْ بِالنُّفُوسِ، إِلَّا سِيَّاسَةً تَقُومُ عَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ، فَإِنَّ كُلَّ الرِّجَالِ الَّذِينَ رَافَقَتْهُمْ ظُرُوفُ فَوْضَوِيَّةٍ كَانَتْ سِيَّاسَتُهُمْ تَقُومُ عَلَى الْحَزْمِ الشَّدِيدِ.

وعليه فالثَّورَةُ عَلَى عُثْمَانَ (ض) كَانَتْ نَتِيجَةً لِلنُّضْجِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَكَانَتْ إِصْلَاحِيَّةً إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ تَقُومُ عَلَى فِكْرَةٍ بَعِيْنِهَا، وَلَكِنْ لَأَنَّ فُصُولَهَا تَتَالَتْ مُسْرَعَةً آتَنَقَلْتُ إِلَى فَوْضَى. وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَتْ تَعْمَلُ فِيهَا أَفْكَارٌ، أَنْكِشَافُهَا عَنْ نَظَرِيَّاتٍ جَدِيدَةٍ مِنْ مِثْلِ نَظَرِيَّةِ الْخَوَارِجِ. إِذَا فَقَدْ بَقِيَتْ لَهَا صِفَةُ الثَّورَةِ إِلَى أَنْ آتَبَدَأَ الصُّرَاعُ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ، وَمِنْ



ثُمَّ أَنْحَرَفَتْ وَأَخَذَتْ صِفَةَ الْفَوْضَى، وَهَذِهِ الصُّفَةُ لَهَا كَانَتْ تَرُوقُ فِي عَيْنِ مُعَاوِيَةَ فَدَفَعَ  
الْجِزْيَةَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ لِإِطَالَةِ الصُّرَاعِ، فَإِنَّ مِنْ أُولَى نَتَائِجِ الْمُطَاوَلَةِ تَمْزِيقَ الْأَعْصَابِ وَإِنْهَاكَ  
الْجُمُوعِ الَّتِي تَمِيلُ مَعَهُ إِلَى الْاسْتِسْلَامِ. وَقَدْ بَقِيَ هَذَا الشُّعُورُ يَتَزَايِدُ فِي كُلِّ نَفْسٍ إِلَى أَنْ بَلَغَ  
الْغَايَةَ بِوَفَاةِ عَلِيٍّ (ع)، فَلَمْ يَجِدِ الْحَسَنُ (ع) خُطَّةً أَضْمَنَ وَأَفْضَلَ مِنَ الْاسْتِسْلَامِ.

والتلخيص العامُّ لأهمِّ ما جاء في فصول المقدماتِ ممَّا هو مُتَّصِلٌ بِالثَّوَرَةِ هُوَ:

أَوَّلًا: إِنَّ عُمَرَ تَرَدَّدَ بَيْنَ أَنْ يَتَّبِعَ طَرِيقَةَ أَبِي بَكْرٍ أَوْ طَرِيقَةَ النَّبِيِّ (ص)، وَخَافَ  
الْإِخْتِلَافَ فَجَمَعَ بَيْنَ الطَّرِيقَتَيْنِ. غَيْرَ أَنَّ السُّنَّةَ الَّذِينَ حُصِرَ الْإِنْتِخَابُ بِهِمْ آخَتَلَفُوا وَهُوَ حَيٌّ،  
وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الْإِخْتِلَافَ آتَقَلَّ إِلَى أَنْصَارِهِمْ فِي الْخَارِجِ وَعَمِلَتِ الْعَصَبِيَّةُ عَمَلَهَا  
وَتَشَكَّلَتِ الْأَحْزَابُ الثَّانَوِيَّةُ. وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ لَعِبَ دَوْرًا مُهِمًّا حِينَ وَسَّعَ دَائِرَةَ  
الْإِنْتِخَابِ وَأَثْقَلَ بِهِ نَحْوَ الشَّعْبِ حَتَّى لَمْ يُتِمَّ مُدَّةَ الشُّورَى. وَذَلِكَ لِأَنَّ عَلِيًّا (ع) كَانَ الْفَائِزَ  
لَا مُحَالَةً فِي الْإِنْتِخَابِ التَّدَاوُلِيِّ الَّذِي دَارَ بَيْنَ السُّنَّةِ، فَإِنَّ الْمُؤَهَّلَاتِ الَّتِي اجْتَمَعَتْ لَهُ لَمْ  
تَجْتَمِعْ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ، عَلَى أَنَّهُ خَاضَ مَعْرَكَةَ الْإِنْتِخَابِ لِلرَّئِاسَةِ ضِدَّ أَبِي بَكْرٍ (ض) وَلَمْ  
يُخْضَعْهَا سِوَاهُ مِنْ سَائِرِ السُّنَّةِ الْمَجْتَمِعِينَ. وَلَا نَنْسَ أَنَّ الزُّبَيْرَ أَنْحَارَ إِلَى عَلِيٍّ ضِدَّ أَبِي بَكْرٍ  
فِي الْمَعْرَكَةِ الْإِنْتِخَابِيَّةِ الْأُولَى، عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْوَرْدِيِّ فِي تَارِيخِهِ.

وَيَقُولُ بَعْضُ مُؤَرِّخِي الْفَرَنْجَةِ إِنَّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَمْ يَثْرِكِ الْإِنْتِخَابَ حُرًّا بَلِ اسْتَعْمَلَ فِيهِ  
طَرِيقَةَ الْمُدَاوَرَةِ وَالْإِنْتِهَازِيَّةِ، كَمَا لَمْ يَسْتَشِرْ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، وَهُوَ الْمُسْتَشَارُ فِي وَصِيَّةِ  
عُمَرَ، وَلَمَّا نَقَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْإِنْتِخَابَ إِلَى الشَّعْبِ وَوَسَّعَ دَائِرَتَهُ، وَالْحِزْبُ الْأُمَوِيُّ قَدْ أَعَدَّ  
الْقِبَائِلَ لِنُصْرَتِهِ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كَثْرَةَ مِنَ الْقِبَائِلِ كَانَتْ صَنَائِعَ لِبْنِي أُمَيَّةٍ فِي الْقَدِيمِ. فَتَعْيِينُ  
الْتَّرْشِيحِ فِي سِنَّةٍ (٧) مَهَّدَ السَّبِيلَ لِدَسِّ الْأُمَوِيِّينَ وَاسْتِغْلَالِ الْمَوْقِفِ، وَقَدْ وَصَلَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ

(٧) الْمُسْتَشْرِقُونَ يَزَوِّنَ هَؤُلَاءِ السُّنَّةَ اجْتَمَعُوا مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، وَيَشْتَدُّونَ إِلَى أَنَّ رَجُلًا مَطْعُونًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفَكِّرَ تَفَكِيرًا مَا فِي أَمْرِ



النتيجة من قبل، سيّد أمير عليّ الهندي. قال:

«إِنَّ حِرْصَ عَمَرَ عَلَى مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ دَفَعَهُ إِلَى اخْتِيَارِ هَؤُلَاءِ الشَّتَّةِ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ دُونَ أَنْ يَتَّبَعَ سِيَاسَةَ سَلَفِهِ. وَكَانَ لِلْأُمَوِيِّينَ حِزْبٌ قَوِيٌّ فِي الْمَدِينَةِ، وَمِنْ هُنَا مَهَّدَ اخْتِيَارُهُ السَّبِيلَ لِمَكَائِدِ الْأُمَوِيِّينَ وَدَسَائِسِهِمْ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَاصَبُوا الْإِسْلَامَ الْعَدَاءَ، ثُمَّ دَخَلُوا فِيهِ وَسِيلَةً لِسَدِّ مَطَامِعِهِمُ الْأَشْعَبِيَّةِ وَتَشْيِيدِ صَرْحِ مَجْدِهِمْ عَلَى أَكْتَافِ الْمُسْلِمِينَ»<sup>(٨)</sup>.

ثانياً - إِنَّ نِظَامَ الْمَالِ الْمَوْضُوعَ فِي عَهْدِ عَمَرَ فَتَّ فِي عَضْدِ الْجَيْشِ، وَقَدْ أَصَابَ وَلَهَاوَزْنَ حِينَ قَالَ فِي كِتَابِهِ الْمَمْلَكَةُ الْعَرَبِيَّةَ وَسَقُوطُهَا: «وَكَانَتِ الْمُقَاتِلَةُ تَحْتَمِلُ طَالَمَا كَانَتْ تَدْرُ عَلَيْهِمُ الْغَنِيمَةَ، وَلَكِنْ أَمَّا وَقَدْ مَنَعَ تَوَزِيعَ الْأَرْضِ عَلَيْهِمْ، فَقَدْ لَانَ عَزْمُهُمْ وَوَهَنْتْ شَكِيمَتُهُمْ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَتِ الْحُكُومَاتُ تَعْتِمِدُ عَلَى مُسَاعَدَةِ الْجَيْشِ أَصْبَحَ الْجَيْشُ يَعْتِمِدُ عَلَى مُسَاعَدَةِ الْحُكُومَةِ، وَمِنْ ثَمَّ لَا نَعَجِبُ إِذَا ظَنَّ الْمُقَاتِلَةُ أَنَّهَا تُخَدَعُوا مِنْ جَانِبِ الْحُكُومَةِ. عَلَى أَنَّ الْمَخْسُوبِيَّةَ ذَرَّتْ قَرْنَهَا فِي التَّنْسِيقَاتِ وَالتَّغْيِينَاتِ، وَالْأَعْطِيَاتِ، وَهَذَا مَا يَقُولُهُ الشَّاعِرُ الثَّائِرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْكِندِيُّ لِعُثْمَانَ:

وَلَكِنْ خَلَفَتْ لَنَا فِئْتَةٌ      لَكِنِّي تُبْتَلَى بِكَ أَوْ تُبْتَلَى  
فَأَعْطَيْتَ مَرْوَانَ خُمْسَ الْعِبَادِ      ظُلماً لَهُمْ وَحَمَيْتَ الْحِمَى  
ثالثاً: الشُّعُورُ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْإِصْلَاحِ.

دقيق كهذا، يستدعي كثيراً من التوازن وضبط الأعصاب، ولا أجد ما يدعو إلى الشك في أنه رشح الشَّتَّةَ المذكورين. على أن ظاهرة هذا الضعف وضحت أليماً وضح في وصيته التي كانت أقرب إلى الأفكار المتقطعة المختلطة. فهو يمتنى لو كان أبو عبيدة حياً ويمنى لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً، ثم يدلُّ تارة على علي (ع) وتارة يتردد وتارة يجعلها في الشَّتَّةِ ويأبى إلا أن يتم انتخاب واحد منهم قبل موته، ثم يمدد إلى ثلاثة أيام من وفاته ميماً يجعلنا نعتقد بأنه قد عزته حالة مرضية جعلته يهجر. وهذه الظاهرة التي تطبع رواية وصيته تصححها بلا ريب لأنها تحمل صفة المثلوف الخائر القوي.

(٨) راجع كتابه المسمى *A Short History of the Saracens*، ص ٥٥.



رابعاً: تجاوزُ السلطة.

خامساً: التكتُّل الحزبي: فقد ذكرَ ابنُ الورديِّ في تاريخه أنَّ هوى المصيريين كان مع عليٍّ، وهوى الكوفيين مع الزبير، وهوى البصريين مع طلحة.

هذه هي الثورة الإسلامية الأولى، وكانت ثورةً اجتماعيةً رفيعةً ساميةً، ثم هي لا تقلُّ شأنًا عن أنبل الثورات الإصلاحية التي عرَفها التاريخ. ولكنَّ الحزبَ الأمويَّ سَمَمَهَا وأنحَرَفَ بها إلى فوضى مُهدِّمةٍ خطيرة.

ومهما كانت، ثورةً أو فوضى، فقد بنَت الدولة بناءً أقوى في الإدارة والنظام، لولا ما حَفَلَتْ به من دماءٍ زكيةٍ عزيز علينا طُلُّها، ومصارعٍ لم يَزَلْ لها في أعماقِ الذكرى جراحٌ ونُدوب.







الحسين (ع)  
في عهد النبي (ص)



\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_



## طفولة سامية

في مَنْزِلِ السُّمُوِّ النَّفْسِيِّ وَهَيْكَلِ الرُّوحِ الْأَقْدَسِ، حَيْثُ كَانَتْ عِبَقَاتُ السَّمَاءِ تَهُبُّ  
مِثْلَمَا يَتَضَوُّعُ عَبِيرُ الزُّنْبُقَةِ فِي اللَّيْلَةِ الْحَالِمَةِ الْأُضْحِيَّانَةِ<sup>(١)</sup>، وَحَيْثُ كَانَتْ أَرْسَالُ الْمَلَائِكِ  
تَتَّصِلُ بِالْأَرْضِ كَمَا يَتَّصِلُ سُؤْبُوبُ الْمَطَرَةِ الرَّيُّقِيِّ؛ هَذَا لِيَتَمَسَّ التُّرْبَةُ بِالْحَيَاةِ وَهَذَا لِيَتَمَسَّ  
النَّفُوسَ بِالْمَعْنَى الْحَيِّ، بَرَزَتْ مِنَ الْغَيْبِ طُفُولَةٌ سَامِيَّةٌ...

غَرَسَ بَطْلٌ عَرَبِيٌّ، كَمَا يُسَمِّيهِ كَارَلَايِلُ، فِي طَبِيعَةِ الْعَرَبِ نَوَاةً آتَصَلَتْ مِنْ فَوْقِ رِمَالِ  
الصَّحَرَاءِ، وَالصَّحَرَاءُ أَبَدِيَّةٌ مَكْشُوفَةٌ، وَلَكِنَّ النَّوَاةَ لَمْ تُخْرِجْ عُشْبًا أَوْ شَيْئًا يُشْبِهُ الْعُشْبَ، وَإِنَّمَا  
أَخْرَجَتْ إِنْسَانِيَّةً مَشْبُوبَةً لِتَحُلَّ فِي هَيْكَلِ الْعَالَمِ الْخَاوِيِّ، وَبَقِيَ الْيَنْبُوعُ الصَّافِي يَطْرِدُ عَلَى  
النَّوَاةِ لِيَتَّصِلَ فِيهَا الرَّيُّ، وَمِنْ عَيْنِ ذَلِكَ الْيَنْبُوعِ تَبَلُّوَرَتْ طُفُولَةٌ سَامِيَّةٌ...

فِي الْغَارِ أَوْ فِي الْكَهْفِ<sup>(٢)</sup> أَسْرَارٌ مُبْهَمَةٌ مَجْهُولَةٌ، لَا يَزَالُ الشُّعْرَاءُ يَقِفُونَ عِنْدَهُ  
وَيَسْتَلْهِمُونَ، وَالْحُكَمَاءُ يَتَطَلَّعُونَ إِلَيْهِ بَعْيُونَ نَهْمَةً وَيَسْتَلْهِمُونَ، لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ الْعُظْمَى تَتَّخِذُ

(١) الْأُضْحِيَّانَةُ هِيَ اللَّيْلَةُ الْمُقْمِرَةُ الشَّدِيدَةُ الضُّيَاءِ.

(٢) أُجْرَى أَنْطَلُونُ فِي الْغَارِ أَوْ الْكَهْفِ خَيَالَهُ فِي الْمَثَلِ وَالْمِثَالِيَةِ.



أَصْدَافُهَا مِنْهُ، وَلَكِنَّهَا تَجْدِبُ إِلَيْهَا الْبَشَرِيَّ الْكَامِلَ لِتَحِلَّ فِيهِ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ (ص) الْغَارَ وَخَرَجَ مِنْهُ بِمَعْنَاهُ فَلَمْ يَعُدْ فِي الْغَارِ ذَلِكَ السِّرُّ الْمُبْهَمُ، لِأَنَّ الْغَارَ أَطْلَعَ سِرَّهُ لِيَمْشِيَ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ، وَمِنْ أَسْرَارِ الْغَارِ الْأَقْدَسِ أَنْفَصَلَتْ طُفُولَةُ سَامِيَّةَ...

حِينَمَا ضُفِّرَ إِكْلِيلُ الْغَارِ عَلَى فَتَى الْغَارِ (ص) الَّذِي آتَنَظَمَ الْأَمْجَادَ مُجَدِّدًا إِلَى مُجَدِّدٍ، كَمَا تَنْتَظِمُ الْأَزَاهِيرُ عَلَى حِفَافِ الْوَادِي، أَشْتُقَّتْ مِنْ مَنَظُومَةِ الْأَمْجَادِ طُفُولَةُ سَامِيَّةَ...

قَانُونُ الْوِرَاثَةِ نَامُوسٌ طَبِيعِيٌّ، وَالْوِرَاثَةُ كَهَرْبَائِيَّةٌ خَفِيَّةٌ تَنْتَقِلُ بِتَيَّارِهَا فِي مَرَاجِلِ النُّسْلِ الْمُتَمَتِّدِ، فَتِلْكَ الْوِرَاثَةُ السَّامِيَّةُ أُعْطِثَ هَذِهِ الطُّفُولَةُ السَّامِيَّةَ...

لَيْسَتْ الْأَرِسْطَقْرَاطِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ بِمَا يَحْتَبِكُ لِلْمَرْءِ مِنْ ظِلَالِ الدُّنْيَا الَّتِي تَغِيْبُ فِي عَيْنِ الشَّمْسِ، وَإِنَّمَا هِيَ شَيْءٌ فِي الْكُنْهِ «الْجَوْهَرِ» وَمَعْنَى فِي الرُّوحِ، وَمَا خَرَجَ عَنْهُمَا أَوْ وَقَعَ دُونَهُمَا فَسُخْرِيَّاتٌ وَأَشْبَاهُ سُخْرِيَّاتٍ، فَلِلَّهِ كَمْ أَجَنَّتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْوِرَاثَاتِ تِلْكَ الطُّفُولَةُ السَّامِيَّةَ...

إِنَّ التَّهَاقُلَ الَّتِي يَجْمَعُهَا الْمَرْءُ مِنْ حَوْلِهِ، حَتَّى يَبِيْتَ مِنْهَا فِي إِطَارٍ، لَا تَجْعَلُهُ هَائِلًا مَا لَمْ يَكُنْ هُوَ كَذَلِكَ، لِأَنَّهَا ظِلَالٌ لِمَا ثَبَتَ مِنْهَا فِي الدِّمِّ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ دَمٌ الْعِظَامِيَّ فَلَا تَزِيدُهُ تَهَاقُلُهُ الَّتِي سَوَّرَ بِهَا نَفْسَهُ، عَنْ أَنْ يَكُونَ دُمِيَّةً تُسْنَدُ إِلَى حَائِطٍ أَوْ تُنْقَشُ فِيهِ لِتَكُونَ مَجْلَى لِّلْفَنِّ، وَأَمَّا حَقِيقَةُ الدُّمِيَّةِ فَهِيَ<sup>(٣)</sup> ذَاوِيَّةٌ بَيْنَ الْفَنِّ الَّذِي تَلَبَّسَتْ بِهِ، وَبَيْنَ النَّظَرِ الَّذِي أُخِذَ بِمَا فِيهَا مِنْ بَدَوَاتِ الرُّوَاءِ، فَلِلَّهِ كَمْ ثَبَتَ مِنَ التَّهَاقُلِ فِي تِلْكَ الطُّفُولَةِ السَّامِيَّةَ...

طُفُولَةُ خَرَجَتْ سَامِيَّةٌ وَكَبِيرَةٌ بِمَا آجَتَمَعَ لَهَا مِنَ الْوِرَاثَاتِ سَاعَةً أَنْفَصَلَتْ مِنْ عَالَمٍ وَأَسْتَقَرَّتْ فِي عَالَمٍ، وَهِيَ هِيَ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ مَحْدُودَةٌ بِمَعْنَى السُّمُوِّ وَالْكِبَرِ.

طُفُولَةُ لَمْ تَكُنْ تَزْهَوُ بِحَرَكَةِ الْعَصَبِ وَالدِّمِّ، بَلْ بِحَرَكَةِ الْمَعْنَى الثَّابِتِ فِي الدِّمِّ، فَهِيَ

---

(٣) أَكْثَرُ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ بِهِذِهِ التَّهَاقُلِ يَفْتَقِرُونَ إِلَيْهَا، كَالْمُثَلِّ الَّذِي يَقُومُ بِدَوْرِ الْمَلِكِ يُضْمُّ إِلَيْهِ أَثَرَاتِهِ وَمَظَاهِرُهُ وَلَكِنَّهُ لَا يَكُونُ بِهَا مَلِكًا إِلَّا بِمَقْدَارٍ مَا يُشْبِعُ عَيْنَ الْجُمْهُورِ الْمُشَاهِدِ وَيُشْبِعُ فِيهِ قُضُولَهُ الظَّالِمِ.



تَحْمِيلُ فِي مَعْنَى طُفُولَتِهَا مَعْنَى سَمُوهَا أَيْضاً...

طُفُولَةٌ لَوْلَا مَا دَخَلَهَا مِنْ غُنْصِرِ الزَّمَنِ، لَكَانَتْ حَقِيقَةُ الْكِبَرِ فِي الْكَبِيرِ، فَكَمْ مِنْ كَبِيرٍ  
هُوَ طِفْلٌ فِي مَدَاهُ، وَطِفْلٍ هُوَ الْكَبِيرُ فِي مَدَاهُ وَمَعْنَاهُ...



\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_



## أَذَان

في أُمِّيَّةٍ يَوْمٍ مِنْ أُمَاسِي شَعْبَانَ<sup>(١)</sup>، وَلَدَتْ فَاطِمَةُ حُسَيْنًا فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ (ص) وَأَذَّنَ فِي أُذُنِهِ كَمَا يُؤَذَّنُ لِلصَّلَاةِ.

أَذَانٌ كَانَ هَمْسَةً نَاعِمَةً خَافِتَةً، وَهُوَ نِدَاءُ الرُّوحِ لِلرُّوحِ، وَلَيْسَ نِدَاءُ الْأَشْبَاحِ لِلْأَشْبَاحِ حَتَّى تَجْتَمِعَ عَلَى عَمَلِ الطُّقُوسِ. إِنَّهُ نِدَاءٌ يَحْمِلُ إِلَى الْقَلْبِ سِرَّ وُجُودِهِ وَإِلَى الضَّمِيرِ سِرَّ الْعِبَادَةِ، وَعَلَى مَوْجَاتِهِ الْأَثِيرِيَّةِ تَتَلَاقُ الرُّوحَانِ. إِنَّ نِدَاءَ الْأَشْبَاحِ نِدَاءٌ لِلرُّوحِ الشَّارِدَةِ الْحَائِرَةِ، وَهَذَا نِدَاءٌ حَتَّى لَا تَشْرُدَ الرُّوحُ أَوْ تَتَحَيَّرَ. وَهُوَ بَعْدَ ذَلِكَ سَكَبٌ لِكُلِّ الْمَعْنَى فِي كُلِّ الظُّرُوفِ حَتَّى يَتَبَلَّوَرَ بِهِ فَلَا يَكُونُ لَهُ وُجُودٌ دُونَهُ أَوْ بَعِيداً عَنْهُ.

وَهُوَ إِعْلَامٌ لِلرُّوحِ الطَّبِيعِيَّةِ قَبْلَ أَنْ تَتَنَاوَلَها أَشْيَاءُ الْحَيَاةِ، بِأَنَّ هَذَا مَبْدَأُهَا وَهَذَا قَاعِدَةُ

(١) رَوَى أَبُو الْأَثِيرِ فِي أَسَدِ الْغَابَةِ أَنَّهُ وُلِدَ فِي لَيَالِ خُلُونٍ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي مَقَاتِلِ الطَّالِبِيِّينَ، وَأَبْنُ حُجْرٍ فِي فَتْحِ الْبَارِي وَالْمُفِيدُ فِي الْإِرْشَادِ، وَالصَّبَّانُ فِي إِسْعَافِ الرَّاعِيَيْنِ. وَلِأَبْنِ الْأَثِيرِ فِي أَسَدِ الْغَابَةِ رَوَايَةٌ أُخْرَى بِأَنَّهُ وُلِدَ فِي السَّنَةِ السَّابِقَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَلِ مُحَمَّدِ بْنِ يَغْقُوبِ الْكَلِينِيِّ فِي الْكَافِي رَوَايَةٌ بِأَنَّهُ وُلِدَ سَنَةَ ثَلَاثٍ. وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي السُّنَنِ، عَنْ أَبِي رَافِعٍ مَوْلَى النَّبِيِّ (ص) قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ أَذَّنَ فِي أُذُنِ الْحُسَيْنِ حِينَ وَلَدَتْهُ فَاطِمَةُ كَمَا يُؤَذَّنُ لِلصَّلَاةِ، وَذَكَرَ الصَّبَّانُ فِي إِسْعَافِ الرَّاعِيَيْنِ أَنَّهُ حَنَكَهُ بِرَبِيقِهِ وَأَذَّنَ فِي أُذُنِهِ وَدَعَا لَهُ وَسَمَّاهُ حُسَيْنًا يَوْمَ السَّابِقِ وَعَقَّ عَنْهُ، وَذَكَرَ الْمُفِيدُ فِي الْإِرْشَادِ أَنَّ النَّبِيَّ عَقَّ عَنْهُ كَبِشًا.



وُجودِها، فلا تكونُ بعدَ ذلكَ إلَّا مُؤمِنَةً تَقِيَّةً، لأنَّ الإيمانَ أوَّلُ لَوْنٍ آنصَبَتْ به، والتَّقوى  
آخِرُ لَوْنٍ تَتَشَكَّلُ فيه.

والأذانُ في أَصْلٍ مَعْنَاهُ، إعلانُ الإنسانِ بأنَّ اللهَ يَدْعُوهُ لِيَعْمَلَ في طَبِيعَتِهِ عَمَلِيَّةَ  
التَّضَعِيدِ الَّتِي تُرْسِبُ ما عَلِقَ بالطَّبِيعَةِ من أَقْدَاءٍ وَأَذْرَانٍ حَالَتْ بها عن أَصْلِ الفِطْرَةِ.

نَبَرَاتٌ يَنْطَلِقُ بها لِسَانُ الْمُؤَذِّنِ، وَلَكِنَّهَا إِيدَانٌ بِأَنَّ كُلَّ سُمُوٍّ وَطُهْرٍ، وَكُلُّ فَضِيلَةٍ  
وَمَعْنَى إِنْسَانِيٍّ قَدْ آنْطَلَقَ أَيْضاً مَعَ هَذِهِ النَّبَرَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ لَيْسَتْ مِنْ لُغَةٍ صَاحِبِهَا وَلَا  
مِنْ صَوْتِهِ، نَبَرَاتٌ تَعْلُو مِنْ فَوْقِ ضَجِيجِ الْحَيَاةِ وَصَخْبِهَا، وَمِنْ فَوْقِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُخْتَلِقَةِ  
بِنَسَمَاتِ الضَّرَاوَةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ، لِتَرْدُّهَا إِلَى الطَّهَارَةِ الَّتِي وَضَعَهَا اللهُ قَاعِدَةً لِأَعْمَالِهَا. وَقَرَأُ  
الْأَذَانَ يَتَخَافْتُ فِي الضَّمَائِرِ أَنَّ كَلِمَةَ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، ثُمَّ يَنْقَطِعُ الرَّجْعُ لِتَبْقَى تِلْكَ الْحَقِيقَةُ  
نَاطِقَةً وَحْدَهَا رُغْمَ الْأَبَاطِيلِ الَّتِي تَمِيدُ.

هذا الأذانُ بِمَعْنَاهُ يَهْمِسُ بِهِ النَّبِيُّ (ص) فِي أُذُنِ فَتَاهُ، لِيَقُولَ لَتِلْكَ الرُّوحِ الْمُرْفَرَفَةِ  
شَيْئاً، وَلِيَتَبَذَّرَ فِي نَفْسِهِ بُدُوراً إِذَا آذَنْتَ بِالنَّمَاءِ أُعْطِيتِ الْخَيْرَ الْمُطْلَقُ وَالطُّهْرَ الْمُحَضَّرَ  
وَالْإِنْسَانِيَّةَ الْمَهْدُبَةَ.

هَمْسَةٌ نَاعِمَةٌ فِي أُذُنٍ، إِلَّا أَنَّ رَجْعَهَا فِي ضَمِيرِ الْفَتَى سَيَتَّصِلُ وَيَتَّصِلُ مَا آخِثَلَجَتْ  
الْحَيَاةُ بِهِ، وَسَتَظَلُّ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ نَعْمًا حَيًّا يَمْلِكُ عَلَيْهِ آتِجَاهُهُ نَحْوَ الْفَلَاحِ وَالْبِرِّ وَالْعَمَلِ  
الصَّالِحِ.

أُرْسِلَ النَّبِيُّ فِي ضَمِيرِ الْفَتَى هَذَا النَّدَاءُ لِيُظَلَّ أَنْشُودَةً نَفْسِهِ اللَّاشُعُورِيَّةَ، وَبِذَلِكَ أَقَامَ فِي  
قَلْبِهِ مَعْبَداً يَنْبِضُ بِأَحَاسِيْسِ التَّقْوَى، وَفِي ضَمِيرِهِ شُعُوراً يَفِيضُ بِأَحَاسِيْسِ الْفَضِيلَةِ ثُمَّ لَا  
تُخْتَلِفُ عَلَيْهِ. كَمَا أَقَامَ فِي نَفْسِهِ، إِذْ أُرْسِلَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْهَادِيَّةُ مِشْعَلاً يُضِيءُ عَلَيْهِ، فَلَا  
تُخَالِطُهُ ظَلَامِيَّةٌ أَوْ دُجْنَةٌ فِي سَبِيلِ حَيَاتِهِ الْمُطْمَئِنَّ.

والأذانُ نِدَاءٌ يَمْحُو فُتُونَ الدُّنْيَا وَأَبَاطِيلَهَا مِنَ النَّفْسِ سَاعَةً، وَهَذَا نِدَاءٌ فِي أُذُنِ الْمَوْلُودِ



يحولُ دونَ ولادةِ الفتونِ والأباطيلِ في دُنياهُ، وبذلكَ يَظَلُّ في دُنيا الناسِ رَمزاً لشيءٍ آخَرَ لا تَكْمُلُ إلَّا بهِ.

أَفَرَعَ النَّبِيُّ (ص) بعضاً من رُوحِهِ في سَريرةِ الفَتى، لِيُعْطِيَ بَعْضاً من النُّبُوَّةِ في بعضِ من أَعْمالِ الناسِ.

بَقِيَ أَذُنُ النَّبِيِّ (ص) في أُذُنِ الفَتى نَشيدَ الأُنشادِ في قَلْبِهِ، فَكانتِ آخِرُ خَلجاتِ هذا القلبِ المَفْعَمِ كأوَّلِها «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لا إِلَهَ إلَّا اللَّهُ».



\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_



## درس وتحليل

يَحْسُنُ بنا أَنْ نَعْرِضَ الْآنَ إِلَى دَرْسٍ نَاحِيَةٍ هَامَّةٍ مِنْ نَوَاحِي طُفُولَةِ الْحُسَيْنِ (ع)، وَهِيَ الْوِرَاثَةُ وَمَكَائِهَا مِنْهُ.

يُظْهِرُ لِلْبَاحِثِ فِي قَانُونِ الْوَارِثَةِ بِأَنَّهَا عَلَى صِنْفَيْنِ: وِرَاثَةٌ تَارِيخِيَّةٌ، وَوِرَاثَةٌ تَأْثِيرِيَّةٌ أَوْ أَنْفِيعَالِيَّةٌ؛ وَنَعْنِي بِالْأُولَى أَنْتِقَالَ الصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي لِلْأَجْدَادِ إِلَى الْمَوْلُودِ، وَبِالثَّانِيَةِ أَنْتِقَالَ أَنْوَاعِ الشُّعُورِ الَّتِي تَتَأَثَّرُ بِهَا الْأُمُّ إِلَى الْجَنِينِ. وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْوِرَاثَةِ ثَابِتُ الْأَثَرِ، وَهُوَ قَانُونٌ طَبِيعِيٌّ تَخَضَّعَ لَهُ جَمِيعُ قُوَى الْإِنْسَانِ وَمَدَارِكِهِ الْمَادِّيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ. وَالْأَمْثَلُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ وَنَذْكُرُ مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِيضَاحِ مَا يَأْتِي:

كَانَ الْفِيلَسُوفُ<sup>(١)</sup> هُوبْس، الْإِنْكَلِيزِيُّ، يُعَلِّلُ مَا فِيهِ مِنْ خُلُقِ الْجُبْنِ، بِمَا لَاقَتْهُ أُمُّهُ مِنْ الْأَهْوَالِ أَثْنَاءَ حَمْلِهَا بِهِ، حِينَمَا كَانَتِ الْعِمَارَةُ الْإِسْبَانِيَّةُ الشَّهِيرَةُ الْمُسَمَّاةُ «أَزْمَادَةُ» تُهَدِّدُ إِنْكَلِتْرَا، وَتَطُوفُ حَوْلَ سَوَاحِلِهَا وَكَانَ مَا يَتَحَمَّلُهُ أَهْلُهَا مِنْ صُورَةِ إِغَارَةِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِمْ يُلْقِي الرُّعْبَ فِي الْقُلُوبِ.

(١) رَاجِعْ كِتَابَ: التَّربِيَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ، تَرْجَمَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بَكْ مُحَمَّدٌ، ص ٥٠.



وَرَوَى<sup>(٢)</sup> أَحَدُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ وَالِدَةَ فَلَاسْمَانَ النَّقَّاشِ الشَّهِيرِ، كَانَتْ مُوَلَّعَةً بِالْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ وَخُصُوصاً النَّقْشِ وَالتَّصْوِيرِ، وَكَانَتْ، مُدَّةَ الْحَمْلِ، تُكْثِرُ مِنْ مُشَاهَدَةِ الرُّسُومِ وَالتَّقَوُّسِ الَّتِي أَبْدَعَهَا أَشْهُرُ الْفَنَانِينَ، فَلَمَّا رُزِقَتْ وَلَدَهَا فَلَاسْمَانَ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ، وَهُوَ صَبِيٌّ، مَبُولٌ فِطْرِيَّةً إِلَى النَّقْشِ وَالتَّصْوِيرِ، وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ أَبْدَعَ أَجْمَلَ التَّمَاثِيلِ وَأَعْظَمَهَا.

وَنَحْنُ عَلَى ضَوْءِ قَانُونِ الْوِرَاثَةِ، بِصِنْفَيْهَا، نَجْتَهِدُ بِأَنْ نَدْرُسَ الْحُسَيْنَ (ع) وَنَفْهَمَ طِبَاعَهُ الثَّابِتَةَ وَالَّتِي هِيَ فِي حُكْمِ الثَّابِتَةِ.

ذَكَرْتُ فِي فَصْلِ التَّدِينِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ<sup>(٣)</sup>، أَنَّ آلَ هَاشِمٍ مَالُوا مِنْذُ أَقْدَمِ التَّارِيخِ إِلَى التَّخْصِصِ بِالشُّؤُونِ الدِّينِيَّةِ، فَكَانُوا يُشْرِفُونَ عَلَى الْمَنَاسِكِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَيَتَوَلَّوْنَ أَعْمَالَهَا بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ. وَكَانَ لَهُمْ، بِحُكْمِ هَذَا التَّخْصِصِ، تَرْبِيَّةٌ خَاصَّةٌ تَتَّصِلُ اتِّصَالاً وَثِيقاً بِإِبْدَاعِ الضَّمِيرِ الدِّينِيِّ، وَإِذْكَاءِ الشُّعُورِ ذِي اللَّوْنِ التَّأْلِيهِ. وَبِالْفِعْلِ نَرَى أَكْثَرَ رِجَالِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَضْفَرُونَ عَلَيْهِمْ شُعُورٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، فَهَاشِمٌ وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَأَبُو طَالِبٍ، ثَلَاثُهُمْ، عَلَى لَوْنٍ وَاحِدٍ مِنَ النَّزْوَعِ الدِّينِيِّ وَالْأَخْذِ الْاجْتِمَاعِيِّ. وَقَدْ كَمَلَتِ الْوِرَاثَةُ الدِّينِيَّةُ بِالنَّبِيِّ (ص) إِذْ كَانَ مَظْهَراً لِلضَّمِيرِ الدِّينِيِّ عَلَى أَتَمِّ أَشْكَالِهِ وَأَكْمَلِ أَوْضَاعِهِ.

إِذَا فَالْحُسَيْنُ كَانَ غَنِيّاً، مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ، بِمَا تَرَاكَّبَ فِي دَمِهِ مِنَ الْوِرَاثَاتِ الدِّينِيَّةِ الْمُتَّصِلَةِ عَلَى طَوِيلِ حَبْلِ النُّسْلِ الْمَمْدُودِ فِي أَعْمَاقِ الْمَاضِي الْبَعِيدِ.

وَلَقَدْ كَانَ لَهُ هَذِهِ الْوِرَاثَةُ بِوَادِي ظَاهِرَةٍ فِي كُلِّ تَصَرُّفَاتِهِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ نَدْرُسَ مَا تَبَيَّنَ عَلَى ضَوْءِ هَذِهِ الْوِرَاثَةِ الدِّينِيَّةِ النَّبِيلَةِ، وَعَلَى ضَوْءِ مَا تُضْفِي مِنْ أَحَاسِيسٍ تَنْزِعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى الْمَحَافِظَةِ وَالتَّمَسُّكِ بِأَهْدَابِ الْمُثُلِ، وَسَكْبِ الْجُهْدِ بِسَبِيلِ صَيَانَتِهَا.

هَذَا أَثَرُ الْوِرَاثَةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الْحُسَيْنِ (ع). وَالْآنَ نَتَنَاوَلُ أَثَرُ الْوِرَاثَةِ التَّأَثُّرِيَّةِ عَلَيْهِ. نَعْلَمُ

(٢) رَاجِعْ كِتَابَ: التَّرْبِيَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ لِلْأَسْتَاذِ أَبَادِيرِ حَكِيمٍ، ص ٧٩.

(٣) رَاجِعْ فَصْلَ التَّدِينِ، ص ٨١ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ.



أَنَّ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ وَضَعَتْ الْحُسَيْنَ وَلَهَا مِنَ الْعُمَرِ عِشْرُونَ<sup>(٤)</sup> سَنَةً تَقْرِيبًا، وَكَانَتْ، كَمَا جَاءَ فِي مَنَاقِبِهَا، عَمَلًا بَرًّا وَمَعْنَى صَالِحًا، فَهِيَ لَا تَفْتَأُ جَاهِدَةً عَلَى أَعْمَالِ التَّقْوَى. وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ لِلْهِجْرَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا الْحُسَيْنُ جَنِينًا، وَقَعَتْ غَزْوَةُ أُحُدٍ، وَهَذِهِ أُخْدِثَتْ أُبْلَغَ الْأَسَى وَأَعَمَّقَهُ فِي النَّفْسِ عَامَّةً، وَنَشَرَتْ عَلَى الْوُجُوهِ نَوْعًا مِنَ الْكَآبَةِ، وَمَسَحَتْهَا بِسَهَامَةِ قَاتِمَةٍ، بِسَبَبِ مَا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى وَلَجَتْ الْوَتِيرَةُ وَالذَّخْلُ كُلُّ بَيْتٍ، وَالنَّبِيُّ (ص) أُصِيبَ بَعْمَهُ حُمَزَةٌ (ض).

وَهَذَا يُشْعِرُنَا بِأَنَّ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ جَزَعَتْ مِنْ نَتَائِجِ هَذِهِ الْغَزْوَةِ الَّتِي نَبَتْ فَأَصَابَتْ جَيْشَ أَبِيهَا، وَأَذْرَكَهَا الْأَسَى الْعَمِيقُ وَالْحُزْنُ الْمَرِيرُ بِفَقْدِ حُمَزَةٍ. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْأَنْفِعَالَاتِ الَّتِي تَأَثَّرَتْ بِهَا وَرَثَتُهَا لَجَنِينِهَا وَهِيَ:

١- أَخَذَ النَّفْسَ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ وَالتَّعَلَّقَ بِحَبَائِلِ التَّقْوَى.

٢- غَلَبَتْهُ الشُّعُورُ بِنَوْعٍ مِنَ الْأَسَى، فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ وَاضِحَةً عِنْدَ الْحُسَيْنِ فِي حَيَاتِهِ. وَلِذَا نَرَاهُ قَلِيلَ الْمَرَحِ قَلِيلَ الْعَبَثِ، كَثِيرَ التَّفَكِيرِ بِمُسْتَقْبَلِ الْأُمُورِ وَسَطَ هَذِهِ الزَّعَاوِجِ النَّاشِئَةِ وَالْعَالِقَةِ بِأَطْرَافِ الْمَجْتَمَعِ، وَكَانَ يَمِيلُ فِي تَفَكِيرِهِ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْأَسَى.

٣- نُضِجَ السَّخِيمَةُ عِنْدَهُ عَلَى التَّكْلِيلِ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى، فَإِنَّ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ لَا شَكَّ فِي أَنَّهَا قَدْ مَلَكَ مَشَاعِرَهَا تَحْرِيقٌ شَدِيدٌ لِلتَّرَةِ مِنْ أَعْدَاءِ أَبِيهَا وَلَوْ فِي التَّمَنِّي، وَهَذَا الشُّعُورُ وَرِثَةُ الْحُسَيْنِ، وَشَاءَتْ الظُّرُوفُ أَنْ يَكُونَ أَعْدَاءُ جَدِّهِ الَّذِينَ وَتَرُوهُ فِي أُحُدٍ، هُمْ أَعْدَاءُهُ يَوْمَ اسْتَقْبَلَ الْأُمُويِّينَ بِالْكَفَاحِ وَقَدْ وَتَرُوهُ أَيْضًا.

(٤) الْخِلَافُ فِي هَذَا يَتَّبِعُ الْخِلَافَ فِي سِنِّهَا حِينَ تَزَوَّجَتْ مِنْ عَلِيٍّ (ع) فَعِنْدَ آئِنِ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ أَنَّهَا تَزَوَّجَتْ بِنْتُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، وَعِنْدَ الْكَلِينِيِّ أَنَّهَا تَزَوَّجَتْ بِنْتُ بِيْثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَعِنْدَ الصَّبَّانِ فِي إِسْعَافِ الرَّاغِبِينَ أَنَّهَا تَزَوَّجَتْ بِنْتُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَعِنْدَ الْكَلِينِيِّ أَنَّهَا تَزَوَّجَتْ بِنْتُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَالصَّوَابُ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْأَرَائِ أَنَّهَا تَزَوَّجَتْ بِنْتُ ثَمَانِي عَشْرَةَ كَمَا يَقُولُ آئِنُ سَعْدٍ وَرَاقِ الْوَاقِدِي.



فالحسينُ من هذه النّاحية كان مُثَقَّلاً بِمَتَارِكِ الْوِراثَةِ التّأثِيرِيَّةِ وَمُتَلَبِّدَاتِ الْوِراثَةِ  
التّاريخيّة، وهو مِنْ بَيْنِ هَاتَيْنِ الْوِراثَتَيْنِ، كَانَتْ لَهُ سِيرَتُهُ الْخَاصَّةُ وَنَهْجُهُ الْخَاصُّ الَّذِي يَنْزِلُ  
مِنْهُ مَنْزِلَةُ الطَّبَعِ لَا يَحُورُ عَنْهُ وَلَا يَحُولُ.

ولقد ساعدَ هذه الْوِراثَةَ عَلَى آتِّبَاعِ خُطَّتَيْهَا، لَوْنُ التَّربِيَةِ فِي الطُّفُولَةِ، وَمَشَاهِدُ الرُّجُولَةِ  
الْكَبِيرَةِ الْأَهْمِيَّةِ، وَمُرُورُهُ بَعْدَ ثَوَرَاتٍ لَهَا خَطَرُهَا كَالثَّوَرَةِ عَلَى عُثْمَانَ، وَثَوَرَةِ الْخَوَارِجِ عَلَى  
أَبِيهِ، وَثَوَرَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّتِي كَانَتْ تُعَدُّ فِي الْخَفَاءِ.

فهذه الْوِراثَةُ، وَمَا أَقْتَرَنَ بِهَا مِنَ التَّربِيَةِ وَالْمُشَاهَدَاتِ، أَعَدَّتْ مِنْهُ رَجُلًا كَبِيرًا خَلِيقًا  
بَأَنَّهُ يَقُومُ بِتَطْبِيقِ أَفْكَارِ الْإِصْلَاحِ الشَّامِلِ الَّتِي أَعَدَّهَا أَبُوهُ الْعَظِيمُ، وَسَلَكَهَا فِي نِظَامِ دُسْتُورِيٍّ  
نَضِيدٍ.

وإنْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ، فَمِنْ أَوْلَيْكَ الْمُؤَرِّخِينَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَهُ بِحَرَكَتِهِ وَيَغْنُقُونَ  
عَلَيْهِ، وَنَحْنُ فِي كُلِّ يَوْمٍ نُحْيِي، كَأَبْطَالِ، الرُّجَالِ الَّذِينَ يَثُورُونَ عَلَى حُكُومَاتِهِمُ الْفَاسِدَةِ  
لِقَلْبٍ وَضَعٍ وَتَرْكِيزٍ وَضَعٍ، وَنَنْتَرِغُ مِنْهُمْ عَنَاوِينَ مَجِيدَةً عَنِ الْقَلْبِ الْكَبِيرِ النَّبِيلِ الَّذِي يَفِيضُ  
بِأَسْمَى مَعَانِي الْإِخْلَاصِ. مِنْ هَؤُلَاءِ أَوْ أَعْظَمَ هَؤُلَاءِ كَانَ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ...



## المَرْبَت أو المَرْبَى النبوي

حَفَلَ النَّبِيُّ (ص) بِمَوْلُودِهِ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ إِلَيْهِ يُمارِسُ فِيهِ عَمَلَ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ، حَتَّى إِذَا تَرَكَهُ فِيهِ إِنْسَانِيَّةٌ رَفِيعَةٌ عَلَى الشَّكْلِ الَّذِي وَضَعَ اللَّهُ تَصْمِيمَهُ فِي الْقُرْآنِ.

فَالنَّبِيُّ (ص) كَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يُفْرِغَ مَا أَنْطَوَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ الْكَبِيرَةُ مِنْ مَكْنُونَاتٍ إِفْرَاغاً فِي رُوحِ الْفَتَى، بِأَسْلُوبٍ كَمَا تَنْشَأُ الطُّفُولَةُ، يَجْمَعُ بَيْنَ طَرَاوَتِهَا وَبَيْنَ جِدِّ الْمَعْنَى الْكَبِيرِ الَّذِي يُعِدُّهُ لَهُ، وَكَانَ يَعْمَلُ عَلَى أَنْ يَنْقُضَ فِي رُقْعَةِ نَفْسِ الْفَتَى مَا اجْتَمَعَ فِي رُقْعَةِ نَفْسِهِ، وَكَانَ مَا أَسْتَوَى فِي نَفْسِهِ (ص) لَا يَغْدُو الْإِنْسَانِيَّةَ الْمَثَالِيَّةَ وَالْمَعْنَى الْأَتَمَّ لِلْحَقِّ وَالْإِيمَانِ.

فَالْمَرْبَتُ<sup>(١)</sup> النَّبَوِيُّ أَخْرَجَ اثْنَيْنِ فَقَطْ، كَانَ أَحَدُهُمَا مِثَالاً لِكَلِمَةِ الْحَقِّ الْهَادِيَّةِ، وَكَانَ الْآخَرُ مِثَالاً لَتِلْكَ الْكَلِمَةِ أَيْضاً حِينَ تُشْتَقُّ طَبِيعَةُ النَّاسِ مِنْ طَبِيعَةِ الْحَدِيدِ الْمُتْرَاكِبِ بِالصَّدَأِ، وَلَا تَجْلُو طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ إِلَّا صَرْوَحَةُ الْحَقِّ الْمَدْوِيَّةِ، كَمَا لَا يَجْلُو طَبِيعَةُ الْحَدِيدِ إِلَّا هَدِيرُ النَّارِ الْفَائِرُ وَتَلْظِي الْجَمْرِ الْوَقِيدُ. فَأَحَدُهُمَا مِثَالٌ لِلدَّاعِي إِلَى الْحَقِّ، وَالْآخَرُ مِثَالٌ لِلْمُحَامِي الدَّائِدِ

(١) كَلِمَةٌ مِنْ وَضَعْنَا الْجَدِيدَ تَرْجَمَةُ لِكَلِمَةِ Kindergarten (روضة الأطفال) مِنْ مَادَّةِ رَبَّتْ أَيْ ضَرَبَتْ عَلَى كَيْفِ الطُّفْلِ لِيَنَامَ، وَيَرْجِعَ الْفَضْلُ فِي إِنْشَاءِ الْمَرْبَتِ إِلَى فَرِيدْرِيكِ فَرُوبِلِ الْأَلْمَانِيِّ الَّذِي دَرَسَ طِبَائِعَ الْأَطْفَالِ وَمَلَكَاتِهِمْ وَوَضَعَ الْمَبَادِيءَ الْأَوَّلِيَّةَ لِتَرْبِيَتِهِمْ. رَاجِعْ كِتَابَ: التَّرْبِيَةِ الْأَخْلَاقِيَّةَ مَرَجِعٌ سَابِقٌ، ص ١٥.



عنه غامساً نفسه بالنار المُلتهبة دونه، وهو واثق بأن هذه النار التي أُعدت له حتى تُسجّر عليه دَعْوَتَه، سَيُشْرِكُ فيها كلمة الحق التي تدعُ النار تُوْج وتُوْج، ثم لا تنهاى إلا بالتهام الذين سَجَرُوا أَنْفُسَهُمْ.

والذي نَعَلَمُ من أساليب النبي (ص) التربوية للطفولة أنه يأخذ الجسم والعقل والنفس جميعاً بعملٍ مُشْتَرِكٍ من شأنه توزيع النماء على هذه القوى، فلا تَضْعُفُ قُوَّةٌ بسبيل الأخرى، وهو من وراء ذلك يَغْمُرُهُ بالحنان، لِيُشْعِرَهُ بوجوده الذاتي وتَتَكَوَّنَ بذلك شخصيته الاستقلالية.

ذكر أبو رافع مَوْلَى النبي (ص) أنه كان يُلَاعِبُ الحَسَنَ والحُسَيْنَ بالمَدَاحِ (٢). وعن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ الحَسَنَ والحُسَيْنَ (٣) كانا يَضْطَرِعَانِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ (ص). وعن يَغْلِي (٤) العامريُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ص) خَرَجَ إِلَى طَعَامٍ فَإِذَا حُسَيْنٌ فِي السُّكَّةِ مَعَ غِلْمَانٍ يَلْعَبُ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ أَمَامَ الْقَوْمِ وَبَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ الْغُلَامُ يَفِرُّ هَا هُنَا وَهَا هُنَا، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يُضَاحِكُهُ حَتَّى أَخَذَهُ فَوَضَعَ إِحْدَى يَدَيْهِ تَحْتَ قَفَاهُ وَالْأُخْرَى تَحْتَ ذَقْنِهِ وَقَبْلَهُ.

وعن شَدَادٍ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ فِي إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشَاءِ، وَهُوَ حَامِلٌ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ (ص) فَوَضَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ فَأُطَالَ سَجْدَةَ الصَّلَاةِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطْلَتَهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنْ آتَنِي آرْتَحَلْنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ.

(٢) ذَكَرَهُ أَبُو الْأَثِيرِ فِي النَّهَائَةِ. وَالْمَدَاحِي جَمْعُ أَذْيَةٍ وَهِيَ أَحْجَارٌ يَخْفِرُونَ لَهَا حَفراً يَحْدِفُهَا إِلَيْهَا الْغُلَامُ فَإِنْ اسْتَقَرَّ الْحَجَرُ فِيهَا غَلَبَ وَإِلَّا غَلِبَ.

(٣) ذَكَرَهُ أَبُو الْأَثِيرِ فِي أَسَدِ الْغَابَةِ، ج ٢.

(٤) إِبْنُ مَاجَةَ فِي السُّنَنِ، وَأَبُو عَسَاكَرٍ فِي التَّارِيخِ، ج ٤، ص ٣١٥.



وَذَكَرَ الْبَزَّازُ الْكَرْدِيُّ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ السَّلِيمِيَّ كَانَ يُعَلِّمُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ الْقُرْآنَ.

هذه بعض من أخبار الحسين (ع) وهي ثرينا ألوان التربية التي كان النبي يأخذ بها، وفيها كل ما يُحسب من سمو وكل ما يُحسب من تكميل. وفي تناول النبي (ص) هذه الحقيقة الكونية بكل حنانه إشعارها بأن تتناول الإنسانية بكل حنايتها.

**درس وتحليل:** يحسن بالدارس أن يُنعم النظر كثيراً في هذه الفترة أو المديدة من حياة الحسين (ع)، لأنها تُفهمنا سير حركاته التي أتاها في أزمان رجولته، فإن هذا الوجود الصغير للكائن يطبع عليه وجوده الكبير بطوابع قلما يتخلل منها أو يتنصل من آثارها. فتعهد الطفل في هذا الدور هو ما يجعلنا نطمئن إليه ونثق به، فإن رعاية غرائزه وتوجيهها يحفظ عليه توازنه الذي هو أس الشخصية الكاملة.

ويجدُر بي أن أنقل تصوير الأستاذ بستالوزي وتمثيله الرائع للتربية، قال:

«تتمثل لي التربية بشجرة مثمرة بجانب جذول مياه جارٍ، وما أضلها إلا حبة صغيرة أودع الخالق فيها شكل هذه الشجرة وخواصها وأثمارها، فلما غرست وتعهدها الزارع بما يساعده الطبيعة على عملها ظهرت تلك الحبة في شكل نبات، ثم نمت وترعرعت حتى كبرت وأينعت وأثمرت، وما هي إلا الحبة الصغيرة مكبرة نامية.

وهذا هو الحال في الطفل الذي أودع فيه الخالق تلك القوى التي تنمو وتظهر معه بالتدريب، فتتطور أعضاؤه وملكاؤه تدريجاً حتى يصبح من مجموعها وحدة. فيجب على المربي أن يساعده قوى الطفل البدنية والأدبية والعقلية على النمو الطبيعي، دون استعمال الطرق الصناعية، فيجب أن ينمي الإيمان في الطفل لا بواسطة الكلام النظري، بل بما ينشأ عليه الطفل بتضيقه الفعلي ورشوخ الاعتقاد في نفسه.

هذا تمثيل حقيقي لعمل التربية في إنماء القوى الأدبية وما إليها، وهي لا تزال تعمل عملها حتى تعود الأدبيات ملكات راسخة. وبذلك يتحقق الغرض الأسمى من التربية



الأخلاقية، الذي هو أن تستحيل الأفعال الأخلاقية الإرادية أفعالاً لإرادية، على ما يقول لوبون في كتابه روح التربية.

هذا الغرض التربوي هو الذي أراد النبي (ص) أن يُشيعه في نفس الغلام، وكذلك علي (ع) من بعده الذي ما فتىء يمدّه بالمعنوية المتدفقة، تلك المعنوية التي لم يكن يُدركها آنحساراً، بل هي في مدّ على الدوام، وذلك لأن إيمانه كان غرس الطفولة والشباب والكهولة والهزم، فأديت الإسلام ومثالياته عادت في نفس الفتى من الصنف اللإرادي.

والإسلام، في طقوسه ورياضاته، يرمي إلى هذا الهدف العميق، الهدف الذي كان يعمل له أهل إسبرطة القدماء، كما يقول مونتسكيو في كتابه روح الشرائع، فإنهم كانوا يفهمون التربية لا على شكل أن يكون المرء معها فاضلاً، بل على شكل أن لا يمكن له أن يكون إلا كذلك. فأعمال الفضيلة عندهم لا تكون شيئاً إذا كان يضحّبها القصد الأخلاقي، فإنها بذلك تكون متكلفة سرعان ما تحور إذا وجدت الدوافع عنها والجاذب إلى منافياتها، فالإسبرطي كان يصدق لا لأن الصدق فضيلة وعمل من الأخلاق بل لأنه لا يستطيع أن يكون إلا كذلك.

هذا النوع من التربية عند الإسبرطيين هو ما سنّت مثله الرياضة التربوية في الإسلام، فالمسلم الصحيح الإسلامية فاضل عصباً ودماً قبل أن يكون كذلك في الميل والشعور. وللمسلم طبيعة كأنها مشتقة من الطبع كما يتفتح وينشق عنه بزعم النافجة (وعاء المسك) لا تُنتج إلا ما استوى في تركيبها، وتركيب المسلم الصحيح استوى على مثل من الفضيلة وأعمال من الأخلاق، فهو لا يجاوزها إلا إذا لم يكمل تركيبه الإسلامي أو نقص منه شيء أفسد على آليتها حركتها.

فالنبي (ص) كذلك أراد سبطه، فبارك طفولته وأخذَه بضرب من التهذيب العميق الذي كانت له نتائج مثلى، بواسطة ما يدعونه، في الفلسفة، بالفعالية الصائمة الكامنة في



وسقوط الدولة الرومانية. ومن المُستَحْسِن أنْ نُثْقِلَ هنا ما جاء في مؤلَّفِ بستانالوزي<sup>(٧)</sup> النفس فيما يتعلَّقُ بالتَّربية الدِّينية لِشَخْصٍ أثَّرَ والدَّته فيه، قال:

«وهنا أسعى لحلَّ مسألتني في نفسي، فأسألُ كيفَ تولَّدتُ فكرةُ الله في نفسي؟ وكيفَ وصلتُ للاعتقاد فيه تعالى حتَّى أرتيمي بين ذراعَيْهِ وأشعرَ بنعمتيهِ كلِّما أُحبَّبْتُه وأعتَمَدْتُ عليه وشكَّرتُه وأطعْتُه؟

فأرى أنَّ هذه الإحساسات، إحساساتِ المحبَّة والشُّكر والثِّقة والطَّاعة، لا بُدَّ من وجودها في داخلي قبلَ أنْ أشعرَ بها نحوَ الله تعالى. إذُ يَجِبُ أنْ يكونَ لديَّ هذه المحبَّة والشُّكر والثِّقة والطَّاعة نحوَ الناسِ قبلَ شعوري بالمحبَّة والشُّكر والثِّقة والطَّاعة نحوَ الله تعالى. لأنَّ مَنْ لا يُحِبُّ أخاه الذي يراه فكيفَ يُمكنُ أنْ يُحِبَّ الله تعالى الذي لم يره؟

حينئذٍ أسألُ نفسي كيفَ وصلتُ إلى محبَّةِ الناسِ وشكرهم وطاعتهم والثِّقة فيهم؟ وكيفَ نَمَتْ هذه الإحساساتُ في طبيعتي حيثُ تشكَّنُ المحبَّةُ الإنسانيَّةُ والشُّكرُ الإنسانيُّ والثِّقةُ الإنسانيَّةُ والطَّاعةُ الإنسانيَّةُ؟ فأجدُ أنَّ الأصلَ الوحيدَ لكلِّ هذه العواطفِ تأتَّى مِنَ العَلاقاتِ الكامنةِ بينَ المولودِ والدَّته. فالوالدَّةُ، بما أُودِعَ فيها مِنَ الغريزةِ الفِطَريَّةِ، مدفوعةٌ إلى العنايةِ بمولودها فيَبْتَهِّجُ خاطِرُه، ومن ذلكَ تَتَوَلَّدُ في فُؤادِه عاطفةُ المحبَّةِ والثِّقةِ والشُّكرِ. يَعْرِفُ الطِّفْلُ وَقَعَ قَدَمَي والدته ويَبْتَسِمُ كلِّما شاهدَ خيالها، ويُحِبُّ كُلَّ مَنْ على شاكِلَتِها، وَيَعْتَقِدُ أنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ مثِليها هو مخلوقٌ طيِّبٌ، فكما يَبْتَسِمُ في وَجْهِ والدته

(٥) راجع كتاب: الفلسفة الحديثة، ج ١، ص ٦٥. تعريب جميل البهرة، طبع دمشق سنة ١٩٣٧، ورأيتُ في كتاب: درس في الغرائز، أنَّ أبا العلاء كَفَّتهُ الحاشَةُ التي بَقِيَتْ عامِلَةً عنده إلى سِنِّ الثالثة أنْ تُزَوِّدَهُ بخيالٍ تَصْويريٍّ عميقٍ فتَأْتِي له معها أنْ يُثْجِفَ الأدبَ بكثيرٍ مِنَ الصُّورِ الشَّعْريَّةِ الرَّائعةِ.

(٦) Le seuil de la conscience



الكبيرة. والظاهرة البادية في تربية النبي التي كانت لا تخفى حتى لكأنها المدار هي الأخلاق، وأنها قبل كل شيء. وهذا أساس متين، فإن الأخلاق عامل تقدم وبقاء، كما أن انحلالها عامل السقوط الآكد، على ما يظهر من مطول جيبون، المؤرخ الشهير، عن رفعة وسقوط الدولة الرومانية. ومن المستحسن أن أنقل هنا ما جاء في مؤلف بستانلوزي<sup>(٧)</sup> النفيس فيما يتعلّق بالتربية الدينية لشخص أثر والدته فيه، قال:

«وهنا أسعى لحلّ مشألي في نفسي، فأسأل كيف تولدت فكرة الله في نفسي؟ وكيف وصلت للاعتقاد فيه تعالى حتى أرتمي بين ذراعيه وأشعر بنعمته كلما أحببته وأغتمدت عليه وشكرته وأطعته؟

فأرى أن هذه الإحساسات، إحساسات المحبة والشكر والثقة والطاعة، لا بُدّ من وجودها في داخلي قبل أن أشعر بها نحو الله تعالى. إذ يجب أن يكون لديّ هذه المحبة والشكر والثقة والطاعة نحو الناس قبل شعوري بالمحبة والشكر والثقة والطاعة نحو الله تعالى. لأنّ من لا يحب أخاه الذي يراه فكيف يمكن أن يحب الله تعالى الذي لم يره؟

حينئذ أسأل نفسي كيف وصلت إلى محبة الناس وشكرهم وطاعتهم والثقة فيهم؟ وكيف نمت هذه الإحساسات في طبيعتي حيث تشكّن المحبة الإنسانية والشكر الإنساني والثقة الإنسانية والطاعة الإنسانية؟ فأجد أنّ الأضل الوحيد لكل هذه العواطف تأتي من العلاقات الكامنة بين المولود والدته. فالوالدة، بما أودع فيها من الغريزة الفطرية، مدفوعة إلى العناية بمولودها فيبتهج خاطره، ومن ذلك تتولد في فؤاده عاطفة المحبة والثقة والشكر. يعرف الطفل وقع قدمي والدته ويبتسم كلما شاهد خيالها، ويحب كل من على شاكرتها، ويعتقد أنّ كل مخلوق مثلها هو مخلوق طيب، فكما يبتسم في وجه والدته

---

(٧) اسم هذا المؤلف: *How Gertrude Teaches her Children* أي: كيف تعلّم جرتروود أولادها.



يَتَسَيَّمُ فِي وَجْهِ كُلِّ إِنْسَانٍ. يُحِبُّ كُلُّ مَنْ تُحِبُّهُ وَيَعَانِقُ كُلُّ مَنْ تُعَانِقُهُمْ، وَمِنْ ذَلِكَ تَسْوَلُ فِيهِ عَاطِفَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِخَاءِ.

فَالْمَحَبَّةُ بِنْتُ الْحَاجَةِ وَعَنْهَا نَشَأَتْ، وَالشُّكْرُ مَوْلُودُ التَّغْذِيَةِ وَلَوْلَاهَا لَمَا أَزْهَرَ فِي فَوَادِ الطِّفْلِ، وَالثِّقَةُ بِنْتُ الْعِنَايَةِ، وَالطَّاعَةُ وَلِيدَةُ الْقَلْقِ، فَنَرَى الطِّفْلَ يَصْرُخُ وَيَقْلُقُ قَبْلَ تَعْلِيمِهِ الصَّبْرَ وَالطَّاعَةَ. وَمَعَ أَنَّ الْقَلْقَ وَالصَّبْرَ مُتَنَاقِضَانِ فَإِنَّ أَوْلَهُمَا يُؤَدِّي إِلَى الثَّانِي. وَمِنْ هَذَا يَنْتَقِلُ الطِّفْلُ مِنْ دَرَجَةِ الطَّاعَةِ الْقَهْرِيَّةِ إِلَى الطَّاعَةِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي تَنْمُو مَعَ الزَّمَنِ بِزِيَادَةِ الْإِدْرَاكِ وَتُمُو الْإِخْتِيَارِ.

مِنْ أَرْتِبَاطِ الطَّاعَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالشُّكْرِ وَالثِّقَةِ وَأَتَّحَادِهَا فِي نَفْسِ الطِّفْلِ يَتَوَلَّدُ الضَّمِيرُ، وَبِهِ يُشْرِقُ عَلَى عَقْلِ الطِّفْلِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ. ثُمَّ يَزْتَقِي إِدْرَاكُهُ فَيَعْلَمُ بِأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْوُجُودِ لَمْ يُخْلَقْ لَهُ وَحْدَهُ، ثُمَّ<sup>(٨)</sup> يَتَدَرَّجُ فِي سُلَّمِ التَّرَقِّي حَتَّى يَصِلَ إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الشُّعُورِ الْإِنْسَانِيِّ فَيَذَرُكَ أَنَّهُ، هُوَ نَفْسُهُ، لَمْ يُخْلَقْ فِي هَذَا الْوُجُودِ لِدَاتِهِ، وَمِنْ هُنَا يَبْدَأُ بِمَعْرِفَةِ الْوَاجِبِ وَالْحَقِّ.

هَذِهِ أُمِّهَاتُ الْفَضَائِلِ الْأَدَبِيَّةِ، وَجَمِيعُهَا مُنْبَثِقَةٌ عَنِ الْعَلَاqَاتِ الْكَائِنَةِ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَمَوْلُودِهَا. وَمَتَى نَمَا وَقَوِيَ وَأَنَسَ مِنْ نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْقِيَامِ بِحَاجَاتِهِ، دَبَّتْ فِي صَدْرِهِ رُوحُ الْإِسْتِقْلَالِ وَشَعَرَ بِأَنَّ لَهُ شَخْصِيَّةً مُسْتَقْلِلَةً عَنِ وَالِدَتِهِ، وَبِزَوَالِ حَاجَاتِهِ الْأُولَى نَحْوَ وَالِدَتِهِ تَضَعُفُ مِنْ نَفْسِهِ تِلْكَ الْعَوَاطِفُ وَالْفَضَائِلُ الَّتِي غَرَسَتْهَا هَذِهِ الْحَاجَاتُ. حِينَئِذٍ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، فَيَقُولُ لِأَنِّي لَسْتُ فِي حَاجَةٍ بَعْدُ إِلَى وَالِدَتِي. وَهَذِهِ الْفِكْرَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَصْطَرِّعَ فِي نَفْسِهِ بِمُجَرَّدِ شُعُورِهِ بِالْإِسْتِقْلَالِ، وَوَاجِبُ الْأُمِّ هُنَا عَظِيمٌ جَدًّا وَإِلَّا تَهْدَمَ عَلَيْهِ بِنَاءُ

(٨) قَالَ بَشْتَالُوزِي فِي مَوْضُوعٍ آخَرَ مِنْ مُؤَلَّفِهِ: «وَاجِبُ الْأُمِّ فِي هَذِهِ الْأَدْوَارِ عَظِيمٌ جَدًّا وَتَوْفِيقُهَا فِي مُهِمَّتِهَا التَّرْبَوِيَّةِ يَرْجِعُ إِلَى دَرَجَةِ اسْتِعْدَادِهَا هِيَ وَتَهْلِيهِهَا». وَالسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ ابْنَةُ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ كَانَتْ الْأَوْفَرُ اسْتِعْدَادًا وَالْأَشْمَى تَهْلِيًّا.



المبادئ الأدبية التي آنس بها وهو قطيم، ولا وسيلة لإنقاذه من هذا الموقف الحرج إلا بتوجيه عواطفه وعقله إلى قوة أعظم وقدرة أتم وأوفى من قوتها وقدرتها، مُرشدة له بأنه، وإن زال احتياجه إليها، إلا أن خالقه وخالقها وموجد هذا الكون والوجود ومبدع جميع الكائنات، هو الذي يجب الاعتماد عليه والرجوع إليه، وهو الذي يمدُّ بالمُساعدة التي تعجزُ هي عن تقديمها له كُلُّما آلتَمَسَهَا منه تعالى، وهو مَصْدَرُ كُلِّ راحة كما أنه الذي يُمَهِّدُ له سُبُلَ السَّعادة التي ليس للوالدة إليها سبيلٌ.

بهذه الوسطة تَمْنَعُ الوالدةُ الحكيمة وَلَدَهَا مِنَ السَّقُوطِ في هذه الرذيلة، وتَغْرِسُ في فؤاده شعوراً حياً ومقاصدَ عاليةً، وإيماناً ثابتاً في الخالق يَرْتَفِعُ بنفسِ المولودِ عن مُستوى هذه المادِّيات المحيطة به، فَيَبْتَهِجُ كُلُّما سَمِعَ من فَمِ والدته اسمَ ذلك الخالقِ القويِّ الرَّحيمِ، وَيَشْعُرُ فؤادُهُ نحوَ الله بذلك الحُبِّ والشُّكرِ والثَّقة التي كان يَشْعُرُ بها نحوَ والدته فَيَتَطَلَّعُ إليه تعالى كوالدٍ رحيمٍ.

مَتَى غَرَسَتْ في فؤادِ الطِّفْلِ هذه الفضائلُ نحوَهُ تعالى، خَطَا نحوَ الفضيلةِ والتَّقوى خُطْوَةً واسعةً، لأنَّ الشَّابَّ الَّذِي يَتَطَلَّعُ إلى الله وهو في عُثْفُوَانِ شَبَابِهِ، كما كان يَتَطَلَّعُ إلى والدته في سِنِي طُفُولِيَّتِهِ، يَقُومُ بِعَمَلِ الواجبِ والصَّوابِ حُبّاً في الله كما كانَ يَعمَلُهما حُبّاً في والدته.

على هذه الملاحظة الجديرة بالاعتبار، يَجِبُ أَنْ تُؤَسَّسَ التَّربيةُ الأخلاقيةُ، فإنَّنا إذا أذَرَكْنَا أَنَّ عواطفَ المحبةِ والشُّكرِ والثَّقةِ والطَّاعةِ هي ثَمَرَةُ اتِّصَالِ غَرِيزِي بَيْنَ الوالدةِ والمولودِ، أَمَكَّنَّا أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ نُموَّ هذه العواطفِ والفضائلِ يَتَوَقَّفُ على مقدارِ تَشَبُّعِ نفوسِنا والعملِ بمبادئِ الأخلاقِ؛ يَجِبُ على الوالدةِ أَنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ فِي حَيَاةِ كُلِّ مولودٍ في هذا الوجودِ، تَضَعُفُ في نَفْسِهِ تِلْكَ الأسبابُ، وَيَشْعُرُ فِيهِ بِأَسْتِغْنَائِهِ عن والدته، وبَدْخُولِ هذا الشَّعُورِ إلى نَفْسِهِ، تَضَعُفُ هذه العواطفُ فيه نحوَهَا، وبهذا يَتَسَرَّبُ إليه



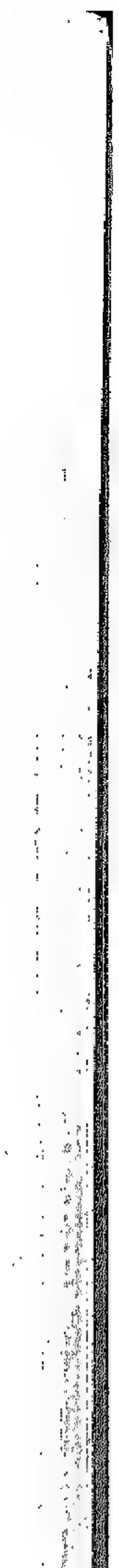
الضعف الأخلاقي الذي يجعله عرضة لأخطار أدبية مخيفة. فالطفل، كما لاحظنا فيما سلف، يحب والدته ويشكرها ويعتمد عليها ما دام هو في حاجة إليها. كذلك هو يحب الخالق تعالى ويشكره ويعتمد عليه ما دام يشعر باحتياج إليه. وبزوال هذه الأسباب تزول نتائجها، فتضعف العواطف الطيبة في فؤاد الطفل نحو والدته حالما يشعر باستقلاله وعدم حاجته إليها. من هذا نتبين أن الطفل يتعرض إلى دور انتقال خطير، والأم وحدها هي التي تستطيع إنقاذه والاستيلاء على مشاعره لتوجيهها توجيهاً آخر يكون أكثر ثباتاً، وهذا التوجيه الذي هو من وظائف الأم الأولية يتوقف ويتفاوت على ما استوى في نفسها من أدبيات سامية وأخلاق رفيعة.

والذي أنهى إلينا من مجموعة أخبار الحسين (ع)، أن أمه غنيت ببث المثل الإسلامية الاعتقادية لتشيع في نفسه فكرة الفضيلة على أتم معانيها وأصح أوضاعها، ولا يدع فإن النبي (ص) أشرف على توجيهه أيضاً في هذا الدور الذي يشعر الطفل فيه بالاستقلال.

فالسيدة فاطمة أنمت في نفسه فكرة الخير والحب المطلقي والواجب، وأمدت في جوانحه وخوالجه أفكار الفضائل العليا، بأن وجهت المبادئ الأدبية في طبيعته الوليدة، من أن تكون هي نقطة دائرتها، إلى الله الذي هو فكرة يشترك فيها الجميع.

وبذلك يكون الطفل قد رسم بنفسه دائرة محدودة قصيرة حين أدار هذه المبادئ الأدبية على شخص والدته، وقصرها عليها وما تجاوز بها إلى سواها من الكوائن. ورسمت له والدته دائرة غير متناهية حين جعلت فكرة الله نقطة الارتكاز، ثم أدارت المبادئ الأدبية والفضائل عليها، فأتسعت نفسه لتشمل وتستغرق العالم بعواطفها المهدبة، وتأخذه بالمثل الأعلى للخير والجمال.







## «سلام عليه يوم ولد»

جاء في أخبار الحسين أنه كان صورةً آخَتَبَكَتْ ظِلَالُهَا مِنْ أَشْكَالِ<sup>(١)</sup> جَدِّهِ الْعَظِيمِ، فَأَفَاضَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ شُعَاعَةً غَامِرَةً مِنْ حُبِّهِ وَأَشْيَاءَ نَفْسِيَّةٍ، لِيُسَمَّ لَهُ أَيْضاً مِنْ وَرَاءِ الصُّورَةِ مَعْنَاهَا، فَتَكُونَ حَقِيقَتُهُ مِنْ بَعْدُ كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ، إِنْسَانِيَّةً أَرْتَقَتْ إِلَى نُبُوَّةٍ «أَنَا مِنْ حُسَيْنٍ»، وَنُبُوَّةً هَبَّتْ إِلَى إِنْسَانِيَّةٍ «حُسَيْنٌ مِنِّي».

فسلامٌ عليه يومٌ وُلِدَ...

الطُّفُولَةُ إِنْسَانِيَّةٌ لَمْ تَمْسُهَا ضَرَاوَةُ الْغَرَائِزِ وَشَهَوَاتِ الْعَقْلِ، كَالْمَطَرَةِ قَبْلَ أَنْ تَمْسُهَا الْأَرْضُ بِتُرْبَتِهَا فَتُدْخِلَ عَلَيْهَا أَلْوَاناً لَيْسَتْ مِنْ مَعْنَاهَا وَلَا مِنْ طَبِيعَتِهَا. ثُمَّ تَتَفَاضَلُ الطُّفُولَةُ بِالْبَيْئَةِ الَّتِي تَمُرُّ مِنْهَا إِلَى الْحَيَاةِ، كَتَلِكِ الْمَطَرَةِ إِذَا حَلَّتْ فِي

(١) هذه الشكليات خاضعة لقانون الـ Atavisme الذي نَرْجِعُهُ بِقَانُونِ «التَّجْدِي» مِنْ تَجْدَدٍ بِمَعْنَى تَشَكُّلِ بَشَرِ الْجَدِّ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَصُولِ الْاِشْتِقَاقِيَّةِ الَّتِي أَفَرَزْنَاهَا فِي كِتَابِنَا: مَقْدَمَةٌ لِدَرْسِ لُغَةِ الْعَرَبِ، أَنَّ الْمُضَعَّفَ الثَّلَاثِي إِذَا صَبَغَ عَلَى وَرْنٍ تَفَعَّلَ جَارَ قَلْبٍ لَا بِهٍ فِي التَّكَرَّارِ حَرْفَ لَيْنٍ، مِثْلَ تَطَلَّنَ قَالَ الْعَرَبُ تَطَلَّنَى وَتَمَطَّطَ قَالُوا فِيهَا تَمَطَّطَى. وَنَحْنُ أَجْرَيْنَاهَا قَاعِدَةً فِي الْاِشْتِقَاقِ مَعَ اخْتِلَافِ الْمَعْنَى دَفْعاً لِلْبُئْسِ. وَعَلَيْهِ فَتَجْدَدُ بِهَذَا الْمَعْنَى، خُرُوجاً عَنِ اللَّبْسِ بِمُفْرَدَةٍ تَجْدَدُ بِمَعْنَى التَّجْدِيدِ نَقْلِبُ اللَّامَ فِيهِ حَرْفَ لَيْنٍ وَنُخْصُهُ بِمَعْنَى الَّذِي آتَّخَذَ صُورَةَ الْجَدِّ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ تَرْجُمَةً حَقِيقَةً لِكَلِمَةِ Atavisme، بِمَعْنَى الرَّجُوعِ إِلَى الْجَدِّ.



قارورة أو حُلَّتْ في ثُوبَةٍ.

والحسينُ الطُّفْلُ حَلٌّ في بيئَةِ التُّبُوَةِ الَّتِي هِيَ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعُلْيَا فِي الْمَظْهَرِ الْبَشَرِيِّ، فَكَانَ  
بِذَلِكَ أَشْمَى<sup>(٢)</sup> رَجُلًا لِأَنَّهُ أَشْمَى طِفْلٍ فِي أَشْمَى بَيْعَةٍ.

فسلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ...

حِينَما فَصَّلَ، أَيَّ خَرَجَ، الْحُسَيْنُ (ع) مِنْ قُوَّةٍ فِي النَّوَاةِ، إِلَى كَائِنٍ أَشْتَكَنْتُ فِيهِ الْقُوَّةَ  
عَلَى نَحْوِ آخَرٍ، أُذِنَ لَخَصَائِصِ الْوَرَاثَةِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ<sup>(٣)</sup> نُقْطَةِ الدَّائِرَةِ إِلَى مُحِيطِهَا.

فسلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ...

عَلَّقَ النَّبِيُّ (ص) حُسَيْنًا، لِأَنَّهُ رَأَى ظِلَّهُ وَرَأَى حَقِيقَتَهُ فِي الطُّفْلِ الْوَلِيدِ، فَحُبُّ النَّبِيِّ لَهُ  
لَمْ يَكُنْ بِمَحْضِ الْعَاطِفَةِ فَقَطْ، بَلْ بِشُعُورٍ آخَرَ أَيْضًا هُوَ الْإِبْقَاءُ عَلَى الذَّاتِ.

فسلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ...

«اللَّهُمَّ أَحِبَّهُ فَإِنِّي أُحِبُّهُ» كَلِمَةٌ كَأَنَّهَا الْوِسَامُ مِنَ النَّبِيِّ (ص) لِمَوْلُودِهِ الصَّغِيرِ، وَالْوِسَامُ  
فِي لُغَةِ الْمَرَاتِبِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، مَنَبَهَةٌ لِحَامِلِهِ عَلَى أَنَّهُ قَامَ بِعَمَلٍ عَظِيمٍ. وَهَذَا وَسَامٌ يُنَبِّئُهُ عَلَى  
عَمَلٍ خَالِدٍ سَوْفَ يَقَعُ مِنَ الطُّفْلِ الْجَدِيدِ، وَلَمْ يُمْنَحْهُ قَبْلَ الْاِسْتِحْقَاقِ، لِأَنَّ عَمَلَهُ الْخَالِدَ  
سَيَكُونُ تَضْحِيَّةً رَهِيَّةً تَضَعُ حَدًّا لِلْحَيَاةِ.

فسلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ...

---

(٢) يَقُولُ الْمَثَلُ الْإِنْكَلِيزِيُّ: «الطُّفْلُ أَبُو الرَّجُلِ» وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَا أَشْتَقَرَّ فِي الطُّفْلِ مِنْ كَمَالٍ أَوْ نَقْصٍ، هُوَ الَّذِي يَبْعَثُ الرَّجُلَ ذَا الْكَمَالِ  
أَوْ النِّقْصِ وَلَيْسَ مَنْ يَزَنَابُ فِي أَنَّ بَيْعَةَ النَّبِيِّ (ص) أَرْفَعُ بَيْعَةٍ، وَأَنَّ الَّذِي أَشْتَقَرَّ فِي الْحُسَيْنِ الطُّفْلِ هُوَ أَشْيَاؤُهَا، فَلَمْ يَبْقَ رَيْبٌ فِي أَنَّ  
الْحُسَيْنَ لَا يُغَيَّرُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَشْمَى رَجُلًا، فَإِنَّ طُفُولِيَّتَهُ كَانَتْ أَهًا رُجُولِيَّتِهِ.

(٣) نَعْنِي بِهَذَا أَنَّ خَصَائِصَ الْوَرَاثَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَجْمُوعَةً فِي النَّبِيِّ (ص) الَّذِي هُوَ نُقْطَةُ الدَّائِرَةِ أَتَقَلَّتْ بِالْحُسَيْنِ وَأَخِيهِ الَّذِينَ هُمَا  
الْحَافِظَانِ لِلنَّسْلِ النَّبَوِيِّ مِنَ الْانْقِطَاعِ، إِلَى مُحِيطٍ أَوْسَعٍ، شَكْلُ دَائِرَةٍ كُبْرَى.



النُّبُوَّةُ طاقَةٌ تَغْلِبُ المادَّةَ وَتَتَمَدَّدُ فِي القلبِ والعقلِ والضَّميرِ، والحِكْمَةُ طاقَةٌ تَغْلِبُهَا المادَّةُ إِلَّا أَنَّهَا تُسَيِّطِرُ عَلَى القلبِ والعقلِ والضَّميرِ.

والفَرْقُ أَنَّ هذه، أي الحِكْمَةَ، تَبْدَأُ سَيْرَهَا مِنَ المادَّةِ إِلَى ما وراءَ، وتلكَ، أي النُّبُوَّةَ، تَبْدَأُ السَّيْرَ مِنَ الطَّاقَةِ إِلَى ما وراءَ، وَبَيْنَهُمَا أَنَّ الأولى لَا تَخْرُجُ عَنِ المادَّةِ إِلَّا بِمَقْدَارٍ فَهِيَ فِيهَا أَبَدًا، كَمَا أَنَّ الثَّانِيَةَ لَا تَتَّصِلُ بِالمادَّةِ إِلَّا بِمَقْدَارٍ فَهِيَ فَوْقَهَا أَبَدًا، وَجَلْوَةُ النُّبُوَّةِ الصَّغِيرَةِ حِكْمَةٌ كَبِيرَةٌ.

فسلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ...

يَقُولُ السَّيِّدُ الطَّبَاطِبَائِيُّ:

غَرَسَ سَقَاهُ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ يَدِهِ

وَطَابَ مَنْ بَعْدَ طَيْبِ الْأَصْلِ فَارِعُهُ

النُّبُوَّةُ لَيْسَتْ شَيْئًا مِنْ عَمَلِ الدُّنْيَا، إِلَّا فِيمَا يَتَّصِلُ بِصَلَاحِهَا وَتَهْدِيَّتِهَا، فَمِيرَاتُهَا لَا يَدْخُلُ فِي زُخْرَفِ الْحَيَاةِ الَّذِي هُوَ سِرُّ التَّرَابِ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِيمَا يَنْتَظِمُ التَّقْوَى وَالْفَضِيلَةُ مِمَّا هُوَ سِرُّ الْقَلْبِ وَمَعْنَى الْوُجْدَانِ.

وَكَانَ سِرُّ قَلْبِ النَّبِيِّ (ص) هُوَ إِرْثُ الْحُسَيْنِ مِنْهُ، فَطَابَ مَنْ بَعْدَ طَيْبِ الْأَصْلِ.

فسلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ...

لأَوَّلِ مَرَّةٍ يَخْشَعُ الْكَمَالُ الْإِنْسَانِي عَلَى مَنْظَرَةِ الْجَدِّ وَالسُّبُطِ فِي سَاعَةِ قُبْلَةٍ أَوْ عِنَاقٍ يُدْغِدُغُ أَحْلَامَ الرُّوحِ، وَيَمَسُّهَا بِتَيَّارٍ جَدِيدٍ يَجْعَلُهَا وَضِيئَةً فِي تَسَامٍ أَبَدِيٍّ. خَشَعُ الْكَمَالُ الْإِنْسَانِي لَأَوَّلِ مَرَّةٍ وَبَارَكَ مَا يَرَى.

فسلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ...

نَظَرَ النَّبِيُّ إِلَى الْحُسَيْنِ طَوِيلًا لِيَرَى أَيْنَ هُوَ مِنْ طَبِيعَتِهِ، وَنَظَرَ الْحُسَيْنُ إِلَى النَّبِيِّ كَذَلِكَ



لِيَتَمَلَّأَ مِنْهُ وَيُفَجِّرَ يَنَابِيعَهُ، ثُمَّ أَنْصَرَفَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، هَذَا صُوبَ الْمَاضِي وَهَذَا صُوبَ الْمُسْتَقْبَلِ. وَلَكِنَّ الْجَدَّ سَارَ وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَى سَبِيلِهِ الَّذِي أَسْلَمَهُ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ فِي حَنَانٍ وَحَذَرٍ.

هَذَا الْمُسْتَقْبَلُ الَّذِي لَمْ يَثْبُثْ فِي طَبْعِهِ مِنْ غُضَنِ<sup>(٤)</sup> الزَّيْتُونِ إِلَّا أَنَّهُ يُثْمِرُ حَبًّا يُلْهِي الْمَعِدَةَ، فَلَمْ يَأْمَنْهُ عَلَى طِفْلِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِقَبَسِ الْهَيْكَلِ، وَزَيْتُ زَيْتُونِهِ فِي مِصْبَاحِهِ. فَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ...

إِزْتَحَلَ الْحَسِينُ (ع) ظَهَرَ جَدُّهُ الْعَظِيمُ وَهُوَ سَاجِدٌ يُصَلِّي، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْمَرْءُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ.

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ النُّبُوَّةَ السَّاجِدَةَ كَانَتْ مِعْرَاجاً رُوحِيّاً لِهَذَا الطِّفْلِ الَّذِي آسْتَوْدَعَ فِيهِ النَّبِيُّ أَسْرَارَهُ الْعُظْمَى وَإِنْسَانِيَّتَهُ الْعُلْيَا. فَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ...

---

(٤) فِي غُضَنِ الزَّيْتُونِ مَعْنَى رَمَزِيٍّ، فَإِذَا أَسْفَغَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ وَغَدَتْ تَقْيِيسَ قِيَمِ الْأَشْيَاءِ بِمَقَايِيسِ الْمَعِدَةِ، لَمْ يَغْدُ لُغْضُ الزَّيْتُونِ مَعْنَى مَيُورٍ أَنَّهُ يُثْمِرُ حَبًّا يَدْخُلُ فِي أَشْيَاءِ الْمَعِدَةِ وَإِمْتَاعِهَا.

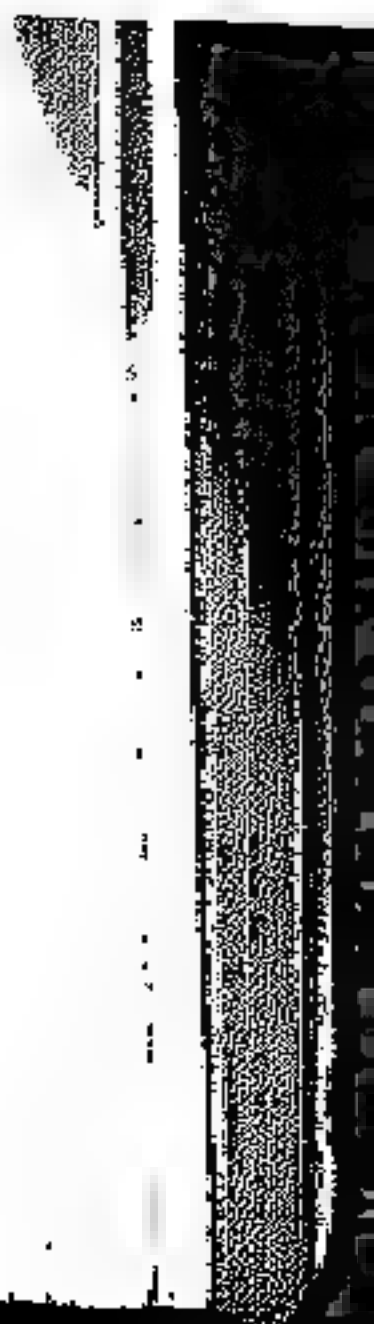


**الحسين (ع)**

**في عهد الخلفاء الراشدين (ض)**



\_\_\_\_\_





## في عهد أبي بكر

الذي في معرفتنا من أخبار الحسين (ع) في عهد أبي بكر (ض) قليل جداً، والشَّيءُ المُحقَّق أنَّه كان في التاسعة من عُمره، وأنَّه رُزِيَءٌ بأُمِّه وهو رُزءٌ أَحْسَ بعَظيم وَقْعِه وكان له، بلا ريب، رَجْعٌ عميقٌ في نَفْسِه الغَضَّة اللَّدْنَة، وأنَّه شَهِدَ أباه إِذْ أَقامَ أَمداً لَيْسَ بالقَصِيرِ على خِلافِ أبي بكر، وأنَّه آنطوى على شُعورِ طِفْلِ مَغِيظٍ مُخَنَّقٍ حينَ أُخِذَ أبوه بِسياسةِ العُنْفِ والشَّدَّةِ على ما أَجمَعَتْ عليه الرِّواياثُ، فَقَدْ كانَ بيثُه، في لُغَة هذا العَصْرِ، مُراقِباً<sup>(١)</sup>، فهذا الضَّرْبُ مِنَ السِّياسةِ كانَ له أَثرُه في موْطِنِ شُعورِ الحسين. لذلك نَتَعَلَّقُ في هذه المَرحَلَة من حَياتِه بِدراسةِ تَربويَّةِ نَفْسِيَّة.

على الرُّغم من الفَلَسَفاتِ المَختلَفَة في الأسلوبِ إلى حَدِّ التَّبائِنِ، الَّتِي تَدْرُسُ أَسرارَ النِّفْسِ والحَياةِ، وهي نَظَريَّةُ الحَيَوِيَّينِ<sup>(٢)</sup> ونَظَريَّةُ المُتَعَضِّينِ

(١) ذَكَرَ الطَّبْرِي في تاريخه، ج ٤، ص ٤٢، أَنَّ أبا بَكْرٍ قال: «وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكْثِيفَ بَيْتَ فَاطِمَةَ وَلَوْ أَنَّهُمْ غَلَقُوهُ عَلَى الْحَرْبِ».

(٢) النَظَريَّةُ الحَيَوِيَّةُ (Vitalisme) تُعْتَبِرُ الحَياةَ سِلْسِلَةً مِنَ العَوَارِضِ، والمادَّةُ سِلْسِلَةً أُخَرى. وَيَقولُ أَنصارُها بِتَضامُنِ السِّلْسِلَتَيْنِ وَتَبائِنِ مَنشأَئِهِما، وَهذه النَظَريَّةُ تَفَرَّعَتْ مِنَ المَذاهِبِ الرُّوحِيَّةِ وَأَشْتَهَرَ بِها شَتاهِلُ وَلوردا. إِنَّ مَبْدَأَ الحَياةِ على آراءِ عُلَماءِ



الفيزيولوجيين<sup>(٣)</sup>، ونظرية الحيويين البيولوجية<sup>(٤)</sup>، ونظرية الروحية الحديثة<sup>(٥)</sup>، يتفق العلماء على الاعتراف بأثر البيئة في البناء الروحي للكائن، وبرابطة الجبر الكلي بين لون التفكير والبيئة.

والبيئة ذات تأثير مادي على النفوس، وهذا التأثير يؤدي إلى شكلين من الخضوع، ينحصر الأول منهما في الاشتسلام شيئاً فشيئاً لعادات وأحكام آستسلاماً غير مدرك ومتنوع الدرجات، فتزسج هذه مع الزمن جلسة وتبقى في مأمن من روح النقد؛ ويصوّر الاستسلام أحياناً للإنسان الخطأ صواباً والظن حقيقة ثابتة والباطل حقاً، فقد يضعف هذا التأثير روح العدل عند القاضي، إن قيده المشتري بتطبيق قانون عرف أنه مخالف للعدل، وتهيج البيئة الخمار فيدمن على الخمر، كما تحرض أنواع البيئات أفرادها على الأخذ بأنواع معينة من الشعور والتفكير والحركة. وأما الشكل الثاني، وهو مكمل للأول، فينحصر في أن الخاضع لتأثير ما، ترفض نفسه كل تأثير من نوع آخر، إلا إذا كان للتأثير الجديد تيار شديد جارٍ. وبيئة الحسين أخذنا عنها صورة في درس الطفولة، والذي خرجنا منه هناك أن بيئته

---

مدرسة موبيليه يخالف مبدأ الروح ومبدأ الجسم، ولهذا تنوعت العوارض التي تظهر في الإنسان إلى أنواع ثلاثة وهي العوارض الطبيعية الكيميائية، وهذه تنشأ من قوأت الجسم المادية؛ وعوارض المفكرة، وهذه تنشأ من الروح؛ وعوارض الحياة، وهذه تنشأ من القوة الحيوية.

(٣) نظرية التعضي الفيزيولوجي (Organicism) وأنصارها يعتبرون أن مبدأ الحياة ومبدأ المادة شيء واحد، فهم يرفضون النظرية الميكانيكية، إذ لا يعتبرون الحياة نتيجة نهائية لحركات منشؤها ما للمادة من الصفات العامة، بل يقررون بأن الحياة ناشئة عن صفات خاصة سموها الصفات الحيوية، ويتصيف بها نوع معين من المادة.

(٤) النظرية الحيوية البيولوجية (Neovitalisme) وأنصارها يعتبرون مبدأ الحياة مختلفاً عن مبدأ المادة.

(٥) النظرية الروحية الحديثة (Animisme) وأنصارها يقررون وجود روح وخضوع المادة لها، ويقولون بوجود قانون مطلق نافذ الحكيم على العالم المادي، وما الحالات العقلية إلا حالات تطرأ على الروح. وعندهم الروح بمثابة قوة عالية مهيمنة توجد حركة القوأت المتعددة وتدفقها نحو غاية واحدة، وبهذا يفسرون ما يوجد بين الحياة العقلية والحياة العضوية من التوافق.



كانت يَنْبوعاً جَرى بِأَرْفَعِ عَقِيدَةٍ مِثَالِيَّةٍ، هَذَا الِيتْبُوعُ الَّذِي أَنْقَلَبَ سَرِيعاً إِلَى مُحِيطٍ خِضَمٍ  
جَزَفَ فِي طَرِيقِهِ كُلَّ مُخَالَفَةٍ لِكُلِّ أُمَّةٍ.

فَالْحَسِينُ مِنْ هَذِهِ الْوُجْهَةِ غُذِيَ بِلَبَانِ الْعَقِيدَةِ وَنَمَتْ أَعْصَابُهُ عَلَى نَمِيرِهَا، وَكَانَ مِيرَاثُهُ  
الْعَقْلِيُّ مُنْبِثِقاً مِنْهَا. فَلَمْ يَكُنْ قَبْلِيّاً لِأَنَّ الْقَبْلِيَّةَ قَدْ هَوَى بُنْيَانُهَا، وَلَمْ يَكُنْ ذَا عَصَبِيَّةٍ فِي غَيْرِ  
عَصَبِيَّةِ الدِّينِ، وَعَصَبِيَّةُ الدِّينِ عَصَبِيَّةُ التَّمَسُّكِ لَا التَّحَدِّي: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ»، وَكَانَ  
مُتَشَبِّعاً بِمِبَادِيِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى بِمُقْتَضَى النُّشْأَةِ. وَهَذِهِ نَتِيجَةُ طَبِيعِيَّةٍ لِلْبِئَةِ ذَاتِ الطَّابِعِ  
الْخَاصِّ، وَلَا نَعْلَمُ تَأْثِيراً جَدِيداً كَانَ لَهُ ذَلِكَ التَّيَّارُ الْجَارِفُ حَتَّى يُقَوِّضَ مَا بَنَتْ الْبِئَةُ الْأُولَى  
مِنْ هَيْكَلٍ قُدْسِيٍّ فِي نَفْسِهِ. وَالَّذِي يَقِفُ عَلَى مَا جَاءَ فِي كِتَابِ ذَخَائِرِ الْعُقَبِيِّ فِي مَنَاقِبِ  
ذَوِي الْقُرْبَى<sup>(٦)</sup>، يَقِفُ عَلَى لَوْنِ التَّرْبِيَةِ الرُّوحِيَّةِ الزَّاهِدَةِ الَّتِي أَخَذَ بِهَا الْحَسِينُ (ع) وَهِيَ  
مُتَمَثِّلَةٌ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ خُطْبَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ (ع) وَهِيَ: «لَوْلَا مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى  
الْعُلَمَاءِ أَنْ لَا يُقَارَّوْا عَلَى كِظَّةٍ ظَالِمٍ وَلَا سَعَبٍ مَظْلُومٍ، لَا لُقِيتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقِيتُ  
آخِرَهَا بِكَاسِ أَوَّلِهَا وَلَا لَفِيتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَرْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنَزٍ».

وَمَنْ الْخَيْرُ أَنْ نَذْكُرَ طَرَفاً مِنْ وَصِيَّتِهِ إِلَى الْحَسَنِ (ع) وَهِيَ تُعَبِّرُ أَحْسَنَ تَعْبِيرٍ عَنِ  
الْمِسْحَةِ التَّرْبَوِيَّةِ الَّتِي مَسَحَ بِهَا أَبْنَاءَهُ قَالَ:

«أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَلُزُومِ أَمْرِهِ وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ وَالِاغْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَبٍ  
أَوْثَقُ مِنْ سَبَبِ بَيْنِكَ وَبَيْنَ اللَّهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ.

أَخِي قَلْبُكَ بِالْمَوْعِظَةِ وَأَمْنُهُ بِالزَّهَادَةِ وَقُوَّةُ الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَعَلَيْكَ بِأَخْبَارِ الْمَاضِينَ فَإِنَّكَ  
تَجِدُهُمْ قَدْ آتَقَلُّوا عَنِ الْأَحْبَةِ. فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ، وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقِ إِذَا  
خِفَّتْ ضَلَالَتُهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ خَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ. وَأَمُرٌ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ

(٦) كِتَابُ جَلِيلٍ فِي مَوْضُوعِهِ لِلْمُحِبِّ الطَّبْرِيِّ، طَبْعَةُ الْقُدْسِيِّ، الْقَاهِرَةُ سَنَةِ ١٩٣٨.



بالمعروف تُكُنُّ من أهليه، وأنكر المُنكَرَ بيدك ولسانك، وباين من فعلك بجُهدك، وجاهد في الله حقَّ جهاده، ولا تأخذك في الله لومة لائم، وخُصِ الغمرات للحق حيث كان، وتفق في الدين، وعود نفسك التَّصَبُّرَ على المَكْرُوهِ، ونعم الخُلُقِ التَّصَبُّرُ، وألجئ نفسك في الأمور كُلِّها إلى إلهك فإنك تُلجئها إلى كهفٍ خريز.

وَأَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ، الْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ».

هذه وصية تُعرِّفنا شيئاً كثيراً مِنَ الألوان التي كَانَ يَمزُجُها الوالدُ الحكيمُ وَيُصْبِغُ أبناءَهُ بها. وهي وصية ذات وَخْدَةٍ لَا تَعْدُو المِثَالِيَّةَ، وظاهرة لا تُخْفَى وهي الانْتِفَاءُ من زخارف الدُّنْيَا التي مَرَدُّهَا إِلَى التُّرَابِ، ثُمَّ لَا يَبْقَى مِنْهَا إِلَّا سَرَابٌ حَالِمٌ، وَأَحْلَامٌ سَرَابِيَّةٌ. وَإِنَّ مِنَ الثَّابِتِ عِلْمِيًّا أَنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ فِلْسَفَةً خَاصَّةً بِهِ مَنشَأُهَا المِزَاجُ والبِئَةُ، فِلْسَفَةُ تُحَدِّدُ فِي نَفْسِهِ إدراكَ العَالَمِ وَاللَّهِ وَالرُّوحِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْحَقِّ وَالوَاجِبِ. وَمِنْ شَأْنِ التَّرْكِيبِ الْإِنْسَانِي، أَنَّ يُحَوَّلَ الْعَارِضُ الْعُضْوِيُّ إِلَى عَارِضٍ نَفْسِيٍّ يَهْتَزُّ بِهِ المُنْحُ اهْتِزَازَاتٍ خَاصَّةً. وَقَدْ أَوْضَحَ هَذَا أَصْحَابُ النَّظَرِيَّةِ الْآلِيَّةِ (الميكانيكية) (٧).

فالبِئَةُ التي مَالَتْ بِهِ وَتَحَكَّمَتْ بِأَحَاسِيْسِهِ وَمَشَاعِرِهِ كَانَتْ نَقِيَّةً بِالْغَةِ فِي التُّقَاوَةِ، وَالْآنَ نَعُودُ إِلَى فَهْمِ مِقْدَارِ الْعِنَايَةِ الَّتِي بَدَّلَهَا وَالِدُهُ الْعَظِيمُ بِتَخْلِيْقِهِ وَالْحَيَلُولَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جُمُوحِ نَفْسِهِ بِقِسَاوَةِ، إِذْ حَوَّزَ الْمَبَادِيءَ الْأَدْبِيَّةَ الْأُولَى الَّتِي تَكُونَتْ عِنْدَهُ عَلَى الشَّكْلِ الَّذِي ذَكَرَهُ بِسْتَالُوزِي؛ وَمِنْ الضَّرُورِيِّ أَنْ نَذْكُرَ تَمَامَ الْفَصْلِ الَّذِي أُثْبِتَ فِي كِتَابِهِ كَيْفَ

(٧) أَصْحَابُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ لَمَّا وَجَدُوا تَعَادُلًا بَيْنَ الْعَمَلِ المِيكَانِيكِيِّ وَالْقَوَاتِ الْأُخْرَى، أَيْ وَجَدُوا نِسْبًا مَعِيْنَةً بَيْنَهَا، مَدُّوا دَرَسَ المِيكَانِيكِ عَلَى عَوَارِضِ الْقُوَّةِ وَقَرَرُوا أَنَّ الرَّابْطَةَ بَيْنَ المُنْحِ وَالنَّفْسِ لَيْسَتْ رَابْطَةُ التَّعَادُلِ (رَابْطَةُ الضَّرُورَةِ) فَقَطْ، بَلْ إِنَّ المُنْحَ هُوَ الْأَسَاسُ المَادِّي، وَالنَّفْسُ هِيَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ المَادَّةِ.



تعلم جرترود أولادها، قال:

«فالطفل، كما لاحظنا فيما سَلَفَ، يُحِبُّ والدته ويشكرها ويعتمدُ عليها ما دامَ هو في حاجةٍ إليها، كذلك هو يُحِبُّ الخالقَ تعالى ويشكره ما دامَ يشعُرُ بِأَحْتِياجٍ إليه، وبزوالِ هذه الأسبابِ تزولُ نتائجُها فتَضَعُفُ هذه العواطفُ في قُودِ الطفلِ نحوَ والدته حالما يشعُرُ بِأَسْتِقْلَاله.

وفي هذا الدَّورِ من الحياة يَظْهَرُ العالَمُ لِلنَّاسِ في مظهرٍ جديدٍ لم يُذَرِكْهُ وهو طفلٌ، فيَنظُرُ إليه بعينٍ جديدةٍ ويَتَخَدِّعُ قلبه بمناظره ومسرَّاته فيناديه العالَمُ ولسانُ حاله يقولُ: أَقْبِلْ عَلَيَّ الآنَ يا بُنَيَّ فَأَنْتَ لي. فلا يَسَعُ الإنسانُ في ذلك الدَّورِ، حينَ تَضَعُفُ في نفسه عاطفةُ الطُّفولةِ وتَدِبُّ في صدره قُوَّةُ الشَّبابِ وشَهَوَاتُه، إلَّا إجابةً ذلك النداءِ والإقبالُ على العالَمِ، فتَتَبَدَّلُ فضائلُ النَّفسِ وتموتُ، إنْ لم يَتَدَارَكِ الوالدُ الأمرَ وَيَنْتَشِلْهُ في هذا الموقفِ الحَرِجِ مِنَ السَّقُوطِ، وذلك لا يَتِمُّ إلَّا بِتَوَجُّيه عواطفِ الطفلِ التي يشعُرُ بها إلى الخالقِ تعالى وربِّطِ حَلَقَةَ الاتِّصالِ بينه وبينَ الله.

أَيُّها الوالدان؛ يَسْعَى العالَمُ بِكُلِّ طَرِيقٍ الغوايةَ لِيُثْرِعَ الطفلَ، فإنْ لم يُوجَدَ في هذا الوقتِ مَنْ يَسْتَطِيعُ تغليبَ عواطفِهِ الشَّرِيفَةِ على شَهَوَاتِهِ فقد ضاعَ لا محالةً. نَعَمْ، إنَّ العالَمَ يَعمَلُ على أنْ يَحْتَطِيفَ الطفلَ فيُضْبِحَ زُخْرُفُ العالَمِ ومسرَّاتُه هي والدته الجديدة، وشهواتُ الجَسَدِ والاستِسلامُ لهوى النَّفسِ معبودَه وسيِّدَتَه.

أَيُّها الناسُ، يَجِبُ عليكم في هذا الدَّورِ، وهو دَوْرُ آنتقالِ الطفلِ من عهدِ الصَّبُوَّةِ إلى الشَّبابِ حينَ تزولُ من نفسه عاطفةُ الطُّفولةِ وتزْهُو نَفْسُه وترْقُصُ طَرَباً بهذا العالَمِ ومسرَّاتِه، ويشعُرُ بِأَسْتِقْلَالِهِ وَاسْتِغْنائِهِ. في هذا الدَّورِ حينَ تَضَعُفُ في قُودِهِ تلكَ العواطفُ الشَّرِيفَةُ وَيَتَسَرَّبُ إلى نفسه حُبُّ العالَمِ وتَلْعَبُ بِقَلْبِهِ مظاهِرُه، وتَمْتَلِكُ لُبَّهُ مفايِدُه، يَنْسَى كُلَّ المبادئِ.



نعم، أيها الناس، في مُفْتَرَقِ هذينِ الطَّرِيقَيْنِ، يَجِبُ عَلَيْكُم أَنْ تَبْذُلُوا الْجُهْدَ لِتَحْوِيلِ عَوَاطِفِ النَّاشِئِ حَتَّى تَبْقَى الْحَيَاةُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْأَدْبِيَّةُ مَائِلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، وَبِزَوَالِهَا تَزُولُ رَوْحُ اللَّهِ مِنْ قَلْبِهِ. فَالْعَالَمُ الَّذِي يَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ الشَّابُّ الْيَوْمَ بَعَيْنَيْنِ شَبَابِهِ هُوَ غَيْرُ ذَلِكَ الْعَالَمِ الَّذِي أَوْجَدَهُ الْخَالِقُ فِي فِطْرَتِهِ الْأُولَى، بَلْ هُوَ عَالَمٌ أَفْسَدَتْهُ يَدُ الْإِنْسَانِ وَصَيَّرَتْهُ مَفْسَدَةً لِمَشَاعِيرِهِ الْخَارِجِيَّةِ وَعَوَاطِفِهِ الدَّاخِلِيَّةِ، هُوَ عَالَمٌ مَمْلُوءٌ بِشَبَاكِ الشَّرِّ لَأَقْتِنَاصِ نَفْسِ الشَّابِّ. فَالشَّابُّ، مَعَ مَا فُطِرَ عَلَيْهِ تَرْكِيْبُهُ الْبَدَنِيُّ، وَلِرَجَاحَةِ كَفَّةِ الْبَدَنِ فِي هَذَا الدَّوْرِ مِنَ الْعُمُرِ عَلَى كُلِّ قُوَّةٍ أُخْرَى فِيهِ، نَرَاهُ سَرِيعَ الانْقِيَادِ لَشَهَوَاتِ الْجَسَدِ تُؤَثِّرُ عَلَيْهِ وَتَتَغَلَّبُ عَلَى نَفْسِهِ الْمُؤَثَّرَاتِ الْمَادِّيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَشْكَالِهَا، فَنَرَاهُ يَضْبُو إِلَى مَلَذَّاتِ هَذِهِ الْحَيَاةِ يَزْهُو بِزَهْوِهَا وَيَتَخَدِّعُ بِسَرَابِهَا.

لِذَلِكَ يَكُونُ مِنَ الْخَطَلِ فِي الرَّأْيِ، وَالنَّقْصِ الْفَاحِشِ فِي نِظَامِ التَّرْبِيَةِ أَنْ يُهْمَلَ شَأْنُ تَرْبِيَةِ الْأَخْلَاقِ فِي هَذَا الدَّوْرِ، وَلَا يُبْذَلَ الْجُهْدُ فِي تَقْوِيَةِ غُنْصِرِهِ الرُّوحِيِّ الَّذِي لَا مَعْدَى عَنْهُ لِلتَّغَلُّبِ عَلَى قُوَّةِ بَدَنِهِ وَشَهَوَاتِ جَسَدِهِ إِلَّا بِتَدْرِيبِهَا وَتَهْذِيبِهَا، وَإِلَّا فَالشَّابُّ، لَا مُحَالَةَ، مُنْخَدِرٌ فِي تَيَّارِ هَذَا الْعَالَمِ، تَلْعَبُ بِهِ أَمْوَاجُ مَطَامِعِهِ وَمَفَاسِدِهِ، وَتَجْرُفُهُ آثَامُهُ، وَبِذَلِكَ يَقْضِي عَلَى نَفْسِهِ وَأَخْلَاقِهِ قَضَاءً مُبَرِّمًا. بِهَذَا الْإِهْمَالِ تَضِيغُ مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ مَلَكَةُ التَّعَقُّلِ وَالتَّنَبُّهِ الْأَخْلَاقِيِّ الَّتِي تَحْفَظُهُ مِنَ السَّقُوطِ، وَتَوْصِدُ فِي وَجْهِهِ أَبْوَابَ الْفَضَائِلِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَتَسِيرُ بِهِ شَهَوَاتُ الْجَسَدِ فِي طَرِيقٍ بَعِيدٍ يَقْطَعُ كُلَّ اتِّصَالٍ وَيَقْضِمُ كُلَّ رَابِطَةٍ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالضَّمِيرِ، وَبِأَنْفِصَامِ غُرُوزِ هَذِهِ الرَّابِطَةِ تَنْقَطِعُ كُلُّ عِلَاقَةٍ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَخَالِقِهِ، وَفِي قَطْعِ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ الشَّرِيفَةِ، الضَّرْبَةُ الْقَاضِيَّةُ عَلَى نَفْسِهِ الَّتِي هِيَ الْمُمَيِّزُ الْوَحِيدُ لِلْإِنْسَانِ عَنِ الْحَيَوَانِ، بِهَذَا يُصْبِحُ الْإِنْسَانُ حَيَوَانًا عَالِمًا مُفَكَّرًا.

يَجِبُ أَنْ نَضَعُ لِلتَّرْبِيَةِ نِظَامًا يَكْفُلُ نُمُوَّ الْعَقْلِ وَالْعَوَاطِفِ نُمُوًّا مُتَسَاوِيًّا يُؤَدِّي إِلَى الْمُوَازَنَةِ فِي الْقُوَى وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْغُنْصُرِ الْأَخْلَاقِيِّ وَيَمْنَعُهُ مِنَ السَّقُوطِ الْأَدْبِيِّ وَمَحَبَّةِ الذَّاتِ الَّتِي تَنْشَأُ عَادَةً مِنْ تَغَلُّبِ قُوَّةِ الْجَسَمِ عَلَى قُوَّةِ الْعَوَاطِفِ وَالضَّمِيرِ.



وهنا نَسْأَلُ: كيف الوصولُ إلى تَغْلِيْبِ المَبَادِيءِ على الشَّهَوَاتِ وَحُبِّ الإِحْسَانِ على الأَغْرَاضِ والمُيُولِ؟ فنقولُ: الجوابُ في التَّركِيبِ الطَّبيعيِّ للإنسانِ، وطريقُ الوصولِ إلى هذا الهَدَفِ أن نَسِيرَ مَعَ مِنهاجِ ذلك التَّركِيبِ الطَّبيعيِّ، فَتَجْعَلَ أساسَ التَّربيةِ إخضاعَ العُنْصُرِ الجسديِّ الفاني إلى العُنْصُرِ الرُّوحيِّ الخالدِ، وكلُّما نَمَا البدَنُ وَاشْتَدَّ أَخْذُنَا زِمَامَهُ وَسِرْنَا به تحتَ إرشادِ مبدَأِ سامٍ يَجْري وَفْقَهُ ويعْمَلُ على مِنهاجِهِ، ويرْجِعُ هذا المبدَأُ السَّامي إلى قَاعَدَتَيْنِ:

الأولى: تقديمُ تربيةِ العواطفِ وتهذيبِ القلبِ على إنماءِ العقلِ وتقويةِ الفكرِ.

الثانية: التَّأَمُّلُ في القانونِ الطَّبيعيِّ الَّذِي يَخْضَعُ له الإنسانُ في نُموِّهِ، فَتَسِيرُ التَّربيةُ بِمَوْجِبِهِ ولا تَقِفُ في وجهِ ذلك القانونِ الطَّبيعيِّ الَّذِي رَأَى الخالِقُ أَنَّهُ أَحْسَنُ أَشْلُوبٍ يَسِيرُ عليه الإنسانُ في نُموِّهِ. ألا تَرَى أَنَّ الطِّفْلَ يبدَأُ نَمُوَّهُ بِتَمَرِينِ حَوَاسِّهِ الخَمْسِ، وَأَنَّهُ يَقْضِي زَمَنًا طَوِيلًا في هذا النُّمُوِّ قَبْلَ أَنْ تُسَاعِدَهُ الطَّبيعةُ على تَنْبِيهِهِ العقليِّ وَتُمَهِّدَ له سَبِيلَ النُّمُوِّ الفكريِّ. لذلكَ تَرَاهُ يَقْضِي جُزْءًا كَبِيرًا من عُمرِهِ خاضِعًا لعواطفِهِ وأحاسيسِهِ قَبْلَ تحكِيمِ نَفْسِهِ».

هذا فَضْلٌ في قِصَّةِ التَّربيةِ الدِّينيَّةِ كما يراها العلامةُ بستانلوزي وفيهِ نقاطٌ ذاتُ أَهمِّيَّةٍ وقيمةٍ. وقد أَنبَهَنا إلى دَوْرِ الانتقالِ أو التَّحَوُّلِ الَّذِي يَدُكُّ ماضِيَّ النَّاشِئِ الصَّاعِدِ في الأخلاقِ، لِيَبْنِيَهُ بِناءً آخَرَ مُشْتَقًّا من أُلُوَانِ الحِياةِ المُتَرَفِّةِ ونَأْمَتِها المُغْرِيةِ.

والمُرَبِّيُّ المذكورُ يَحْصِرُ أَهْتِمَامَهُ التَّربويَّ بِتَنْمِيَةِ العواطفِ عن طريقِ الدِّينِ، ويراهَا أَقْوَمَ طريقٍ يُعْطِينَا النُّشْءَ المُنتَخَبَ. وَالآنَ نَسْتَقْبِلُ الحَسِينَ (ع) في هذا الدَّورِ، دَوْرِ الانتقالِ، فَتَجِدُهُ مَغْلُوبًا بِتربيةِ دِينيَّةٍ نادرَةٍ من حيثُ ما أَجْتَمَعَ فيها من يَنابِيعِ مِثَالِيَّةٍ أَوَّلَ ما تَفَجَّرَتْ، فَارْتَوَى وَلَمَّا يُجَاوِزِ اليَنبُوعُ مُنْبَثِقُهُ، فَلَمْ يَتَغَيَّرْ بِشَيْءٍ مَرَّ عليه في مَجْرَاهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَبْغُذْ عن مَنبَيعِهِ بَعْدَ.

فالعهدُ الرِّسوليُّ السَّابِقُ كانَ يَلْتَمِعُ من فَوْقِ بُرْجِ الحِياةِ وَيُرْسِلُ أَشْعَتَهُ أَبْعَدَ ما تَصِلُ،



والحسينُ تَغْمُرُهُ كُلُّ شُعَاعَةٍ وَكُلُّ بَارِقَةٍ.

وَسَنَأْتِي، فِي فَصْلِ تَارِيخِ مَقَارِنِ، مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، عَلَى تَبْيَانِ الْفَرْقِ التَّرْبَوِيِّ بَيْنَ الْحُسَيْنِ (ع) وَيزِيدَ، الَّذِي كَانَ ذَا تَفْكِيرٍ قَبْلِيٍّ لِأَنَّهُ نَشَأَ فِي مُحِيطِ الْقَبِيلَةِ فِي بَنِي كَلْبٍ حَتَّى دَوْرِ الشَّبَابِ، وَكَانَ ذَا عَصَبِيَّةٍ لِأَنَّهُ غُذِيَ بِرُوحِ النُّزْعَةِ الْأُمَوِيَّةِ، وَكَانَتْ مِسْحَةُ تَرْبِيَّتِهِ مَسِيحِيَّةً بَعْدَمَا تَرَجَّحَ لَنَا أَنَّ أَسْتَاذَهُ مِنْ نَسَاطِرَةِ الشَّامِ، وَكَانَ مُسْتَهْتَرًا لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْخَذْ فِي دَوْرِ التَّحْوِيلِ وَالانْتِقَالِ بِشَيْءٍ مِنَ التَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا بَسْتَالُوزِي.

وَكَانَ مِيرَاثُهُ الْعَقْلِيُّ فَقِيرًا مِنَ الرُّوحِ الْمِثَالِيِّ الَّذِي تَرَكَّزَ فِي الْجَمَاهِيرِ. وَهَذِهِ نَتَائِجُ طَبِيعِيَّةٍ جَدًّا لَا مَجَالَ لِمُنَاقَشَتِهَا إِلَّا إِذَا حَاوَلْنَا قَلْبَ الْحَقَائِقِ وَتَحَرَّزْنَا مِنَ الْمَنْطِقِ الْوَاقِعِيِّ.

وَهُنَا لَا نُغْفِلُ مَا تَرَكَتِ الْأَرْزَاءُ الْمَجْتَمِعَةُ الَّتِي تَنَاوَلَتْ نَفْسَهُ فِي أَكْثَرِ مَا تَكُونُ غَضَارَةً وَلَدَانَةً، فَهُوَ قَدْ شَعَرَ بِفَرَاغٍ مَرِيرٍ حِينَ أُصِيبَ بِجَدِّهِ الْعَظِيمِ، وَزَادَ هَذَا الْفَرَاغُ اتِّسَاعًا وَدُكْنَةً حِينَ تَنَاوَلَتْهُ الْأَقْدَارُ بِأَمِّهِ الرُّؤُومِ، وَأَنْحَنَتْ نَفْسُهُ عَلَى حَفِيزَةٍ - إِذَا سَاغَ لَنَا أَنْ نَدْعُوَهَا كَذَلِكَ - حِينَ وُضِعَ بَيْتُ أَبِيهِ تَحْتَ الْمُرَاقَبَةِ الشَّدِيدَةِ وَأَنْتَهَكَتْ حُرْمَتُهُ بِدُونِ لَبَاقَةٍ، حَتَّى لَقَدْ بَقِيَ أَبُو بَكْرٍ مُتَأَثِّرًا وَنَادِمًا نَدَمًا عَصَبِيًّا عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، فَقَدْ فُتِّشَ بَيْتُ عَلِيٍّ (ع) تَفْتِيشًا دَقِيقًا حَذَرًا مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَعَدَّ الْعُدَّةَ لِإِحْدَاثِ أَنْقِلَابٍ يُطِيعُ بِالْحُكُومَةِ الْقَائِمَةِ. وَالسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ قَبَضَتْ يَدَهَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ تُبَايِعْ وَتَأَثَّرَ الْهَاشِمِيُّونَ حَرَكَتُهَا فَلَمْ يُبَايِعُوا.

فَهَذِهِ الْأَحْدَاثُ الْهَامَّةُ لَمْ تَمُرَّ عَلَى الْحُسَيْنِ مَرًّا سَادَجًا بِدُونِ أَنْ تَتْرَكَ آثَارًا لَهَا خَطَرًا. وَالْمُحَقِّقُ بِمُقْتَضَى عَمَلِ الْفَعَالِيَّةِ الصَّامِتَةِ، أَنَّهَا مَسَّتْ مَشَاعِرَهُ بِأَثَرٍ غَامِضٍ، أَثَرٍ يَجْعَلُهُ يَنْقِمُ وَيَتَشَجَّعُ عَلَى الْإِنْتِقَادِ. وَسَنُورِدُ قِصَّةَ بَادِرَةِ وَقَعَتْ مِنَ الْحُسَيْنِ فِي عَهْدِ عُمَرَ تَوْضِيحًا لَنَا صِدْقَ مَا نَقُولُ. فَنَفْسُهُ كَانَتْ مُفْعَمَةً بِشَيْءٍ خَفِيِّ مَجْهُولٍ إِلَّا أَنَّهُ يَمِيلُ بِهِ دَائِمًا إِلَى الْإِنْتِصَافِ خُصُوصًا وَشَعُورُهُ مَرَهْفٌ دَقِيقٌ الْإِحْسَاسِ.



## في عهد عمر

طموح: روي<sup>(١)</sup> أنَّ الحسين بن علي قال: أتيتُ عمرَ وهو يخطُبُ على المنبرِ فصعدتُ إليه، فقلتُ: إنزلْ عن منبرِ أبي وأذهبْ إلى منبرِ أبيك، فقال عمر: لم يكن لأبي منبرٌ. وأخذني فأجلسني معه أقلبُ حصي بيدي، فلما نزل أنطلق بي إلى منزله، فقال لي: مَنْ عَلَّمَكَ؟ قلتُ والله ما علّمني أحدٌ، قال بأبي لو جعلتُ تغشانا فأثيثنه يوماً وهو خالٍ بمعاوية، وآبنُ عمرَ بالبابِ فرجعَ آبنُ عمرَ فرجعْتُ معه، فلقيني بعدُ فقال لي: لم أرك، فقلت: يا أميرَ المؤمنين إنني جئتُ وأنت خالٍ بمعاوية فرجعْتُ معَ آبنِ عمرَ، فقال: أنتَ أحقُّ من آبنِ عمرَ فإنما أثبتَ ما ترى في رؤوسنا الله ثم أنتم.

الطموحُ صفةٌ للنفسِ الكبيرة تبدو من وراء المظاهرِ الهادئة أَمْلاً قوياً يَشْتَخِفُّنا في دهشةٍ وإعجاب.

ونظرُ النفسِ الطامحةِ يَبْدَأُ مِنَ النُّقْطَةِ الَّتِي عَجَزَ النَّاسُ عَمَّا ورائها، فالأفقُ الذي يُشْرِقُ منه أصحابُ الطموحِ، هو الأفقُ الذي يَشْتَشْرِفُ إليه نظرُ الآخرين. وكأنما هم يذُرْجونَ في

(١) راجع: الإصابة لأبن حجر العسقلاني، ج ٢، ص ١٥. قال آبن حجر سنَّده صحيح.



الجَوْ الَّذِي يُحَلِّقُ فِيهِ سَائِرُ النَّاسِ، وَأَمَّا جَوْهُمْ فَهُوَ لِلآخِرِينَ مَثَابَةُ الْأَمَانِي الْأَحْلَامِ.

وَطُمُوخُ الطُّفُولَةِ عُثْوَانٌ عَلَى التُّضْجِ النَّفْسِيِّ قَبْلَ بُلُوغِ الْإِهَابِ، وَطِفْلُنَا الطُّمُوخُ يَرَى مَسْجِدًا طَالَمَا كَانَ يَجُوسُ خِلَالَهُ بَيْنَ يَدَيِ جَدِّهِ بِإِذْلَالٍ، وَهَذَا مِثْبَرٌ طَالَمَا كَانَ يَرْقَاهُ وَالنَّبِيُّ (ص) يُرْسِلُ صَوْتَهُ الْهَادِيَ حَتَّى أَلْفَهُ فَحَنٌّ إِلَيْهِ، وَآخِثَلَطَ الْحَنِينُ بِكِبْرِيَاءِ الْعَظِيمِ وَطُمُوخِهِ، وَأَنْحَسَرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ كُلُّ مَا هُوَ وَاقِعٌ، فَلَمْ يَرَ الْمِثْبَرَ إِلَّا شُرْفَتَهُ الَّتِي يُطِلُّ مِنْهَا، وَهِيَ لَهُ مِنْ دُونِ النَّاسِ.

ذَهَبَتْ نَفْسُهُ مَذَاهِبَهَا فِي الْجَدِّ، وَمَذَاهِبَهَا فِي الطُّمُوخِ، تَمُدُّهَا مِنْ وَرَائِهِمَا الطُّفُولَةُ الْمُتَطَلِّعَةُ، فَرَأَى أَنَّ الْمِثْبَرَ نُصِبَ لِلنَّبِيِّ أَوَّلَ مَا نُجِرَ، وَأَنَّ الْمَسْجِدَ بَيْتٌ دَعْوَتِهِ، وَهُوَ يُحِسُّ بِالنَّبِيِّ حَيًّا بَيْنَ جَوَانِحِهِ، فَأَعْتَلَى الْمِثْبَرَ فِي غَيْرِ عَبَثٍ الطُّفُولَةِ، بَلْ فِي جِدِّ النَّظَرِ وَخِيَالِ الطُّمُوخِ.

وَنَظَرَ مَنْ ظَاهَرَ النَّفْسِ إِلَى بَاطِنِهَا فَلَمْ يَجِدْ إِلَّا أَشْبَاحَ الْجُدُودِ عَلَى شَرِيطِ الْوَرَاثَةِ الْمُتَمَتِّدِ، وَرَأَى الْمِثْبَرَ وَالْمَسْجِدَ، وَرَأَى النَّبِيَّ (ص) فِي مَقْعَدِهِ مِنْهُمَا لَمْ يَتَغَيَّرْ عَلَيْهِ شَيْءٌ. فَأَثْقَلَتْ إِلَى الْحِسِّ وَالْوَاقِعِ فَأَنْكَرَ مَا يَرَى، وَسَمَا بِهِ الطُّمُوخُ فَقَالَ فِي جِدِّ الْقَوْلِ لِعَمَرَ (ض): إِنْزِلْ عَنْ مِثْبَرِ أَبِي وَأَذْهَبْ إِلَى مِثْبَرِ أَبِيكَ. وَكَأَنَّمَا مُسَّ عُمَرُ بِتِيَارِ تَأْمُلِهِ، فَشَمَلَهُ نَوْعٌ مِنْ إِنْكَارِ الذَّاتِ، فَقَالَ لَهُ: لَمْ يَكُنْ لِأَبِي مِثْبَرٌ.

تَرَاجَعَتْ نَفْسُ أَمَامَ نَفْسٍ وَقَالَتِ الْحَقِيقَةُ مَقَالَهَا عَلَى لِسَانِ عَمَرَ الْحَكِيمِ، وَدَخَلَا فِي صُمُوتٍ بَقِيَّتِ الْحَقِيقَةُ تَتَجَاوَبُ فِيهِ بِصَدَى عَمِيقٍ عَلَى هَمَسَاتِ الْحَصَى الْمُتَخَافِتَةِ الَّتِي كَانَ يُقَلِّبُهَا الْحُسَيْنُ بِيَدَيْهِ. وَكَانَ مَنْظَرًا لَهُ مَغْرَاهُ.

الطِّفْلُ الَّذِي يُقَلِّبُ الْحَصَى بِيَدَيْهِ لِأَنَّهُ مَحْدُودٌ بِالطُّفُولَةِ، هُوَ الَّذِي تَطْمَحُ نَفْسُهُ بِسِرِّ الْقَلْبِ الْكَبِيرِ لَكِي يَتَسَنَّمَ الذُّرُوءَ الَّتِي تَنْتَهِي عِنْدَهَا أَحْلَامُ النَّاسِ. مَنْظَرٌ رَائِعٌ هَذَا الَّذِي يَقَعُ بَيْنَ عَبَثِ الطُّفُولَةِ، وَبَيْنَ جِدِّ الْقَلْبِ.



منظرٌ كان رمزاً لمعنى نبويٍّ أعمق، وهو أن أسمى ما تجيش به أمانى الناس في أحلام الشهوات، لا يُقابل في منطق الحقيقة العظمى، إلا بضحكات الحصى الناعمة حينما تُقلِّبها يد عابثة.

مرّت بعمر (ض) خواطرٌ مختلفة في فترة الصُّموت القصيرة التي جرّت بينهما، ولكنّه بقي شاخصاً تحت وحي نفسيٍّ غريب، مبعثه الإعجاب والتساؤل.

كلمة صارمة لم يكن مبعثها أبداً سذاجة الطفولة، أو حديث الببغاء «عقله في أدنيه» كما يقول شوقي، بل جدُّ الشخصية الكبيرة فذهب يسأله: مَنْ علّمك؟ ولما تأكد أنها بادرة من وحي الشخصية الكامنة، أنصرف إليه لأنه وجد فيه الرجل الكبير الذي يُحاول أن يكونه وأن يطفّر إلى خارجه فقال له: بأبي لو جعلت تغشانا، يريد بذلك أن يأخذه بسنة الحكم ويُنمي عليه شخصيته الملتزمة من وراء الزمن حتى لكانها غير محدودة به. ولقد نطقت الحقيقة مرةً أخرى على لسان عمر الشهيد: إنما أثبت ما في رؤوسنا الله ثم أنتم. وفي القصة استبصاراً وطموحاً وشخصية، ثلاثة معانٍ إذا انتظمت كانت إكليل غار. مجدُّ العرب نواة غرسها في الهامات الله ثم أنتم...

وقد نبئت في جراح الكبرياء، حين أجرى إليها النميز الصافي الله ثم أنتم... وألقت على الرؤوس كما تلتف الغيضة بالأزاهير والنوار، بما رّوحها الله به من نسمات ثم أنتم... وأزدهرت غصون المجيد بالفضائل المنظومة والمكارم المنثورة، بما نفخ الله بها من روح ثم أنتم...

ومجدُّ العرب والإسلام يعود كما بدأ، فإنما مبعثه على التاريخ الله ثم أنتم... شعور: تسمع<sup>(٢)</sup> الناس وجرّت بينهم همسات مُنطلقة تُشيع فيهم سروراً من سرور الجسد

(٢) ذكر ابن عساكر في التاريخ الكبير، ج ٤، ص ٣٢١، أنه قدّم على عمر محلّ من اليمن فكسا الناس فراحوا في الحُلل، وهو



والزينة، بأنَّ حُلَّلاً من وَشْيِ اليَمَنِ وَرَدَتْ إلى أمير المؤمنين، وقد جَلَسَ لها في مسجد النبي (ص) بين المنبر والقبر.

وكانَ هذا إعلاناً بأنَّ التاريخَ الذي يَنْشُرُ العربُ منه وَيَطُورُونَ قد لَيْسَ حُلَّةً جديدةً...  
حُلَّةً هي رَمَزُ المجدِ وَغَلَبَةُ الحَقِّ في الكِفَاحِ، وهي رَمَزُ الصِّراعِ المنصورِ بين العالمِ القديمِ المُتداعي والعالمِ الجديدِ الذي يَشِيدُهُ العربُ، والعربُ وحدهم...

هذا العالمُ الذي كانتِ الكلمةُ العُلَيَّا فيه للأخلاقِ والفضائلِ والخُرَياتِ المَهْدِبةِ، والعالمُ الذي آتَتْهُ القلبَ والضَّميرَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَنِقَا وتُطَلَّ معاني السُّمُو فيهما...

فدولةُ الإسلامِ بحَقٍّ تُدعى دولةُ العقلِ والضَّميرِ والأخلاقِ والقُوَّة...

وهذه الحُلَّةُ كانتِ أثراً من آتِصارِ الدولةِ، فهي رَمَزُ لانتصارِ هذه القُوى جميعاً...

وشاءَ الخليفةُ أَنْ يَكُونَ تَوَزيْعُ الحُلَلِ في المسجدِ، لِتُضِيفَ إليها شيئاً جديداً فيه مَعْنَى المسجدِ وفيهِ أسرارُهُ. وشاءَ أَنْ يَكُونَ جُلُوسُهُ بينَ القَبْرِ والمنبرِ - جاءَ في الحديثِ أَنَّها رَوْضَةٌ من رِياضِ الجَنَّةِ - ليقولَ للمُسلمينَ بأنَّ الجَنَّةَ بدأتِ تَحُلُّ في دُنياهم.

عَجَّ المسجدُ بما أَزْدَحَمَ فيه من طَبَقاتِ النَّاسِ، فَرَحاً بالفكرةِ المُنتَصِرةِ التي تَرْمِزُ إليها الحُلَّةُ الجديدةُ، وإظهاراً للذَّاتِيَّةِ في الأُمَّةِ التَّاهِضَةِ، الأُمَّةِ المُعَلِّمَةِ التي تسوقُ العالمَ إلى الفِكرِ الجديدِ والحُرِّيَّةِ التَّقِيَّةِ.

وكانَ هذا يومَ احتِفاليها بالبُطولةِ السَّاخِرةِ من القُوى المُجتمعةِ، ولم يَكُنْ لهذه الأُمَّةِ

---

بينَ القَبْرِ والمنبرِ جالِسُ النَّاسِ يأتونَ فيُسلِّمونَ عليه وَيُذْعونَ. فَخَرَجَ الحسنُ والحسينُ من بيتِ أُمِّهما فاطمةَ في جُوفِ المسجدِ ليسَ عليهما من تلكِ الحُلَلِ شيءٌ، وعمرُ قاطِبٍ ما بينَ عينيهِ، ثم قالَ: «واللَّهِ ما هَنَانِي ما كَسَوْتُكُم». قالوا: لِمَ يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: مِنْ أَجْلِ هَذَيْنِ الغَلامَيْنِ يَتَخَطَّيانِ النَّاسَ ليسَ عليهما ممَّا كَسَوْتُ النَّاسَ شيءٌ، ثُمَّ كَتَبَ لصاحبِ اليَمَنِ أَنْ أَتِيتُ إِلَيَّ بِحُلَّتَيْنِ لِحَسَنِ وحُسَيْنٍ وعَجَّلَ، فَبَعَثَ بِحُلَّتَيْنِ فَكَسَاهُمَا وقالَ: الآنَ طابَتْ نَفْسِي». وفي روايةٍ أَنَّ الحُلَلَ لَمْ يَكُنْ فِيها ما يَصْلُحُ لهما.



إِلَّا أَنْ تُحْيَا مُجْتَمَعَةً لِأَنَّ كُلَّ أَفْرَادِهَا كَكُلِّ أَفْزَاقِهَا فِي الْمَعْنَى الَّذِي يَكُونُ لِلْبَطَلِ.  
فِي عِمَارِ الْجُمُوعِ مَرَّ غُلَامَانِ كَأَنَّهُمَا قَطَرَتَا النَّدى فِي عَيْنِ الْفَجْرِ، وَكَانَا يَخْطُرَانِ فِي  
غَيْرِ حُلَّةٍ سِوَى حُلَّةِ الْمَعْنَى الضَّافِي، فَعَمَرَ (ض) شُعُورٌ مُبْهَتَمٌ عَنِيفٌ وَأَطْرَقَ إِطْرَاقَةٌ مَنْ  
فَعَلَ شَيْئاً. فَقَدْ تَرَكَ<sup>(٣)</sup> النَّبِيُّ (ص) فِيهِمَا تَذْكَارَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا تَرَكَ بِالْقُرْآنِ تَعَالِيَمَهُ،  
وَالْمُسْلِمُونَ لَنْ يَنْسُوا بَانِي نَهْضَتِهِمْ وَمُؤَسَّسَ الْعَالَمِ الْجَدِيدِ، وَلَكِنَّهُمَا كَانَا كِإِعْلَانِ مَنْ  
النَّبِيِّ (ص) بِأَنَّهُ هُنَا يَسْمَعُ وَيَرَى، فَلَمْ يَدْخُلْ فِي أَتْحَادِ التَّارِيخِ بَلِ انْفَصَلَ مِنْ إِهَابِ الْمَادَّةِ  
وَالنَّوَامِيْسِ، لِيَدْخُلَ الْمَاضِي وَالْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبَلِ فِي تَارِيخِهِ.

هُمَا صَغِيرَانِ لَيْسَ فِي الْحُلَلِ مَا يَسْتَوِي عَلَى جِسْمَيْهِمَا، غَيْرَ أَنَّ عُمَرَ الْمُزْهَفَ الْحِسَّ  
شَعَرَ بِشَيْءٍ جَعَلَهُ يَصُورُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ طَوِيلاً، ثُمَّ يَقُولُ «وَاللَّهِ مَا هَنَانِي مَا كَسَوْتُكُمْ مِنْ أَجْلِ  
هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ يَتَخَطَّيَانِ النَّاسَ لَيْسَ عَلَيْهِمَا مِمَّا كَسَوْتُ النَّاسَ شَيْئاً». فَكَتَبَ لِصَاحِبِ الْيَمَنِ  
أَنْ أَبْعَثَ إِلَيَّ بِحُلَّتَيْنِ لِحُسَيْنٍ وَحُسَيْنٍ وَعَجِّلْ، فَكَسَاهُمَا، وَقَالَ: الْآنَ طَابَتْ نَفْسِي. فَعَمَرَ  
يَعْدِلُ بِهِمَا سَائِرَ الْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّ فِيهِمَا عَيْنَ الْيَنْبُوعِ الَّذِي عَمَرَ الْعَالَمَ الْقَدِيمَ، وَأَعْطَى الْيَبَسَ  
سِرَّ الْحَيَاةِ فَعَادَ أَخْضَرَ فَيَنَاناً.

وَشُعُورٌ عَمَرَ بِأَنَّهُمَا تَذْكَارَا النَّبِيِّ (ص) إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ حَمَلَهُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ لَهُمَا  
عَطَاءً<sup>(٤)</sup> أَهْلِي بَذَرٍ وَكَانَ خَمْسَةَ آلَافٍ، وَأَنْ يُقَدِّمَهُمَا<sup>(٥)</sup> عَلَى وَلَدِهِ.

(٣) جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ (ص) تَرَكَ فِي الْأُمَّةِ الثَّقَلَيْنِ: الْقُرْآنَ وَعِثْرَةَ أَهْلِ الْبَيْتِ.

(٤) ذَكَرَ أَبُو عَسَاكَرٍ فِي: التَّارِيخِ الْكَبِيرِ، ج ٤، ص ٣٢١، أَنَّ عُمَرَ جَعَلَ عَطَاءَ الْحُسَيْنِ وَالْحُسَيْنِ مِثْلَ عَطَاءِ أَبِيهِمَا فَالْحَقُّهُمَا  
بِفَرِيضَةِ أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَرَضَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا خَمْسَةَ آلَافٍ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي فِي صَحِيحِهِ أَنَّ عَطَاءَ الْبَدْرِيِّينَ خَمْسَةُ  
آلَافٍ. وَقَالَ عُمَرُ لِأَنْفُسَلَّتْهُمْ عَلَى مَنْ بَغَدَهُمْ.

(٥) رَوَى سِبْطُ بْنُ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِهِ: تَذْكَرَةُ خَوَاصِّ الْأُمَّةِ فِي مَعْرِفَةِ الْأَثَمَةِ، عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ قَالَ: «كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُجِبُّ  
الْحُسَيْنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقْدِّمُهُمَا عَلَى وَلَدِهِ، وَلَقَدْ قَسَمَ يَوْماً فَأَعْطَاهُمَا عَشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَأَعْطَى وَلَدَهُ عَبْدَ اللَّهِ أَلْفَ دِرْهَمٍ فَعَاتَبَهُ وَلَدَهُ  
وَقَالَ: قَدْ عَلِمْتُ سَبْقِي فِي الْإِسْلَامِ وَهَجْرَتِي وَأَنْتَ تُفَضِّلُ عَلَيَّ هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ، فَقَالَ وَيْحَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِيْتِنِي بِجَدٍّ مِثْلِ جَدِّهِمَا وَأَنَا  
أُعْطِيكَ عَطَاءَهُمَا».







## في عهد عثمان

نَسْتَقْبِلُ الْحُسَيْنَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ شَابًّا فِي مِئَةِ الشَّبَابِ وَعُثْفُوَانِهِ، فَقَدْ كَانَ عَمْرُهُ عَشْرِينَ سَنَةً تَقْرِيبًا، وَهَذِهِ سِنٌ تَسْمَحُ لَصَاحِبِهَا بِأَنْ يَخُوضَ مَعْتَرَكَ الْحَيَاةِ وَيُعْطِيَ رَأْيَهُ وَيُعَالِجَهَا مِنْ نَاجِيَّتِهِ.

وَقَدْ رَأَيْنَا فِي الْفُصُولِ التَّحْلِيلِيَّةِ الَّتِي تَنَاوَلْنَا بِهَا تَرْبِيَّتَهُ، أَنَّهَا كَانَتْ مُشْبَعَةً بِرُوحِ الْحَقِّ وَمَلِيئَةً بِقَضَايَا الْعَدَالَةِ وَالْوَاجِبِ. أَضِيفَ إِلَى هَذَا، الْوِرَاثَةُ وَمَشَاهِدُ الطُّفُولَةِ وَالْمَسْكَنِ، فَقَدْ حَدَّثَنَا آبُنُ عَسَاكِرَ أَنَّ بَيْتَ فَاطِمَةَ كَانَ فِي جَوْفِ الْمَسْجِدِ، وَهَذَا لَهُ تَأْثِيرُهُ الْكَبِيرُ فِي الْبِنَاءِ الرُّوحِيِّ وَهَيْكَلِ النَّفْسِ الْمُحَجَّبِ.

فَإِنَّ الْحُسَيْنَ كَانَ فِي عُثْفُوَانِ الشَّبَابِ وَكَانَ سَرِيًّا بِالْخَلَجَاتِ الدِّينِيَّةِ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، وَهُوَ يَشْعُرُ بِأَرِسْتَقْرَاطِيَّةِ الْمَعْنَى الَّتِي يَمْشِي فِي حَنَائِهَا، وَلَمْ تَكُنْ أَرِسْتَقْرَاطِيَّةً عَلَى الشَّكْلِ الْمَعْرُوفِ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ، أَيْ بِمَعْنَاهَا الْاجْتِمَاعِي، بَلْ كَانَتْ أَرِسْتَقْرَاطِيَّةً تَقِيَّةً تَتَعَصَّبُ لِمَبَادِيهَا وَتَتَوَزَّعُ لَهَا بَوَاقِدُ الشُّعُورِ وَالْإِهَابِ الْعَاطِفَةِ.

وَنَحْنُ لَا نَزَالُ نَذْكُرُ طُمُوحَهُ الَّتِي رَأَيْنَا صُورَةَ مِنْهُ فِي أَزْمَانِ طُفُولَتِهِ، وَنَذْكُرُ أَيْضًا أَنَّهُ تَأَثَّرَ إِلَى حَدِّ مَا بِإِخْفَاقِ أَبِيهِ فِي الْإِنْتِخَابِ مَرَّتَيْنِ، وَالْآنَ يُخْفِقُ أَبُوهُ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ بِمُدَاوَرَةٍ



كانت مكشوفة وظاهرة حتى أثارَت حفيظة الكثيرين. ويظهر أن المعركة الانتخابية كانت عنيفة إلى حد كبير ولم يُثبتها التاريخ كاملة، وإن أحتفظ لنا ببعض وثائق ونُتف من الأخبار، تُرينا مدى العنف الذي سيطر على الحركة، ولكنها بثناء مُقتضبة على أي حال. والأهميّة ليست في أن يُخفي المُنتخب ولكن في أن يُداوّر مداوَرَة تنتهي به إلى ذلك، فإن الإخفاق على هذا الشكل يطوي الكثيرين على موجدات مختلفة حتى عند البعدين عنه.

وهذا ما وَقَعَ لعليّ (ع) فقد كان إخفاؤه نتيجة حركة من هذا القبيل جعلت ذوي الضمائر يعنفون في الانتقاد ويُجاهزون بالإنكار. فحمل على التلاعب الانتخابي المقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وكثيرون حملة شديدة، حتى كادت تحيق بالجموع كارثة انتخابية مؤلمة.

وأعتقد بأن الذي سبب كل هذا، حضر عمر الانتخاب في هؤلاء الستّة وترشيحهم؛ فإن تسمية هؤلاء إلى جانب عليّ (ع) جعلهم يتمتعون ببعض الثقة الشعبية، ويثقون بأنفسهم إلى حد كبير. وإلا فلو ترك الانتخاب حراً لما وجد هؤلاء، عدا عليّ، في أنفسهم الشجاعة الكافية التي تحملهم على خوض غمار الانتخاب ضدّ مرشح مُمتاز، كما لا يجدون التشجيع الكافي من الشعب، خصوصاً وأنّ الزبير قد بايع بالأمس القريب في عهد أبي بكر، المرشح الذي ينزل ضده اليوم.

ومنطقيّ جداً أن مثل هذا لا يجد الجزاء التي تحمله على أن يُرشح نفسه ضدّ عليّ، وإذا وجدها فلا يجد التحبذ الشعبي، إذاً فقد كان ترشيح عمر لهم بمثابة التزكية على نحو ما.

وهذا قد أوجد، عدا الحزبية التي تكلمنا عنها في بحث الثورة، دوافع الاعتراك والاضطراع. فالحسين كان منطوياً على موجدة وحنق شديدتين من الفئة الأموية التي تسعى إلى غش الجمهور، وهي تُدير القوى إلى ما يخدم أهواءها.



وقد أَلَقْتُ هذه التَّظَاهُرَةَ الَّتِي وَلَدَهَا الانتخابُ بُدُورَ الشَّانِ فِي قَلْبِ الْحُسَيْنِ الشَّابِّ،  
وبُدُورَ الرِّيبَةِ فِي أَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ عَلَى وَجْهِ عَامٍّ، فَهُوَ، بِدَافِعِ ضَمِيرِهِ وَبِدَافِعِ إِحْقَاقِ الْحَقِّ،  
أَنْطَوَى عَلَى مَوْجِدَةٍ وَظُلَامَةٍ وَاسْتَفْزَازٍ كَبِيرٍ ظَهَرَتْ نَتَائِجُهَا بَعْدَ أَنْ دَارَتْ الْحَوَادِثُ دَوْرَةَ غَيْرِ  
قَصِيرَةٍ.

**المجاهد الشاب:** الأُزُورُ والإِعْرَاضُ لَمْ يَحْمِلَا الْحُسَيْنَ عَلَى مُقَاطَعَةِ إِجْرَاءَاتِ الْحُكُومَةِ  
الْقَائِمَةِ بِلِ نَرَاهُ يَمْضِي بِحِمَاسٍ إِلَى التَّضَحِّيَةِ فِي سَبِيلِ مَجْدِ الدَّوْلَةِ مُطَّرِحاً كُلَّ خُصُومَةٍ  
نَفْسِيَّةٍ أَوْ شَخْصِيَّةٍ، لَأَنَّ هُنَاكَ مَبْدَأٌ يُقَدِّسُهُ وَيَعْمَلُ فِي سَبِيلِهِ، وَقَدْ صَارَ أَهْلًا لِلْعَمَلِ وَوَجَدَ  
فُرْصَةً لِلخِدْمَةِ. فَمَضَى مُلَبِّياً نِدَاءَ الْحُكُومَةِ غَيْرِ مُتَوَانٍ عَنْ عَمَلِ الْوَاجِبِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ يُكْبِرُ  
خُصُومَتَهُ فَهُوَ أَكْثَرُ إِكْبَاراً لِلْمَبَادِيءِ الْعَامَّةِ، وَهَذَا نُضِجٌ لَا شَكَّ فِيهِ.

وَنَحْنُ لَا يُخَالِجُنَا شَكٌّ فِي أَنَّ الْحَزْبِيَّةَ إِذْ ذَاكَ كَانَتْ قَدْ شَمَلَتْ الْمَجْتَمَعَ الْعَرَبِيَّ  
الْإِسْلَامِيَّ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ مُنْتَسِباً إِلَى حِزْبِ أَبِيهِ الْمُحَافِظِ، كَمَا أَرَيْنَاكَ فِي فَضْلِ الْحَزْبِيَّةِ.  
وَرُغْمَ هَذَا لَمْ يَتَأَخَّرْ عَنِ التَّضَحِّيَةِ الْمُنْدُوبِ إِلَيْهَا فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ الْقَوْمِيِّ وَالِدِينِيِّ، بَعِيداً عَنْ  
الْحُدُودِ.

وهذا عُنوانٌ عَنِ الاسْتِعْدَادِ النَّفْسِيِّ لِتَنَاسِيِ الْحَفَائِظِ فِي سَبِيلِ الخِدْمَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي هِيَ  
فَوْقَ سَائِرِ الْاِعْتِبَارَاتِ، وَأَقْدَسُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ. وَكَذَلِكَ تَكُونُ الْعَقْلِيَّةُ النَّاضِجَةُ وَالْعَقِيدَةُ  
الْمُخْتَمِرَةُ الَّتِي تَضَعُ اخْتِلَافَاتِهَا وَحِزْبِيَّاتِهَا وَعِنْعِنَاتِهَا دُونَ<sup>(١)</sup> الْهَدَفِ الْأَسْمَى بِمَرَاحِلَ كَبِيرَةٍ.

(١) أَذْكُرُ أَنِّي قَرَأْتُ فِي كِتَاب: عَشْرُ سَنِينَ فِي لَنْدُنْ، لِحَافِظِ عَفِيْفِي بِاشَا، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ سَفِيرَ مِصْرَ فِي إِنْجِلْتْرَا، أَنَّ الرَّجُلَ ضَمَّهُ  
مَجْلِسَ جَمْعِ أَفْرَادٍ مِنْ كُلِّ الْأَحْزَابِ فِي إِنْجِلْتْرَا لِنَتَاقُشُوا فِي أَفْضَلِ الْخُطَطِ الَّتِي يَحْسُنُ اتِّبَاقُهَا. فَكُلُّ مَالٍ إِلَى تَأْيِيدِ خُطَّةِ حِزْبِهِ، وَكَانَ  
نِقَاشاً عَنيفاً، كَاذُوا يَخْرُجُونَ مِنْهُ إِلَى التَّدَافُعِ بِالْمَنَاقِبِ، وَفِي هَذِهِ الْعُمُرَةِ قَامَ أَحَدُهُمْ وَقَالَ: «بَاسْمِ التَّاجِ وَالْمَجْدِ الْبَرِيطَانِيِّ أَهْدَوْوا وَلِيَعُدَّ  
كُلُّ مَنكُم إِلَى مَقْعِدِهِ فَاسْتَنْصَاخُ الْخُضُورِ إِلَى صَوْتِهِ وَكَأَنَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ». هَذِهِ حَادِثَةٌ تُظْهِرُ لَنَا فَهْمَ ذَوِي النُّصُوجِ لِلْحِزْبِيَّةِ، وَأَنَّهَا  
شَيْءٌ دُونَ الْهَدَفِ الْأَسْمَى.



وهذا دَرَسٌ يَجِبُ أَنْ نَسْتَفِيدَهُ مِنَ الْإِمَامِ الشَّابِّ فِي مَرَاحِلِ جِهَادِنَا الْيَوْمَ، بِسَبِيلِ  
اِسْتِعَادَةِ مَجْدِنَا الْمَفْقُودِ، فَهُوَ يُعْطِي الشَّبَابَ دَرَساً نَبِيلاً وَأُمْتُولَةً رَائِعَةً فِي فَهْمِ الْحَزْبِيَّةِ، وَأَيْنَ  
يَجِبُ أَنْ تَوْضَعَ، وَفِي أَيِّ الْمُنَاسَبَاتِ يُحْمَدُ الْعَمَلُ بِوَحْيِهَا. وَسَرَى بَعْدَ حِينٍ فِي عَهْدِ مُعَاوِيَةَ  
كَيْفَ يُلَبِّي أَيْضاً فِي الْحَمَلَةِ عَلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، رُغْمَ الظُّلَامَةِ الَّتِي أَنْقَلَبَتْ حَزَارَةٌ نَفْسِيَّةً عِنْدَهُ  
بِمَا أُجْرَتِ الْحَوَادِثُ مِنْ دِمَائِ عَزِيزَةٍ عَلَيْهِ.

ذَكَرَ ابْنُ خَلْدُونٍ<sup>(٢)</sup> أَنَّهُ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَعَشْرِينَ، عَزَلَ عُثْمَانُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، عُمَرُو بْنُ  
الْعَاصِ عَنْ مِصْرَ، وَاسْتَعْمَلَ مَكَانَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَرْجٍ أَخَاهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ، وَكَانَ عُثْمَانُ فِي  
سَنَةِ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ أَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بِغَزْوِ إفْرِيقِيَّةَ، وَأَمَرَ عُقْبَةَ بْنَ نَافِعٍ عَلَى جُنْدٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
نَافِعٍ عَلَى جُنْدٍ آخَرَ، فَخَرَجُوا إِلَى إفْرِيقِيَّةَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ وَصَالِحِهِمْ أَهْلُهَا عَلَى مَا لِي يُؤَدُّوهُ  
وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى التَّوَعُّلِ فِيهَا لِكثَرَةِ أَهْلِهَا. ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي سَرْجٍ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانَ فِي  
ذَلِكَ وَاسْتَمَدَّهُ، فَاسْتَشَارَ عُثْمَانُ الصُّحَابَةَ فَأَشَارُوا بِهِ. فَجَهَّزَ الْعَسَاكِرَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَفِيهِمْ  
جَمَاعَةٌ مِنَ الصُّحَابَةِ مِنْهُمْ الْحُسَيْنُ وَالْحُسَيْنُ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عُمَرَ بْنِ  
الْعَاصِ وَابْنُ جَعْفَرٍ وَسَارُوا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْجٍ سَنَةً سِتٍّ وَعَشْرِينَ، وَلَقِيَهُمْ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ  
فِيَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِبِزْقَةٍ، ثُمَّ سَارُوا إِلَى طَرَابُلُسَ فَنَالُوا الرُّومَ عِنْدَهَا، ثُمَّ سَارُوا إِلَى  
إِفْرِيقِيَّةَ وَبَثُّوا السَّرَايَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَفُتِحَ عَلَيْهِمْ وَرَجَعَ الْجَيْشُ بَعْدَ مَقَامِهِ سَنَةً وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ.

وَذَكَرَ ابْنُ جُرَيْرٍ الطَّبْرِيُّ<sup>(٣)</sup> أَنَّهُ فِي سَنَةِ ثَلَاثِينَ اسْتَعْمَلَ عُثْمَانُ سَعْدَ بْنَ الْعَاصِ عَلَى  
الْكُوفَةِ، وَفِي السَّنَةِ نَفْسِهَا غَزَا سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ طَبْرِسْتَانَ مِنَ الْكُوفَةِ وَلَمْ يَغْزُهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ.

(٢) راجع: تاريخ ابن خلدون، ج ٢، ص ١٢٨ - ١٢٩. وذكر دخول الحسين وأخيه الحسين المغرب فيمن دخله من الصحابة  
أحمد بن خالد الناصري السلاوي في كتابه: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ج ١، ص ٣٩.

(٣) راجع: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٧ - ٥٨. وتاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ١٣٥ - ١٣٦.



وكانَ الأصبهيدُ - وصوابه الأصبهيدُ على ما ذكره الراغبُ الأصبهاني<sup>(٤)</sup> - صالحُ شويدَ بنِ مُقرِن عنها، أيامَ عمر، على مالٍ. فغزاها سعيدٌ ومعه ناسٌ من أصحابِ رسولِ الله منهم الحسنُ والحسينُ وعبدُ الله بنُ العباسِ وحذيفةُ بنُ اليمانِ، فسألوا الأمانَ فأعطاهم على أن لا يَقْتُلَ منهم رجلاً واحداً، ففتحوا الحِصْنَ. فقتلهم جميعاً إلا رجلاً واحداً وحوى ما كان في الحِصْنَ.

عَرَفْنَا فيما سَبَقَ ما آخَتَكُم بنفسِ الحسينِ (ع) من تَربِياتِ عالية، وما قامَ عليه قلبُهُ من مبادئٍ فُضِّلَ لا يَتَغاضَى أبداً إذا آتَتْهِكَتْ، وهو مُتَقَيِّدٌ بِحُدُودِ المُثُلِ القُرْآنِيَّةِ والسِّيَاسَةِ النُّبُوِّيَّةِ لا يَحِيدُ عنها ثُمَّ لا يَحِيدُ.

فلا عَجَبَ إذا رأيناهُ يَسْتَنْكِزُ اسْتِنكاراً صارِخاً، اسْتِنكاراً ديمقراطياً نبيلاً على أميرِ الجُنْدِ، وهو بينَهم جُنْدِيٌّ، حينَ أعطى عَهْداً ونَكَتَ به، وغَدَرَ بِمُسْتَأْمِنِينَ، والمسلمونَ، كما جاءَ في الحديثِ، عندَ شُرُوطِهِم.

وَأَتَقَلَّتْ حَرَكَةُ هذا الانْتِقَادِ إلى المَدِينَةِ، فَأثارَ الضَّمايرَ وأشْعَرها، وزَأَرَتِ العَدالَةَ على لِسَانِ عليٍّ (ع) زُيْراً رَهيباً، زُيْراً يَقْضُ المضاجِعَ وَيُقْلِقُ المُسْتَتِمِينَ إلى هذه السِّيَاسَةِ الَّتِي نَعَتْها بِسِّيَاسَةِ الجَبَرُوتِ، ونَعَتْ سعيداً هذا بالجَبَّارِ، والإسلامَ دينَ الرِّحمةِ فليسَ فيه جَبَرُوتٌ على المُسْتَضْعَفِينَ، والمُسلمونَ رُحَماءُ، فليسَ فيهِم الجَبَّارُ على الضُّعفاءِ. وهذه الظَّاهِرَةُ المُذهِشَةُ الَّتِي صَبَغَتْ فُتُوحَ العربِ الأولى، هي الخَلَّةُ الحَمِيدَةُ لِلْفَتْحِ الإسلاميِّ وحده.

بادِرَةٌ من أميرِ أُمَوِيٍّ، تَدُلُّنا على لَوْنِ سِيَّاسَةِ الأُمَوِيِّينَ وَاتِّجَاهِهِم الحُكْمِيَّ، وتَضَعُ أَيْدِيَنَا على مَوْضِعِ الحُثْلِ والعَبَثِ الطَّبِيعِيِّينَ، وَعَدَمِ الاعتِدَادِ بِأَيِّ شَيْءٍ في سَبِيلِ المَطامِعِ الشَّخْصِيَّةِ. هذا الأَمِيرُ يَطْمَعُ بما في الحِصَنِ وَيَعْجِزُ عن فَتْحِهِ غَنُوةً فاستَدْرَجَ أَهْلِيهِ إلى

(٤) ذكر الراغب الأصبهاني في محاضرات الأدباء، ج ١، ص ٧٦ أن الأصبهيد هو صاحب الجبل، وهو الصواب.



الأمان ولكنه آنقَضَ عليهم ليظفَرُ بغنائِمِ الحِصْنِ كاملةً. وسياسةٌ كهذه تُحَفِظُ المتشَبِّعينَ بقضايا الحقِّ والواجبِ والعدالة. وإنما تُوجَدُ الديمقراطيةُ الصَّحيحةُ، حيثُ تُوجَدُ الرِّقابةُ الشَّعبِيَّةُ المَخْلِصَةُ الَّتِي تُشْعِرُ الهيئاتَ الحاكمةَ بوجودِ الشَّعبِ وحياةِ الدُّستورِ.

وفي هذا دَرْسٌ نبيلٌ حينَ يَزْتَسِمُ أَمَامَ نواظِرِنا الحُسينُ الجُنْدِيُّ أو النَّفَرُ، يُصَارِحُ أميرَ الجيشِ بأنَّ هذا غَدْرٌ ونَكْثٌ لا يجوزانِ في مَنطِقِ القانونِ. والفتْحُ الإسلاميُّ الذي يَعمَلُ على نَشْرِ فكرةٍ ويدعو إلى تهذيبِ الإنسانيَّةِ والاجتماعِ، لا يَتَّفِقُ مَعَ أهدافِهِ الرِّئاسِيَّةِ الصِّمِيمَةِ.

وبعثُ الأُمَّةِ لا يَتِمُّ إِلَّا بِالتَّقَاءِ الطَّبيعَةِ المؤمِنَةِ بالطَّبيعَةِ المَجاهدَةِ، فمَضَى الحُسينُ إلى الجِهادِ لِيُفْسِحَ لِكِلتا الطَّبيعَتَيْنِ في نَفْسِهِ...

قيامُ المرءِ بالعقيدةِ وحدَها، قيامُ بِنِصْفِ الحياةِ، فَمَضَى الحُسينُ إلى الجِهادِ كي يُعْلِنَ عن نَفْسِهِ بأنَّه حيٌّ كاملٌ.

قِفْ دُونَ رَأْيِكَ فِي الْحَيَاةِ مُجَاهِداً إِنَّ الْحَيَاةَ عَقِيدَةٌ وَجِهاً

العَقِيدَةُ بدونَ جهادٍ، كالجِهادِ<sup>(٥)</sup> بدونَ عقيدةٍ، لا يَزِيدُ هذا عن أن يكونَ وَخْشِيَّةً وتَرْويعاً وَقَطَعَ طريقَ، كما لا يَزِيدُ ذاكَ عن أن يكونَ ضَميراً في نَفْسِ المَيِّتِ، وكلُّ منهما يُعَبِّرُ عن معنى لَمْ يَتِمَّ، وَيَزْسُمُ شكلاً مَمْسُوخاً. فمَضَى الحُسينُ إلى الجِهادِ في إفريقيةَ ناظراً إلى الغَرْبِ الأَقْصَى، كما مَضَى إلى الجِهادِ في طَبْرِسْتانِ ناظراً إلى الشَّرْقِ الأَقْصَى، ليقولَ بأنَّ حُدُودَ العقيدةِ أن لا تَكُونَ في حُدُودِ...

خَرَجَ الحُسينُ (ع) بروحِ المَسْجِدِ إلى الكِفاحِ لِيَمْزُجَ بها رُوحَ العالَمِ، ويتولَّدُ من بينِ هذا اللُّقاحِ هيكُلُ الفضائلِ الحيِّ الَّذِي يَقُومُ على مِثْلِ حُدُودِ المَسْجِدِ وقَواعِدِهِ...

---

(٥) لَفْظُ الجِهادِ لا يُطْلَقُ إِلَّا إِذَا صاحَبَتْهُ العقيدةُ وإِطلاقُهُ هنا من بابِ المِشاكَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ.



## مخاض ولادة الثورة

كنت لا تسمع إلا نائمة طويلة تُنذِرُ بخطرٍ رهيبٍ، وكان الناس يتخلقون هنا وهناك في سُروٍ وتوثٍبٍ، كأنما هم ينتظرون كارثةً داميةً ستقع بعد حينٍ قريبٍ. وفدث جموعُ الغرباء من شتى الأقطار، وعلى وجوههم سُطورُ الثورة الحمراء التي تُلَاعِبُ نفوسهم حتى لكأنها مقروءةٌ بوضوح، وتجمهر هؤلاء في طُرقات المدينة يُنادون بالإصلاح أو الانقلاب، وبعدوى الشعور انقلبَت المدينة كأنها مجازٌ تدفقت فيه السيول الجارية، وانعقدت أصواتُ الجموع في صرخاتٍ ليس لها مقاطعٌ مفهومةٌ، فقد غدت زُمجرةٌ صارخةٌ داويةٌ وغرت الناس رغبةُ الجمهورِ الثائرِ فوقَعوا تحتِ سباتٍ مُشدوه من الشعورِ المُبهمِ.

دَخَلَ النزاعُ بينَ الشعبِ والهيئة الحاكمة في دورٍ عنيفٍ لم تُعدْ تنفع فيه وساطةُ الحزبِ المحافظ، لأنَّ المِزْجَلْ قد حمي، ولم يُنذَرْ من جانبِ الهيئة الحاكمةِ بادرةً تُخَفِّفُ غُلواءَ الجمهورِ، وتساعدُ الحزبَ المحافظَ على النجاح. فإنَّ الجمهورَ الثائرَ لم يُعدْ يثقُ إلا بنفسه، والثورةُ تَبْعَتْ الثورةَ، كما أنَّ الأسي يَبْعُثُ الأسي، فاشتعلت حتى أصبح من المُتَعَذِّرِ إطفائها، فتَنَحَّى عليّ (ع) وحزبه من طريقِ الجمهورِ المُدْمِرِ، وهذا طبيعيٌّ. فإنَّ الظرفَ من وجهةِ النظرِ النفسيِّ دقيقٌ جداً، فكلُّ مُصادمةٍ لرأيِ الجمهورِ يُعْدها خيانةً لأنه واقعٌ تحت تأثيرِ شعورٍ عنيفٍ، كما يقولُ بنامين كيد، يُسَيِّطِرُ على كُلِّ مناطقِ التفكيرِ ويضبطُها بلونه الدّاكنِ، ومن ثمَّ لا يعودُ للتَّعَقُّلِ الهادئِ أثرٌ ما في حركاتِ التَّوجيهِ.

أُخْلِى الحزبُ المحافظُ الطَّرِيقَ لأمرين<sup>(٦)</sup>:

---

(٦) ويوجدُ هناك أمرٌ آخرُ ذَكَرَهُ المؤرِّخونَ، وهو أنَّ مروانَ كانَ يُوعِزُ دائماً صدرَ عثمانَ على عليٍّ حتى أجمَعَ لا يقومُ دونه، وقالَ قَوْلُهُ المشهورة: «ما رَضِي مروانُ منك إلا بِتَحْرِيفِكَ عن دينِكَ وعن عقلِكَ مثلَ جملِ الطَّعِينَةِ يُقَادُ حَيْثُ يُسَارُ بِهِ، واللَّهُ ما مروانُ بِذي رأيٍ في دينِهِ ولا في نفسِهِ، وآيَمَ اللَّهُ إِنِّي لأَرَاهُ سَيُورِدُكَ ثم لا يُصْدِرُكَ، وما أنا بِعائِدٍ بعدَ مقامي هذا لِمُعَاتَبَتِكَ، أَذْهَبَتْ سُرْقَتُكَ وَعُيُنَتْ عَلَى أَمْرِكَ». ولقد تأثرت امرأةُ عثمانَ نائلةُ ابنةُ الفَرافِصَةِ (بفتح الفاء لاسم أبيها خاصّة وبالضم لغيره، حياة الحيوان، للدميري، ج ٢،



أولهما: أن من العَبَثِ الوقوفُ بعدُ في وجهِ الثَّائرينَ، بل رُبَّما أدى إلى عكسِ النتيجةِ واستفحلتِ الثورةُ استيفحالاً قاسياً بحيثُ تَنَقَّلِبُ ثورةٌ للثورةِ دونَ قَصْدٍ آخرَ، فتَغْمُ الفوضى الطَّائِشَةُ والْفِتْنَةُ المَريرةُ.

ثانيهما: أن ترى الهيئةَ الحاكمةَ بنفسِها غُتِفَ الجمهورِ الثَّائرِ فتُغَيِّرَ خُطَّتَها وتُجِيبَ المطالِبَ في الحينِ الذي تكونُ الثورةُ لا تزالُ مدفوعةً بقصدٍ مُعَيَّنٍ مفهومٍ، وأُيُّ تأخِرٍ في النزولِ على رأيِ الثَّائرينَ يَجْعَلُهُم يَنْدَفِعُونَ بغُلُوِّ الشَّعورِ، وَيَنْبَهِهُم القَصْدُ من الثورةِ، وهنا الخطرُ، إذ تَخْرُجُ الثورةُ من نُقْطَةِ الدَّائِرَةِ إلى محيطِها وتَتَدَفَّقُ مُتَخَطِّيةً الحواجزَ والجُسُورَ كالْفَيْضَانِ حينَ تَنوُّ الحواجزَ عن ضَغْطِهِ وضَبْطِهِ فلا يَطْرُدُ في الأَقْنِيَةِ والمجازاتِ... بل يَطْمُو كما صَوَّرَ أبو الطَّيِّبِ: «طَمَا الوادي فَطَمَ على القَرِيِّ»، أي علا السَّيْلُ فلم يُغَادِرْ.

كانتِ الحواجزُ بيدِ الهيئةِ الحاكمةِ، فلم تَنْشَطْ وتَخَفْ إلى رَفْعِها ولو قليلاً بحيثُ تُنْفُسَ عَنِ الجمهورِ، بل عَمَدَتْ إلى إحكامِ الحواجزِ حتَّى تَمَّ الطُّغْيَانُ. وَقَدْ أَقْنَعَتِ الهيئةُ الحاكمةُ أخيراً، حينَ رَأَتْ جَدَّ الجمهورِ الثَّائرِ، فَكَتَبَ عثمانُ إلى عليٍّ كتابَه المشهورَ:

بلغَ السَّيْلُ الزُّبْيَ، وجاوزَ الحِزَامَ الطُّبَيَّينَ.

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولاً فَكُنْ أَنْتَ أَكِلِي      وَإِلَّا فَأَذِرْكَنِي وَلَمَّا أَمَزَّقِي

لا يُحَدِّثُنَا التَّارِيخُ عن الأثرِ الَّذِي كَانَ لِلْكِتَابِ فِي عَلِيٍّ (ع)، وَلَكِنِّي مُقْتَنِعٌ بِأَنَّهُ طَرَبَ جَدًّا لِهَذِهِ النَّتِيجَةِ الَّتِي أَقْنَعَتِ الْحَاكِمَ الْأَعْلَى بَعْدَ لَأْيٍ بُوجُوبِ الْإِصْلَاحِ وَتَعْدِيلِ

---

ص ٢٤٨) بوضيح علي (ع) حتى قالت لزوجه: «إتقي الله وأتبع شئنا صاحبك من قبيلك، فإنك متى أطلعت مروان فتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة وإنما تركك الناس لمكان مروان منك فأرسل إلى علي فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا يعصى».



السياسة. فقد آذنه عثمان بوضع كُلِّ المُقدَّرات في يديه وتوجيه السياسة العامة على الشكل الذي يراه، فعمد إلى العمل السريع قبل الاستيفاح، فبعث بحسين وحسين ليحافظا ويحولا دون امتداد الثورة من قريب. ولكن تصريح عائشة، في هذه المرحلة الدقيقة المستعيرة، حيث بلغ الجمهور قمة الشعور الحماسي إلى مروان بالكلمة<sup>(٧)</sup> الحمراء: «وَدِدْتُ لو أَنَّهُ مُقَطَّعٌ فِي غَرَارَةٍ مِنْ غَرَارِي، وَأَنْتِي أُطِيقُ حَمْلَهُ فَأَطْرُحُهُ فِي الْبَحْرِ»، دفعت بالثورة عن نقطة ارتكازها وأججتها، وكانت أسرع من حركة علي (ع) الذي نظم الأمور لفل الثورة بترضيات الجمهور، ووقعت الكارثة قبل وصول علي الذي كان بعيداً عن المدينة. ودفاع الحسين (ع) وغيره لم يُغنِ إلا غناء قليلاً.

وسيطر الثائرون على الموقف سيطرة مطلقة حتى حالوا دون دفن عثمان الشهيد، وتم انتخاب الخليفة على أيديهم. غير أن علياً أراد أن يضع حداً لتسلط الثوار فأتخذ خطاً دقيقة مبنية على نظرية عميقة - كما قدّمنا في بحث الثورة - قبل أن تدور الثورة على نفسها، وتدخل في ألتفافات جديدة وتخلق أزمات وتيارات مُزعجة. فعزل وولي ومضى في سياسة من شأنها رد الأمن إلى نصابه ووضع حدّ للانتهازية والأطماع التي بدأ يفكر بها الجمهور المندفع، فجهز البعث للقضاء على المتمردين المتشمرين، وكانت سياسة رشيدة حازمة تدل على بُعد النظر، حين بناها على الحركة السريعة وأخذ الأمور من أقرب طريق، لولا ما اجتمع في المحيط العربي من عوامل القبلية والقلق الديني واضطباع النفوس البدئية بالطماعية.

تأخذنا الدهشة كلما فكرنا بموقف علي (ع) من عثمان (ض)، فقد كان له رائداً

(٧) بعد أن هدأ علي نائرة الناس إذ أعطاهم عن عثمان مهلة ثلاثة أيام، وانتَهت واجتمع الناس على باب مثل الجبال، قال عثمان لمروان أخرج فكلّمهم فإني أشجى أن أكلّمهم. فخرج مروان إليهم، والناس يركب بعضهم بعضاً، فقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنما قد جئتم لتهب؟ شأيت الوجوه، كل إنسان أخذ بأذن صاحبه. جئتم تريدون أن تترعوا ملكنا من أيدينا، أخرجوا عنا... إلى آخر هذه الخطبة المملوءة حُققاً ورُعوناً، وقد كانت شرارة شديدة الأثر في إلهاب نار الثورة.



مُتَطَوِّعاً بِإِخْلَاصٍ، يَغَارُ عَلَيْهِ وَيُحْطِطُ لَهُ الْخُطَطُ الْقَوِيمةُ مُتَنَاسِياً كُلَّ حَفِيظَةٍ وَكُلَّ مَوْجِدَةٍ، وَمُتَنَاسِياً أَنَّ الْأُمُويِّينَ دَاوَرُوهُ مُدَاوَرَةً لِإِسْقَاطِهِ وَأَنْتِخَابِ عِثْمَانَ. وَلَا بَأْسَ مِنْ أَنْ نَذْكُرَ طَرَفًا مِنْ أَسَالِيْبِهِ فِي الْإِشَارَةِ عَلَيْهِ لِنَرَى بِجَلَاءِ مَدَى الْعَاطِفَةِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي كَانَتْ تَغْمُرُ فُؤَادَهُ الْكَبِيرَ وَقَلْبَهُ النَّقِيِّ الطَّاهِرَ الَّذِي لَا يَفِيضُ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ لِلنَّاسِ جَمِيعاً. هَذِهِ الصُّفَةُ الَّتِي آتَقَلْتُ إِلَى فِتَاةِ الْحُسَيْنِ (ع) وَظَهَرَتْ مِنْهُ فِي كُلِّ مَنَاسِبَةٍ مَا دَامَ الْخَلِيفَةُ غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ تَجَاوِزاً مَكْشُوفاً، فَقَدْ قَرَّرَ الْخُضُوعَ لِمَعَاوِيَةَ أَيْضاً، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُسْتَهْتِراً مُبَالِغاً فِي الْاسْتِهْتَارِ. وَهَذَا يُظْهِرُ لَنَا - وَهُوَ الَّذِي خَبَرَ يَزِيدَ عَنْ قُرْبٍ يَوْمَ كَانَ أَمِيراً عَلَى الْجَيْشِ فِي الْحَمَلَةِ عَلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ - لِمَاذَا خَرَجَ عَلَى يَزِيدَ؟

يَذْكُرُ التَّارِيخُ مَثَلًا كَثِيرَةً مِنْ أَسَالِيْبِ عَلِيٍّ فِي نُصْحِ عِثْمَانَ، وَنُتْرِغُ مِنْهَا هَذِهِ الْأَمْثَلَةُ الرَّائِعَةُ. دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَقَالَ لَهُ:

«النَّاسُ وَرَائِي وَقَدْ كَلَّمُونِي فِيكَ، وَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ لَكَ، وَمَا أَغْرِفُ شَيْئًا تَجْهَلُهُ وَلَا أَذُوكَ عَلَى أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ، مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَتُخْبِرُكَ عَنْهُ، وَلَا نَحْلُونَا بِأَمْرِ دُونَكَ فَتُبَلِّغُكَه. وَقَدْ رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ (ص) وَنِلْتَ صِهْرَهُ، وَمَا آتَى أَبِي قَحَافَةً بِأُولَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَلَا آتَى الْخَطَّابِ بِأُولَى بِشَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ مِنْكَ. فَاللَّهِ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمَى وَتُعَلِّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِعٌ بَيْنَ». «

فَإِذَا اعْتَذَرَ عِثْمَانُ بِأَنَّهُ يَقْتَفِي أَثَرِ عُمَرَ، أَجَابَهُ عَلَى إِجَابَتِهِ ذَاتِ التَّعَلُّلِ غَيْرِ الْمُؤَفَّقَةِ إِذْ يَقُولُ: «سَأُخْبِرُكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ كُلُّ مَنْ وَلِيَ فَإِنَّمَا يَطُأُ عَلَى صِمَاحِهِ، إِنْ بَلَغَهُ عَنْهُ حَزَفٌ جَلَبَهُ ثُمَّ بَلَغَ بِهِ أَقْصَى الْغَايَةِ، وَأَنْتَ لَا تَفْعَلُ، ضَعُفْتَ وَرَفُتَ عَلَى أَقْرَبَائِكَ».

فَإِذَا ذَكَرَ لَهُ عِثْمَانُ أَنَّ مَعَاوِيَةَ كَانَ مِمَّنْ وَلَّاهُ عُمَرُ مُدَّةَ خِلَافَتِهِ كُلِّهَا، وَأَنَّهُ آفَقْدَى كَذَلِكَ بِعُمَرَ فِي تَوَلِيَّتِهِ، أَبَانَ لَهُ عَلِيٌّ (ع) الْفَرْقَ بَيْنَ الْعَمَلَيْنِ، فَقَالَ: «أَنْشُدُكَ اللَّهَ، هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ مَعَاوِيَةَ كَانَ أَخَوْفَ مِنْ عُمَرَ، مِنْ يَوْفَا غُلَامِ عُمَرَ؟ قَالَ نَعَمْ.



قال علي: فإن معاوية يَفْتَطِغُ الأمورَ دونك وأنت تَغْلُمُها، فيقول للناس هذا أمرُ عثمان فيبْلُغُك ولا تُغَيِّرُ علي معاوية».

هذه أمثلة من أمثولات كثيرة كلها تُرينا موضع الثبَل والإخلاص وإنكار الذات من نفسه الوضعية بشعاع الضمير.

كان للحزبية التي شهدها الحسين (ع) من حركاتها الكثير، ومن الثورة التي خاضها دفاعاً عن الخليفة ما أوجع نزعاً الإصلاح في نفسه قبل أن يُنتَقَضَ ما بناه النبي (ص) بآتيقاض النظام الاجتماعي. وكان يرى في أبيه المصلح المنتظر، كما يرى ذلك كل الذين تعمُر نفوسهم أفكار الإصلاح، ويرى في الحزب الأموي أنه مَصْدَرُ البلبلة والدس بسبيل أطماعه، فجَزَم الاعتقاد في نفسه بأن لا استقرار ما دام للأمويين سلطة<sup>(٨)</sup> أو شبه سلطة، وأجْمَعَ على أن يَخْدُم هذه الفكرة في ظل حكومة أبيه، وفي كل حين.

وهو، وإن يكن خضع على مضض لمعاوية، فقد كان ينتظر انفراج الأزمة الاجتماعية بوفاته، ورد حق الجمهور المغتصب، ولكن لما رأى أن الحزب الأموي دخل في مداورة جديدة لنقل مقدرات الحكم إلى آئنه، وفي هذا زيادة على الاغتصاب للحق العام، وعبت بالأدبية المثالية للإسلام، فكان طبيعياً أن لا يُقَرَّ هذا الوضع مهما كلف الأمر. وبالأخص إذا نظرنا إليه من الوجهة القانونية البرلمانية التي تقضي بأن هذا في جوهره تلاعب بالدستور الانتخابي المتواضع عليه منذ عهد الخليفة<sup>(٩)</sup> الأول، والدستور الديني المؤخى به.

وإذا كان الإنكليز ينظرون إلى ضحايا الدستور الذي قرَّر حقوق الشعب، وحاول

(٨) قد أزييناك في كتاب: سمو المعنى في سمو الذات أن يثل هذا الرأي كان عند عامة أهل المدينة وكثيرين كعبد الله بن الزبير، فقد طرد الأمويين من الحجاز أجمع، ونفاهم خارج الحدود لأن لهم مداخيل بين الحشا والصفاق. راجع: الأغاني، ج ١، ص ٦، ترجمة أبي قطيفة.

(٩) اتخذ الناس طريقة العمل الانتخابي منذ الخليفة الأول قانوناً، ويظهر هذا من رد عبد الله بن الزبير على معاوية إذ أعلن رأيه في



الملوك التلاعِب به، نَظَرَ القَداسَة، وأَعْتَبَرُوهُمْ مُجَاهِدِينَ سَجَرُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَبِيلِ الحَرِيَّةِ العامَّةِ،  
فإنَّ أَوَّلَ ضَحِيَّةٍ مِنْ ضَحَايَا الدِّستورِ وَحُرِّيَّةِ الشَّعْبِ فِي الإسلامِ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ الحَسَنِ (ع)  
فَنَحْنُ أَجْدَرُ بِأَنْ نَنْظُرَ إِلَيْهِ هَذَا النُّظَر. إنْ كَرُمُولَ بَقِيٍّ مُخْتَرِماً مِنَ الإنجليز - رُغمَ أَنَّهُ  
أَنقَلَبَ دِيكتاتوراً - لَأَنَّهُ قَادَ ثورَةَ الحَرِيَّةِ وظَفِرَ بِخُصُومِ الجُمهورِ الطُّغاةِ.  
بِهَذَا النُّظَرِ يَجِبُ أَنْ نَدْرُسَ الحَسَنَ وَنَفْهَمَ حَقِيقَةَ حَرَكَتِهِ الَّتِي أَذْكَاهَا ضِدُّ يَزِيدَ  
الطَّاغِيَّةِ.

---

يَزِيدَ وطَرَحَ الثَّقَةَ فِي أَجْتِمَاعِ الحَجِّ الَّذِي هُوَ الدَّوَةُ النِّيَابِيَّةُ وَالْمَنَابَةُ (البِرَقْمَانُ الأعْظَم) فِي الإسلامِ، وَقَالَ لَهُ: لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْعَلَ إِلَّا كَمَا  
فَعَلَ النَّبِيُّ (ص) إِذْ جَعَلَ الِاتِّخَابَ عَامّاً، أَوْ كَمَا فَعَلَ أَبُو بَكْرٍ أَتَتْخَبَ رَجُلًا مِنْ غُرُوضِ النَّاسِ أَوْ كَمَا فَعَلَ عَمْرٌ جَعَلَهَا فِي بَيْتَةٍ. رَاجِعْ:  
ذِيلَ الأُمَالِي، لِأَبِي عَلِيٍّ القَالِي.



## في عهد علي

لمحة: أوفى الحسين في عهد أبيه علي الثلاثين من عمره، وأستوى رجلاً ناضجاً ملء  
بُردِيهِ استِبسالٌ وعزيمةٌ وتعلُّقٌ بالإصلاح، ومضاءٌ في حركة التطهير التي يتطلَّبها الوضع  
الجديد، الذي رسم خطُّه علي (ع).

والأب العظيم أشرف على الثورة وهي تمور وتؤج وتندلع بنيرانها المشجورة، حتى  
إذا أحكم خطُّها، وجمَعَ إليه الخيوط ليحرِّكها بحسب الأدوار تقطعت في يديه.

عندها أدرك أنه لم يَتِمَّ من الثورة إلا فضلها الأول، وأنَّ الثَّغْلَ على الأحزاب التي  
كشفت الثورة عن شرِّتها، والتي ستعمد إلى الصراع الطويل، لن يَتِمَّ إلا بضربات سريعة  
قاسية، ورأى أنه لن يَنجَحَ إلا بإعجالهم قبل أن يتأشبوا فيشتعبي القضاء عليهم، ووقعة  
الجمال عيَّنت لمن سيكون الفوز، ولذلك استسلم الأمويون بعدها واحداً بعد واحد، وأُسقط  
في أيديهم، وأشرقت الثورة على النهاية التي يُشدُّل من بعدها الستار.

بيد أن جيش علي<sup>(١)</sup> (ع) الذي كان قبلياً في مزاجه العقلي والذي أفسدته الحزبية

(١) يُقَرَّرُ هذا أن عبد الله بن الزبير استقامت له الأقطار وحاصر الشام ثم ثقل لأن مادة الجيش كانت قبلية بخلاف جند الشام



والثورة، وخالفت بين خطواته الحيرة الدينية الوافدة، تحطمت على الصخرة التفسيرية التي لم تعمل فيها المبادئ الأدبية الإسلامية إلا عملاً قليلاً.

حملت عائشة راية الثورة من جديد، كما حملت راية الاستفزاز على عثمان. والتاريخ لا يحدثنا لماذا خرجت على علي (ع) ولم تر بعد من سياسته شيئاً ما. ودعوى أنها خرجت طلباً بدم عثمان توهيم، لأنها لم تكن جاهلة بالشرعة التي تقضي بشيئين: أولهما: ترك الأمر إلى الحاكم المركزي فإن لم يكن فلولي القليل، وليست من أوليائه. ثانيهما: أخذ المباشر دون المسبب.

إذا فلم تخرج عائشة طلباً بدم عثمان بل لشيء آخر، وهو ما لم يذكره التاريخ بصراحة. والذي يستقيم عندي في هذا الأمر أن الحزبية بلغت من نفوذها مبلغاً عظيماً حتى عدت إلى زوجات النبي (ص) فكانت أم سلمة (ض) من حزب المحافظين أي حزب علي، وعائشة (ض) من حزب طلحة والزبير - كما ذكرت في مقدمة سمو المعنى في سمو الذات - وكانتا متنافستين في عهد النبي (ص)، فقد كانت أم سلمة زعيمة طائفة من نسائه وعائشة زعيمة طائفة أخرى، ولا ريب في أن هذه الحزبية ولدت في نفسيهما حزارة تاريخية تقريباً اتصلت بمسلكيهما العام، ففوز علي يُحفظ عائشة لأنه فوز لأم سلمة، أضف إلى هذا مؤجدتها الخفية على علي (ع).

تناهى إلى سماعها نعي عثمان وفوز علي، وهي في طريقها من مكة إلى المدينة - التاريخ يذكر هنا رواية ساذجة ببراء فيقول إنها رجعت إلى مكة من فورها ولا تعلم سبباً لرجوعها - وصحة الخبر عندي أنها، وهي في الطريق، لقيت طلحة والزبير، وهذان حملها على الرجوع وسهلاً عليها الخوض في مغممة معركة طاحنة، حتى إذا هبطوا مكة وجدوا

---

النظامي بخضوعه للحكم الروماني، راجع كتاب: سمو المعنى من سمو الذات.



فُلُولَ الْأُمَوِيِّينَ، فَفَكَّرَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ بِاسْتِغْلَالِهِمْ فَرْتَبُوا الْأُمُورَ هَكَذَا:

يَعْصِي بِالشَّامِ مُعَاوِيَةُ، وَهُمْ يَعْصُونَ بِالْعِرَاقِ حَتَّى إِذَا اسْتَقَرُّوا حَاصَرُوا الْحِجَازَ وَأَنْتَرَعُوا السُّلْطَةَ مِنْ عَلِيٍّ (ع). فَهَمَّ عَلِيٌّ كُلَّ ذَلِكَ فَتَشَبَّطَ يُسَدِّدُ الصُّرَبَاتِ السَّرِيعَةَ، وَهُوَ وَاثِقٌ مَنْ نَفْسِهِ كُلِّ الْوُثُوقِ، فَلَمْ يَسْتَمِيعْ لِلنَّاصِحِينَ ذَوِي النَّظَرِ السَّطَحِيِّ، لِأَنَّ كُلَّ تَأْخِيرٍ يُفْضِي إِلَى خُسْرَانِ الْقَضِيَّةِ الْمَعْلُوقَةِ.

وَمِنْ ضَيْقِ النَّظَرِ<sup>(٢)</sup> التَّارِيخِيُّ ذَهَابُ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ إِلَى أَنَّ وَقْعَةَ الْجَمَلِ كَانَتْ وَقْعَةً عَرَضِيَّةً عَلَى هَامِشِ الصَّرَاعِ، لِأَنَّا حِينَما نُدَقِّقُ فِي أَسْبَابِ التَّأَشُّبِ عَلَى حُكُومَةِ عَلِيٍّ، نَجِدُ أَنَّ الشَّامَ وَالْبَصْرَةَ كَانَتَا عَلَى تَفَاهِمٍ تَامٍ. وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا ذَكَرَهُ آبَنُ الْأَثِيرِ فِي الْكَامِلِ<sup>(٣)</sup> مِنْ «أَنَّ الْخَارِجِينَ فَكَّرُوا بِالذَّهَابِ إِلَى الشَّامِ فَقِيلَ لَهُمْ: قَدْ كَفَاكُمْ مُعَاوِيَةُ الشَّامَ، فَاسْتَقَامَ الرَّأْيُ عَلَى قَضْدِ الْبَصْرَةِ». وَإِنَّمَا بَدَأَ عَلِيٌّ (ع) بِالْبَصْرَةِ لِأَنَّ خَضْمَتِيهِ، طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا عَائِشَةُ أَكْثَرُ وَأَكْبَرُ تَأْثِيرًا فِي الْجُمْهُورِ الْعَرَبِيِّ مِنْ مُعَاوِيَةَ الَّذِي يَسْهُلُ الْقَضَاءُ عَلَيْهِ بِالنَّظَرِ إِلَى أَنَّهُ لَا يَتَمَتَّعُ بِشَيْءٍ مِنَ الثَّقَةِ بِالْأَسْبَقِيَّةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْقُدُورَةِ. فَإِذَا أُمْهَلَهَا وَقَصَدَ الشَّامَ اسْتَشْرَى أَمْرَهُمَا وَحَبِطَتِ الْقَضِيَّةُ مِنْ أَوَّلِهَا، وَبِالْقَضَاءِ عَلَيْهَا يَخْلُصُ مِنْ أَشْرَسِ خُصُومِهِ. وَأَعْتَقَدُ بَأَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَلْجَأْ إِلَى خَوْضِ الْعِرَاقِ إِلَّا لِيُظْفَرَ مِنْ عَلِيٍّ بِالْمَطْمَعِ الَّذِي يُلَاعِبُ نَفْسَهُ، وَلَكِنْ عَلِيًّا لَا يَزْعَبُ أَبَدًا بِأَنَّ يُبْقِيَ نَكْأَةً فِي جِسْمِ الدَّوْلَةِ، فَأَبَى إِلَّا الْقَضَاءَ عَلَيْهِ، وَهُوَ نَظَرٌ مُوَفَّقٌ جَدًّا، وَعَلَى ضَوْءِ عِلْمِ السِّيَاسَةِ هِيَ الْخُطَّةُ الْوَاجِبَةُ، يَبْدَأُ عَلِيًّا أَتَى مِنْ قِبَلِ الْجَيْشِ مِنْ حَيْثُ لَا يَخْتَسِبُ، فَإِنَّ جَيْشَهُ هُوَ الْجَيْشُ الَّذِي كَانَتْ تَسْتَخْدِمُهُ الدَّوْلَةُ فِي

(٢) يَذْهَبُ الْأَسْتَاذُ الْعَبَادِيُّ، الْمُؤَرِّخُ الْمِصْرِيُّ، إِلَى أَنَّ وَقْعَةَ الْجَمَلِ مِنَ الْحَوَادِثِ الْعَرَضِيَّةِ. وَهَذَا عِنْدِي أَخَذٌ بِظَاهِرِ الرُّوَايَاتِ

التَّارِيخِيَّةِ السَّادِجَةِ.

(٣) رَاجِعْ: الْكَامِلُ، ج ٣؛ وَشَرْحُ النَّهْجِ لِآبِنِ أَبِي الْحَدِيدِ، ج ١، ص ٨١؛ وَالْعَقْدُ الْفَرِيدُ لِآبِنِ عَبْدِ رَبِّهِ، ج ٢؛ وَآبِنُ الصَّبَاغِ فِي

الْفُصُولِ الْمَهْمَةِ.



الفتوح، فهو منهوك وزادت الثورة في إنهاكه، فمال بعلي كرهاً إلى التحكيم، بخلاف جيش الشام فكان قليل الجهود في الفتح الإسلامي، فهو متماسك ولم تمسه الثورة فتنهكه، وهذا يظهر من تقاعد الجيش كلما طلبه علي (ع) حتى قال مقالة الحكيم «ما غزي قوم في غقر دارهم إلا ذلوا».

في فصول الثورة تكشفت نفسيات الأشخاص، ومدى اختكامها بمنطق الضمير والدين والأخلاق، فعائشة زوج النبي القوامة الصوامة تخرج وتسفك الدماء، وطلحة والزبير اللذان صجبا النبي (ص) أمدأ طويلاً ينقضان البيعة، وأبو موسى الأشعري يخذل أميره في مقعد القضاء والتحكيم، ومعاوية يعبت بالقرآن، كتاب الله الأقدس . فيرفعه على الأسيئة خدعة خطيطة، والجموع تتفرق من حول إمامهم حينما لم يحولهم من الأموال إلا ما حولهم إياه الدستور الذي ثاروا من أجله.

ولدت هذه المشاهد في نفس علي (ع) أسى مريراً ظهر جلياً في خطب نهج البلاغة - هذه الظاهرة لا تدع شكاً في صحة نسبة النهج، الذي يعبر أحسن تعبیر عما ينبغي أن يغتليج ويضدر من فؤاد علي وسط هذه الزوبعة العاصفة - وحزت على نفسه هذه الفراط المؤلمة، ولذعته كثيراً فأنصرف إلى تثقيف الجمهور وإلى أن يبصرهم بروح الإسلام من جديد وتقديم المثل الأعلى للمسلم الصحيح في شخصه، وما فتى يضرب على هذه النعمة حتى خر صريعاً وهو ينادي الناس إلى الصلاة إلى الفلاح في غلس الليل.

\*

وكان هذا إيذاناً بأن فجر الإسلام المثالي قد ذهب مع الأمس، وفجر الغد سوف يكون ملطخاً أبداً بالدماء والأباطيل الحمراء...

أطلت الشمس على الدم القاني وهي في جذر أمها - كما يقول بشار - فجذبت



الْغَمَامَ إِلَيْهَا، كَأَنَّهَا تُشِيخُ بِوَجْهِهَا أَنْ تَرَى مَنْظَرَ الْهَوْلِ الْمَمْدُودِ فِي إِنْسَانِ الْمَبَادِيءِ  
الْقُضَلَى...

أَبَتْ الْأَقْدَارُ إِلَّا أَنْ تَمْتَحَهُ وَسَامَ الشَّرَفِ فِي ظِلِّ كَلِمَةِ اللَّهِ الَّتِي جَاهَدَ لَهَا وَخَرَّ صَرِيحاً  
دُونَهَا، وَهِيَ مَلَأَ قَلْبَهُ وَفِيهِ.

جَاءَ فِي الشَّرِيعَةِ أَنَّ السَّحَرَ وَقْتُ تَجَلَّى اللَّهُ، فَيَنْفُخُ الرَّحْمَاتِ وَيَهْبُ الْبِرُّ وَالْخَيْرُ  
وَالْمَحَبَّةُ، وَكَانَ بَاطِلُ الْإِنْسَانِ يَقْظَاناً أَيْضاً فِي شَكْلِ أَفْعَى تَنْفُثُ مَعْنَاهَا، وَفِي عَيْنِ اللَّهِ  
الْتَوْتُ عَلَى عُتْقِ الدَّاعِي «حَيٍّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيٍّ عَلَى الْفَلَاحِ»، ثُمَّ أَشْتَدَّزَتْ عَلَى يَدِهِ كَيْ  
تُطْفِئَ مِصْبَاحَ دِيُوجِينَ<sup>(٤)</sup> كَأَنَّهَا تَزْهَبُ أَنْ يَفْضَحَهَا، فَرَأَى اللَّهُ وَأَبْصَرَ...

نَطَقَ الْحَقُّ بِصَوْتِ اللَّيْلِ؛ هَاتُوا أَبْنَائِي وَخُذُوا أَبْنَاءَكُمْ فَإِنَّ الْبَاطِلَ إِلَى التُّرَابِ يَصِيرُ،  
وَالْحَقُّ يُجَنِّحُ صُعُداً نَحْوَ السَّمَاءِ...

إِزْدَوَجَ صَوْتُ عَلِيٍّ (ع) حِينَمَا تَخَدَّدَتْ هَامَتُهُ بِيَدِ فَاجِرَةٍ، مَعَ صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ «اللَّهُ  
أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ»، وَكَانَ لِهَما قَرَارٌ وَاحِدٌ ثُمَّ صَمَتَ الْفَجْرُ كَأَنَّهُ يَتَسَمَّعُ...

صَدَقَ مَا كَسَ نَوْرُداو حِينَمَا قَرَّرَ بَقَاءَ الْأَخْيَلِ دُونَ بَقَاءِ الْأَصْلَحِ، فَإِنَّ الْأَصْلَحَ لَا يَدُومُ  
طَوِيلًا فِي دُنْيَا الْأَبَاطِيلِ...

مَرَّ إِنْسَانٌ بِإِنْسَانٍ وَقَالَ لَهُ شَيْعاً، فَبَكَى أَحَدُهُمَا وَضَحِكَ الْآخَرُ، ثُمَّ مَضَيَا مَعاً يَضْرِبَانِ  
فِي كُلِّ مَكَانٍ، كَأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يُتَمَّمُ عَلَى الْآخِرِ مَعْنَاهُ. هَذِهِ صُورَةٌ مِنْ حَيَاةِ الْأَرْضِ فَهَنِيئاً  
لَكَ بِالسَّمَاءِ مَهْدِ الْمِثَالِيَةِ أَيْتُهَا الْمَثَلُ...

مِتَارِكُ نَفْسِيَّةٍ: مِثْلَمَا تَرَكَتْ هَذِهِ الْمَشَاهِدُ فِي نَفْسِ عَلِيٍّ (ع) تَرَكَتْ فِي نَفْسِ الْحُسَيْنِ.  
فَقَدْ رَأَى مِنْ أَطْمَاعِ النَّاسِ وَأَهْوَائِهِمْ وَأَنَانِيَّتِهِمْ الَّتِي بَلَغَتْ غَايَتَهَا شَيْئاً كَثِيراً، حَتَّى لَرَاعَهُ مَا

(٤) لمصباح ديوجين مغني زمني هو الدلالة على الحق والفضيلة والإنسانية الصالحة، وهذا هو المقصود هنا.



يرى ويشهد. لم يكن يظن في من حوله إلا الخير، ولكن الناس فجؤوه بسرائرهم ومطويات  
نفوسهم، فلم ير فيها إلا سواداً ودكنة قاتمة:

إن شئت أن يسود ظنك كله

فاجعله في هذا السواد الأعظم

أذكره الأسي من مصير الناس، وأذكره الأسي حينما أحس بالضوء الذي أرسله  
النبي (ص) من مضاجع الوهاج يتخافت في ومضات. وشعور الأسي في نفس العظيم لا  
يستحيل يأساً بل عامل بعث جديد، فتنشط إلى الجهاد والجهاد العنيف حتى كان قائد  
الميسرة في وقعة الجمل.

وكان كآبیه يعتقد بأن المجتمع لن يصلح إلا إذا لُقح بعصارة جديدة، وبُترت منه  
الزوائد وأبعدت عنه الطفيليات، وكانت هذه عقيدة كل أنصاره أيضاً، وبذا أرتجز<sup>(٥)</sup> عمار بن  
ياسر:

نحن قتلناكم على تأويله

كما قتلناكم على تنزيله

ضرباً يُزيل الهام عن مقيله

ويذهل الخليل عن خليله

فحركة علي (ع) كانت في جوهرها حركة بناء، وليست بحركة تخريب، كما يشاء  
طائفة من المؤرخين نعتها، ونحن حينما نحللها نحاكم المؤرخين إلى المبادئ، فإن حركة  
علي كان لها برنامجها الواضح، بينما لا نعلم لحركة معاوية برنامجاً ما، سوى ما كان يُلوح

(٥) راجع: تاريخ ابن الوردي، ج ١، ص ١٥٩.



به من الثَّأْرِ، هذه النَّزْعَةُ الجَاهِلِيَّةُ الخَالِصَةُ الَّتِي بَرِيءٌ مِنْهَا الإِسْلَامُ فِي خُطْبَةِ الْوَدَاعِ التَّشْرِيعِيَّةِ. وَإِنْ كَانَ يَتَذَكَّرُ كُنْيَةَ الْعَجَبِ مِنْ شَيْءٍ، فَمِنْ أَوْلِيكَ الْمُؤَرِّخِينَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ الْحُسَيْنَ (ع) بِحَرَكَتِهِ ضِدَّ يَزِيدَ، فَقَدْ نَعَتُوهَا بِأَنَّهَا مُهْدَمَةٌ مُفْرَقَةٌ وَلَمْ تَكُنْ مَادَّتُهَا سِوَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَشَدُّ مَا يَسْهُلُ الْإِحَاطَةُ بِهِمْ فَتَقَلَّلُوا. وَيَغْفَلُونَ عَنِ التَّعْلِيلِ عَلَى حَرَكَةِ مُعَاوِيَةَ ضِدَّ إِمَامِ الْحَقِّ عَلِيِّ (ع)، وَكَانَتْ مَادَّتُهَا جَيْشًا كَثِيفًا، عَدَا عَنْ أَنَّهُ لَا يَخْتَلِفُ آثَنَانِ فِي أَنَّ عَلِيًّا كَانَ وَلِيَّ الْأَمْرِ وَرَجُلَ الْجِدَارَةِ وَالِاسْتِحْقَاقِ. وَفِي الْحَقِّ أَنَّهُ - إِنْ كَانَ فِي الْحَرَكَاتِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي صَادَفَهَا التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ فِي دَوْرِهِ الْأَوَّلِ مِنْ ضُرٍّ - فَحَرَكَةُ مُعَاوِيَةَ كَانَتْ جُمَاعَهُ وَمَصْدَرُ كُلِّ تَهْدِيمٍ وَأَنْحِلَالٍ وَتَقَلُّلٍ أَصَابَ تَارِيخَ الدَّوْلَةِ الْفَتِيَّةِ.

فَالْحُسَيْنُ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ كُلِّهَا، وَمَصْرِعِ أَبِيهِ، أَسْتَبَدَّ بِهِ شُعُورُ أَنْبِعَاثِيٍّ يَدْخُلُ فِي عُنَاصِرِهِ الْإِصْلَاحُ وَالْحَفِيزَةُ وَالْإِنْتِقَامُ، إِلَى مَا أَسْتَقَامَ فِي تَرْبِيَّتِهِ مِنْ مُحَافَظَةٍ وَغَيْرَةٍ عَلَى مَبَادِيءِ الْقُرْآنِ وَأَدَبِيَّاتِ الْإِسْلَامِ، أَضِيفَ إِلَى هَذَا وَصَايَا أَبِيهِ وَخُصُوصاً وَصِيَّتُهُ إِلَيْهِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا<sup>(٦)</sup>:

«يَا بُنَيَّ أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَكَلِمَةِ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْقَصْدِ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالْعَدْلِ فِي الصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ، وَالْعَمَلِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ.

يَا بُنَيَّ، مَا شَرُّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ بِشَرٍّ، وَلَا خَيْرٌ بَعْدَهُ النَّارُ بِخَيْرٍ، وَكُلُّ نَعِيمٍ، دُونَهُ الْجَنَّةُ مُحَقَّقٌ، وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونِ النَّارِ عَافِيَةٌ.

إِعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ أَبْصَرَ عَيْبَ نَفْسِهِ شُغِلَ عَنْ غَيْرِهِ، وَمَنْ رَضِيَ بِقَسَمِ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ، وَمَنْ حَفَرَ بُئْرًا لِأَخِيهِ وَقَعَ فِيهَا، وَمَنْ هَتَكَ حِجَابَ غَيْرِهِ أَنْكَشَفَتْ عَوْرَاتُ بَيْتِهِ، وَمَنْ نَسِيَ خَطِيئَتَهُ آسَتْ عَظَمُ خَطِيئَتِهِ غَيْرِهِ، وَمَنْ كَابَدَ

(٦) رَاجِعُهَا فِي كِتَابِ: الْإِعْجَازُ وَالْإِيْجَازُ لِأَبِي مَنْصُورِ الثَّعَالِبِيِّ، ص ٣٣، وَفِي كِتَابِ: يَنْابِيعُ الْمَوْدَّةِ، ص ٥١٩.



الأمور غُطِبَ، وَمَنِ اقْتَحَمَ الْبَحْرَ غَرِقَ، وَمَنِ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ، وَمَنِ اسْتَعْنَى بِعَقْلِهِ زَلَّ، وَمَنِ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ، وَمَنِ سَفِهَ عَلَيْهِمْ شَتِمَ. وَمَنِ دَخَلَ مَدَائِلَ السُّوءِ آثَمَ، وَمَنِ خَالَطَ الْأَنْدَالَ حُقِّرَ، وَمَنِ جَالَسَ الْعُلَمَاءَ وُقِّرَ، وَمَنِ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ، وَمَنِ اعْتَزَلَ سَلِمَ، وَمَنِ تَرَكَ الشَّهَوَاتِ كَانَ حُرًّا، وَمَنِ تَرَكَ الْحَسَدَ كَانَ لَهُ الْمَحَبَّةُ مِنَ النَّاسِ.

يا بُنَيَّ عِزُّ الْمُؤْمِنِ غِنَاةٌ عَنِ النَّاسِ، وَالْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ وَمَنِ أَكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ، وَمَنِ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ... يا بُنَيَّ الطَّمَأْنِينَةُ قَبْلَ الْخَبَرَةِ ضِدُّ الْحَزَمِ. إِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ عَقْلِهِ. يا بُنَيَّ كَمْ مِنْ نَظَرَةٍ جَلَبَتْ حَسْرَةً، وَكَمْ مِنْ كَلِمَةٍ جَلَبَتْ نِعْمَةً، لَا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَا كَرَمَ أَعْلَى مِنَ التَّقْوَى، وَلَا مَعْقِلَ أَحْزَرَ مِنَ الْوَرَعِ، وَلَا شَفِيعَ أُنْجَعَ مِنَ التَّوْبَةِ. وَلَا مَالَ أَذْهَبَ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَا بِالْقُوَّةِ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ تَعَجَّلَ الرَّاحَةُ وَتَبَوَّأَ حِفْظَ الدَّعَةِ. الْحِرْصُ مِفْتَاحُ التَّعَبِ وَمَطِيَّةُ النَّصَبِ، وَدَاعٍ إِلَى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ، وَالشَّرُّ جَامِعٌ لِمَسَاوِيءِ الْغُيُوبِ.

وكفى أدباً لِنَفْسِكَ مَا كَرِهْتَهُ مِنْ غَيْرِكَ. وَمَنِ تَوَرَّطَ فِي الْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِي الصُّوَابِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِمُفَاجَأَاتِ النَّوَائِبِ. التَّدْبِيرُ قَبْلَ الْعَمَلِ يُؤْمِنُكَ النَّدَمَ. مَنِ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الْعَمَلِ وَالْآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَأِ. الصَّبْرُ جُنَّةٌ مِنَ الْفَاقَةِ. فِي خِلَافِ النَّفْسِ رُشْدُهَا...

يا بُنَيَّ رَبُّكَ لِلْبَاغِينَ مِنْ أَحْكَامِ الْحَاكِمِينَ وَعَالِمٍ بِضَمِيرٍ<sup>(٧)</sup> الْمُضْمِيرِينَ، يَغْسُ الزَّادُ لِلْمَعَادِ الْعُدْوَانَ عَلَى الْعِبَادِ، فِي كُلِّ جَزْعَةٍ شَرِّقَ، وَفِي كُلِّ أَكَلَةٍ غَصَصَ، لَا تُنَالُ نِعْمَةٌ إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى، مَا أَقْرَبَ الرَّاحَةَ مِنَ التَّعَبِ وَالْبُؤْسَ مِنَ النَّعِيمِ، وَالْمَوْتَ مِنَ الْحَيَاةِ، فَطُوبَى لِمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ تَعَالَى عِلْمَهُ وَعَمَلَهُ وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ... الْوَيْلُ الْوَيْلُ لِمَنْ بُلِيَ بِحِرْمَانٍ وَخَذْلَانٍ

(٧) بعضُ التَّاقِدِينَ الْأَدَبِيِّينَ يَشْكُرُونَ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ لَوْفُوعٍ مِثْلِ هَذَا اللَّفْظِ فِيهَا، فَإِنَّ الضَّمِيرَ بِمَعْنَى الْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ الْخَاصَّةِ، وَمَوْطِنِ الْوِجْدَانِ لَا يُعْرَفُ بِهَذَا الْمَعْنَى زَمَنَ عَلِيٍّ. وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ خَطَأَهُمْ نَاشِئٌ مِنْ فَهْمِ الضَّمِيرِ بِهَذَا الْمَعْنَى، وَإِلَّا فَهوَ هُنَا بِمَعْنَى الضَّمِيرِ، وَلَا شَكَّ بِأَنَّهُ كَانَ مَعْرُوفًا بِهَذَا الْمَعْنَى، إِذْ ذَاكَ.



وعصيان. لا تَيْتِمُ مَرُوءَةُ الرَّجُلِ حَتَّى لَا يُيَالِيَ أَيُّ ثَوْبِيهِ لَبَسَ، وَلَا أَيُّ طَعَامِيهِ أَكَلَ».

هذه وَصِيَّةٌ أُجْدِرُ مَا تَكُونُ بِالْوَصْفِ الَّذِي أَعْطَاهُ إِيَّاهَا أَبُو مَنْصُورٍ الثَّعَالِبِيُّ: إِعْجَازٌ فِي إِيْجَازٍ. وَهِيَ تَجْمَعُ شَيْئاً كَثِيراً مِنْ فِلْسَفَةِ الْأَخْلَاقِ وَالْحُبِّ وَالْبُغْضِ، وَفِلْسَفَةِ الْأَلَمِ وَاللَّذَّةِ الَّتِي هِيَ مَدَارُ الْمَذْهَبِ الْأَخْلَاقِيِّ الْحَدِيثِ. وَأَنَا كُلَّمَا تَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ «مَا أَقْرَبَ الرَّاحَةَ مِنْ التَّعَبِ وَالْبُؤْسِ مِنَ النَّعِيمِ» تَمَثَّلْتُ أَثَرَ شَبْنَهَاورِ وَفِلْسَفَتِهِ الَّتِي كَشَفَ عَنْهَا فِي مُؤَلَّفِهِ الْعَظِيمِ الْعَالَمِ كِلَارَادَةَ وَتَصَوُّرَ.

وَقَدْ جَعَلَ فِلْسَفَتَهُ قَائِمَةً عَلَى أَسَاسِ تَصَوُّرِ الْإِرَادَةِ وَالْقُوَّةِ وَعَلَى مَفْهُومَيْهِمَا، وَهُوَ يَقُولُ بَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ تَصَوُّرُ الْعَالَمِ إِلَّا فِي أَحَدِ الْأَفْكَارِ، فَالْإِرَادَةُ قِوَامُ عَالَمِ الْحَوَادِثِ. وَهَذِهِ الْإِرَادَةُ تَبْدُو بِمُظْهَرِ الْمِيلِ إِلَى الْحَيَاةِ إِلَّا أَنَّ هَذَا الْجُهْدَ مَصْحُوبٌ بِالْأَلَمِ. وَمِنْ أَقْوَالِهِ «إِنَّ خَيْرَ مَا يُعَالَجُ بِهِ الْأَلَمُ هُوَ الْعَفَافُ وَالزُّهْدُ». وَقَدْ دَوَّنَ عِلْمَ أَخْلَاقٍ قَائِماً عَلَى الرَّأْفَةِ وَالشَّفَقَةِ، وَعَلَى أَسَاسِ ثَمَائِلَةِ الْمَوْجُودَاتِ بَعْضُهَا بَعْضاً. وَهُوَ<sup>(٨)</sup> كَأَنَّهُ يَنْقُلُ إِلَى الْأَجْنَبِيَّةِ فِلْسَفَةَ عَلِيِّ (ع) الْأَخْلَاقِيَّةِ، أَوْ كَأَنَّهُ عَلِيّاً يُتَرَجِّمُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فِلْسَفَتَهُ.

وَبِذَلِكَ وَجْهَ الْحُسَيْنِ وَجْهَةً سَبَقَتْ مُحِيطَهُ وَعَصْرَهُ بِكَثِيرٍ، وَأَقَامَتْ فِيهِ أُمُثْلَتَهُ الْإِصْلَاحِيَّةَ مِنْ شَتَى نَوَاحِيهَا.

---

(٨) عَقَدْنَا قَضَلاً هَاماً فِي الْمَقَارَنَةِ بَيْنَ الْفِلْسَفَتَيْنِ فِي كِتَابِنَا الْكَبِيرِ عَنْ عَلِيِّ (ع) الَّذِي سَخَّرْجُهُ عَمَّا قَرِيبَ.







## فترة بين شكلين من أشكال الحكم

فَشَتْ في روح الجماعات فاشية الانحلال والتداعي النفسي، وبدأ الحماسُ يَدْخُلُ في دَوْرٍ زُكُوْدٍ طَبِيعِيٍّ، لَأَنَّهُ لَمْ يُؤَدِّ إلى نَتِيجَةٍ حَاسِمَةٍ. وَإِنَّمَا كَانَ يُفَلِّلُ الْأَعْصَابَ وَيُخَدِّثُ فِيهَا زَوْبَعَةً مِنَ الْأَسْتِيَاءِ وَالْيَأْسِ الْقَاتِلِ.

والجماعاتُ، لَأَنَّهَا تَتَحَرَّكُ بِأَثَرِ الشُّعُورِ، فَهِيَ سَرِيعَةُ الْحَرَكَةِ سَرِيعَةُ السُّكُونِ، إِلَّا أَنَّهَا تَسْكُنُ عَلَى قَلْبٍ فَلَا تَلْبَثُ أَنْ تَثُورَ. فَلَمْ يَكُنْ عَهْدُ مُعَاوِيَةَ فِي الْحَقِيقَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ إِلَّا فِتْرَةً سُكُونٍ مُؤَقَّتَةٍ. وَكَانَ الْحُكْمُ قَصِيرَ النَّظَرِ جِدًّا فِي فَهْمِ رُوحِ الْجَمَاعَاتِ، حِينَمَا لَمْ يَعْمَدْ إِلَى مُدَاوَاةِ بَقَايَا الزَّوْبَعَةِ الْكَامِنَةِ فِي كُلِّ نَفْسٍ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ، عَمَدَ إِلَى اسْتِثَارَتِهَا بِشَتَّى الْوَسَائِلِ، وَكَانَتْ تُخَطِّطُهُ وَسِيَاسَتُهُ اسْتِيفَازِيَّةً مَحْضَةً، فَقَدْ نَفَى خُصُومَهُ بِأَزْدِرَاءٍ، وَاهْتَجَاهُمْ بِعُنْفٍ حِينَمَا سَنَّ بِدْعَةً سَبَّ عَلِيٍّ (ع) وَأَنْصَارِهِ عَلَى الْمَنَابِرِ. وَفِي النَّاسِ أَنْصَارٌ لَهُ كَثِيرُونَ، فَلَمْ يُطْفِئِ الْحَفِيزَةَ بَلْ زَادَ فِي أَوَارِهَا وَأَذَكَّى اسْتِعَالَهَا، وَبِذَلِكَ كَثَبَ عَلَى دَوْلَتِهِ وَمُلْكِيَّةِ بَيْتِهِ الْفَنَاءَ الْعَاجِلَ. وَقَدْ ظَهَرَتْ هَذِهِ النَّتَائِجُ سَرِيعًا فِي الثَّوْرَةِ عَلَى يَزِيدَ ابْنِهِ فِي أُخْرِيَّاتِ أَيَّامِهِ، فَلَمْ يَجِدْ حَفِيدَهُ، مُعَاوِيَةَ الثَّانِي، حَلًّا سِوَى الْحَلِّ الَّذِي سَنَّهُ الْحَسَنُ (ع).

فمعاوية لم يكن سياسياً - كما نفهم اليوم - بل مُدَاوِرًا، والذي يتأمل أسباب نجاحه،



يَجِدُّهَا تَرْجِعُ مِنْ أَقْرَبِ سَبِيلٍ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي دَخَلَتْ عُنَاصِرُهُ فِي الظَّرْفِ السِّيَاسِيِّ الْقَائِمِ  
فَرَجَحَتْ بِأَحَدِ الْجَانِبَيْنِ، فَجَاحَهُ جَاءَ عَفْوَاً.

وَأَنَا كُلَّمَا تَأَمَّلْتُ حَرَكَاتِهِ لَمْ أَجِدْ فِيهِ إِلَّا سِيَاسِيًّا عَادِيًّا جَدًّا، كَانَ أَكْبَرَ مَا فِي سِيَاسَتِهِ  
أَنَّهُ نَجَحَ فَقَطْ، فَهُوَ مِنَ السِّيَاسِيِّينَ الْيَوْمِيِّينَ - كَمَا يُعَبَّرُ هِثْلِر - وَفِي رَأْيِي أَنَّ أَكْبَرَ سِيَاسِيٍّ  
الْأُمَوِيِّينَ هُوَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مِرْوَانَ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ مَعَاوِيَةَ لَوْ تَعَرَّضَ لِمَا تَعَرَّضَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ  
لَفَشِلَ فَشَلًّا ذَرِيعًا، فَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْخَوَارِجُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُبَيْرِ وَثَوْرَةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ  
مُحَمَّدٍ بْنِ الْأَشْعَثِ.

وَلِي رَأْيِي قَدْ لَا يُوَافِقُنِي عَلَيْهِ الْكَثِيرُونَ، وَهُوَ أَنَّ مَعَاوِيَةَ كَانَ يَزْمِي، مِنْ وَرَاءِ خُطْبِهِ  
الْإِسْتِغْرَازِيَّةِ، إِلَى الْقَضَاءِ عَلَى بَقَايَا أَنْصَارِ عَلِيٍّ (ع) مِنَ الرِّجَالِ الْمَرْهُومِينَ، وَإِلَى اسْتِثْصَالِ  
شَأْنِهِمْ، وَكَانَتْ خُطْبَةُ سَبِّ عَلِيٍّ مَقْصُودَةً لِهَذَا الْغَرَضِ. فَقَدْ كَانَ يُفَكِّرُ أَنَّهُ - أَيِ السَّبِّ -  
سَيُشِيرُ أَنْصَارَهُ وَهُمْ قُلُوبٌ، وَبِالْأَخَصِّ الْهَاشِمِيِّينَ كَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ وَمَنْ  
إِلَيْهِمْ، وَبِذَلِكَ يَتَسَنَّى لَهُ الْقَضَاءُ عَلَيْهِمْ بِحُجَّةٍ مَسْمُوعَةٍ تَعُذُّرُهُ عِنْدَ الشَّعْبِ؛ وَيُؤَكِّدُ هَذَا  
عُنْفُهُ فِي أَخْذِ حُجَرِ بْنِ عَدِيٍّ<sup>(١)</sup> وَسِوَاهُ مِنَ الْكَثِيرِينَ لَمَّا أَظْهَرُوا الْإِسْتِثْيَاءَ مِنَ السَّبِّ الْعَلَنِيِّ  
وَالنَّيْلِ الْخَالِي مِنَ الذُّوقِ الدِّينِيِّ وَالْأَدَبِيِّ.

(١) ذَكَرَ أَبُو جَرِيرٍ فِي تَارِيخِهِ، ج ٦، أَنَّ مَعَاوِيَةَ لَمَّا وَلَّى الْمَغِيرَةَ بَنَى شُعْبَةَ الْكُوفَةِ فِي سَنَةِ ٤١ دَعَاهُ وَأَوْصَاهُ بِشِّمِّ عَلِيٍّ وَذَمِّهِ وَالْعَيْبِ  
عَلَى أَصْحَابِهِ وَالْإِقْصَاءِ لَهُمْ، وَبِإِطْرَافِ شِيعَةِ عُثْمَانَ وَالْإِذْنَاءِ لَهُمْ وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُمْ، فَأَقَامَ الْمَغِيرَةَ عَلَى الْكُوفَةِ عَامِلًا لِمَعَاوِيَةَ سَبْعَ سِنِينَ  
وَأَشْهَرًا لَا يَدْعُ ذِمَّ عَلِيٍّ وَالْوُقُوعُ فِيهِ وَالِدُعَاءُ لِعُثْمَانَ بِالرَّحْمَةِ وَالتَّزْكِيَةِ لِأَصْحَابِهِ وَالْمُطَالِبِينَ بِدَمِهِ، فَكَانَ حُجَرُ بْنُ عَدِيٍّ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ  
قَالَ: بَلْ إِنَّا كُمْ فَذَمَّ اللَّهَ وَلَعَنَ ثُمَّ قَامَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ» وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ تَذَمَّنَ وَتَعَيَّرَ  
لِأَحَدٍ بِالْفَضْلِ. وَلَمَّا هَلَكَ الْمَغِيرَةُ سَنَةَ ٥١ جُمِعَتِ الْكُوفَةُ وَالبَصْرَةُ لِزِيَادِ بْنِ أَبِيهِ، فَلَمَّا لَعَنَ عَلِيًّا وَأَطَالَ الْخُطْبَةَ وَأَخَّرَ الصَّلَاةَ قَالَ حُجَرُ بْنُ  
عَدِيٍّ الصَّلَاةَ، فَمَضَى فِي شُطْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: الصَّلَاةُ، فَمَضَى فِي شُطْبَتِهِ، فَلَمَّا خَافَ حُجَرَ فَوَتْ الصَّلَاةَ نَارَ إِلَيْهَا وَنَارَ النَّاسِ مَعَهُ، فَكَتَبَ  
زِيَادٌ إِلَى مَعَاوِيَةَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ هَذَا أَنَّ شُدَّهُ بِالْحَدِيدِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ وَاللَّهِ لَا أَقْبَلُكَ، أَخْرِجْهُ فَأَضْرَبُوا عُنُقَهُ فَضَرَبَتْ عُنُقَهُ،  
وَقَالَتْ هُنْدُ أَيْتَةُ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ تَرْتِيهِ:



كانت حُطَّة يُريدُ بها القَضَاءُ على الهاشميين بالذات، ويخْتُمُ بذلك الصِّراعَ التاريخيَّ الطَّويلَ حتَّى لا تعودَ له ذُبُولٌ. فمعاوية إذا لم يُنْقِذْهُ إِلَّا إطالةُ الصِّراعِ الذي أوْهَنَ أعصابَ الجماعاتِ، وظهورُ الفُرقةِ في جيشِ عليٍّ (ع) نتيجةً للقلَقِ الدينيِّ والقبليَّةِ، وعلى كلِّ معاوية أثبتَ عَدَمَ فهمِهِ أبدأً لروحِ الجماعاتِ والجماهيرِ.

ونعودُ الآنَ، بعدَ هذا الاستِطرادِ، إلى ما عرا الجماعةُ مِن كَلالةٍ وسَّامٍ ظاهرَيْنِ لِمَسْهُمَا الحسَنُ على كُلِّ وَجْهِ فلم يجدْ حَلًّا لِلْمَوْقِفِ إِلَّا بأنْ يتنازَلَ، وهو نَفْسُهُ قَدْ سَتِمَ ومَلَّ أيضاً، فكانت أُولَى تَصْريحَاتِهِ، بَعْدَ أَنْ نَزَلَ على رَأْيِ بَعْضِ الجمهورِ المتحمِّسِ، وسارَ نحوَ الشَّامِ «أَنَّ الجماعةَ خَيْرٌ مِنَ الفُرقةِ» فثارَ الحماسُ في رأسِ البعْضِ، وهو الجراحُ بنُ سنانٍ، فَطَعَنَهُ بِمِغْوَلٍ في فَخْذِهِ فَشَقَّهُ حتَّى بَلَغَ العَظْمَ.

وتنازَلَ الحسَنُ (ع) رُغْمَ اِخْتِلَافِ الرِّوَاةِ في كَيْفِيَّتِهِ، واِخْتِلَافِ النُّقَدَةِ مِنَ المؤرِّخينَ في أسبابِهِ ومُحاكَمَتِهِ، يَدُلُّ على مَلَلِ الحسَنِ ولينِ أعصابِهِ الَّتِي لا تَحْتَمِلُ الصِّراعَ الطَّويلَ. وزادَهُ مَلَلًا المِفْجَأةُ الَّتِي صَدَمَتْهُ فَبَدَّدَتْ عَزِيمَتَهُ شِعاعاً، وهي هَرَبُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وهو قائِدُ جُنْدِيهِ وَمِنْ لُحْمَتِهِ، فَاسْوَدَّ ظَنُّهُ في النَّاسِ على شَكْلِ جَعَلِهِ يَنَاسُ. وَمِنْ ثَمَّ يَظْهَرُ الفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ الَّذِي لَمْ يَتَضَعَّضْ مَعَ اسْتِسلامِ أَخِيهِ عَقِيلٍ، أو أَخِيهِ الحُسَيْنِ الَّذِي ثَارَ حينَما فَاجَأَهُ بعزيمَتِهِ على التَّسليمِ لمعاوية.

والتَّاريخُ يُحَدِّثُنَا بأنَّ هذه المِفْجَأةُ كانت عَنيفَةً الوَقْعِ على الحسَنِ، حتَّى لَمْ يَضْبُطْ

تَرْفَعُ أَهْلُهَا الْقَمَرُ الْمَنِيرُ	تَبْصُرُ هَلْ تَرَى حَجَرًا يَسِيرُ
يَسِيرُ إِلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ	لِيَقْتُلَهُ كَمَا رُغِمَ الْأَمِيرُ
فَإِنْ يَهْلِكُ فَكُلُّ زَعِيمٍ قَوْمٍ	مِنْ الدُّنْيَا إِلَى هَلِكِ يَصِيرُ



شُعورَه وَأَنْفِعَالَ نَفْسِهِ؛ وَكَذَلِكَ يَكُونُ الْعَزُومُ ذُو الْمَضَاءِ. لِنَفَجَرِ كَمَا يَنْفَجِرُ الْبُرْكَانُ تُجَاهَ الرَّأْيِ الَّذِي عَقَدَ النِّيَّةَ عَلَيْهِ أَخُوهُ الْأَكْبَرُ، وَنَطَقَ بِكَلِمَتِهِ الْمُدَوِّيَّةِ الَّتِي تَجْمَعُ الْغَمِيزَةُ إِلَى مَقَالِ الْحَقِّ «أَعِيدُكَ بِاللَّهِ أَنْ تُكَذِّبَ عَلِيًّا فِي قَبْرِهِ، وَتُصَدِّقَ مُعَاوِيَةَ». وَفِي رَوَايَةٍ «أَنْشُدُكَ اللَّهَ أَنْ تُصَدِّقَ أُخْدُوَّةَ مُعَاوِيَةَ وَتُكَذِّبَ أُخْدُوَّةَ أَبِيكَ» وَهَذِهِ كَلِمَةٌ تَجْمَعُ إِلَى الْاسْتِنكَارِ الصَّارِخِ، الْاسْتِيفَازِ الْعَمِيقِ، وَقَدْ جَمَعَ فِيهَا الْحَسِينُ كُلَّ قُوَّتِهِ وَدَهَائِهِ لِيَبْلُغَ مِنْ أَخِيهِ مَبْلَغًا يُشِيرُهُ. وَبِالْفِعْلِ اسْتَيْقَظَتْ نَفْسُهُ الْمَالَّةُ، إِلَّا أَنَّهُ غَالَطَ شُعورَه وَانْصَرَفَ بِحِمَاسِهِ إِلَى تَغْنِيفِ أَخِيهِ فَقَالَ: «وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ أَمْرًا إِلَّا خَالَفْتَنِي إِلَى غَيْرِهِ، وَاللَّهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَقْدِفَكَ فِي بَيْتِ فَأُطِئْنَهُ عَلَيْكَ حَتَّى أَقْضِيَ أَمْرِي».

وَأَمَامَ جَوَابِ أَخِيهِ الْعَنِيفِ لَمْ يَمْلِكْ أَنْ يَقُولَ لَهُ أَكْثَرَ مِمَّا قَالَ: «أَنْتَ أَكْبَرُ وَلَدِ عَلِيٍّ، وَأَنْتَ خَلِيفَتِي وَأَمْرُنَا لِأَمْرِكَ تَبِعْ، فَأَفْعَلْ مَا بَدَا لَكَ». كَلِمَةٌ فِيهَا تَسْلِيمُ الْمُكْرَهِ وَلَكِنْ مَعَ إلقاءِ التَّبِعَةِ وَالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَسْئُولِيَّةٍ. وَكَأَنَّ الْحَسِينَ يَتَّجِعُ إِلَى أَنَّ الظَّرْفَ، وَإِنْ كَانَ حَرِجًا، فَلَمْ يَقْلِتْ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْيَدِ، وَفِي الْاسْتِطَاعَةِ تَدَارُكُ مَا فَاتَ، وَأَسْتِثْمَارُ الضَّعْفِ حَتَّى يُصْبِحَ قُوَّةً مَاضِيَةً.

وَكَذَلِكَ تَكُونُ النَّفْسُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ صَاحِبَهَا عَلَى أَنْ يَكَايَحَ مَا بَقِيَتْ لَدَيْهِ مَادَّةٌ تُغْرِي إِرَادَتَهُ.

وَإِذَا كَانَتِ الْنُفُوسُ كِبَارًا

تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامَ

نَحْنُ لَا نُتَكَبَّرُ هُنَا بِأَنَّ لِلْحَسَنِ عُذْرَهُ فِي إِعْلَانِ الْهُدْنَةِ وَطَلَبِهَا، نَظَرًا لِلانْحِلَالِ وَالْإِنْهَاكِ الَّذِي أَصَابَ الْجَمَاهِيرَ، كَمَا صَرَخَ بِهَذَا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ: «قَدْ وَاللَّهِ طَالَتِ الْفِتْنَةُ وَشَفِكَتْ فِيهَا الدِّمَاءُ وَقُطِعَتِ الْأَرْحَامُ وَتَقَطَّعَتِ السُّبُلُ وَغَطُلَتِ الثُّغُورُ».

وَلَكِنَّهُ كَانَ قَدِيرًا عَلَى أَنْ يُعِدَّ الْجَمَاعَاتِ الْمُتَحَلَّةَ عَنْ طَرِيقِ الْاسْتِثَارَةِ وَالْإِحْمَاسِ



وَبَتْ رُوحَ الْعَزْمِ وَالْإِرَادَةِ، كَمَا رَأَيْنَا فِي الْقَادَةِ الْحَدِيدِيِّينَ أَمْثَالِ نَابْلِيُونَ الَّذِي تَوَلَّى شُعْبًا  
أَنْهَكَتْهُ الثَّوْرَةُ الطَّوِيلَةُ كَمَا أَنْهَكَتِ الْعَرَبُ، وَزَادَ هُوَ فِي إِنْهَاكِه بِالْحُرُوبِ الْمُتَتَالِيَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ  
الَّتِي أَخَذَ بِهَا أَوْرَبَا. وَلَكِنَّ الْقَائِدَ عَمَرْتَهُ مَوْجَةُ السَّامِ الَّتِي عَمَرَتِ النَّاسَ.







**الحسين (ع)  
في عهد الدولة الأموية**

---



\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_



## إنقلاب

نَشْتَقِيلُ فِي عَهْدِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ تَجْدِيداً يَشْمَلُ كَافَّةَ الْأَوْضَاعِ وَيَتَّصِلُ بِجَوْهَرِهَا، حَتَّى بَاتَ مِنْهُ الْمَجْتَمَعُ الْعَرَبِيُّ فِي شَكْلِيَّةٍ لَا عَهْدَ لَهُ بِهَا، ثُمَّ لَا تَتَّصِلُ بِالْعَهْدِ الْغَايِرِ إِلَّا آتِصَالاً خَفِيّاً فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعُمُوضِ. فَهَيْئَةُ الْحُكْمِ وَطَرِيقَةُ الْإِجْرَاءِ وَالْإِدَارَةُ وَقَاعِدَةُ الْعَمَلِ الْعَامِّ، لَمْ تَعُدْ كَمَا كَانَتْ.

وَنَحْنُ قَدَمْنَا، فِي فَضْلِ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ، أَنَّ الْمِيلَ إِلَى التَّجْدِيدِ وَاعْتِنَاقَ أَشْيَائِهِ ظَهَرَ فِي أَوَائِلِ عَهْدِ عَثْمَانَ، أَيْ فِي أَوَائِلِ حُكْمِ الْأُمَوِيِّينَ، ضَرُورَةُ الْإِخْتِكَافِ بِنُظُمِ الْأُمَمِ الْمَخْتَلِفَةِ الَّتِي غَمَرَهَا الْإِسْلَامُ وَصَهَرَهَا فِي بَوْتَقَتِهِ، وَلَكِنْ هَذِهِ النُّظُمُ لَمْ تَزَلْ فِيهَا حَيَوِيَّةٌ وَصَلَابَةٌ لِلْبَقَاءِ، وَالْأُمَّةُ الْجَدِيدَةُ سَادَجَةٌ بَعْضَ الشَّيْءِ، أَوْ فِي حُكْمِ السَّادَجَةِ، لِذَلِكَ أَفْسَحَتْ لِنَفْسِهَا مَرَّةً أُخْرَى بِأَنْ تَعِيشَ.

وَالْأُمَوِيُّونَ، نَظَرًا لِلْإِشْتِعَادِ النَّفْسِيِّ الَّذِي لَمْ تَضِقْهُ الْعَقِيدَةُ كَثِيراً، كَانُوا أَكْثَرَ جُنُوحاً إِلَى تَقْلِيدِ هَذِهِ النُّظُمِ الَّتِي هِيَ جَدِيدَةٌ بِالنَّظَرِ إِلَى الْعَرَبِ، فَلَمَّا آتَسَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْقُوَّةَ وَجَمَعُوا مُقَدَّرَاتِ الْحُكْمِ فِي أَيْدِيهِمْ، وَعَظَّمُوا حُرِّيَّةَ الشَّعْبِ وَقَضَوْا عَلَى رِقَابَتِهِ، مَالُوا بِكُلِّيَّتِهِمْ إِلَى فَرَضِ النُّظُمِ الْمُقْتَبَسَةِ، وَاتَّصَلَ هَذَا التَّجْدِيدُ بِالشَّعْبِ، فَسَرَّعَانَ مَا تَغَيَّرَ وَتَحَلَّلَ



وطلَبَ الحياةَ طَلَقَ الهَوَى كما يَقولون.

وساعدَ الشعبَ على سُرْعَةِ تَحَلُّلِهِ أَنَّ أَكْثَرَ رِجالِ القَدِيمِ ذَهَبُوا ضَحِيَّةَ الصُّراعِ الثُّوريِّ العَنيفِ، فالجُمهورُ الباقي يَتَأَلَّفُ مِنَ الشَّبَابِ وحَدَثِهِم وخَلِيطِ مِنَ الأُمَمِ المُتَحَلِّةِ، فَكانَ لَدَيْهِ الاستِعدادُ التَّامُّ لِحَرَكَةِ انْقِلَابِيَّةٍ مِنْ هَذَا النُّوعِ. إِذاً فالأدبيَّةُ الإسلاميَّةُ أُصِيبَتْ بِانْحِرَافٍ كَبِيرٍ، إِنَّ لَمْ نَقُلْ بأنَّ الحياةَ العامَّةَ خَرَجَتْ عَنْ قاعِدَتِها. وهذا ما يُعَلِّلُ تَفَشِّي المُجَوِّنِ في مَهْبطِ الوَحْيِ، وانتِشارِ الحياةِ اللَّاهِيَةِ المَفْتونَةِ هُنا وَهناكَ. وَلعلَّ في دَرَسِ حياةِ يَزِيدَ وَضُئُوفِ اللُّهُوِ الَّتِي دَخَلَتْها، وَهُوَ في بَيْتِ المُلْكِ أَوِ الخِلافَةِ - كما يَشَاوِرُونَ تَسْمِيَّتَهُ - ما يُوقِنُنا على مَدَى التَّجديدِ الجارِفِ والانْحِرَافِ الَّذِي شَمَلَ الدَّولَةَ الأمويَّةَ، أَوْ قامَ مَعها أَوَّلُ ما قامَتْ، إلى أَنَّ تَوَارَثَ في اسْتِخْفاءٍ أَبَدِيٍّ. وفي رِسالةِ القِيانِ لِلجَاحِظِ أَقاصيصُ كَثيرةٌ تُرينا أُلواناً مِنَ العَهِدِ الجَدِيدِ الَّذِي هُوَ انْقِلابٌ وَليسَ تَجديداً فَحَسْبُ، بِالمَعنى المَفهُومِ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ.

أمامَ هَذَا التَّجديدِ الَّذِي انْحَرَفَ بِالحياةِ عَنْ سُنَّتِها الخاصَّةِ الَّتِي وَضَعَ النَّبِيُّ (ص) طَريقَتَها وَتَبَتَّ في نُفوسِ أَفرادٍ كَثيرةٍ وَجماعاتٍ كَذَلِكَ، وَقَفَّ الحَسِينُ (ع) كَمُنْتَقِدٍ وَمُتَّهِمٍ. وَكانَ يَرْفَعُ الصَّوْتُ بِالانْتِقادِ الصَّريحِ في المَناسباتِ الَّتِي تَغْرِضُ. فَحيثما قُتِلَ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ كَتَبَ الحَسِينُ إلى مَعاوِيَةَ كِتاباً سَيَظَلُّ على التَّاريخِ سِجَلاً لَعَبَثِ السُّلْطَةِ وَانْتِقادِ الشَّعْبِ الَّذِي يَأْبى إِلَّا أَنْ تَكُونَ لَهُ الرِّقَابَةُ المَمْنُوحَةُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ.

وَمِنْ الخَيْرِ إِبْباتُ هَذَا الكِتابِ بِنَصِّهِ لَأَنَّهُ يَدُلُّنا على أَكْثَرِ الأَشْكالِ الَّتِي أَصْطَنَعَتْها السِّيَاسَةُ الأمويَّةُ طَريقَةً لَها. قالَ (١):

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتابُكَ تَذَكُّرُ فِيهِ أَنَّهُ آتَتْهَتْ إِلَيْكَ عَنِّي أُمُورٌ أَنْتَ لِي عَنُها

(١) راجع: الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج ١، ص ٢٨٤، وأخبار الرجال لأبي عمر الكشي؛ واختيار الرجال لأبي جعفر الطوسي، ج ٣٢.



راغب، وأنا بغيرها عندك جدير، وإن الحسنات لا يهدي لها ولا يسدُّ إليها إلا الله تعالى.  
أما ما ذكرت أنه رقي إليك عني، فإنه إنما رقاها إليك الملائقون المشاؤون بالتميمة  
المفرقون بين الجميع، وكذب الغاوون. ما أزدت لك حرباً ولا عليك خلافاً، وإني لأخشى  
الله في ترك ذلك منك، ومن الإغذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين: حزب الظلّة.

ألست القاتل حُجر بن عديّ أبا كندة وأصحابه المصلين العابدين، الذين كانوا  
ينكرون الظلم ويستفطعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يخافون في الله  
لومة لائم، ثم قتلهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الأيمان المغلظة والمواثيق المؤكدة  
جرأة على الله واستخفافاً بعهده؟

أولست قاتل عمرو بن الحميّ صاحب رسول الله (ص) العبد الصالح الذي أبلّثه  
العبادة فنحل جسمه وأصفر لونه. فقتلته بعدما أمّنته وأعطيتته من العهد ما لو فهمته العضم  
لنزّلت من رؤوس الجبال؟

أولست بمُدعي زياد بن سميّة المولود على فراش عبيد ثقيف؟ فرغمت أنه أبى إليك،  
وقد قال رسول الله (ص) «الولد للفراش وللعاهر الحجر» فتركت سنة رسول الله (ص)  
تعمداً وتبعته هواك بغير هدى من الله، ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم  
وأرجلهم ويشمل أغنيئهم ويصلبهم على جذوع النخل، كأنك لست من هذه الأمة وليسوا  
منك؟

أولست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه زياد إليك أنه على دين عليّ كرّم الله وجهه،  
فكتبت إليه أن أقتل كل من كان على دين عليّ فقتلهم ومثل بهم بأمرك، ودين عليّ هو  
دين أبي عمه (ص) الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف  
آبائك تجسّم الرحلتين، رحلة الشتاء والصيف؟

وقلت فيما قلت، أنظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد، وأتق شق عصا هذه الأمة وأن



تَرُدُّهُمْ إِلَى فِتْنَةٍ. وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِتْنَةً أَعْظَمَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ وَلَايَتِكَ عَلَيْهَا، وَلَا أَعْظَمَ نَظَرًا  
لِنَفْسِي وَلِدِينِي وَلَأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ (ص) أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أَجَاهِرَكَ، فَإِنْ فَعَلْتُ فَإِنَّهُ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ  
تَرَكْتُهُ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدِينِي وَأَسْأَلُهُ تَوْفِيقَهُ لِإِرْشَادِ أَمْرِي.

وَقُلْتُ فِيمَا قُلْتَ إِنِّي إِنْ أَنْكَرْتُكَ تُنْكِرُنِي، وَإِنْ أَكِدَّكَ تَكِدُنِي، فِكِدُنِي مَا بَدَا لَكَ فَإِنِّي  
أَزْجُو أَنْ لَا يَضُرَّنِي كَيْدُكَ وَأَنْ لَا يَكُونَ عَلَى أَحَدٍ أَضَرٌّ مِنْهُ عَلَى نَفْسِكَ، لِأَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ  
جَهْلَكَ وَتَحَرَّضْتَ عَلَى نَقْضِ عَهْدِكَ وَلَعْمَرِي مَا وَفَيْتَ بِشَرْطٍ، وَلَقَدْ نَقَضْتَ عَهْدَكَ بِقَتْلِ  
هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ بَعْدَ الصُّلْحِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَهْدِ وَالْمَوَائِقِ، فَقَتَلْتَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا  
قَاتِلُوا وَقَتَّلُوا. وَلَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَّا لِذِكْرِهِمْ فَضْلَنَا وَتَعْظِيمِهِمْ حَقًّا، مَخَافَةَ أَمْرِ لَعَلَّكَ لَوْ لَمْ  
تَقْتُلْهُمْ مِتُّ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلُوا، أَوْ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يُذَرَّكَوا، فَأَبَشِرْ يَا مُعَاوِيَةَ بِالْقِصَاصِ وَاسْتَيْقِنْ  
بِالْحِسَابِ، وَأَعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى كِتَابًا لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَلَيْسَ اللَّهُ بِنَاسٍ  
لَاخِذِكَ بِالظُّنَّةِ وَقَتْلِكَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى الثُّمِّ، وَنَفْيِكَ إِيَّاهُمْ مِنْ دُورِهِمْ إِلَى دَارِ الْغُرْبَةِ، وَأَخْذِكَ  
لِلنَّاسِ بِسَبِيْعَةِ آئِنِكَ الْغَلَامِ الْحَدِيثِ، يَشْرَبُ الشَّرَابَ وَيَلْعَبُ بِالْكِلاِبِ، مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ خَسِرْتَ  
نَفْسَكَ وَتَبَرَّتْ دِينَكَ وَغَشَشْتَ رَعِيَّتَكَ، وَسَمِعْتَ مَقَالَ السَّفِيهِ الْجَاهِلِ وَأَخْفَتِ الْوَرَعَ  
التَّقِيَّ وَالسَّلَامَ».

هذا الكتابُ سِجْلٌ لِلدِّمَاءِ الَّتِي سَفَكَهَا الْأُمَوِيُّونَ، وَهُوَ صَرْخَةٌ فِي وَجْهِ الْعَبَثِ  
وَالْتَّلَاعِبِ وَالتَّجَاوِزِ، كَمَا أَنَّهُ بَيَانٌ لِحَقُوقِ الشَّعْبِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ التَّغَاضِي عَنْهَا مَهْمَا كَلَّفَ  
الْأَمْرُ، وَأَيْضًا يَكْشِفُ لَنَا عَنْ جَانِبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي دَعَتْهُ لِلخُرُوجِ عَلَى يَزِيدَ فِيمَا بَعْدُ.

عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَبِحِ الْخُرُوجَ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفَاءً بِعَهْدِهِ، رُغْمَ نَقْضِ مُعَاوِيَةَ لِلْعَهْدِ، وَلَئِنَّهُ  
لَمْ يَسْتَهْتِرْ اسْتِهْتَارًا مَكْشُوفًا لَا يَثْرُكُ لِلنَّفْسِ عُذْرًا.

وَلِلَّهِ كَمْ هِيَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ رَقِيقَةٌ شَاعِرَةٌ «كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَيْسُوا مِنْكَ»،



هذه الكلمة المشتبعة بالشعور المختلبي الشريف، وقديماً قال الصابي: «إن الرجل من قوم ليست له أعصاب تقسو عليهم» وهو آتاهم من الحسين (ع) لمعاوية في وطيئته وأتيمائه، وأتخذ من الدماء الغزيرة المسفوكة عنواناً على ذلك.

وليس بعد هذا السجل الذي يلصقه الحسين بمعاوية، ما يخيلنا على الشك في النتيجة التي قرزناها في مقدمة سمو المعنى في سمو الذات، وهي: «إن نظام الحكم في عهد الملوك الأمويين لم يكن إلا ما نسميه في لغة العصر بنظام الأحكام العرفية، هذا النظام الذي يهدر الدماء ويلغي التعارف على المنطق القانوني ويهدد كل أمرىء في وجوده. وفي هذا العصر إذا كان يتخذ في ظروف استثنائية وحالات خاصة، يراذ بها الانقياد وإسلاس الأمر بالإرهاب وأستباحة البطش، فقد كان في العهد الأموي هو النظام السائد. وفي الحق أنه لا يمكننا أن نسمي هذا سلطة قضائية أبداً، بل نذكر بكل قوة أن يكون في العصر الأموي سلطة قضائية بالمعنى الصحيح، إلا في فترات لا تلبث حتى يكون التيار من ورائها طاعياً. وأكبر الشواهد على هذا أن الخليفة أو حكومته تأتي ما تهوى بدون أن تتخذ لمآتيها شكليات قانونية على الأقل، مما يشعر بأخترام السلطة للقانون. وإن من المهم أن نتحقق من عدم وجود السلطة القضائية في ذلك العهد، وأن نزن الإجراءات الحكومية جميعها بهذا الميزان الذي نعرفنا أكثر ما نحن في حاجة إلى معرفته بين يدي الدراسات الأموية»<sup>(٢)</sup>.

ويناصر هذه النتيجة السياستان التقليديتان اللتان أضطنعتهما الدولة الأموية في دورها: الدور الأول: يبتدىء بمعاوية الأول وينتهي بتنازل معاوية الثاني، وكانت سياسة هذا الدور التقليدية هي سياسة زياد بن أبيه الدموية.

الدور الثاني: يبتدىء بمروان، وبالأخرى بعبد الملك، وينتهي بمصرع مروان

(٢) راجع سمو المعنى في سمو الذات، ص ص ١٠ - ١١.



الجعدي. وكانت سياسة هذا الدور التقليدي هي سياسة الحجاج القائمة على الحديد والنار. وقد لفتنا إلى هذا التقسيم تضرّيح عمر بن عبد العزيز الذي ذكره القالي في الأمالي، وهو: «ماذا فعل الحجاج حتى يؤتم به، ذاك زياد الذي جمّعهم جمع الذر». وهاتان سياستان نعلم من أخبارهما شيئاً كثيراً، ولا أظنّ كائناً من كان يقول بأنّ القضاء كانت له حرمة فيهما.

عند قسطنطينية: ذكر ابن عساكر أنّ الحسين وفد على معاوية، وتوجّه غازياً إلى القسطنطينية في الجيش الذي كان أميره يزيد بن معاوية، وهي الغزوة الثانية.

هذا مثل يضيفه الحسين (ع) إلى جملة الأمثال الرفيعة التي ضربها في إنكار الذات وتناسي الحفيظة بسبيل الخدمة العامة، وبسبيل إيجاد آفاق جديدة للمبادئ. فالحسين يُدعى للجهاد ضدّ عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، وهي مغامرة جريئة وخطوة لها خطر فيجب، ولكن تحت قيادة من؟

تحت قيادة يزيد الذي كان يسمّع الحسين من أخباره المشتهرة شيئاً كثيراً، ولكن تعلم مبلّغ آسيتاره وتماجنه، نذكر أنّ زياد بن أبيه، نصّح لمعاوية، إذا شاء أن يستقيم له أمر ولده، وأن يضع حداً لمباذله وللشائعات المتزايدة من حوله، فليبعثه في الغزوات وليبعده عن حياة القصر المشبوبة بالفتون.

فحمله معاوية حملاً<sup>(٣)</sup> على الخروج في هذه الغزوة وأتزعّه آتزعاً من أحضان أعابيه المشتهرة، على أنّه لم يدع عن إلا بأنّ يجمع إليه في المعسكر ناس ممن يملؤون أذنيه

(٣) راجع: الكامل لابن الأثير، ج ٣، ص ١٩٧. فقد ذكر أنّ معاوية سيّر جيشاً إلى بلاد الروم فتشاقّل عنه يزيد فأصاب الناس في غزوتهم جوع ومرّض شديد فأنشأ يزيد يقول:

ما إن أبالي بما لاقى جموعهم  
بالفرقدونة من حمى ومن موم  
إذا أتكاك على الأنماط مؤثفقا  
بذير مران عندي أم كلثوم  
وهذا في الغزوة الأولى التي لم يذهب بها.



بصدى الشهوات، ويخلقون له جَوْاً ذا نسب قريب بالجَو الذي فارقه على كزّه.  
فبلاء الحسين (ع) وشهده عن قُرْب، وخبر ميوّله وأهواءه كما لو وُضِعَ عليها اليد،  
فأنكشف له من نزغات نفسه ونزعاتها ما جعله عنيفاً في الحملّة عليه لدى أيّة مُناسبة.  
تَكْبُرُ النَّفْسُ بالعقيدة حتّى لا ترى إلّا إيّاها...  
وتحوّل أحلام النفس وشهوات الغرائز في مذهب سُمُو العقيدة...  
فالحسين (ع) أحال غرائزه إلى ما يُساعد عمَل العقيدة فيه، فأنكر الذات ومضى إلى  
الجهاد...



\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_



## في عهد يزيد

**إمامة:** فكر معاوية بتقرير نظام ولاية العهد في الإسلام على سنة وراثية، ولا شك في أن هذا اقتباس من البيئة الجديدة التي تأثر بها إلى أبعد حد. غير أنه عمداً إلى تطبيق هذا النظام بضرب من المداورة والخديعة للرأي العام، وإليك ما جاء في النوادر<sup>(١)</sup> لأبي علي القالي، «عن جويرية بن أسماء قال: لما أراد معاوية البيعة ليزيد ولده، كتب إلى مروان، وهو عامله على المدينة، فقرأ كتابه وقال: إن أمير المؤمنين قد كبرت سنه ودق عظمه، وقد خاف أن يأتيه أمر الله تعالى فيدع الناس كالغنم لا راعي لها، وقد أحب أن يعلم علماً ويقيم إماماً. فقالوا: وفق الله أمير المؤمنين وسدده ليفعل.

فكتب بذلك إلى معاوية، فكتب إليه أن سم يزيد. قال: فقرأ الكتاب عليهم وسمى يزيد فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: كذبت والله يا مروان وكذبت معاوية معك. لا يكون ذلك، لا تحدثوا علينا سنة الروم، كلما مات هرقل قام مكانه هرقل. فقال مروان: إن هذا الذي قال لوالديه أف لكما أتعداني أن أخرج قال: فسمعت

(١) راجع: النوادر، ص ١٧٥ - ١٧٦.



عائشة ذلك فقالت: ألاّ بن الصّدّيق يقول هذا؟ آسثروني فسثروها فقالت: كذبت والله يا مروان إنّ ذلك لرجل معروف نسبه.

قال: فكثب بذلك مروان إلى معاوية فأقبل، فلما دنا من المدينة استقبله أهلها، فيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن عليّ وعبد الرحمن بن أبي بكر، فأقبل على عبد الرحمن فسبه وقال: لا مرحباً بك ولا أهلاً؛ فلما دخل الحسين عليه قال: لا مرحباً بك ولا أهلاً، بدنة يترفرق دمه والله مهريقه. فلما دخل ابن الزبير قال: لا مرحباً بك ولا أهلاً، صب ثلعة مذخل رأسه تحت ذنبه. فلما دخل عبد الله بن عمر قال: لا مرحباً بك ولا أهلاً وسبه، فقال: إني لست بأهل لهذه المقالة، قال: بلى ولما هو شر منها.

قال: فدخل معاوية المدينة وأقام بها، وخرج هؤلاء الرهط مغتمرين، فلما كان وقت الحج خرج معاوية حاجاً، فأقبل بعضهم على بعض، فقالوا: لعله قد ندم، فأقبلوا يستقبلونه. فلما دخل ابن عمر، قال: مرحباً بك وأهلاً يا ابن الفاروق، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة، وقال لابن أبي بكر: مرحباً بابن الصّدّيق هاتوا له دابة، وقال لابن الزبير: مرحباً بابن حوارى رسول الله هاتوا له دابة. وقال للحسين: مرحباً بابن رسول الله، هاتوا له دابة. وجعلت أطفاه تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ويخسئون إذنهم وشفاعتهم.

قال: ثم أرسل إليهم فقال بعضهم لبعض: من يكلمه؟ فأقبلوا على الحسين فأبى، فقالوا لابن الزبير: هات فانت صاحبنا. قال: على أن تعطوني عهد الله ألا أقول شيئاً إلا تابعتهموني عليه قالوا: نعم. فدخلوا عليه فدعاهم إلى بيعة يزيد، فسكتوا. فقال ابن الزبير: إحترو منا خضلة من ثلاث. قال: إنّ في ثلاث لمخرجاً. قال: إمّا أن تفعل كما فعل رسول الله (ص)، قال: ماذا فعل؟ قال: لم يستخلف أحداً. قال: وماذا؟ قال: أو تفعل كما فعل أبو بكر، قال: ماذا فعل؟ قال: نظرت إلى رجل من غرض قريش فولاؤه. قال: وماذا؟ قال: أو تفعل كما فعل عمر بن الخطاب قال: فعل ماذا؟ قال: جعلها شورى في ستة من قريش.



قال معاوية: ألا تسمعون أني قد عودتكم على نفسي عادة وإنني أكره أن أمتنعكموها قبل أن أُبين لكم، إن كُنت لا أزال أتكلم بالكلام فتعترضون عليّ فيه وتردون، وإنني قائم فقائل مقالة، فإياكم وأن تعترضوا حتى أتمها، فإن صدقت فعلي صدقي، وإن كذبت فعلي كذبي، والله لا ينطق أحد منكم في مقالتي إلا ضربت عنقه. ثم وكل بكل رجل من القوم رجلين يحفظانه لئلا يتكلم، وقام خطيباً فقال: إن عبد الله بن الزبير والحسين بن عليّ وعبد الرحمن بن أبي بكر قد بايعوا فبايعوا. فأنجفل الناس عليه يُبايعونه، حتى إذا فرغ من البيعة ركب نجائبه فرمى إلى الشام وتركهم. فأقبل الناس على الرهط يلومونهم، فقالوا: والله ما بايعنا، ولكن فعل بنا وفعل.

هذه وثيقة مهمة جداً يحتاج المؤرخ إلى تدقيقها ودزسيها درساً تحليلياً. وهو بعد هذا الدرس يصل إلى أن يزيد تمت بيئته بطريقة الإغفال، فهي غير صحيحة. ويزيد ليس إماماً يُعْتَبَرُ الخارج عليه باغياً، أضف إلى هذا صفاته الشخصية التي تقدح في إمامته باتفاق، ولا تصحح آتخاذه، مُراعى في ذلك الزمان والمكان والعرف.

فالحسين (ع) لم يخرج على إمام وإنما خرج على عاد فرض نفسه فرضاً أو فرضه أبوه بدون أزعواء، وهذا مأخذ نيابي وغلطة سياسية من معاوية تُصدّق رأينا السابق فيه، وأنه ضيق النظر. فيظام ولاية العهد جرّ على الدولة الولايات من وجه، وأعد المجتمع للثورة مرة أخرى إعداداً قوياً حينما عهد إلى يزيد.

والوثيقة تُعرفنا قوة الرأي العام في ذلك العهد، رُغم الضغط وتكميم الأفواه، وتثبت لنا أيضاً وجود أصول آتخائية مُقرّرة.

تاريخ مقارن: عرّفنا شيئاً كثيراً من عناصر تربية الحسين (ع) في الفصول المارة، وخرّجنا منها بنتائج هامة، وهي أنه كان مثالياً في العقيدة والأخلاق والسلوك. والآن نعرض لأثر التربية في يزيد.



أُنَبِّهَنَا الْعَلَامَةُ بِسْتَالُوزِي إِلَى دَوْرِ الْإِنْتِقَالِ أَوْ التَّحَوُّلِ الَّذِي يَغْرِضُ لِكُلِّ نَاشِئٍ، وَأَنَّ  
وَاجِبَ الْمُرَبِّي فِي هَذَا الدَّورِ عَظِيمٌ جَدًّا، فَإِذَا أَهْمِلَ النَّاشِئُ آنَدَكَ فِي نَفْسِهِ صَرْخُ الْفَضَائِلِ  
الْأُولَى وَالْمَبَادِيءِ الْأَدَبِيَّةِ الْمُكَتَسَبَةِ.

فَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ يَزِيدَ فِي هَذَا الدَّورِ كَانَ مُرْسَلِ الْعِنَانِ فِي بَنِي كَلْبٍ أَخْوَالِهِ، مَطِئْتُهُ  
الشَّبَابُ وَالْفَرَاغُ وَالْجِدَّةُ، وَصَلْنَا إِلَى السَّبَبِ الَّذِي جَعَلَ سُلُوكَهُ مُتَجَاوِزًا، عَلَى مَا جَاءَ فِي  
الْأَخْبَارِ. وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي تَدْقِيقِ الْمَوْضُوعِ ذِكْرُ نُتْفٍ مِمَّا حَدَّثَنَا التَّارِيخُ:

«ذَكَرُوا أَنَّ يَزِيدَ عُرِفَ بِشُرْبِ الْخَمْرِ وَاللَّعِبِ بِالْكِلَابِ وَالتَّهَاوُنِ بِالذِّينِ، وَيَلْهُو بِالنُّزْدِ  
وَيَتَصَيَّدُ بِالْفُهُودِ<sup>(٢)</sup>، وَمِنْ شِعْرِهِ:

أَقُولُ لِصَاحِبِ ضَمَّتِ الْكَأْسُ شَمْلَهُمْ

وَدَاعِي صَبَابَاتِ الْهَوَى يَثَرْتُمْ

خُذُوا بِنَصِيْبٍ مِنْ نَعِيمٍ وَلَذَّةٍ

فَكُلُّ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى يَتَصَرَّمُ<sup>(٣)</sup>

وَكَانَ «صَاحِبَ طَرَبٍ وَمُنَادِمَةٍ عَلَى الشَّرَابِ. جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى شَرَابِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ  
أَبْنُ زِيَادٍ بَعْدَ قَتْلِ الْحُسَيْنِ فَأَقْبَلَ عَلَى سَاقِيهِ فَقَالَ:

إِسْقِنِي شَرْبَةً تَرْوِي مُشَاشِي

ثُمَّ صِلْ فَأَسْقِي مِثْلَهَا أَبْنُ زِيَادٍ

(٢) راجع: حياة الحيوان للدميري في الكلام على الفهد، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٣) راجع: أخبار الدول لأحمد بن يوسف القرماني، ص ص ١٣٠ - ١٣١.



## صاحب السر والأمانة عندي

ولتشد يد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنين فغنوا. وغلب على أصحاب يزيد وعملاله ما كان يفعلُه من الفسوق. وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب<sup>(٤)</sup>.

وبالجملة<sup>(٥)</sup> «كان مؤفر الرغبة في اللهو والقنص والخمر والنساء وكراب الصيد حتى كان يلبسها الأساور من الذهب، والجلال المنسوجة منه، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه، وساس الدولة سياسة مشتقة من شهوات نفسه، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، ففي السنة الأولى قتل الحسين بن علي، وفي السنة الثانية نهب المدينة وأباحها ثلاثة أيام<sup>(٦)</sup> تم فيها قتل سبعماية من المهاجرين والأنصار، ولم يبق بذري بعد ذلك، وقتل عشرة آلاف من الموالي والعرب والتابعين، وأفتضاض ألف عذراء».

أضيف إلى هذا ما اجتمع له من الوراثة التاريخية وهي، على شتى أشكالها، تساعد على أن يكون كذلك بعيداً عن المثالية بكل معانيها.

وقد ذكرت في سمو المعنى في سمو الذات<sup>(٧)</sup> أن يزيد نشأ نشأة مسيحية تبعد كثيراً عن عرف الإسلام، وذلك لأن يزيد يزوج بالأمومة إلى بني كلب، هذه القبيلة التي كانت تدين بالمسيحية قبل الإسلام، ومن بديهيات علم الاجتماع أن أنسلاخ شعب كبير من عقائده يستغرق زمناً طويلاً، على أن طائفة من المؤرخين ترجح أن من أساتذته بعض

(٤) راجع: مروج الذهب للمسعودي، ج ٢، ص ٧٤.

(٥) راجع: الفخري لأبن طباطبا المعروف بأبن الطقطقي، ص ١٠٣.

(٦) راجع: أخبار الدول للقرماني، ص ١٣٠.

(٧) راجع: سمو المعنى في سمو الذات، ص ٦٦ - ٦٨.



نساطرة الشام من مشاركة النصارى. وإذا صَحَّ هذا نَعَثُ على سَبَبٍ خطيرٍ أيضاً يُساعِده على أن يَظْهَرَ بهيئة السَّاحِرِ مِنَ الأَوْضَاعِ الَّتِي يَأْخُذُ المَجْتَمَعُ بِهَا نَفْسَهُ. كما أَنَّ القَبْلِيَّةَ عَمِلَتْ فِيهِ عَمَلَهَا فَخَرَجَ جَافِيَا ذَا عَصَبِيَّةٍ قَاسِيَةٍ.

إِذَا فَأَحَدُهُمَا سَمَاءً، وَالْآخَرُ أَرْضٌ وَسَتَظَلُّ بَيْنَهُمَا هُوَّةٌ فَسِيحَةٌ تَبْدُو كَأَنَّهَا لَا زَهَائِيَّةً، فَخُرُوجُ الحُسَيْنِ (ع) كَانَ وَاجِباً دِينِيّاً وَاجْتِمَاعِيّاً وَبِزْمَانِيّاً - إِذَا صَحَّ هَذَا التَّعْبِيرُ - وَلَا حِظْنَا فِي الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ أَنَّهُ كَانَ عَلَى مَعَاوِيَةَ - وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ السُّلْطَانَيْنِ، الدِّينِيَّةَ وَالزَّمَنِيَّةَ، آتَدَمَجَتَا فِي الْإِسْلَامِ، وَلِلأَوَّلَى شُرُوطٌ<sup>(٨)</sup> تَتَعَلَّقُ بِالسُّلُوكِ - أَنْ يَفْصَلَ مَا بَيْنَ السُّلْطَانَيْنِ حَتَّى لَا يُعَرِّضَ الْمَجْتَمَعُ لِكُوَارِثٍ لَا تُحْصَى، بِنِسْبَةِ تَعْرِيزِ بَيْتِهِ لَهَا. وَهَذَا قِصْرُ نَظَرٍ بَلَا رَيْبٍ، وَغَلْطَةٌ سِيَاسِيَّةٌ حَفَرَتْ الْقَبْرَ مَعَ الْمَوْلُودِ.

---

(٨) وَلَعَلُّ أَوْفَى مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ قَوْلُ الحُسَيْنِ (ع) فِي كِتَابِهِ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ: «لَعَمْرِي مَا الْإِمَامُ إِلَّا الْعَامِلُ بِالْكِتَابِ وَالْآخِذُ بِالْقِسْطِ» وَالدَّائِنُ بِالْحَقِّ وَالْحَابِسُ نَفْسَهُ عَلَى ذَاتِ اللَّهِ». رَاجِعْ: تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ، ج ٦، ص ١٩٧.



## مصرع في سبيل الواجب

وازَنَ الحَسِينُ (ع) بَيْنَ الرُّغْبَةِ فِي البَقَاءِ، وَبَيْنَ الواجِبِ، فَرَأَى طَرِيقَ الواجِبِ أَفْسَحَ  
الطَّرِيقَيْنِ وَأَرْضَاهُمَا عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ...

وَأَشْرَفَ إِلَى الْأُفُقِ البَعِيدِ، فَرَأَى الْعَهْدَ الزَّاهِرَ يَأْخُذُ بِالتَّلَاشِي وَالانْحِدَارِ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ  
لِيَقْسَحَ الْمَجَالَ لِدُنْيَا جَدِيدَةٍ وَحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ، وَلَمْ يَبْقَ سِوَاهُ رَمْزاً لِلْمَاضِي الْمِثَالِيِّ الْأَقْدَسِ  
فَزَادَهُ اسْتِعَاراً...

هُم قِلَّةُ الْمُؤْمِنُونَ بِقَضِيَّتِهِ، وَلكِنَّ الْقِلَّةَ الْمُؤْمِنَةَ الَّتِي تُجَاهِدُ لِلَّهِ فِي سَبِيلِهِ كَثْرَةٌ،  
وَصَوْتُ الْحَقِّ فِي مُعْتَرَكِ الْبَاطِلِ أَرْفَعُ الصَّوْتَيْنِ...

أَطْلُ مِنْ عَلِيَاءِ مَكَّةَ الَّتِي هِيَ رَمْزُ السَّمَاءِ فِي الْأَرْضِ وَيَنْبُوغُ الْمُثُلِ فِي الْإِسْلَامِ، إِلَى  
الْحَيَاةِ<sup>(١)</sup> الْجَدِيدَةِ الَّتِي تَجِيشُ فِيهَا الشَّهَوَاتُ، فِي زُوبَعَةٍ يُدِيرُ رَحَاَهَا دَاعِيَةٌ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ

---

(١) تُشَبِّهُ هَذِهِ الْحَيَاةَ صُورَةً رَمْزِيَّةً عَنِ الْحَيَاةِ فِي رُبَى الْخُلْدِ فِي رَوَايَتِنَا الرَّمْزِيَّةِ الشَّعْرِيَّةِ: «رَحْلَةٌ إِلَى الْخُلْدِ» الَّتِي تُرْجَمُ قِسْماً كَبِيراً  
مِنْهَا إِلَى الْفَرَنْسِيَّةِ الْمُسْتَشْرِقِ إِمِيلَ دِرْمَنْجَم، فِي كِتَابِهِ الضَّخْمِ الْمَطْبُوعِ فِي بَارِيسَ سَنَةِ ١٩٥٠ بِعَنْوَانِ: *Les plus beaux textes arabes* ص ٤٣٣ - ٤٣٥.

ظُلْمَةٌ مَاذَتْ وَغَشَتْ ظُلْمَةٌ بَيْنَ مُوجِبِهَا شَقَاءَ الْأَبْرِيَاءِ



الذي لا تَطْلُع فيه الشمس، فرأى اكْفَهْراراً ورأى تَجْهَماً اسْتَفْزَاه...

\*

مَشَى إلى الفُوزِ أو إلى الموتِ، والموتُ نَصْرٌ سَلْبِيٌّ في الجهادِ، فَمَنْ جَاهَدَ وَمَاتَ  
فَقَدْ طَرَحَ إِهَابَ الأَرْضِ لِيَلْبِسَ حُلَّةَ السَّمَاءِ، حُلَّةَ الخلودِ الضَّافِيَةِ...

سَارَ بِقِلَّتِهِ الْمُؤْمِنَةِ، وَتَبَّتْ في معركةِ الحقِّ والباطلِ. وَجَعَلَ بَيْنَ نَاطِرِيهِ بُرْهَانَ رَبِّهِ:  
«وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» [البقرة ٢: ١٩٣].

والفِتْنَةُ في الآيةِ لَيْسَتْ بِمعْنَى الاختِلَافِ والتَنَازُعِ، بَلْ بِمعْنَى شُيُوعِ الفَسَادِ والفُسُوقِ،  
فَخُرُوجِ الحَسَنِ (ع) لَيْسَ فِتْنَةً - كَمَا اتَّهَمُوا - بَلْ لِمُكَافَحَةِ الفِتْنَةِ، فَأَيُّهُ مُحَاوَلَةٌ وَثُورَةٌ عَلَى  
الْفَسَادِ في سَبِيلِ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، نَحْنُ مَأْمُورُونَ بِهَا، فَالْحَسَنِ بِخُرُوجِهِ لَمْ يُجَاوِزْ  
بُرْهَانَ رَبِّهِ...

سَقَطَ الإمامُ صَريعاً بعدَ كِفَاحٍ رَهيبٍ<sup>(٢)</sup>، وَبَعْدَ أَنْ أُرْسِلَ كَلِمَةُ الحقِّ في القراءِ، هَذِهِ  
الكَلِمَةُ الَّتِي طَوَّقَتْ بِالْهَيَاكِلِ وَعَادَتْ بِتَشْيِيدِ الشُّهَدَاءِ...

\*

طَلَّتِ المَوْجَةُ تَحْدُو أُخْتَهَا	في ظلامِ الدُّجَنِ والدُّخِّ كِسَاءِ
يَطْلُعُ الشَّيْطَانُ مِنْ أَتْطَارِهَا	نَافِثاً في طَيِّهَا كُلَّ بَلَاءِ
وَتَرَى الجِنَّةَ فِيهَا مُرْحاً	مُشْرِخَ الجِنَّةِ أَضْدَاءَ الجِوَاءِ
مُرْدٌ جَازُوا عَلَى أَشْوَارِهَا	يُذِقُ كُلَّ كَخْلِبٍ مِنْ دِمَاءِ
يَزْفِرُ المَارِدُ مِنْهُمْ زَفْرَةً	كَهَزِيمِ الرُّعْدِ فِي الأَرْضِ القَرَاءِ
شَرُّ النَّارِ عَلَى أَنْفَوَاهِمِ	قِئَّةُ البُرْكَانِ عِنْدَ الطُّعْدَاءِ
جُمِعَتْ حُبْنَاءٌ وَلُؤْمَاءٌ وَرِبَاءٌ	وَقُصَارَى: كُلُّ مَا فِيهَا جُفَاءِ

(٢) مَا ذَهَبَتْ أَصْوَرُ المَضْرُوعِ إِلَّا فَاضَ قَلْبِي حَسْرَاتٍ وَذَهَبَتْ نَفْسِي شِعَاعاً.



دَمٌ جَرَى فِي الثَّرَابِ، لِيَتَبَثَّ أَشْوَكَاً فِي طَرِيقِ الظُّلَمِ وَالظَّالِمِينَ...  
رُوحٌ تَحَامَلَهُ الْهَوَاءُ، لِيَتَظَلَّ أَشْبَاحاً مُرِيبَةً وَطُيُوفاً بَغِيضَةً فِي أُعْيُنِ الْمُعْتَدِينَ...  
وَأَنَاتٌ زَاهِقَةٌ آخَتَوَاهَا الْغَيْبُ، لِيُرْسِلَهَا وَقْراً فِي آذَانِ الْمُسْتَبِيدِينَ...  
وَزَفَرَاتٌ طَوِيلَةٌ رَعَاهَا اللَّيْلُ، لِيَبْعَثَ بِهَا جَلْجَلَةً كَصَلْصَلَةِ الْأَجْرَاسِ يَفْجَأُ بِهَا  
الْمُسْتَقْوِينَ...

وَعُيُونٌ ظَلَّتْ مَفْتُوحَةً، تُسَجِّلُ الْخِيَانَةَ فِي وُجُوهِ الْخَائِنِينَ...  
وَلِحَاطٌ أَزُورَتْ جَاحِظَةً، لِيَتَبَقَى فِي هَيْكَلِ الْعَدْلِ نَكْرَاءٌ تُطَالَعُ بِهَا الْغَاوِينَ...  
وَدُمُوعٌ آغْتَصَرَهَا الْحَقُّ مِنَ الثَّرَابِ، لِيُرْسِلَهَا سَمُوماً تَلْفُحُ وَجُوهُ الْمُنْكَلِينَ...  
وَأَنْفَاسٌ آخَتَاطَتْهَا يَدُ السَّمَاءِ، لِتُذَكِّبَهَا نَاراً تَشْوِي بِهَا جُسُومَ الْمُسْتَخْفِيْنَ...  
لَا تُفَرِّقُكَ يَدُ ظَالِمَةٍ  
إِنَّ لِلْعَدْلِ وَرَاءَ الظُّلَمِ يَدَ

\*

إِسْتِفَاقَ الْحَسِينِ (ع) عَلَى صَوْتِ الضُّحَايَا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ...  
وَأَهَابَ بِهِ نِدَاءُ الدِّمِ الْمَطْلُولِ فِي مُنْعَرَجَاتِ الْأَدِيمِ...  
وَأَنْشَطَهُ أَنْطِلَاقُ الظُّلَمِ وَالْبَاطِلِ عَلَى مِثْلِ أَنْطِلَاقِ الظَّلِيمِ...  
وَمَضَى وَخَذَهُ يُجَاهِدُ أُمَّةً جَمَعَهَا الْعُدَاوَانُ، وَكَذَلِكَ تَكُونُ ذَاتِيَّةُ الْعَظِيمِ...  
فَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا.

\*

عَلَّمَنَا الْحَسِينُ (ع) كَيْفَ نَعْتَنِقُ الْمَبَادِيءَ وَكَيْفَ نَحْرُسُهَا.



وَعَلَّمَنَا كَيْفَ نُقَدِّسُ الْعَقِيدَةَ وَكَيْفَ نُدَافِعُ عَنْهَا...  
وَعَلَّمَنَا كَيْفَ نَمُوتُ كَمَا عَلَّمَنَا كَيْفَ نَحْيَا كِرَاماً بِهَا...  
وَرَسَمَ طَرِيقَ الْخُلُودِ الْأَدَبِيِّ وَالْقَوْمِيِّ مِنْ طَرِيقِهَا...  
فَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا...

\*

رَسَمَ الْحُسَيْنُ (ع) خُطَّتَهُ فِي كَلِمَاتٍ خَالِدَاتٍ،  
سَتَدُورُ مَعَ الْفُلُكِ ثُمَّ تَنْتَشِرُ فِيهِ لِتَبْقَى خُطَّةُ الْأَبْطَالِ الْمُخْلِصِينَ:  
«هَيْهَاتَ مِنَّا الدَّلَّةُ، يَا أَبَى اللَّهِ ذَلِكَ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ،  
وَحُجُورٌ طَابَتْ وَبُطُونَ طَهَّرَتْ وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ وَنُفُوسٌ أَبِيَّةٌ...  
أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَالْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ،  
فَلَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً، وَالْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا...».  
فَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا.











لفتة ذكرى

٥

الفاتحة

٧

مدخل تاريخي لعصر الراشدين  
ومخاض الثورة

٩

مقدمات

لا محيد عن درسها جيداً

لفهم التاريخ العربي

القبلية (٤٧) - التدين (٧١) - النظام العام (٩٩) - الحزبية (١١٩) - القديم والجديد (١٣٧) -  
الثورة (١٤٥)



### الحسين (ع) في عهد النبي (ص)

طفولة سامية (١٥٧) - اذان (١٦١) - درس وتحليل (١٦٥) - المَرْبُوت أو المَرْبُوبِي النَّبَوِي (١٦٩) -  
«سلام عليه يوم ولد» (١٧٩)

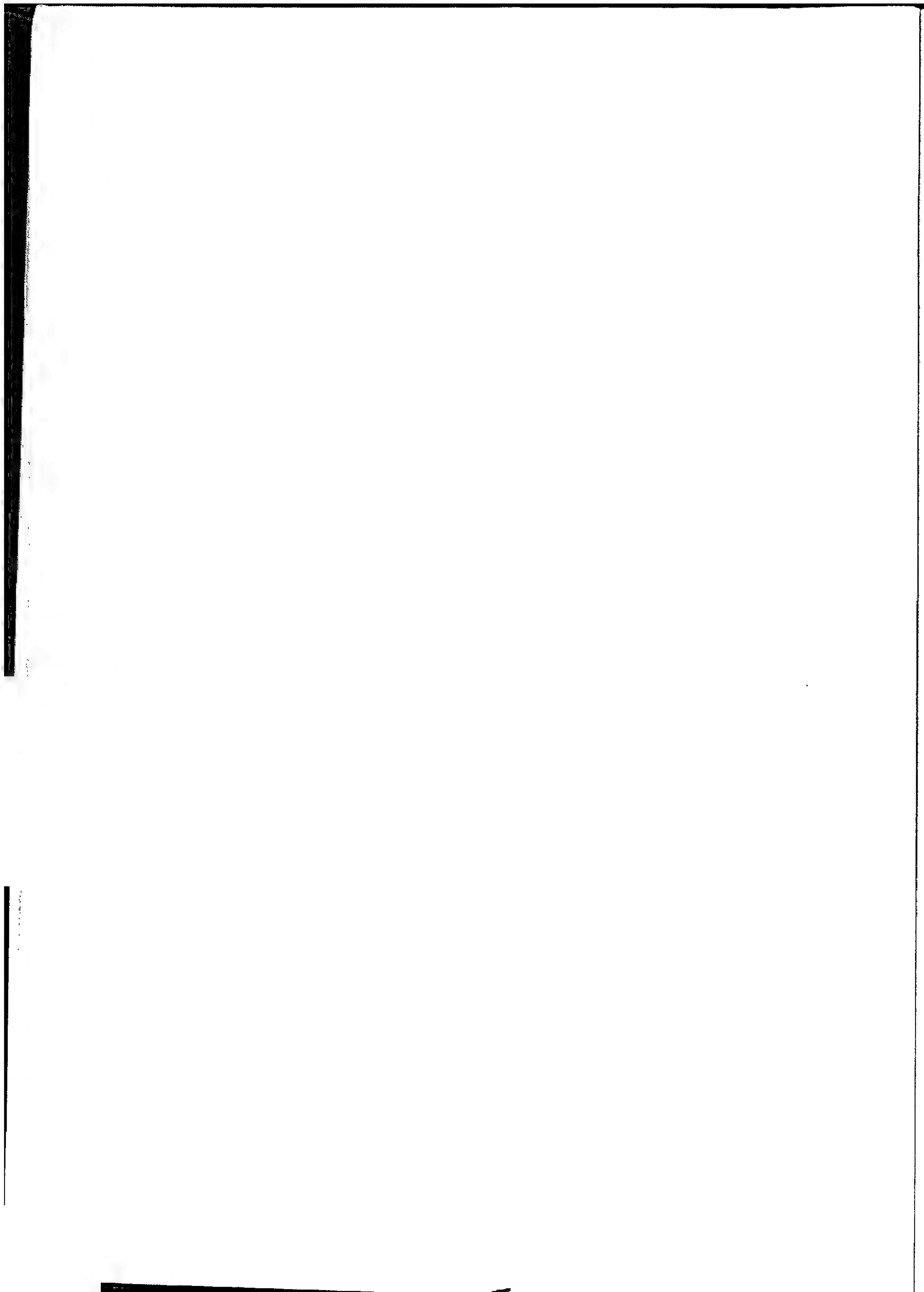
### الحسين (ع) في عهد الخلفاء الراشدين (ض)

في عهد أبي بكر (١٨٥) - في عهد عمر (١٩٣) - في عهد عثمان (١٩٩) - في عهد علي (٢١١) - فترة بين  
شككين من أشكال الحكم (٢٢١)

### الحسين (ع) في عهد الدولة الأموية

إنقلاب (٢٢٩) - في عهد يزيد (٢٣٧) - مصرع في سبيل الواجب (٢٤٣)







\_\_\_\_\_



في منشورات دار الجديد  
من مؤلفات  
الشيخ عبدالله العلايلي

□ أين الخطأ؟ - تصحيح مفاهيم ونظرة تجديد.

طبعة ثانية مزيّدة ومُنقّحة، ١٩٩٢، ١٤٤ صفحة، ١٧ x ٢٤ سم.

□ مَثَلُهُنَّ الْأَعْلَى - السيدة خديجة.

طبعة ثانية مُنقّحة، ١٩٩٢، ١٢٨ صفحة، ١٤,٥ x ٢١,٥ سم.

□ من أيام النبوة - مشاهد وقصص.

طبعة ثانية مُنقّحة، ١٩٩٣، ٢٦٤ صفحة، ١٧ x ٢٤ سم.

□ مُقَدِّمَات - لا محيد عن درسها جيداً - لفهم التاريخ العربي، (مستل من: تاريخ

الحسين - نقد وتحليل).

طبعة أولى، ١٩٩٤، ١٤٤ صفحة، ١٤,٥ x ٢١,٥ سم.



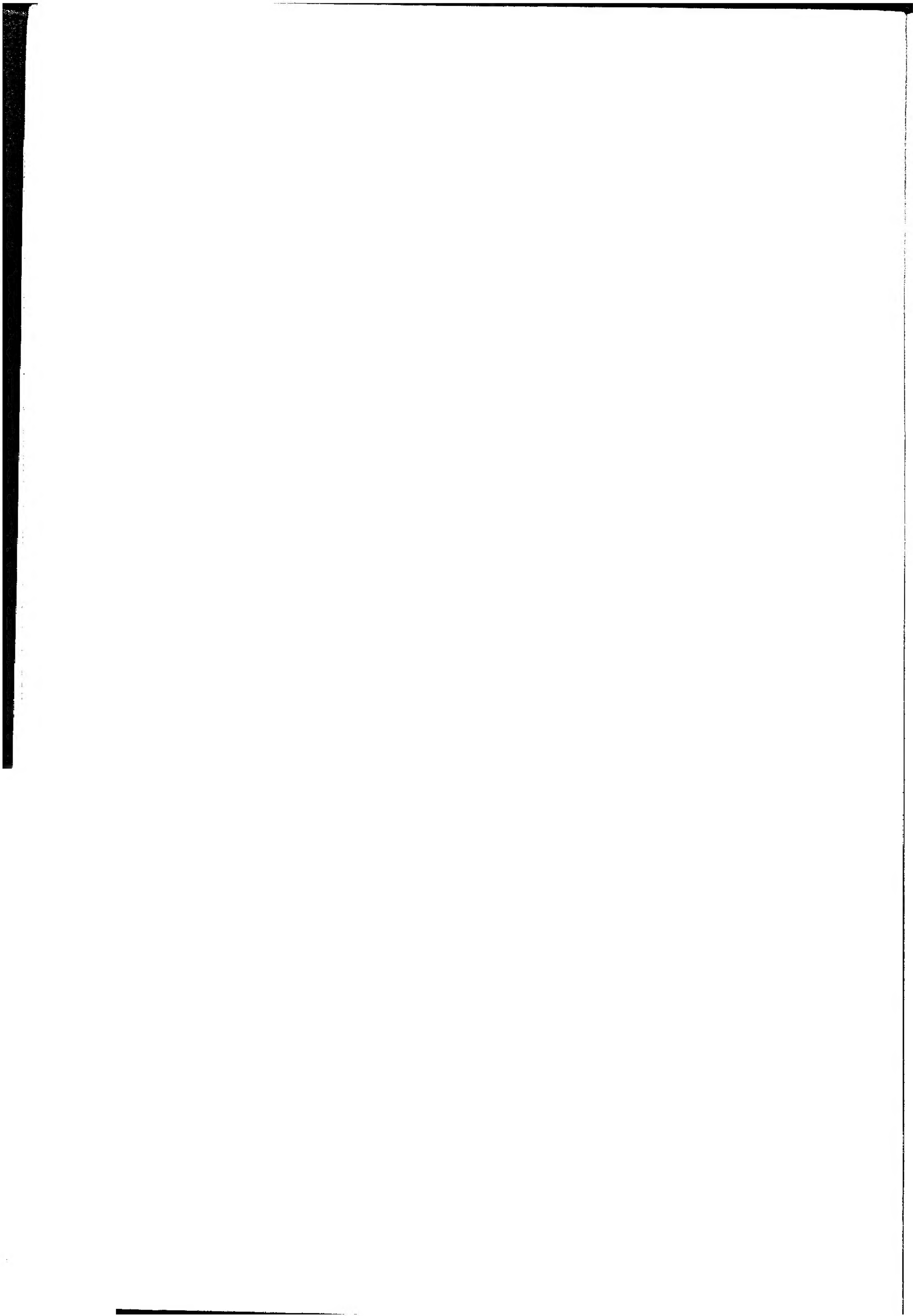


\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_



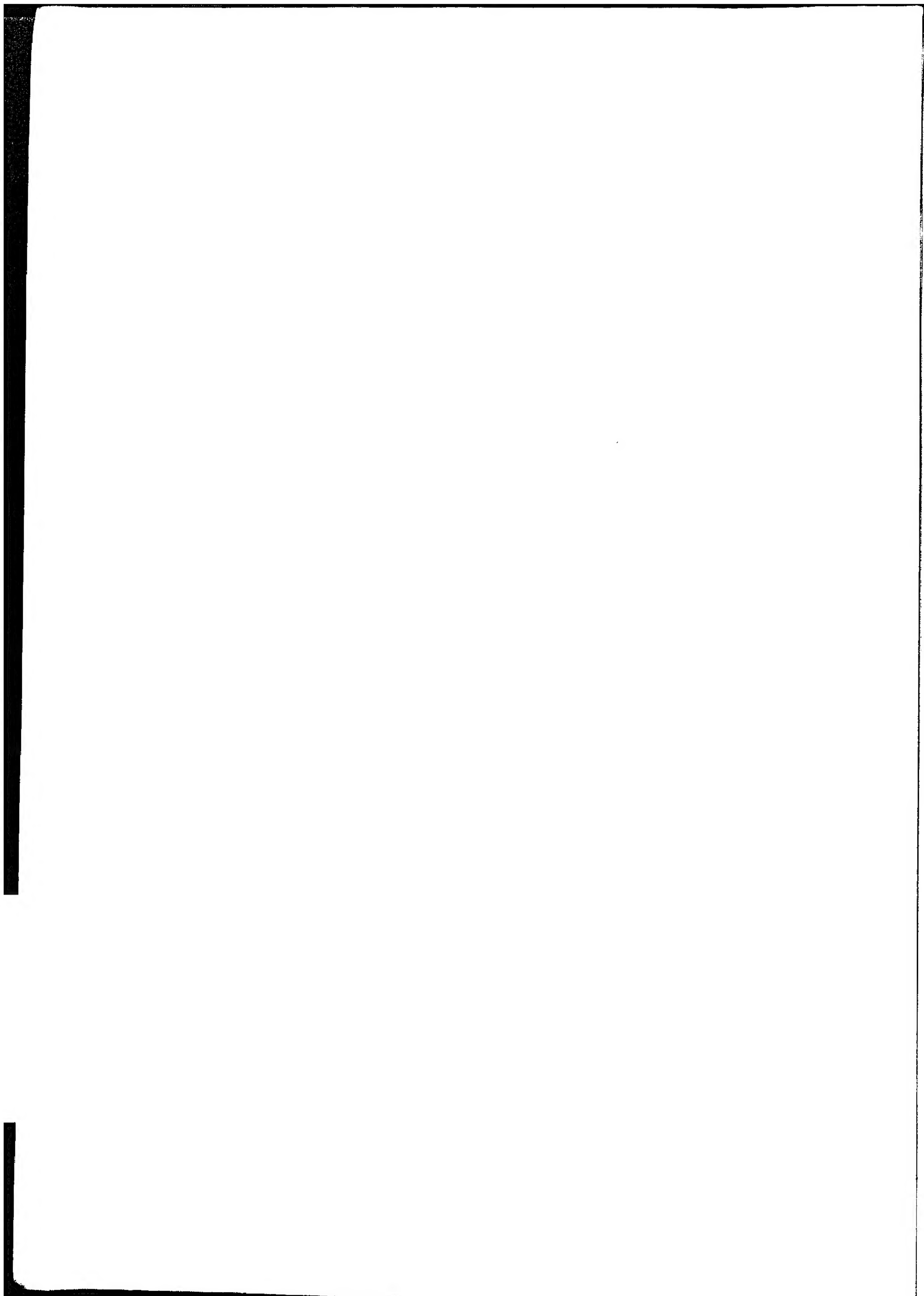




\_\_\_\_\_

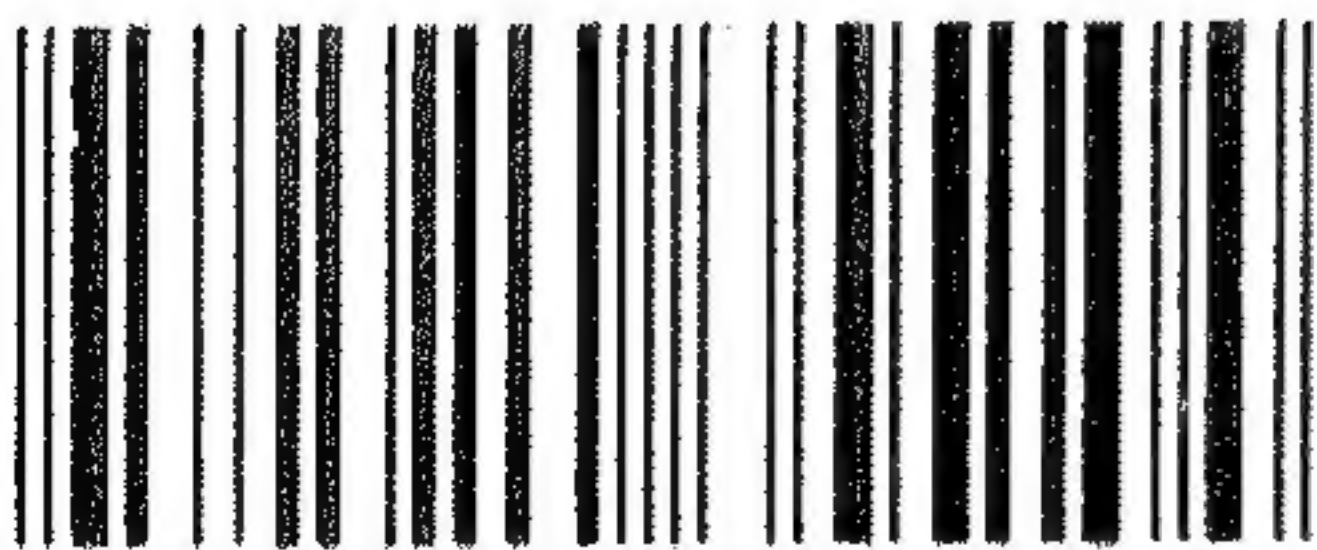
\_\_\_\_\_







هذا الكتاب ليس ترجمة حياة، بل هو تاريخ  
حياة، والغالب في الأولى أن تكون شخصية، أي  
مقصورة على الشخص وما يتصل به من قريب،  
وقلما تجاوز خطوط حياته إلا بمقدار، بينما  
الثانية تتسع لكل ما تتسع له كلمة التاريخ.



9 782910355104

ISBN: 2-910355-10-1